



24.7.2015



# طارق بکاري نوميديا

رواية

دار الآداب

طارق بكار

# نوميديا

رواية



دار الآداب - بيروت

نومیدیا

نوميديا

طارق بكاري / روائي مغربي

الطبعة الأولى عام 2015

ISBN 978-9953-89-481-2

حقوق الطبع محفوظة

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الآداب للنشر والتوزيع



ساقية الجنزير - بناية بيهم

ص.ب. 4123 - 11

بيروت - لبنان

هاتف: 861633 (01) - 861632 (03)

فاكس: 009611861633

e-mail: rana@daraladab.com

info@daraladab.com



/Dar.Al.Adaab



@DarAlAdab



daraladab.com

Twitter: @ketab\_n

«لكن ماذا عن نوميديا؟»

كان هذا السؤال يحفرُ خنادق في القلب.. حين ناولني الطبيب النفسي ذلك المحلول، قال لي إنّ ما في تلك الزجاجة كفيلاً بتحريض ذكرياته عليه إلى درجة تجعله يبوح بكلّ شيء، وأضاف كذلك أنّ الأمر سيكون تحت تأثير هلوسات كثيرة! ترى هل كانت نوميديا إحدى هلوساته أم أنّها كانت حقيقة من لحم ودم؟ لستُ أدري. كلّ ما أعرفه، أنّ مراد كان مفتتناً بها إلى درجة أنّه كان يهذي باسمها كلّما نام، بل وأثناء يقظته، كان لا ينفكُ يصرخ باسمها. كان عاشقاً حقيقياً، لذلك لم يكن أمراً ذا قيمة إن كانت محض وهم أو كانت حقيقة، لكنني أعتقد في المقابل أنّ هذا الحبّ الطارئ، الذي ربّما افتعله لاوعيه، كان إيجابياً بالنسبة له بالقدر الذي كان فيه سلبياً بالنسبة لي.. نوميديا كانت أملاً كاذباً منحه تعلقاً مؤقتاً بالحياة، لكنّه أمل حاسمٌ في تلك المرحلة، إذ لولاه لانكسر مراد ونزف حياته كلّها أمامي.. وقتها، لم يكن الكمّ الهائل من الأوراق التي جمعتها والتي

تعلّق طبعًا به، قلتُ، لم تكن أمرًا ذا شأن مضاهاة بكلمة أو كلمتين يعلّق بهما مراد عن حياته.. لو فعل، كنتُ على الأقلّ سأخرج بثلاث انتصار وثلثي خيبة، لكنّ نوميديا هذه كانت ملاك الرحمة. وإذا كان غموض مراد هو الذي يمنحه قوة تُخضع جميع النساء، فإنّ ما يفسّر ضعفه وانخذه أُمَام نوميديا هو أمر واحد، أنّه اعترف لها بكلّ شيء.

نوميديا، هذا الطيف الساحر هو الرابع الأكبر! فما كانت محاولاتي لاستدراجه إلى البوح، ولا تلك الحقن التي زرعت الجنون في دمه، سوى إعداد لانتصار سأقدّمه لنوميديا على طبق من ذهب. نعم صار لزامًا أن أعترف أنّ هذه الحسناء، التي أنجبها خياله أو التقاها فعلاً، هزمتني، لا لأنها أجمل أو أذكى بل لأنها جاءت في الوقت المناسب، في الوقت الذي هيأتُ مراد للضعف الشامل، ومن دون أن تترك لي أية فرصة للإجهاز عليه، فعلتُ ذلك دون تردّد.

كانت نوميديا غيمة كاذبة، لكنّها مهما كانت مزيفة، فقد أنقذته منّي وأفقدتني في المقابل كلّ شيء. نوميديا سراب مراد، وقد لحق بها وطاردها منتعلاً قلبه، وفي كلّ خطوة يتقدّمها صوبها، كانت تبتعد عنه وكان يبتعد عنّي. وفي اللحظة التي اعتقدتُ أنّني سأنوّج كلّ تلك العذابات بضربة حاسمة، انبلجتُ نوميديا من أشجار هذه القرية الغربية أو من جبالها أو من خياله لتخرّب كلّ شيء. لكن، وبعد ما مرّ، ما مرّ من السنين وتغيّرتُ أشياء كثيرة، لو تصادف وصادفتُ نوميديا - وهذا ضرب من المستحيل طبعًا - فلا شكّ أنّني سأشكرها، لأنها تقاسمتْ معي مسؤوليّة قتل مراد..»

**عن مسودّات رواية «مراد الوعل» لجوليا (ك)**

# الفصل الأوّل

## مرايا الذاكرة



«المغزى من هذا كله أنه لا أحد اليوم من الرجال الأذكياء يريد أن يكتب عن نفسه جملة واحدة صادقة، اللهم إلا إذا كان من صنف الجسورين المجانين»

### نيتشه

«وسألتُ الربَّ دون خوف . . . عمّا إذا كان يعتقد أنّ البشر مصنوعون من حديد ليتحمّلوا كلّ هذه الآلام والعذابات»

غ. غ. ماركيز

«أشْمُكِ في عناقِ الأخريات . . .  
كأنّكِ ما رحلتِ  
تركتِ العطرَ، عطرِكِ في حياتي .

أشْمُكَ فِي خِيَانَاتِي لَكَ  
فَتَزَكُمْنِي الرِّوَاءُ  
أَشْمُ - إِذَا عَانَقْتُ غَيْرَكَ - عَطْرَكَ  
فَأَوْقُنْ أَنَّنِي انْخَذَلْتُ  
وَأَنْ غَرَامِكَ رَابِحٌ»

مراد الوعل

## (١)

كنت أعلم أنني أقترف بعودتي المجنونة إلى هذه القرية خطأ فادحاً، وأنّ هذه العودة لا بدّ أن تحرّك بسخط كلّ ذكرياتي الراسبة. أعود إلى إغرم مضرجاً بأوجاع جديدة، أعود لأوقظ تعباً قد خلته إلى وقت قريب قد انطفأ نهائياً... في إغرم - هذه القرية الغريبة والجميلة - سيشتعل فتيل الذاكرة، وسيحترق ذلك الحبل النحيل شيئاً فشيئاً، وستنتهي ناره إلى الحزام الناسف الذي يطوّق القلب المتعب.

ها أنذا أعود إليك يا إغرم، وأدفع أمامي كرسيّاً متحرّكاً يقلُّ قلبي المعطوب. لم أكبر كثيراً، لا يزال أوداد الطفل داخلي. فلا تأبهي بجسدي، لأنّه مثل الزهر ومثل الشجر موقّت وقابل للانجراف. أعود إليك سيّدي، لا لأبحث في حفريات طفولتي عن شيء ذي معنى، ولا لأستنطق خيانات المكان، كلّ ما في الأمر أنني عدتُ إليك بعد نصيحة الطبيب النفسي، عدتُ لأرتاح من قائمة أوجاعي الثقيلة، وبالطبع عدتُ لأنني تهوّرت ذات مساء وبحثّ في شبكة الإنترنت عن قرية معلّقة بين الجبال اسمها إغرم، فلم تطالعني سوى صورة فندق جميل

بني حديثاً فيك، وكان معروضاً للبيع في مزاد علني...

هرول عقلي يومها بعيداً عني ولفّ نفسه في ملاءة ونام، وجرتني قلبي من أذنيّ إلى هنا، حاولت في أوّل قدوم لي بعد ربح من الزمن أن أغضّ الطرف عن مفاتن هذه القرية وأنا أنزلُ بحذر نحوها؛ زرتُ الفندق وتفحصتُه بشغفٍ، وهربت إلى مدينة ميدلت المجاورة حيثُ سيُقام المزاد ممثلاً بعواطف غامضة انتشرت داخلي خلصة وأنا أحاول لجم عينيّ اللتين كانتا تحاولان ابتلاع إغرم دفعة واحدة. في المزاد، أحبطتُ كثيراً من المؤامرات التي كانت تُحبك في الخفاء، ورفعتُ السعر إلى سقف لم يملك أمامه خصومي سوى الاستسلام. بالطبع لم أكن أرى في الفندق مشروعاً استثمارياً بقدر ما اعتبرته حبلاً سرّياً يُعيدني إلى أغرم، وحرّبا خاسرة أمام الذاكرة وخطوة أخرى متهوّرة قد تقتادني إلى نهاية أفضل.

إغرم، يا جرحي الأوّل...

لم أعد إليك لأسأل عن سيّدة تقيأتني ذات حزنٍ هنا فوق سفوحك وانصرفتُ لشأنها، فقد سألتك مراراً وتمسّكت كطفل بثوب حقولك واستجديتك الحقيقة، لكنك كنت تهريين أو تهريين كلّما ألح عليّ السؤال. ها هو أوداد يعود إلى حزنه الأوّل وشقائه الأوّل، لم أبرأ منك أيتها الغانية التي تستيقظ في هذه اللحظات، وها أنا أواجه عنف جمالك الصباحي من شرفة غرفتي في فندق أصبح فندقني. تستيقظين أيتها البهية كما كنت تفعلين منذ رمتك أوجاع الكادحين البسطاء بين هذه الجبال. لم تتغيّر صباحاتك كثيراً، ولولا خيوط الكهرباء المترامية كالتجاعيد فوق حسيك لقلتُ إنّ مجرى الزمان يتحرّك بعيداً عنك، الأمكنة الجميلة التي تسكننا لا تشيخ ولا تخربها يد الزمان اليابسة، على الأقلّ في أعين من ابتلوا بعشقها، تظلّ شابّة..

وحين يموتون تموت معهم .

أخذت آخر نفس من سيجارة الصباح بنهم، وقذفت بعقبها فهوى بعيداً، راقبت الرياح وهي تمتصه بشراهة إلى أن انطفأ. سجائر الصباح شهية وقوية، وغنية أيضاً بلعنة السيجارة الأولى، تقتحم الشرايين وكأنها تفعل ذلك لأول مرة، وتنفض ما يخلفه النوم في الجسد من خمول.

مر أكثر من ربع قرن على فراقنا أنا وأنت أيتها القرية المعجزة. أتذكرين ذلك الصباح الصيفي الذي يشبه إلى حد بعيد هذا الصباح، حين جرتني بعيداً عنك يد غريبة وصرة ملابسي المترهلة ترقص بين يدي؟ غادرتك يومها داعم العينين إلى قدري المجهول.. فلم تكتف المدينة بتغيير اسمي الجميل الذي أطلقه عليّ أهلك (أوداد)، أي الوعل باللغة الأمازيغية، بل خرّبت بمشرطها أوصالي، فصرث مراد، وألصقت بي كنية الرجل الذي تبتاني. لم أفهم لماذا ألح عليّ د. بنهاشم طبيب النفس أن أعود إليك قائلاً:

— عُد إليها ولن تعود إليّ...

خرجت يومها من عيادته، وأنا أعبت بورقة الدواء التي ناولني إيّاها إلى أن تركتها تفرّ من بين يدي وتختفي. أحبذ الموت على العيش متأبطاً علبة أدوية. ولم أفهم لماذا ألح بأن أعود إلى إغرم، وهو أدرى بأحزان طفولتي وأيّ حزن ستسثيره هذه المغامرة... وكنت مطالباً بانتظار مقدم الصيف وانقضاء الموسم الجامعي لأعانق كفّ جوليا، وأفرّ بها إلى هنا. عندما اشتبكنا في عناق طويل داخل المطار، همست في أذني قائلة: إلى أين تأخذني يا حبيبي... لم أجب، كنت مأخوذاً بحرارة جسدها، ورائحة العطر الباريسي المجنون تخرقني

بسهولة، لا لشيء، فقط لأنها رائحة العطر المفضل لخولة. تمسكت بعناقها يومئذ كما تمسك امرأة بقدمي زوجها، بعد أن تلبست بخيانة كنت أشمّ فيها خولة، وحزنت بعدها لفترة طويلة على هذه الصدف البغيضة... كنت أعلم أنّ اللعنة تبتدئ بصدف بسيطة كهذه وتتناسل خلسة، وتأكل من حياتنا إلى أن نتركنا على شفير الهاوية.

تسلّلتُ إلى الغرفة على رؤوس أصابع قدمي كي لا أزعج نوم جوليا، تطلّعت إليها، كانت غارقة في فوضى السرير، وقد أخدمت وجهها الجميل في الوسادة، اقتربتُ من السرير ورددت الملاءة على ظهرها العاري المشعّ، وغازلت برؤوس أصابعي سنابل شعرها الذهبية... التقيت بها أوّل مرّة في الجامعة صدف. قالت يومها إنّها تعكف على إنجاز بحث سوسولوجي حول مفهوم الجنس في الشرق، رافقتها إلى المكتبة، وحاولت أن أترجم لها بعض الكتابات العربيّة التي تناولت الموضوع... وفي إحدى الليالي الماطرة، سهرنا معاً في غرفتها بالفندق نترجم بعض المقاطع الأدبيّة، غرقنا معاً في أحاديث لا شواطئ لها، وكنت أراقبها وهي تُغرق قلبها في كأس النبيذ... ورغم أنّ قلبي كان مكتظّاً بعشق خولة، إلّا أنّني انزلتُ أمام إغراءات جوليا المتكرّرة إلى سريرها.

كانت تلك الليلة خطأ فادحاً، لم أكن أملك حياله سوى التماذي فيه إلى منتهاه. رحلت بعد أن تواعدنا على اللقاء كلّ صيف، وكنت أدرك جيّداً أنّ في الأمر خيانة بشعة لخولة، لكنّ لعنة ما كانت تلحّ عليّ أن أقتفي هذا الجنون إلى آخره. وفي سفري الأخير إليها إلى باريس، لم أكن أعلم أنّني سأعود لأجد أحضان الجنون مشرّعة، لم أكن أدري أنّ مكوثي في عيادة د. بنهاشم سيطول بعد أن مزّقني خبر انتحار خولة. تغيّبت طويلاً وتركتها في مهبّ الموت. أبشع ما في

الأمر أنني لم أكن أحسّ أنني أخونها مع جوليا؛ وحتى في لحظات الذروة العاطفية والجنسية كذلك، لم أكن أرى أمامي سوى خولة. كنت أعلم جيدًا أنّ لوثة خبيثة وشيطانًا ذا قرون وعُليّة يعيشان داخلي.

تحركت جيئة وذهابًا في الغرفة فاستيقظت جوليا... راقبت جمالها العنيف وهو يصحو، وأطلت التأمل في عريها وهي تفرّ من السرير إلى الملابس التي تطايرت أمس في كلّ صوب ولم تقاوم نهم الجسد، قالت:

- صباح الخير حبيبي، لا شك أنك استيقظت باكراً؟

اقتربت نحوها خطوات، قائلاً:

- صباح الورد يا شقراي... نعم استيقظت باكراً.

وبحلفت طويلاً في أزرق عينيها... رأيت بحوراً منسية، رأيت خولة حبلً تطفو حيناً ويطفئها العباب.

ولم أكن سعيداً رغم كلّ شيء، ففي قمة الفرح والوجع الجميل، كانت خولة تلتصق بخروم الذاكرة وتطفو، فلا أرى سوى تعبتي وجمالها الميت. أه ما جدوى حياتك يا مراد، وأنت منذ البدايات تركض في حلقة مفرغة وتسبح ضدّ التيار!

انزلقنا بعد ذلك أنا وجوليا إلى مقهى الفندق، كان مكتظاً بالعديد من الأجانب والقليل من المغاربة... لكنهم كلّهم لا يرون في إغرم أبعد من أنوفهم، هذه القرية لن يفهم سحرها وجمالها إلّا من اخترقت قلبه حِقن أفيونها. جلسنا إلى طاولة، ناديت حميد، فهرول إليّ:

- صباح الخير سي مراد، أتأمر بشيء؟

- صباح الخير. من فضلك، أريد فطوراً أمازيغياً أصيلاً.

- حاضر .

وانسحب بسرعة . حميد هذا ابن إغرم، وهو من اخترت كمسير  
لأعمال الفندق والمقهى والمطعم . داهمني سؤال جوليا :

- لماذا هذه القرية دون غيرها؟

(تسألني لماذا . أواه! فلتسألني تلك التي رمتني رضيعًا هنا كما  
يرمي الإنسان قشرة موز، أو أي شيء غير ذي قيمة، أو إن شئت  
فلتسألني هذه القرية، فهي نفسها قد تخبرك القليل عن الليالي التي  
نزفتها في صمت، وأنا أجابه أعزل أشواك الأسئلة...)، قلت :

- لأنّ هذه القرية جميلة من جهة وسترين .. ولأنّ هذا الفندق  
أصبح فندققي .

وفغرت فاها غير مصدّقة، وصاحت :

- أفعلاً يا حبيبي؟ ومنذ متى أصبحت مستثمراً؟

وضحكنا معاً بجنون، وتواعدنا معاً في قمة الفرح العابر على  
الحبّ الأبدي، وكنت أضحك في سرّي على هذا النفاق العاطفي الذي  
لم أتخلّص منه رغم أنّه كلّفني غالباً . كثيراً ما نعد بأشياء أكبر متاً،  
ونحن على ثقة أنّنا لن نكون في مستوى وعودنا، لكننا نورّط أنفسنا في  
مستنقعها فقط ليكون للحظة الوعد طعمٌ آخر . وعود العشاق تماماً  
كورودهم سرعان ما تذبل .

لما عاد حميد يحمل الفطور، كنت أشعل سيجارة من أخرى،  
وأفرّ من الذكريات التي تنبلج من روائح الرغبة الأمازيغي، والإبريق  
وهو يطاول السماء ويهوي شايه في نقطة ثابتة من الكأس، فتكبر  
عمامته البيضاء كلّما ابتعد الإبريق وحلّق عالياً . . كانت أشياء بسيطة

كهذه كفيلة بأن تؤكّد لي أنّ العودة إلى إغرم مغامرة لم أروّض قلبي  
بعد على التلاؤم وشروطها .

- حبيبتى .. هلاّ أسرعت في أكلك قليلاً! أريد أن أريك إغرم؟

- نعم .

وكنت أراقب أساريها وهي تنطلق بين الفينة والأخرى كأنّها  
تضحك داخلها، وأسفت لأنّي أزعجت فرحها هذا . حين أنهت  
فطورها، أخذتها من يدها وانسحبنا مسرعين . في اللحظة التي داهمني  
فيها صباح إغرم، أحسست كأنني أسير فوق الهاوية على خيط أرقّ من  
شعرة وأمضى من سيف قاطع .

القرية هناك ممدّدة كعنقود من العنب يستريح فوق الهضبة . في  
الوثائق الرسميّة يسمّونها (قصر آند)، لكن كلّ المغرمين بها لا يعرفون  
لها اسمًا غير إغرم . ما أجمل تلك المنازل الصفراء الواقفة والمتعاقبة  
التي تسيل من أعلى الهضبة إلى أسفلها في فوضى لا يفهم نظامها إلّا  
أهلها!

مررنا بين حقول الذرة الواقفة بكبرياءٍ كأوجاعي، وتطلّعنا إلى  
الفلاحين وهم يكدحون ويرفعون معاولهم حتى تعانق السماء، ثم  
يهوون بها فتبقر بطن الأرض بطريقة فيها انتقام من شيء ما لا أعرفه  
ولا أظنّ أنّهم يعرفونه . وحزّ في قلبي أنّهم حين يتكثّون على معاولهم  
ويتطلّعون إلينا بفضول، لم يعرفوني أبدًا ولم يجدوا في ملامحي شيئًا  
منهم . أضاعوني في زحمة أيامهم، هكذا مرّ الغريب من هنا يومًا،  
وهكذا يعود الغريب . حين تمسّكت جوليا بذراعي، انتبهت إلى  
وجودها بهذه الطريقة . أنقذتني - ولو بشكل مؤقت - من وجع استيقظ  
بسرعة .

- مراد.. أرجوك أخبرني بسرعة ما سرّ هذا المكان، لا شك أنك لم تختره اعتباطاً؟

أحسست أنها تحاول جرّي إلى دوامة لن أخرج منها إلا دامع القلب. جوليا لا تعرف أنها تتمسك بخبرة من الأحزان، برجل من حبر ووجع. وفي قمة ذهولي وانبهاري بالمكان الذي ينفض عنه غبار ما يقارب الثلاثة عقود، تذكرت نصيحة الطبيب النفسي:

حاول أن تقترب من الآخرين ولو قليلاً، ليسوا جحيماً كما تعتقد. احكّ لهم ما استطعت عن محنتك، إن لم تستطع فابتدع شخصاً آخر. سمّه ما شئت واحكّ عنه. إنه أنت. إنها صورتك التي يجب أن تتخلص منها.

وضغطت جوليا على ذراعي لتذكّرني أنها تنتظر ردّاً.. لم أرّتب أفكارى كما يجب، فتهوّرت، نعم تهوّرت، وقلت لها:

- لأنّه المكان الذي وُلدت وترعرعت فيه.

فاستوقفتني، وقد ارتسمت على ملامحها كلّ علامات الاستغراب، كانت متألّقة في أوج زينتها، وكان أزرق عينيها يسافر بي:

- إذن، أنت من هنا.. هذا جميل، رائع!

وعرجنا إلى القرية. في الطريق سألتني كثيراً، ولأنّ أكثر الحماقات تأتي عن هفوة أو زلّة عابرة، فقد ترتّب عن قولي ذلك أنّي صرت أبني حياة أخرى، غير التي عشت ربّما كان من المحتمل أن أعيشها. امتلأت كذباً، واخترت لي مثلاً والدين ومنزلاً وكلب رعي وأشياء أخرى. وعند مدخل القرية، لست أدري أيّ لعنة ألحّت عليّ أن أقول لجوليا:

- سأحكي لك فيما بعد عن غريب مرّ من هنا طفلاً، وجدوه متلقّاً في بياض بعد أن تخلّت عنه إحداهنّ، وأسموه أوداد وهي كلمة أمازيغيّة تعني الوعل. كبرنا معاً، وجلسنا معاً إلى طاولة واحدة في المدرسة... إنّه أوداد.

## (٢)

وكما تتوغل المدينة في لحم الضحية، كانت إغرم تتوغل في كل ما توغلنا بين أزقتها الخالية. أهل إغرم يرحلون في الصباح إلى الحقول. تأملت طويلاً الجدران العالية التي بُنيت بالطين والتبن، لا تزال تقاوم مدّ الزمان وجزره المتواصلين. منازل إغرم تمامًا كأهلها لا تتذكّرني، ولا تحاول حتى أن تفعل. مرّ الغريب من هنا، وفي لحظة ضعف سحب ظله خلفه وغاب...

أضاعوني، أضاعوا اسمي... أهل إغرم هم كما تركتهم ينزفون عرقاً وحزناً كلّ يوم، ولا يحرضهم ذلك على الرحيل، فالرحيل مهنة الغرباء أمثالي.

كنت أشمّ روائح المكان، فتبعث فيّ ذكرياتٍ خلّتها استحالت إلى رماد، وكنت أقصّ على جوليا فصلاً متفرقة من محنة أوداد الوعل أو «أنا»، الذي يجب أن أتخلص منه تمامًا كما طلب الطبيب النفسي. ما أبشع أن تُعيد تركيب حياتك وكأنّها شيء لا يخصّك!

وكانت إغرم تلتفت إليّ ذاهلة كأنّها تكتشفني لأوّل مرّة، في حين كنّا ضائعين بين دروبها إلى أن استوقفني قلق باطني، لا تؤدّي طرق إغرم إلّا إلى ذلك المنزل الضخم المتاخم لتلّ يُعرف بتلّ العرعار. لن تقتادني هذه القرية المخبولة إلّا إلى ذلك المكان الملعوم بالذاكرة، حيث تصبح الذكريات جميلها وقبيحها قابلة للاشتعال. وكوعل حين يستشعر دنوّ خطر، تراجعُ خطوات إلى الوراء وأخذت يد جوليا وسلكت طريق العودة.

عندما انتهينا إلى النهر الصغير الذي يسيل من الجبل ويمرّ بمحاذاة القرية، وضعت قدميّ في مائه البارد وغسلت وجهي وبللت شعري، فذبّ في أوصالي فرح زائف. قلت لجوليا وأنا أشعل سيجارة:

– أنفضّلين أن تتبع النهر الصغير إلى أوّله أم نعود أدراجنا؟

– فليكن الخيار الأوّل.

واشتبكنا في عناق عنيف وسريع، وأخذت خصرها ومضيئنا. كنت أحسّ تجاهها بعواطف ملتبسة، قد أبالغ في النفاق العاطفي إن قلت إنّها حبّ. فبعد خولة، صار الحبّ أمرًا أقرب إلى المستحيل، فقط لأنّ قلبي لم يعد يتسع لأوجاع إضافية. آه خولة! يا من قفزت إلى موتك بخطى واثقة، وتركتني أنشر أيّامي وأجمعها كأنّها لا تعني في شيء. وكلّما توغلنا في المضيق الجبلي، قلّت العيون المتربّصة بنا، إلى أن صرنا وحيدين ومحاصرين بواجهتين من الأجراف العالية جدًّا.

تطلّعت إلى الأعلى، تمامًا إلى تلك البناية المعلّقة على الواجهة اليمنى للفلج، وأنا أشعل سيجارة من أخرى، ولفّت انتباه جوليا إلى ذلك القصر المعلّق عاليًا بين الأرض والسماء. إنّهُ لأحد أجدادها،

وتطلّعت هي الأخرى إلى الأعلى :

- ما هذه البناية حبيبي؟

- يسمّيها أهل القرية «قلعة الرومي»، ولهذه البناية حكاية يعرفها الجميع هنا، إنّها قصّة أول إمبريالي حطّ قدمه فوق هذه الأرض.

وتوقّفت عن الكلام، لأنّي شعرت أنّ فتيل الذكريات هناك في طرف قصيّ من ذاكرتي قد اشتعل، وأنّ ناره تدنو كي تحرق أشياء صميّة داخلي. وغبت عن جوليا حين ابتلعتني الماضي كما تفعل الحيّة بطريدها. تذكّرتهم جميعاً واحداً واحداً، وهم متحلّقون حول كؤوس الشاي في ذلك المنزل، الذي آوى طفولتي وأنا مهمل في هامش الغرفة، والفرن يهدر بتعابير ناقمة مبهمّة، كان امحمد يلفّ أبناءه في سلهامه الصوفيّ المترامي الأطراف ويحكّي. قلت لجوليا، وأنا أستحضر مرويّاته حول قصّة الرومي:

- قديماً جاء من بلادكم، يا جميلتي الشقراء، هذا الإمبريالي الأوّل الذي بنى - ولا يدري أحد كيف - هذا القصر الضخم المعلّق على واجهة الجبل، وهي كما ترين حصن منيع لا يمكن أن يصعد إليه المرء إلّا بعد أن يضع حياته على شفير الهاوية.

وكنا نتوغّل أكثر في الفجّ ونتبع النهر إلى أوّله، استرسلتُ:

- قديم هذا المستعمر الأوّل حاملاً معه حقداً وبنديّة، وجعل يصطاد من برجه العالي كلّ يوم فرداً من القرية، كانوا يسقطون قتلى دون أن يجرأ أحد على بلوغه، لأنّهم يدركون أنّ الموت إن فاتهم وهم يصعدون الجبل فلا بدّ أن تدركهم بنديّة هذا السفّاح.

وتوقّفت عن الكلام. أخذتُ نفّساً من السجّارة، تماماً كما يفعل امحمد، لكنّه كان طيلة الفترة التي يحكي فيها يعدّ تبغّه ويلفّه في ذلك

الورق الأزرق الذي كان يُغلف به السكر قديمًا . تساءلت :

- وكيف انتهت المأساة؟

- بالتضحية . .

- كيف؟

- وقتها، كان هناك رجل يدعونه «سيدي موسى»، وإضافة إلى كونه شيخ القبيلة، كان عارفها بالله ومرجعها في كل شيء. لكنّ هذا الرجل التقّي، وهو يرى قرينه تسقط رجلاً بعد رجل، لم يجد بداً من التفاوض مع السّفاح. ولأنّ هذا الأخير كان يكتفي بصيد واحد كلّ يوم، أو لأنّه كان يتحاشى الشيخ، أو لأنّ قوى سماويّة كانت تضرب عليه هالة من الملائكة تحميه، فقد استطاع التحدّث مع السّفاح ومفاوضته، واتّفقا في الأخير على أن يتوقّف نزيل القرية مقابل أن يضخّي الشيخ بابه «سيدي عيسى»!!

والتفتت إليّ جوليا ذاهلة، بعد أن حقنتها بجرعات مخفّفة من حكايات هذه الأرض الغريبة، فأردفتُ ونحن نقترّب من الكهف المقام الذي دُبح فيه سيدي موسى:

- في يوم حزين، تحلّق أهل القرية حول الشيخ، وهو يضمّ إلى صدره ابنه آخر ضمّة... وبكت القرية باستثناءهما، وجرّ بعد ذلك الأب ابنه نحو موته، واثقًا من أنّ موت فرد أهون بكثير من أن يسقط كلّ يوم واحد أو واحدة، هكذا مدّ سيدي موسى سكينًا من وجع واستأصل فلذة كبده، لا لشيء... فقط لتستمرّ إغرم على قيد الحياة.

وقدفتُ عقب السّيارة ودهسته بقدمي، واسترسلت وأنا آخذ يدها وندخل هذا المقام - الكهف المنغرس في الجبل:

- تقول الحكاية إنّ عمليّة الذبح تمّت هنا ..

وأومأت لها بسبّابتي إلى كومة الصخور المتراكمة بعضها فوق بعض وسط هذا الكهف، وأنا أستعيد وجه امحمد الجافّ وهو يحكي، وأصطدم بذكريات يتدفّق بعضها وتنزل بين شقوق المكان، وتتبخّر أخرى من المناديل والخرق المرميّة حول صخور المقام، والتي تخلّفها النساء هنا إلى جانب خيباتهنّ وهمومهنّ. داهمني سؤال جوليا:

- وماذا بعد؟

- نعم. ذبح السّفاح «سيدي عيسى» المدفون تحت هذه الصخور. ويحكى أنّه لما مرّ الساطور على عنق الولي الصغير وصلت الدماء إلى هنا ..

وأشرت بإصبعي إلى شجرة التين الناتئة من أحد شقوق الكهف، وأضفت:

- قفزت دماء الولي الصغير إلى هذا الشقّ ونبتت - كما تقول الحكاية - من دمائه شجرة التين هذه.

وأخذتُ حبة تين لم تستر بعد من شجرة الولي، وتابعت:

- حبات التين هذه دامية دواخلها، وحليبها - خلافاً لسائر حبات التين - أحمر قاتم كتلك الدماء الغاضبة التي قفزت أوّل الأمر إلى هناك، ويعتبر أهل القرية أنّ أكلها ملعون أبد الآبدين.

والفتّ إلى أزرق عينيها، كان مكتظّاً بأشواك أسئلة كثيرة، قالت:

- كيف انتهى السّفاح؟

أجبت بسرعة، ربّما لأنّي أردت أن أتخلّص من نزيف الذكريات ووجه امحمد الجاثم على ذاكرتي:

- تقول الحكاية إنّ «سیدی موسی» نزل مطمئناً إلى الوادي قصد الوضوء، في الوقت نفسه كانت بندقيّة السّفاح مصوّبة نحوه، والسماء يا حبيبتی كانت سوداء تلهج بتعابير غامضة، ولأنّ تاريخ الظلم قصير أو لأنّ العدالة الإلهيّة تحلّ دائماً في الوقت المناسب، أو ربّما - وهذا هو الأرجح - لأنّ الحكاية الكبرى لا تتمّ إلّا بتدخّل يد غامضة ربّما هي نفسها التي ابتدعت الحكاية! المهمّ أنّه في تلك الثواني القليلة التي تسبق الضغط على الزناد، انخسف بالسّفاح جانب من قصره المعلق بين الوادي والسماء، فهشّمته جنادل الوادي قبل أن تعود الأمطار وتوعز لفيضها مهام جرّه ميّتا نحو بلاد قصيّة.

وأطبق بعدها صمت فادح على المكان، لم تكن تكسره سوى أجنحة أسراب الحمام البرّي التي تصفّق بحرارة في السماء.. تأملت بهوس الخطوط السوداء التي رسمتها الشموع على جدران هذا الكهف - المقام. كم أضاءت تلك الشموع ليل الوليّ الطفل، وليل نساء القرية ورجالها الذين كانوا يجثون فوق هذه الصخور، يدثّرهم حزن عميق وأشواق مستنّة، يبيكون ويغسلون بذلك دواخلهم التي أدمتها الحياة، ويتركون القليل من ملابسهم وأحزانهم، ويمضون أقلّ حزناً!

كم جثوت أنا كذلك فوق هذه الصخور التي ينام تحتها الوليّ، وكم غسلت بأدمعي هذه الأحجار وأنا أقاوم أشواك أسئلة فادحة!

- من أنا؟ لماذا لا أعامل في القرية معاملة أترابي؟ لماذا لم يستقبلني حضن أب أو أم؟ أين هما؟ من يكونان؟...

حين فاض بي المكان ونكأت الذكريات جراحاً خلّتها اندملت، التجأت إلى عناق جوليا الواقفة بقربي كشجرة أرز. وجدت في عناقها القليل من خولة، ليس فقط لأنّها تضع العطر نفسه، عطر خولة، بل

لأنّها مثل خولة تشدّ بأصابعها على شعري، وكأنّها تريد أن تطفئني فيها دفعة واحدة. لن أتخلّص من ذكرياتك، خولة! يا من وضعت حدًا لحياتك احتجاجًا على زيف الحياة وبهتانها، ووضعت معها حدًا لجزء كبير من حياتي!

وكانت طريق العودة أسرع، لأنّي كنت أهرب من الذكريات التي تشتعل بسرعة. من حسنات الفندق أنّه يقع في الطرف المقابل لإغرم، يفصله النهر عنها، الأمر الذي يتيح للسائح الفرّج عليها دون أن يكون جزءًا منها. حين دخلنا مقهى الفندق، وجدت إغرم هناك وقد استحالت من سيّدة هادئة إلى أصوات وأهازيج. لم أكن مستعدًا لهذا الوجود الذي تحاشيته طويلاً، الموسيقى الأمازيغيّة.. نعم، كانت تجتاحني بعنف وتجرف أمامها الأخضر واليابس، تعود بي إلى أماسي إغرم الصاخبة - لا سيّما إذا كان الموسم الفلاحي جيّدًا - وتصهر كلّ شيء داخلي، تستفزّ مدامعي، وتشعل فيّ رغبة مبهمّة في الصراخ بأعلى صوت ممكن. هذه الموسيقى تجرم في حقّي، إذ تتواطأ مع ماضيّ وتغمر بالوجد ما خلّفته فيّ الخيالات من شقوق وشعاب.

بالكاد كان يصلني صوت جوليا، وكنت أجد مشقّة في فكّ طلاسمة، وأنا مأخوذ بهذا السيف الذي يمشي بثقة في لحي. أخاف أن تتدفّق الدماء من فمي وأخرّ صريع أغنية.. تغنّي المغنّيّة بصوت أمازيغي فيه الكثير من الجراح:

- سامضي.. سامضي إلى أن تنادينني من مكان ما قدما  
حبيبي...

وحين تأكّدت أن هذه الموسيقى تضع حياتي في كفّ عفريت، ناديت حميد، فهرول إليّ. طلبت منه أن يستقدم لنا الغداء إلى الغرفة،

وناولته أوراقًا مائيّة ليحضر لي الجرائد والمجلاّت حين يسافر إلى المدينة، وأخذت يد جوليا بعدها وانسحبنا إلى الغرفة.

في الوقت الذي كنت أصعد سلالم الفندق، كانت الأغنية لا تزال تُشعل داخلي نيرانها. كنت أحسّها فأسّا يحفر في ظهري، ويخلّف ندوبًا أعمق من تلك التي خطتها منذ زمن بعيد قضبان صفيّة الملتهبة، والتي لا تزال جاثمة على ظهري وتقاوم مدّ الزمن وجزره باستماتة.

آه يا ماضي! أما تنام؟

- سأمضي... سأمضي إلى أن تناديني قدما حبيبي...

### (٣)

إغرم تنام متلفعة بوشاح ليلها الأسود، أو على الأقل هكذا تبدو للغرباء أول الأمر.

وإذا كانت القرية هادئة نهارًا ولا مبالية أيضًا، فإنها ليلاً تفتعل نومًا يسبق العاصفة، إذ ما يكاد أهلوها ينامون بعد يوم قاس، أو على الأقل يلزمون منازلهم لأخذ قسط من الراحة أو الحكي، حتى تنتفض وتشتعل أصوات وأصوات، وتستحيل القرية إلى ناهد عارية تجوب الأزقة والدروب! هكذا تنأى إغرم عن بناياتها الطينية، وحتى عن اسمها. ولتحتفظ الأشياء الجميلة بمعناها لا بد أن نتجاهلها أحيانًا ونغض الطرف عن فتنتها، وألا نغوص كثيرًا في سرّيتها لئلا نفقدها بشكل فجائي ونهائي.

- حبيبي.. ما سرّ تلك البقع الضوئية هناك فوق الجبل؟

- إنها لـ «آيت مرغاد». إنهم رُحل يعيشون في حالة سفر دائم، وكل صيف يستقرون هناك في قمة الجبل نظرًا لاعتدال الجو ووفرة

الكلاء. أيام الصبا، كنّا نعترض طريقهم ونتفحص ملامحهم الغريبة. كان الكلّ يحاول - خاصّة الأطفال - اقتباس معطيات عن أشكالهم وأشياهم قصد التندّر بها أمام الآخرين، كانوا يعبرون القرية مرّتين كلّ سنة، حين يُقبل الصيف وحين يأفل. وبين إقبال الصيف وأفوله، لا نرى منهم سوى هذه البقع النارية التي تؤكّد أنّ الحياة مستمرة رغم كلّ شيء.

- ما أجملك حبيبي حين تسترسل في الحديث عن هذه القرية!  
- حقًا؟. . دائماً الأشياء التي تشدّنا بقوة إليها هي التي نُجيد الحديث عنها، ونتمنّى لو أنّ في وسع الكلمات أن تتسع لتحتمل ثقل ما نحسّ به.

سمعنا طرقًا خفيفًا على الباب، فتحت. فطالعني وجه حميد المتعب. ناولني بعد التحيّة رزمة الجرائد والمجلاّت، ومضى. تأملتني جوليا باستغراب قائلة:

- ماذا؟ جرائد؟

- ولمَ لا؟

- جميل، على أيّ حال، سأستحمّ وأعود.

وتسلّلت إلى مطبخ غرفتنا المتواضع، والذي لا يفصله عن الغرفة سوى حائط رخامي صغير؛ فتحت باب الثلاجة وسحبت زجاجة نبيذ وكأسين شفّافين. . ومضيتُ إلى الأريكة الحمراء ووضعت الزجاجة والكأسين فوق الطاولة الزجاجيّة المقابلة للأريكة والمزركشة برسومات وخطوط أمازيغيّة، في الوقت الذي كنت أصيخ السمع للماء وهو ينكسر حسيّرًا على جسد جوليا الشهيّ المنفلت. أصبّ كأس الليلة الأوّل، وأطيل تأملي في الزجاجة التي لا تذكّرني سوى بمحنة الزجاجة

الأولى. على أيّ حال، كان هذا منذ زمن بعيد، بعد أن لفظتني إغرم وتبتّني لتعذبني المدينة. أذكر أنني كنت بعد يافعاً وغير مستعدّ لمعاورة الخمر، لكنّها الغواية. كنت أيامها أستيقظ باكراً لأتبع ليل السكاري، وألملم ما خلفوه من زجاجات فارغة وأبيعها، ولم أكن أعلم أيّ لعنة ألحّت عليّ ودفعني لتجربة هذا السائل المجنون المليء بالتناقضات، في تلك المدينة الآسنة التي تنهى عنه نهاراً وتغرق فيه حتى أذنيها ليلاً! المهمّ، كان أن اشتريت بثمان الزجاجات الفارغة واحدة مليئة، أغرقت فيها قلبي وكلّ أوردتي إلى أن كسرتها احتجاجاً على حياتي، كسرتها رغم أنني كنت مطالباً بالاحتفاظ بها. . يومها تأكّدت أنّ جنوني لا حدّ له، وأنّه سيجرّ دقّة حياتي لا محالة نحو عواصف عاتية.

وأنا أهرق الكأس في فمي دفعة واحدة التفتُّ إلى حقيبتني في ركن ركين، فتذكّرت جثّة خولة الورقيّة الممدّدة فيها، فاقشعرّ لذلك بدني. صبيت كأساً أخرى. . نخب الغائبة يا قلبي المتعب. . فالموتي لا يستأذنون. يرحلون ببرودة قاسية بعد أن يقتلوا فينا أشياء غالية تخصّ حبّاً للحياة أو اقتناعاً بها. خولة مضت نحو موتها بثقة وخيلاء، بعد أن أغمدت فيّ مذكرتها الحمراء الدامية، التي ما فارقت الحقيبة مذ خرجت من عيادة د. بنهاشم أقلّ مرضاً لأكثر ما خاننتني الجرأة. أشعلت سيجارة بانفعال - وأنا أراقب ذاكرتي وهي تشتعل - راقبت طويلاً سحبها المسافرة صوب باب الشرفة المشرّع. تذكّرت صديقته وصال وهي ترتجف أمامي وتخونها العبرات قائلة:

- ماتا معاً.

سقط يومها ضمير المثنى داخلي بقوة مجلجلة، واستبدّ بي إحساس بشع بالقيء ورغبة ملحّة في الخلاص، أذكر لحظتها أنني استفهمت وأنا أرتجف متمنياً ألا تكون الأمور كما خمنت: \*

- ماذا؟

- ماتت ومات الطفل في أحشائها.

أما ما وقع بعد ذلك، فلا أذكر منه سوى أنها مدت لي مذكرة خولة الحمراء، وأتني بكيت بشكل جنائزي واستيقظت في المشفى. حين خرجت، التقيت وصال التي ما إن رأته حتى استيقظت أوجاعها وانفجرت باكية، أخذتها من يدها إلى أحد المقاهي المجاورة للكلية، وأنا لا أرى فيها سوى أطياف خولة ومذكراتها التي تركتها نائمة في أحد رفوف مكتبي. قالت:

- التجأت إلى منزلي درءاً للفضيحة بحكم أنني أعيش بمفردي، لأنني هنا من أجل الدراسة. صارحتني يوم قدمت إلي أنها حامل وأنها هجرت عائلتها، وحدثني طويلاً عن غيابك، ولم ألاحظ يوماً ميولها لحسم الأمر بالانتحار.. كانت تجلس إلى مذكرتها طويلاً أحياناً، تطيل الابتسام. وكثيراً ما كنت أفاجئ وحدثها فتكفكف دمعاتها محاولة إيهامي بأنها لم تكن تبكي..

اغرورقت عينا وصال دمعاً، واسترسلت:

- قبل انتحارها، خبأت مذكراتها أسفل حقيبتي، وبعد أيام من وفاتها انتهت لوجودها مرفقة برسالة اعتذار، من جملة ما قالت فيها: أعطيت المذكرة لمراد، قولي له أن يحتفظ بها، لأنها كل ما تبقى مني، وإن كان من الممكن ألا يقرأها، فسيكون أمراً جميلاً..

وانتشلت حقيبتها من فوق الطاولة، ودون أن تستأذن انسحبت، واختفت من حياتي ومن المدينة. حين سألت عنها فيما بعد، قيل لي إن خبر انتحار خولة انتهى إلى عائلتها، فحرموها متابعة الدراسة، وإن زواجاً سريعاً بابن عمها طواها فجأة.

خرجت جوليا من الحمام ضاحكة في الوقت الذي كنت أدنو من  
قعر خييتي الأخيرة. قالت:

- تشرب وحدك إذن؟ أنت أنانيّ.

وأخذت الزجاجاة، وصببت لها كأسًا أخرى فاقتربت. كانت تلفّ  
جسدها بفوطة تتدلّى من قمّة صدرها إلى حدود ركبتيهما، تناولت  
الكأس بيد وارتمت على الأريكة فالتصقت بي وأشعلت حريقًا في  
دمي. عركت أذنيها مداعبًا، وأقحمت أصابعي بين سنابل شعرها  
الذهبي المبلّل، فالتفتت إليّ وتأملتني طويلًا قبل أن تقول:

- أتعرف أنني أحبّك أيّها المخبول وأعشق عينيك اللوزيتين كثيرًا.

- نعم، أعرف.

وكنت مأخوذًا بسحر خاصّ ينبعث من مكان ما في جسدها، ربّما  
هو عطرها الذي تتقاسمه وخولة، وربّما هي هذه الخرزة الساحرة التي  
تملكها، أو ربّما هو هذا الطيش الذي تلهج به شفتاها المتوحّشتان.  
قالت وكأنّها تودّ أن تجرّني للحديث عن إغرم:

- ما سرّ عشقك لهذه القرية؟

ولم أكن أملك إلّا أن أجيها بسؤال لا يقلّ إشكالًا:

- وما سرّ عشقك لرجل يكبرك بأكثر من عشر سنوات؟ حبييتي،  
عندما نحبّ شيئًا أو شخصًا أو مكانًا نلغي على الفور الأسباب التي  
ورّطتنا في هذا الحبّ، ونسقط (لماذا) و(كيف) وباقي الأسئلة الشائكة  
من قواميسنا، اتّفقنا؟

- اتّفقنا إذن! دائمًا أجد عندك إجابات جاهزة..

وضحكنا معًا بصخب وجنون. حين أهرقت في فمي الكأس التي

لم أعد أذكر رقمها، ضجّ النبذ في رأسي وأشعل في صدري كلّ الحرائق، راقبت ساقي جوليا العارين باهتمام، وتتبع تفاصيل هذا البناء الجسدي المتقن الذي ينطلق من أسفل القدمين متماسكاً خصباً. والتحمّت بها وأنا لا أشمّ في عطرها سوى خولة. أجمل ما في علاقتنا أنا وجوليا أننا سرعان ما نلتحم بلحظات الفرح العابر، ونتمسك بها كطفلين ونتقن فنّ استنزافها. لست أدري لماذا كلّما تعرّيت أمام امرأة، عاودني الحرج من تلك الندوب الراسية على ظهري، والتي تعود بي إلى ذلك الهمّ القديم! الآن، وأنا أفعل ذلك أمام جوليا للمرّة التي لا أذكر رقمها، كان أفسى ما أخشاه أن تسألني عن سرّها.

وكنّت لسبب ما أستعيد في خيالي الجسد الأوّل. . ذلك الجسد المطرّز بالحزن، ذلك الجسد الذي علّمني أنّ جمالاً قاسياً يمكن أن يوجد حين نمزج رغبة شبقية بحزن جافّ.

قال لي جسد حياة وأنا مراهق يجذّف في نهر شهوتها، ويصغي بعدها إلى أوجاعها:

– هذا أكثر شيء تتقنه، ستذكّر قولي طويلاً.

في تلك الغرفة المظلمة التي تعجز شمعة واحدة عن إضاءتها في وجه زبائن ليلها القاسي، كانت حياة تتمزّق بين يديّ حزناً وحنيناً إلى أشياء كثيرة.

وضعت أصابعها على ظهري، فاشتعل حزني وتداخلت فيّ الرغبات الجامحة بالحزن الثقيل، وصورة صفيّة تطفو بين ناظريّ حيناً وحيناً تضمهرها حرارة الجسد. لست أنسى ذلك الطفل الذي كنته بعد أن لفظتني إغرم ورمطني كخرقة بالية بين يديها. جوليا تشدّ على ظهري

بأصابعها الرقيقة، بالضبط حيث كانت صفية تضع قضبانها الملتهبة.  
آه.. لو تعلمين يا جوليا أنّ تلك الندوب هي ملامح روحي! وفككت  
طباق جفنيّ، كنت أحاول عبثاً التملّص من ذاكرتي وسدّ الثقوب التي  
يشرّعها في القلب ماضيّ التعيس.

## (٤)

- أنت لست ابنتنا، وهذا كلّ ما في الأمر.

قالها امحمد وابتلعني بسلهامه الذي كان يعبق بروائح تبغ، كان يسهر ليالي بحالها من أجل تحضيره، وكنت أنزف دمعا. نعم أتذكر صورتي الباكية جيّدا، ربّما هي أوّل ذكرى أستطيع تشكيل ملامحها، افتضّت بعد ذلك زغرودة عناقنا البارد. لم أفهم سرّ تلك الزغرودة ولا سرّ تلك الزغاريد التي تلتها، لكنني استتجت فيما بعد أنّها كانت إيذانا بميلادي الجديد. استرسل امحمد - وعائلته متحلّقة حولنا - كأنّما ليستلّ السيف الذي أغمدته في:

- في صباح حزين يا (أوداد)، جرّتني الأقدار إلى تلك الطريق الهامشيّة التي لم تكن يوماّ طريقي، هناك وجدتكَ في شهورك الأولى مسربلاّ في بياض، لم أجدكَ باكيا، كنت تبحلق في السماء، التفتُ إلى الجهات الأربع لعلّي أرى اليد التي أسلمتكَ لهذا القدر، لكن دون جدوى. جثت بك إلى منزلي. أنت منا - تذكر هذا جيّدا - لكنك

لست من دمناء.

كانت هذه الحقيقة أكبر من أن يطبقها قلب طفل يودّع الخامسة من عمره، لكنّها على أيّ حال، وضّحت الرؤى أمامي وفسّرت لي جملة من الأمور التي كانت عصيّة على الفهم وقتها، مثلاً: لم أكن أفهم لماذا اسمي كان مثقلاً بكلّ تلك الغرابة، أوداد أو الوعل الأمازيغي.. لم أكن أفهم كركات الأطفال وهم يتطلّعون إليّ ويتهامسون بتعابير لا أسمعها. لم أكن أستوعب النظرات الحاقدة للبعض والنظرات المبالغة في الشفقة للبعض الآخر، لكنني فهمت أنّ قلبي تشقّق كإناء ورد، وأنّ ترميمه لن يفضي إلّا إلى قلب مشوّه. كنت، منذ تلك اللحظة التي واجهتني فيها تقاسيم امحمد اليابسة بالحقيقة، وحيداً جدّاً وأعزل في حرب لم أخترها، وأحسست بعدها أنّ السماء التي دفعتنني إلى هذه الحرب لا تقابل بكائياتي الليلية الطويلة إلّا بقهقهات ساخرة.

وكان أوداد (أناي الطفل) يكبر كحبة قمح تشقّ ثوب الأرض، وكانت أسئلته هي الأخرى تكبر معه، خاصّة حين يراقب أبناء امحمد وهم يفرون إلى حضن أمهم بعد المدرسة أو يندفنون في سلهم أبيهم الشاسع أيام البرد، وهو لا يملك سوى حقول إغرم ومراقبة وعولها، وهي تسلّق الجبل بمهارة عالية وتقاوم بمهارة عالية إغراءات الهاوية.

اللقيط خشبيّ عادة، لا على طريقة «بينوكيو» الذي ابتدعه نجار من قطعة خشب ليؤنس وحدته فورطه في سؤال دام: كيف يصير ابناً حقيقياً؟ اللقيط أكثر آدميّة، له لغة من هواجس وأصدقاء لتؤنس وحدته كالآخرين، يحبّ ويكي كالآخرين، وكالآخرين يأكل الطعام ويمشي في الأسواق، لكن ينقصه حليب أفردته الطبيعة له وتعوزه أشياء وأشياء يكبر نقصها معه عقداً، استلّ في لحظة خطأ وجوده من العدم، فكان

مطالبًا بأن يدفع حياته البائسة ثمنًا لهذا الخطأ.

وكانت الأيام التي تلت الحقيقة جحيماً لا يُطاق، لا سيّما فيما يخصّ علاقتي مع الجدّة أمّ امحمد، التي شرع المرض ينهشها، فاستحالت إلى كلبة مسعورة. هذه المرأة، شبح ظلّ يقفز على حواجز النسيان ويقاوم ممحاته. لا زلت أذكر وجهها الأقرب إلى السمرة بتقاسيمه المتداخلة وأخايدده الفجّة وشعرها الذي حوّله الحناء إلى ما يشبه زغب الذرة. كانت تكرهني وتزدريني كثيراً، وتحاول كلّما سنحت لها الفرصة أن تذكّرني بأنني ابن زنا وأنّ الذي لا أهل له لا أصل له. وكنت أعجب، كيف لجسد منكمش يفصله عن القبر أقلّ من شبر أن يحمل ويتحمّل كلّ ذلك القدر من الحقد والكرهية!

في يوم حزين جدّاً، وأنا أكاشف الطبيب النفسي د. بنهاشم بهذه الحلقة السوداء من حياتي وأقاوم دمعة غاضبة في عيني، سألني بخبث الأطباء النفسيين:

- ألا يمكن أن تكون أنت من قتلها؟

أذكر أنّني ضحكت لحظتها بصخب مزيف، لعلّ تلك الدمعة تتراجع وقلت:

- صراحة، تمنّيت لو كنت الفاعل.. لكنّ الأقدار سبقتنني إلى ذلك..

لست أنسى ذلك اليوم الذي اضطرّرتني فيه العجوز إلى التفكير في حسم تلك الفوضى التي أعيشها بالانتحار، هكذا يقرّر وعلّ آدمي صغير في الثانية عشرة من عمره أن يتخلّى عن حياة تخلّت عنه منذ البداية. في صباح كئيب وفي حضرة كئنتها وجميع أحفادها، أرعدت العجوز في وجهي شتائم لا لشيء، فقط لتنفّس عن ساديتها قليلاً.

ولأنني كنت أجيبها بالصمت، فقد أخذت شعري الأسيب الذي كان ينسدل كوشاح على عينيّ بيدها، وشرعت تنزل على وجهي بيدها المعروقة صفعاً.. وأنا أقف كوتد مغروس في خاصرة المنزل دون أدنى مقاومة، فالقلب قد امتلأ لأول مرة عن آخره حزناً، وأي هم إضافي يهرق فيه لا يسكنه بل يتدفق حوله.

الأمر الذي حزّ في قلبي أكثر يومها، ليس كونها فعلت بي ما فعلت بل صمت العائلة وتواطؤها السريّ مع الجدّة. لم يحرك أحدهم ساكنًا ولا تدخّل لفضّ المأساة، لم يشعروا بأنّ شيئًا ما يسير وفق منطق مقلوب، كانوا حياديّين حدّ الفجيعة.. ربّما استثار حقدهم تميّزّي الدراسي! لن أنسى ما دمت حيًّا ذلك اليوم الذي جرجرتني فيه من شعري وغمر بصاقها وجهي.. ما إن تملّصت من قبضتها حتى انزلقت إلى الباب بسرعة، وأنا أكفّف أدمعي وأمسح ما يعلو وجهي وملابسي من بصاق. وكان المطر، عادة حيث يكون المطر يكون الحزن مضاعفًا. وكانت السماء تلتفت إليّ أخيرًا وتنزف. بكيت في الطريق إلى قمة الجبل طويلًا، وأهملت قلبي الذي كان يقرع طبول الخطر.

في قمة الجبل، يقف طفل في الثانية عشرة من عمره، ويفكر في أن يضع حدًا لحياته بالقفز من أعلى الجبل نحو الهاوية السحيقة. لم أعرف لي من اسم غير أوداد، أي الوعل الأمازيغي. كنت لأول مرة أجد أنّ تلك التسمية تلبسني، فأنا أمام الهاوية وعل جريح، وبعد خطوة أو خطوتين سيُزفّ جسدي للسماء، وسأريح إغرم من نشاز يهدّد نسلها وسأستريح.

ملابسي بلّلتها المطر، والرعود تضجّ بقوة وإلحاح، والمطر صار أثقل من أيّ وقت مضى. هناك أمام أبواب القيامة المشرّعة، وقفت طفلًا ذات يوم ماطر. كان يكفي أن أميل إلى الأمام قليلًا ليفتر منّي

أُتْزَانِي وَأَسْقُطُ رَأْسًا وَيُحْسَمُ أَمْرِي بِسُرْعَةٍ، كَمَا كَانَتْ تَكْفِي وَثْبَةً مَنِّي  
لَأَسْقُطَ عَلَى قَدَمِي أَوْ عَلَى ظَهْرِي. فِي الْحَالَتَيْنِ، كَانَ أَمْرِي سَيُحْسَمُ  
رَبِّمَا قَبْلَ أَنْ يَتَشَطَّى جَسَدِي كَطَبَشُورٍ فَوْقَ جَنَادِلِ الْوَادِي. لَسْتُ أَدْرِي  
عَلَى التَّحْدِيدِ كَمْ مِنَ الْوَقْتِ مَرًّا وَأَنَا ذَاهِلٌ أَمَامَ شُرَفَاتِ الْمَوْتِ، لَكِنِّ  
الْتَرَدُّدُ يَوْمَهَا أَكُلَ مِنْ إِرَادَتِي، حَتَّى إِنَّنِي تَمَنَّيْتُ يَوْمَهَا لَوْ يَخْسَفُ بِي  
الْجَبَلُ كَمَا خَسَفَتْ بِالرُّومِيِّ زَاوِيَةٌ مِنْ قَلْعَتِهِ، فَيَعْفِينِي الْأَمْرَ مِنْ تَجَسُّمِ  
لَعْنَةِ الْإِنْتِحَارِ. وَبَكَيْتُ بَعْدَهَا، لِأَنَّ إِرَادَةَ الْمَوْتِ لَدَيَّ تَقْهَقَرَتْ، بِكَيْتِ  
كَمَا لَمْ أَبْكُ يَوْمًا، وَتَأَكَّدْتُ وَقْتُهَا أَنَّنِي خَسَرْتُ كُلَّ شَيْءٍ.

وَنَضَبَ مَعِينِ الدَّمْعِ وَجَفَّ، وَخَفَّ وَجَعِي قَلِيلًا، وَشَيْئًا فَشِيئًا،  
فَهَمْتُ أَنَّ مَنْطِقَ ظُرُوفِي يَفْرُضُ عَلَيَّ تَفَكُّيرًا مُخْتَلَفًا. فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ  
بِالضَّبْطِ أَحْسَسْتُ أَنَّنِي كَبُرَتْ فَجْأَةً.

قُلْتُ لَجُولِيَا وَنَحْنُ وَاقِفَانِ وَسَطَ إِحْدَى شُعَابِ الْجَبَلِ.. تِلْكَ الَّتِي  
ابْتَلَعَتْ أَوْدَادَ - أَنَا بَعْدَ عَوْدَتِهِ (ي) مِنْهَزِمًا مِنْ رَأْسِ الْجَبَلِ:

- حَاوِلْ أَوْدَادَ صَدِيقَ طُفُولَتِي أَنْ يَضَعَ حَدًّا لِحَيَاتِهِ بِالْإِنْتِحَارِ قَفْرًا  
مِنْ أَعْلَى الْجَبَلِ، لَكِنِّ الْإِرَادَةَ خَذَلْتُهُ، فَعَدَلُ عَنْ فِكْرَتِهِ وَعَادَ، لَكِنِّ  
الْحَيَاةَ الَّتِي لَمْ تَكُنْ عَادِلَةً مَعَهُ، فَكَّرْتُ أَنْ تَدْخُلَهُ مِنْ ثَقْبِ إِبْرَةٍ. عَائِدًا  
كَانَ مِنَ الْقَمَّةِ وَالسَّمَاءِ كَانَتْ تَهْرَقُ وَابِلَهَا عَلَى جَسَدِهِ الصَّغِيرِ، وَشُعَابِ  
إِغْرَمَ كَانَتْ تَلْهَجُ بِالْحُزْنِ وَالْوَعِيدِ. وَلَكِي يَرْجِعُ مِنْ حَيْثُ أَتَى، كَانَ  
لِزَامًا أَنْ يَعْبُرَهَا شُعْبَةً شُعْبَةً وَعِنْدَمَا وَصَلَ إِلَى هَذِهِ..

وَضَرَبْتُ بِقَدَمِي جَفَافَ هَذِهِ الشَّعْبَةِ، لَا دَلَالَهَ عَلَى أَنَّهَا الْمَعْنِيَّةُ  
بِالْأَمْرِ بَلْ احْتِجَاجًا عَلَى أَسَى قَذَفْتُهُ فِيَّ ذَاتَ حُزْنٍ، وَضَرَبْتُ بِسَبَابَتِي  
عَلَى السَّيْجَارَةِ لِأَكْبَرِ رَمَادِهَا، وَاسْتَرْسَلْتُ وَأَنَا أَتَطَّلَعُ إِلَى جُولِيَا وَهِيَ  
تَنْتَظِرُ كَلِمَاتِي بِاهْتِمَامٍ وَاضِحٍ:

- حين تزغرد سماء هذه القرية بالويل، فإن لعنات السماء والأرض كلّها تتوحد في هذه الشعاب التي يحيض ماؤها شيئًا فشيئًا، تنطلق صغيرة يصبّ بعضها في بعض إلى أن تنتهي إلى الوادي الكبير الذي ابتلع أيما مرّة حقول إغرم والمنازل المتاخمة له.. قلتُ عبّر أوداد هذه الشعاب، لكنّه حين انتهى إلى هذه، وشرع يعبرها، كان تدفق الماء وتيّاره السريع أقوى من ثبات قدميه، وما هي إلّا لحظات، حتى تلاعب به مثلما تتلاعب أمواج البحر بقارب صغير، وجرّه كما يجرّ قطعة خشب. وكلّما تقدّم إلى الأسفل كان تيّار الماء يزيد قوّة وعنفًا...

وتوقّفت عن الحكّي. أشعلت سيجارة من أخرى! لا أشبع من أن تحكي عن حياتك وكأنّها لا تمثّل لك بصلّة! وأن تتقمّص حيادًا روائيًا زائفًا وتمارس تلك المخاتلة والمراوغة اللفظيّة المتعبة، انتبهت صدفة وأنا أدهس عقب السيجارة إلى زرّ التسجيل مضغوطًا في مسجّلة جوليا، والتي سبق وصرّحت لي أنّها مدوّنة يومياتها الصوتيّة.. انتبهت بسرعة إلى عينيّ المغروستين في المسجّلة، وبادرتني:

- عفوّا حبيبي، نسيت زرّ التسجيل مضغوطًا عندما كنت أسجّل يومياتي قبل قليل.

وكبست بخفّة على زرّ التسجيل الأحمر، وأردفت:

- وماذا وقع بالضبط بعدما ابتلعه السيل. لا تقل إنّهُ جُرف إلى النهر؟

- بالضبط، هذا ما حصل. كلّ سيول الجبل تصبّ في النهر، ولكّ أن تتخيّل كيف يكون نهر تصبّ فيه كلّ سيول جبل عيّاش الضخم. أمّا أن ينجو طفل صغير من مخالبه، فقد كان الأمر بالنسبة لهم أقرب إلى المعجزة. كان أوداد يتمنّى لو لم ينزل الحظّ كفراشة

على كنفه، لكنّ الحياة اختارته ربّما - كما قال لي فيما بعد - لتعذّبه أكثر. أيّ صدفه دفعت ذلك الفلاح ليمدّ له يد النجاة! كان مغمى عليه والنهر يهدر بصخب ويجرف جثته كخرقة بالية، لكن قوّة خفيّة - يقول أهل إغرم - هي نفسها التي عجّلت بوفاة سيدي عيسى، وأجّلت هلاك أوداد.

وأتعبني أن أتعامل مع نفسي بضمير الغائب، فكّرت لماذا لا أكاشف جوليا وأرتاح؟ لا، لست أقوى على نظرات شفقة من أحد. منذ تقيأتني إغرم وأنا أضّم سرّي إلى أضلعي خوفاً من تلك النظرات المتعاطفة والمبظنة بالشفقة. قلت:

- لِمَ لا ننسى هذا الحديث الشجيّ أو نؤجّله إلى فرصة أخرى؟

- كما تريد.

وتوغّلت أصابعي بين خصلات شعرها الشقراء، وذبت في أزرق عينيها طويلاً، وهاجمني عطرها بسرعة، وبسرعة مضاعفة اعتلت خولة معراج الذاكرة... أوّاه لماذا أشمّك في عناق غيرك؟ لماذا خلّفت حتى في حاسّة شمّي ارتباطاً موجعاً بك؟

وفوق جفاف الشعبة التي مرّ بي يوماً خصبها على مقربة من نوافذ الموت، كابدت التباس ماضي خولة بحاضر جوليا.. وذبنا في لهيب من القبل؛ وبين عتمة الحياة وتلك الفرحة البيضاء التي تنفجر من الخاصرة، كنت أراني أطفو فوق النهر البنيّ الغاضب، تاماً كأولئك الذين يُربطون إلى ثيران عنيفة بحبال قويّة، فتثور وتنفض وتحتجّن فرصة مناسبة لسحقهم! هكذا كنت أقاوم انتفاضات النهر وطيشه القاتل بقلب بريء، لم يقترب جرماً سوى أنّه عندما خيّر ملاكان شيطانان بين الحياة والعدم. اختار الحياة.

## (٥)

لست أدري على التحديد السبب الذي جعل د. بنهاشم يقترب خطأ طبيًا وينصحني بالعودة إلى إغرم. على أيّ حال، نصيحته هذه لم تكن سوى قطرة جنون أفاضت الكأس، فمُذ جُرّنتي يد الحسين إلى تلك المدينة الشؤم، وأنا أطفئ فكرة العودة التي تشتعل من حين لآخر خلصة بين جوانحي، وعلى الرّغم من أنني رأيت فيها أيامًا سوداء إلا أنّها كانت نعيمًا بالقياس إلى ما عشته في المدينة.

جوليا تسرق من ساعات بعد الظهر فيلولتها، وأنا في انتظار استيقاظها أدخن بشراهة وأقلب صفحات المجلّات والجرائد، علني أجد فيها عناوين مثيرة أو تعينني في شيء، فعيّب إغرم أو فضلها - لست أدري - أنّ شبكات الاتصال لا تغطيها، وبالتالي فهي تقبع في عزلة جميلة، ومن سخريات القدر أو من رسائله المشفرة أنّ التغطية الهاتفية تطل مقبرة إغرم وهضبة متاخمة لها، كأنما الأموات أحوج إلى الاتصال من الأحياء، لذلك لا غرو في أن تجد عاشقين يجلس كل واحد منهما في جانب من المقبرة، تمامًا فوق جثث الأموات، وأعين

في الخفاء ترصد درجات اقتراب بعضهما بموازين الخطيئة، وكأنَّ قدر الحبِّ في بلدي أن يظلَّ بين مطرقة الحياة وسندان الموت!

الحبَّ عندما يكون أكبر من أصحابه لا يتنازل عنهم بل يبتلعهم، وهذا بالضبط ما حصل مع خولة.

لم أفهم لماذا جئت إلى هنا؟ ولماذا ألحّت عليّ فكرة شراء الفندق.. ولماذا بحثت أصلاً عن إغرم في شبكة الإنترنت؟ لا شكَّ أنَّ الأمور تسير وفق هندسة خاصّة، وأنَّ هناك تخطيطاً محكماً يحرك دواليبها.. التفتُّ إلى جوليا وهي تتقلّب فوق السرير وشعرها ينسدل كوشاح أصفر على وجهها، فلا يظهر منه سوى أنفها الدقيق الحادّ. جوليا لا تعلم أنَّ عشيقها المغربي، وصديقه الافتراضي أوداد الذي غمرتها بالقليل من أوجاعه، وجهان لجرح واحد، لو علمت أنني أوداد ربّما كانت ستبكي جرحي الغائر. ولجوليا أحزانها أيضاً.. ذات ليل بارد في أحد فنادق (مارسيليا) الصغيرة، امتلأ قلبها خمرًا وحزنًا بعد سؤالي عن والدها، ابتلعنا صمت محرج بعدها وندمت على السؤال، لكنّها تداركت صمتها وأهرقت كأسًا أخرى في جوفها، امتلأت عيناها دمعًا وهي تصرخ بي:

– فعلاً تريد أن تعرف عن أبي؟

واقتربت، جلست على حافة السرير وهي تقاوم الدمعة الأولى..

– لا أتذكّر أبي جيّدًا، تبدو صورته وتضمحلّ في سديم الذاكرة. تعود بي إلى سنوات الطفولة القصيّة، لكنّه لم يكن رجلًا حقيقيًا أبدًا. في لحظة مجنونة، قرّر أن يهجر زوجته وطفليه والعودة إلى ألمانيا – بحكم أنّه ألماني أصلاً – بحثًا عن حبّ قديم، قبل رحيله، كتب الجبان رسالة اعتذار وتركها في درج أمّي، أمّي التي ظلّت متماسكة

وقوية، جمعتنا إلى صدرها أنا وأخي، وكانت تجيب عندما نلّخ في السؤال عنه أنّه سيعود وأنّ ظروف العمل أبعدته، وأنّ وأنّ... وعندما كبرنا أقرأتنا الرسالة وبكت طويلاً.

ارتمت جوليا لحظتها بين ذراعيّ وبكت. كانت أول مرّة أشهد فيها انخذاً لها، عانقتني طويلاً، لست أدري لماذا أحسست تلك اللحظة بإحساس أبوة متعب، وخفتُ أن يكون سرُّ تعلُّقها بي أنني أسدُّ مَسَدَّ الأبوة الغائبة.. تمنيت لو أنني أصرخ في وجهها قائلاً: «على أيّ حال، أنتِ وجدتِ أمّا تدفعُ عنكِ سخط الحياة ومرارة الحقيقة، وتجمعكِ أنتِ وأخاك إلى صدرها كما تفعل الكلبة بجرائها، أمّا أنا فقد وُلدت أعزل، ونهشتني خيبات الحياة». من عيوب البشر أنّ كلّ فرد لا ينفكّ ينظر إلى نفسه على أنّه صرّة الكون، وأنّ لا أحزان تفوق أحزانه! ولو أنّه حاول فهم أحزان الآخرين لكان فهم بالضبط كم هي عبثة هذه الحياة.

وأنا أقلّب صفحات المجلّات الأدبية، هاجمتني ذكريات ظننتها انطفأت، وكانت قصيدة «رسائل دون ردّ» والمهداة إلى (م. س) - أي إليّ، كفيلة بأن تضرم فتيل ذكريات صاحبها، نضال. مرّت سنين على قصّتنا الجميلة، كنت أتابع باستمرار منجزها الأدبي، لكنني لم أكن أتوقّع يوماً أن أكون مستهدفاً شعرياً، تقول:

حبيبي...

يقولون إنّي جُنُنْتُ

يقولون عنيّ

بأنّي ضحكْتُ بلا سببٍ

وأنّي بلا سببٍ بكيتُ

يقولون إنني

إذا أمطر الكون في تعبٍ

رقصتُ

وإنني بسطتُ على المرج شعري

وإنني بوحدةٍ عيشي انتشيتُ

يقولون إنني جنتُ

لأتني إذا مرضتُ

ترقيتُ باسمك حتى أرى العافية

لأنني أسابقُ طيفك فوق المروجِ

وفي الساقية

لأتني بحبك دوماً جهرتُ

وخبرتُ من ولهي الحقل والبادية

يقولون إنني جنتُ لأتني رفضتُ

حياة القطيع

وقررتُ ألا أكون سوى الراعية

يقولون إنني جنتُ

لأتني أحاربُ فيهم

أحارب لا الناهية...

فاجأتني القصيدة فعلاً. أربكت ذاكرتي قليلاً، وعادت بي إلى

سنوات الدراسة الجامعية إلى تسعينيات (ظهر المهرّاز) التي لا تنسى.

أذكرُ ليلة رأس سنة ١٩٩٥ حين قرّرت أن أنهي تلك القصة العاطفية

التي جمعتني بنضال. أذكر جيّدًا أنّنا كنّا نمشي الهوينى جنبًا إلى جنب، والمطريّة السوداء كانت حزينّة جدًّا لا تفلح في ردّ ضربات المطر الثقيلة؛ أمّا الساحة الجامعيّة فقد كانت شبه خالية، فجُلّ الغرباء الذين قادتهم أقدارهم إلى الحيّ الجامعيّ، إمّا اغتبنوا العطلة لزيارة ذويهم أو اختاروا المكوث في غرفهم هربًا من المطر وشراسة الإحساس الفادح بالغربة. لا زلت أذكر وجهها الطفوليّ الجميل وشعرها الأسود الذي ينزل وشاحًا على ظهرها. كان في عينيها الواسعتين من الحزن ما يكفي ليغرقنا معًا، أمّا كلمات الفراق القاسية فقد كانت تنزل عليها قاسية باردة. أمّا ونحن ننزلُ صوب منتصف الليل، فقد رمت نضال مطريّتها والتجّأنا إلى إحدى الزوايا النائية وبقينا مكشوفين يجلدنا المطر.. وما وقع بالضبط بعدها فقط، كان أشبه بمشهد سينمائيّ دراميّ أو فصل روائيّ حزين. كان أوّل ما فعلناه أن اشتبكنا في عناق طويل لم نستيقظ منه إلّا ودمعات ساخنة تشقّ خديّها. شعرت لحظتها بفداحة الأمر، فتمسّكت بي بقوة وبكت بقوة مضاعفة وافترقنا. تشابكت الأمور بعدها في عينيّ إلى حدود أنّي أصبت بعمى القلب بعدها ولسنوات. كلّ ما في الأمر أنّ علاقتنا انبنت على ما يدمرها، هذا كلّ ما في الأمر.

كانت نضال اسمًا على مسمّى، لم أرَ في حياتي من كان اسمه يصبّوّه مثلها، ولا غرو في ذلك، فقد ولدت في عائلة مناضلة. ربّها ابتلعتة الأقبية والسجون ولم يُعرف إن كان لا يزال على قيد الحياة أم طواه الردى تحت آلات التعذيب التي لا ترحم، هكذا كبرت نضال وهي تحمل داخلها ذلك الفراغ المهول الذي خلفه غياب الأب، الذي حمّلها من خلال اسمها ودون مشورتها عبئًا ثقیلاً هو نفسه رسالته في الحياة: النضال.

التقنيها في سنتي الجامعية الأولى. كانت تجمعنا أوّل الأمر أحاديث فضفاضة ومشعبة لا تنتهي، وفي السنة الثانية، بدأت أنغلغل داخلها وأميط اللثام عن أوجاعها، وسحبني مأساتها إلى اليسار الجامعي. صحيح أنني كنت على أتمّ الجاهزية للالتحاق بهذا الفصيل، وذلك بحكم ما اطلعت عليه في مكتبة مصطفى - هذا الملاك الذي آواني من وحشة الأزقة، كان أحد المناضلين السبعينيين الأشدّ تمسّكاً باليسار؛ ورغم أنّه كان يتحاشى استمالي لمذهبه السياسي، إلّا أنني وجدت في كتبه سلوة. وكانت نضال قطرة أفاضت الكأس ودفعني إلى أن أحسم بشكل نهائي اختياراتي الإيديولوجية بالطبع في تلك المرحلة. هكذا تأسّس حبنا على السياسة وانهار كذلك حين زعزعت بعض الأحداث قناعاتي السياسية. أجمل ما ميّز الرفيقة نضال أنّها كانت تدافع عن قضية شخصية وإنسانية في آن، فمن خلال دفاعها عن أحقية المستضعفين في حياة كريمة، كانت تنتقم لوالدها أيضًا. في قلب المواجهات مع قوى الأمن، كانت عيناها تضجّان غضبًا، كنت أقرأ من خلالهما أنّها خلقت فعلاً للنضال. أمّا الآن، فلست أدري كيف حالت بها الحال من بعدي، سمعت مرارًا أنّ السجن ابتلعها ولفظها؛ لكن بعد مرور أقلّ من عامين على تراجيديا فراقنا، سحبتها دوامة النسيان إلى القعر، ولم تلفظها إلّا مؤخرًا على صفحات المجلّات وبعض المواقع الأدبية.

ولكن لماذا الشعر؟ ولماذا أنا والآن؟ زاغ بصري عن القصيدة التي أفاضت من الذكريات بعيدها، إلى جوليا وهي تنفض عنها قيلولتها وتصفّف شعرها. جوليا مأخوذة بأدوات زينتها، هي تحبّ - كما تقول - أن تعيش كلّ دقيقة على أنّها الأخيرة. فالجمال - تضيف - حياته قصيرة ينبغي أن نستهلك أكبر قدر منها، جوليا تؤمن بأنّ القليل من

الجنون قد يُصلح كثيرًا من الأعطاب التي تخلّفها الحياة في القلب..  
جوليا تطوّق خصرها العاري بيديها كعارضات الأزياء، وتقترب شيئًا  
فشيئًا وعطشي إليها يقفز، ودمي يشتعل ويميط ذلك الشيطان الصغير  
الذي يعيش داخلي اللثام عن وجهه الأحمر، وترتفع قرونة المتشابكة  
كقرون الأيائل، فتخدش الجدران الداخلية لجسدي.

## (٦)

إغرم لم تتغير كما خمنت، وصباحاتها الصيفية متشابهة إلى درجة ينتفي معها مفهوم الزمن!. الجبل لا يزال شامخاً كعهدي به وقطعان البقر لا زالت تسعى بين الحقول، أما المعاول، معاول الفلاحين الكادحين، فإنها تعلو لتطاول الجبل وتهوي بالخصب والحياة، حتى الوجوه الصلبة التي تتعاقب فيها السمرة بالحمرة لم تتغير، لا زالت تنصب عرقاً وتتطلع بين فينة وأخرى إلى الأعالي، كأنها تنتظر حبيباً قد يعود. أهل إغرم متشابهون إلى حد مزعج، ها إن بعضهم يتكثون على معاولهم ويتطلعون إلى الغريبين البعيدين بفضول مفضوح: أنا وجوليا.

كنا نمرُّ أنا والغريبة قرب حقولهم حين اعترض طريقنا ثلاثة أطفال، وناولونا حبات تين تقاسمناها مناصفة. كنت مأخوذاً بملامح هؤلاء الصبية وكركراتهم، وبأحاديثهم الأمازيغية الجميلة، وكانت طفولتي تنتفض فيّ وتنبعث على غفلة متي من رمادها.. راقبتهم وهم يتهامسون بكلمات غير مفهومة، ثم وهم يتسابقون نحو ذويهم ببراءة

تدقق من خطواتهم. لم أكن أرى فيهم سوى طفولتي التي استنزفتها الحياة بسرعة.

لم يعرفوني، ولم يكلفوا أنفسهم مشقة البحث في شرائط الماضي الهامشية عن طفل كُنْتُه، عن وجه يشبهني.. لم يحاولوا تذكر ذلك الطفل الضالّ والمنسي، الذي مرّت طفولته من هنا بخطوات قلقة، وانغرس كشتلة في تربة إغرم إلى أن اقتلعه أهلها بحجة أنه لا يستحقّها.

في لحظة مخبولة، قال شيخ إغرم - بعد أن توالى أيام عجاف على القرية - إنّ أوداد لعنة يجب الفكّك منها.. أسرّ بهذه الخاطرة إلى بعض رجال القرية، إلّا أنّها انتشرت في القرية انتشار النار في الهشيم ووجدت في بعض الأحداث ما يدعمها.. كان أهمّها نجاة أوداد من مخالب الوادي الشرسة التي لا تلفظ ضحيّتها إلّا جثة. ولأنّ كلّ فكرة تنطلق بسيطة ثم تتطوّر شيئاً فشيئاً، وتستحيل إلى ملحمة محلّية بعد أن تلوّكها ألسنة الناس، فإنّ فكرة اللعنة هذه جعلت البعض يبالغ، ويقول إنّه سليل الوعول عندما لاحظوا ارتباطه الوثيق بفضاءاتهم، أمّا فقيه القرية فقال إنّ (أي أوداد) قد يكون نتيجة لتزاوج إنسيّ بحنيّة... قالوا كلاماً كثيراً، كان بعضه يتناهى إلى مسمعه، والبعض الآخر يستشعره في نظرات الناس المبظنة بخوفٍ كبير.. هكذا كان أهل إغرم - وربّما لا يزالون - لا يهدأ لهم بال حتى يغلفوا أيّ شيء يشدّ عن نمط حياتهم بذلك الحسّ الأسطوري.. لكن خلف كلّ ما قيل حقيقة مرّة لم تُقل، ربّما كانت هي أوّل ما فكّر فيه شيخ القبيلة، إنّها نسل القرية الذي لا ينبغي أن تجانسه دماء طفل مجهول الهوية.. لا ينبغي أن يظللّ أوداد في القرية، لكي لا يدنّس الدماء النقيّة والموحدة التي تسري في شرايين كلّ فرد من أفرادها...

لَمَّا عُجْنَا عَلَى ذَلِكَ الزَقَاقِ الصَّغِيرِ الَّذِي لَا يَقُودُ إِلَّا إِلَى مَنْزَلِ  
 امْحَنْدِ، وَمِنْهُ إِلَى تَلِّ الْعَرْعَارِ وَالْمَقْبَرَةِ، كَانَ قَلْبِي يَزْدَحِمُ بِمَلَايِينِ  
 الْأَحَاسِيسِ الْمُتَنَاقِضَةِ الَّتِي كَانَتْ تُذَكِّهِهَا الرُّوَائِحُ الَّتِي يَعْبقُ بِهَا الْمَكَانُ.  
 أَعْرِفْ هَذِهِ الطَّرِيقَ وَأَحْفَظْهَا عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ، فَكَيْفَ لَمْ تَخْرُبْ يَدَ الزَّمَانِ  
 هِنْدِسْتَهَا، وَكَيْفَ لَمْ تَذْهَبْ بِرُوَائِحِهَا الْمُتَدَاخِلَةِ وَالْمُتَنَاقِضَةِ؟ هُنَا مَرَّتْ  
 طِفُولَتِي.. كَمْ تَعَثَّرَتْ أَيَّامَ صَبَايَ بِهَذِهِ الصَّخُورِ الْحَادَّةِ النَّاتِئَةِ! كَمْ  
 مَرَرْتُ مِنْ هُنَا بَاكِئًا، وَكَمْ عَدْتُ إِلَى هُنَا مُخْرَبَ الْقَلْبِ! هَذَا الزَقَاقُ  
 الصَّغِيرُ الْمَغْطَى نِصْفَهُ بِطَبَقَةٍ مِنَ التَّبَنِ وَالطِّينِ تَحْمِلُهَا أَعْمَدَةٌ كَبِيرَةٌ  
 وَالكَثِيرُ مِنَ الْقَصَبِ، لَا يَزَالُ مُحْفُورًا فِي الذَّاكِرَةِ، لَكَأَنَّ سَنِينَاً مِنْ  
 الرِّيحِ وَالسَّيُولِ وَالشَّمْسِ الْحَادَّةِ مَا مَرَّتْ بِهِ! هَكَذَا ظَلَّ - كَمَا ظَلَّتْ  
 الْقَرْيَةُ كُلُّهَا - شَامِخًا وَمَتَمَاسِكًا، لَا قَسْوَةَ الْأَيَّامِ وَلَا أَنْأَثَ الطَّبِيعَةِ تَغْيِيرٌ  
 فِيهِ شَيْئًا. وَكَانَ حَرِيًّا بِي أَنْ أَخَاطِبَ إِغْرَمَ بِلِسَانٍ جَمِيلٍ بِشَيْئَةٍ قَائِلًا:  
 فَكَيْفَ كَبُرْتُ وَلَمْ تَكْبُرِي؟

حَرَكْتُ جُولِيَا ذِرَاعِي حِينَمَا لَاحِظْتُ غِيَابِي، فَالْتَفَتْتُ إِلَيْهَا. كُنْتُ  
 أَعْلَمُ جَيِّدًا أَنَّ مَلَامِحِي سَتُخَذِّلُنِي إِذَا مَا انْتَهَى هَذَا الزَقَاقُ إِلَى وَجْهِ أَحَدِ  
 سَكَّانِ الْمَنْزَلِ، الَّذِي كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ مَلْجَأِي، قُلْتُ:

- هِيَ الذَّاكِرَةُ يَا حَبِيبَتِي، تَصْحُو بِعَنْفٍ حِينَ تَسْتَفْزُهَا الْحَوَاسُّ.  
 الْجِدْرَانِ الصَّلْبَةُ وَهَذِهِ الرُّوَائِحُ وَكُلُّ شَيْءٍ فِي هَذَا الْفَضَاءِ يَعُودُ بِي  
 سَنَوَاتٍ إِلَى الْوَرَاءِ.

أَمَّا وَنَحْنُ نَدْنُو مِنْ نَهَايَةِ الزَقَاقِ، فَقَدْ كُنْتُ خَائِفًا مِنْ أَمْرَيْنِ اثْنَيْنِ:  
 أَنْ تَسْأَلَ جُولِيَا عَنْ طِفُولَتِي، أَوْ أَنْ يَنْكَشِفَ أَمَامِي وَجْهُ امْحَنْدِ أَوْ  
 زَوْجَتِهِ أَوْ أَحَدِ أَبْنَائِهِ. لَكِنْ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ لَمْ يَحْدُثْ، ظَلَّتْ جُولِيَا  
 صَامِتَةً كَأَنَّمَا أَحْسَسْتُ أَتْنِي أَنْزَفَ ذَكْرِيَّاتٍ، فَاحْتَرَمْتُ نَزِيفِي وَالتَزَمْتُ  
 الصَّمْتَ. مَرَرْنَا قَرَبَ مَنْزَلِ امْحَنْدِ فِي طَرِيقِنَا إِلَى تَلِّ الْعَرْعَارِ وَالْمَقْبَرَةِ -

المكان الوحيد الذي تحكمه التغطية الهاتفية. كان الباب الخشبي الكبير مغلقاً، وحده الباب تغيّر قليلاً وأثرت عليه قسوة الأيام. أمّا ما دون الباب، فإنني أمرّ به كأني ما رحلت ولا مرّ أزيد من عقدين على غيابي.

عندما انتهينا إلى تلة العرعار الصغيرة، التي تطلّ كسرفة على المقبرة، افترقنا، انصرفت جوليا إلى هاتفها وانصرفت إلى هاتفي، كان الفضاء خاليًا إلّا من أشباح أشخاص بعيدين، كانت نباتات العرعار والدوم وأزير تملأ المكان خضرة، وتضفي عليه روائح ساحرة لا يفهم سرّها إلّا من ترعرع بينها.

– الرسالة الخطيّة الأولى: علي السليمانى «لا تجعل العمل جُلّ ما يجمعنا... اشتقنا إلى صحبتك».

– الرسالة الخطيّة الثانية: رقم مجهول «اشتقت إلى الغريب الذي ألجأته القصيدة إلى أحضاني.. وغاب».

– الرسالة الخطيّة الصوتيّة الأولى: المهدي بن هاشم، الطبيب النفسي «ظهرت نتائج الفحص العصبيّ على العموم لا بأس بها، زرنا بعد خمسة عشر يومًا. حافظ على هدوئك ولا تنسَ تناول الدواء في مواعيده. عطلة سعيدة».

– الرسالة الصوتيّة الثانية: اندفع صوتها الذي لم تغيّره أصابعُ الزمان، قالت نضال:

«حبيبي هم اتهموني

وقالوا جننتُ

وهم أبعدوني لأنني عشقتُ

سأهواك حتى تفيض الجبال دموعًا

وتُغرق من ظلموني

إلى أن تختار أنت الرجوعا

سأهواك حتى التفثتُ،

حتى التفكك في الحب حدّ التشثت،

وحتى أصير شموعا

وحتى يوحد الحزن في الغرام

سأهواك حتى يدمر مني الضلوعا

هكذا داهمني صوتها رقيقًا كأنها لم تبعد أكثر من عقدين: ماذا

تريد نضال من هذه الغارات الشعرية؟ ومن أين حصلت على الرّم

الهاتفي؟

في تلة العرعار قرب المقبرة، تبدو منازل إغرم كمتجرّدة تستلقي

على السفح في أوج زينتها، أو هكذا تخيلتها على الأقل! أجريت

بعض المكالمات القصيرة، وتأملت جوليا وهي تناجي مسجلتها

الرمادية وتراوغ القبور بمهارة واحترام. جوليا تخبر مسجلتها عن

أيامها، وأنا أعيد الاستماع إلى شعر نضال، وأستعيد صورتها القديمة

وشفتيها المكتنزتين وغمّازيتها إذ تتطّلع إليّ مبتسمة، علاوة على الشال

الفلسطيني الذي يفضح انتماءها الإيديولوجي. أذكر قولها يوم وافقتُ

على ارتباطنا العاطفي:

- أنا أيضًا، لن أقاوم هذا الإحساس الذي تناسل خلصة بين

أضلعي. أريدك لا نصفني الآخر، لأنّي لست نصفًا كما صرّح غيفارا.

ولكن أريدك لي وحدي أنا، وأنت وكلّ مضطهد سنثار لشهدائنا...

لأبي.

وأجبت، أذكر ذلك جيّدًا:

- أنا وأنت إلى الأبد.

وأيضًا، أذكر أنني سخرتُ في سرّي من كلمة «الأبد»! من هذا النفاق العاطفي الذي طالما ورّطت نفسي فيه، ما أتعبني وأقسى الذكريات! أخذت رقم نضال من علّتي الصوتيّة، ورغّبتُه دون أن أكون واعيًا بما أفعل. وفي تلك اللحظة المخبولة التي سبقت رنين الهاتف، أحسست أنني أقدم على حماقة أخرى. فكّرت للحظات بالتراجع، لكنّ صوتًا ما داخلي همس: «ليست حياتك سوى سلسلة حماقات، فتمادي».

- ألو من؟

انطلق صوتها أدفأ من التسجيل الذي سمعته، وأقوى. أجبت:

- أنا مراد السيّ الحظّ.

- كيف حالك مراد... كنت أنتظر هذه المخابرة طويلًا.

قاطعتها بانفعال واضح:

- نضال؟

- ماذا؟

- لماذا الشعر؟

ضحكتُ، ربّما استغرابًا من السؤال الذي لم يأت به سياق الكلام، وقالت:

- ولماذا الحبّ؟ ولماذا الفنّ؟ هناك أشياء تقتحمنا يا مراد،

وتوطّد علاقاتنا بها وتحلّنا بخفّة، وأنا - إن شئت - اعتبرني مستعمرة جديدة لك وللشعر.

- ولماذا أنا؟

- لأنك أنت... أقصد لأنك الشخص الوحيد الذي لم أشف

منه .

- ولكنني نسيته .

- ولكنني قاومت نسيانك .

- لِنلتقِ... .

هكذا، تورّطت سهوًا.. وأحسست في تلك اللحظة أنني أجرّ نفسي نحو حرب خاسرة أخرى. أجابت بسرعة لكي تحبط أيّ محاولة مني للتراجع .

- أينك الآن؟

- أنا بين الجنّة والنار .

- ومتى ستحسم.. أقصد متى ستختار؟

- لست أدري.. .

- صدقًا مراد، أتوجد منطقة بين الجنّة والنار لم ترصدها حواسّ

نزار قباني الشعرية؟

- نعم . هي إغرم .

- وما محلّ إغرم هذه من الجغرافيا؟

- في سفوح جبل عيّاش .

- هل أنت وحدك؟

- أنا معهما .

- من؟

- إغرم وجوليا .

- على أيّ حال، أتمنى ألا تبخل علينا أقدارنا المجنونة بلقاء .

- اسألي الأقدار إذن . . قد تجيبك .

- اشتقت إلى أيامك . . . فلنبق على اتصال .

- أنا متعب . أخاف أن يستهلك الماضي كلّ حياتي . . أقصد أنا

خارج التغطية .

ودون أدنى وعي مني، قلت :

- وداعاً .

وأقفلت الخطّ، وأنا أغالب الذكريات التي حرّكت نضال  
جمرها . . . حتى هذه القرية التي لم أبرأ منها، أضحت تقسم أنّها  
ستخرّب حياتي التي كلّما رمت جزءاً منها انهدم جزء آخر .

جوليا قادمة كامل بعيد، والرياح الخفيفة تهزّ سنابل شعرها، فيبدو  
وجهها أكثر إشراقاً ونضارة . قبلت وجنتها بحبّ وطوّقت ذراعيّ،  
وانسحبنا مترنّحين نراوغ الصخور ونباتات أزيز . تلك التي أخذتُ  
منها غصناً صغيراً ووضعتّه فوق أذن جوليا، ولم أكن أدرك أنّ الطريق  
التي كانت سالكة في الذهاب لن تكون كذلك في الإياب، بل وستكون  
محفوفة بالمخاطر . لم أكن أعرف أنّ الأقدار ستضع أمامي الغمام  
الماضي، التي ما إن تمتدّ إلى نطاقها عيناى حتى تميد بي الأرض،  
وتنفجر قنابل الذكريات العنقوديّة التي تطوّق صدري .

كانت جوليا لا تزال تطوّق ذراعيّ . . حين انتصبت أحزاني أمامي  
فجأة . . أبصرت عجوزاً تجلس على عتبة الباب الذي كان ذات يوم  
باب ملجأى الأول . . لم أعرف أيّ إحساس ألحّ عليّ في تلك اللحظة

أن أدنو منها، ففي دواخلي كنت أجزم أن كل ما يقع لي من تدبير  
منتقم في مكان ما .

حين وقفت أمامها، لم تكلف نفسها مشقة التطلع إليّ، تتبعتُ  
تفاصيل وجهها كأنتي أستنطقه . كانت مقوسة الظهر، تضع معطفًا  
صوفيًا أخضر باليًا وغطاء أمازيغيًا أزرق على رأسها، يكشف عن  
خصلات شعر حمراء أدمتها الحنأ فأصبحت كزغب الذرة . وكان  
الوشمان، الأول الذي يستقر أسفل ذقنها؛ والثاني الذي يتوسط  
جبينها، كفيلين بأن يقولوا إنها هي لا غيرها . . نعم هي، زوجة امحمد .

أما في تلك اللحظة التي تطلعت فيها إلى يدها المبتورة من  
معصمها، فقد غلّفني إحساس بشع بالغثيان . . ولاحت في مقلتي  
أصداء ذكريات عن آخر عهدي بهذا المنزل وهذه السيّدة العجوز . . أما  
وجوليا تأخذ ذراعي قائلة :

– ما الأمر؟ لنرحل يا حبيبي .

فقد تطلعت إلينا العجوز بعينين غائرتين وفارغتين من أيّ معنى،  
كان كل شيء فيهما يقول إنها لا ترانا، إنها ضريرة . . سحبتني – ولا  
أدري كيف – يد جوليا إلى الزقاق الذي أسلمنا أول الأمر إلى هذا  
الفضاء، وكلمات العجوز الأمازيغية المستفهمة لا تزال تلاحقني،  
ووجهها الجاف الأقرب إلى مستنقع يابس فعلت به التجاعيد ما شاءت  
ظلّ جائمًا على مخيلتي لا يبرحها . ومضينا صامتتين . . فرحتُ قليلاً  
لأنّ جوليا لم تسأل عن سرّ هذا الوقوف الاضطرابي أمام تلك  
العجوز، لكنني في تلك اللحظات القليلة التي وقفت فيها أمام ماضيّ،  
التفتُ إلى هشاشتي الداخلية، وأيقنت أنّ حياتي من الممكن أن تنجرف  
نحو تخوم مأساوية جدًّا .

ونحن نقترّب من الفندق، وبعد محاولات جوليا المتكرّرة إخراجي من تلك الغيوبة النفسيّة التي أصابتنى بعد رؤية تلك العجوز، قالت:

- سأرحل يا مراد.

نزلت عليّ كلماتها المقتضبة كنزفٍ، لكنني قاومته على مضض. وأجبت ببرود مصطنع:

- إلى أين؟

- مراكش.. أخي قدم إلى المغرب وألحّ على لقائي.

- إذن، ستخلفيني هنا مهملاً ووحيداً؟

- هي أيّام قليلة، وأعود.

- فليكن.. لك ما شئت.

فلترحل إذا شاءت، فأنا لم أربح في حياتي شخصاً لأخسره، هكذا كان العالم من حولي يُشيّد وينهار باستمرار، وأنا أقف في فوضاه كمسمار مدقوق بإحكام. كلّ الذين أحبّهم وحتى الذين أكرههم رحلوا دون أن يلتفتوا إلى أنّي أنزف.

حين دخلنا إلى مقهى الفندق، وجدناه مكتظّاً بالأجانب، تساءلت في سرّي: أيرؤونَ إغرم حقّاً؟ كان بعضهم غارقاً في دردشات تخصّ سحر الطبيعة، والبعض يأخذ صوراً مع حميد وأطفاله.. التفتُ إلى رجل غريب يجلسُ في الطرف القصيّ من المقهى، كانت عباءته القصيرة وجواربه الطويلة التي لا شكّ تصل إلى حدود ركبتيه كفيلاً بأنّ تقول أشياء عنه، على الرّغم أنّه يولي للحاضرين ظهره. لمّا استدار قليلاً كانت لحيته المسبلة تهتزّ في دلالة على أنّه يلهمج بكلمات رجّحت

أن تكون دينيّة، وأيقظ فيّ مخاوف كانت نائمة، فسحبت جوليا التي كانت قد انغمست في إحدى الدردشات من ذراعها، ومضينا إلى الغرفة. كان منظر ذلك الرجل الغريب يشير داخلي أسئلة وظلال مخاوف، خلقتها انطفأت مع الزمن، وتذكّرت وجه مصطفى الذي احترق في حفلة الشواء الآدمي التي نظّمها رعاة الظلام. لست أنسى تلك اللحظة التي سحبه فيها ضابط الشرطة من ثلاجة الموتى، وأماط الغطاء ببطء قاتل على وجه احترق نصفه.

كلّ الذين أحبّهم يرحلون...

## (٧)

رحلت جوليا هذا الصباح، أَمَطْنَا مَعًا الغطاء على سَيَّارة الجيب الرياضية خَاصَّتْهَا. عَانَقْتُهَا طَوِيلًا، وراقبت سَيَّارتها وهي تصعد الطريق الطويلة الملتوية وتجرّ ذيلًا من الغبار والحزن، لم أكن أَتَصَوَّر مطلقًا أَنَّ غيابها سيذكّرني بفداحةٍ وحدتي. ها أنت وحدك يا مراد في هذا الفضاء المشحون بالذكريات، هنا ستواجه ماضيك وأناك المنسيّ: أوداد.

هنا، في هذا الملعب الذي لم يعد ملعبك، ستواجه الحياة، حياتك في أشواطها الإضافيّة الأخيرة، فكرة الانتصار التي منَّاك بها طبيبك النفسي بدأت تضمحلّ وتلاشى، ولم يبقَ أمامك سوى أمرين اثنين أحلاهما مرّ: إمّا الهزيمة وإمّا الخروج بتعادل سلبيّ وقلب معطوب. رحلت جوليا بعد أن خبّأت في فيروز عينيها شذرات من طفولة الوعل الأمازيغي: أوداد. إنّها تفهم جيّدًا بؤسي ربّما منذ اللحظة التي رأت - دون أن تستفهم - تلك الندوب العريضة التي تشقّ كأخاديد ظهري، لكنّها بعد ما سمعت عن أوداد ما سمعت، تَگَاد تجزم أنّ

«أتعس منه لم تلد النساء...»!

لا تدري بأنّ حزني وحزنه واحد...

الآن، وأنا أحترق هذه الشعبة التي مرّ بي ذات حزن خصبها،  
وجرتني إلى موت كنت أشتهيه لولا يد (من خلال الموج) مدّت  
لاستعادتي أشعلُ سيجارة بانفعال، لن أنسى ذلك اليوم الماطر الذي  
راودني فيه الموت هامسًا: هيت لك. أخذتُ نفَسًا من السيجارة، وأنا  
أتطلّع إلى الطرف الآخر من الجبل، تمامًا إلى قطيع خراف ينتشر  
بهندسة غير مفهومة.. لو جرّني الموت في ذلك اليوم الحزين، أو على  
الأقلّ لو لم تخنّي الشجاعة أمام الهاوية السحيقة، لكنت أعفيتُ  
الكثيرين من نهاياتهم البائسة، وعلى رأسهم خولة. لطالما شعرت أنّ  
كلّ من يحبّونني بشغف أو يكرهونني بقوة يلقون المصير نفسه، إذ  
يدفعون حياتهم ثمناً لحياتي التي كان من المفروض أن تنتهي بقفزة من  
رأس الجبل.. وكانت الجدّة أم امحمد، التي دفعتني إلى التفكير في  
الانتحار، أوّل ضحيّة لِلْعَنَتِي، فبعد أسابيع قليلة من نجاتي من بين  
فكّي النهر الهائج، وفي إحدى صباحات إغرم المشرقة بعد أسابيع من  
المطر، ظلّت العجوز في المنزل في الوقت الذي تنسحب إغرم إلى  
الحقول، في مطبخ العائلة هناك، في ذلك المكان الذي يعلوه الكثير  
من السواد ويتوسطه الفرن الطينيّ، الذي ما إن يتلع القليل من الخشب  
حتى يهدر ويصدر أصواتًا أشبه باصطخاب الأمواج. المهمّ هناك، وفي  
ذلك الصباح الذي يقول أهل القرية إنّهم لم يشهدوا مثله، ستحرّر  
ألسنة اللهب - ولا أدري ولا أحد يدري كيف - من الجدران الطينية  
للفرن، وستزحف كحيّة وتبتلع في طريقها إلى جسد العجوز الأخضر  
واليابس. كنتُ يومها - ولا أدري أيّ الصدف العمياء جرّتني إلى هناك  
- قرب المنزل، حيث انتهت إلى مسمعي استغاثاتها المبحوحة،

واندفعت أعمدة الدخان من النوافذ كسربٍ غربان.. كان صوتها يعلو شيئًا فشيئًا إلى أن صار أقرب إلى مواء قطط متشاجرة. أذكر جيدًا أن سرب الحمام، الذي كان يربط في سطح المنزل، قد رفرف دفعة واحدة. حين اقتربت خطوات ذلك الرجل المسرعة، وما إن سمع أصوات العجوز ورأى أعمدة الدخان حتى انطلق كسهم إلى الحقول؛ أمّا أنا، فلم أبرح مكاني كأثما صرت وتدًا دُقَّ قرب المنزل بإحكام، راقبت أصوات العجوز وهي تفقد قوتها وقسوتها وتختف، إلى أن أصبحت أشبه بنشيجي في ذلك اليوم المشؤوم الذي اضطررتني فيه إلى التفكير بالانتحار..

أمّا ما تلا تلك اللحظات الغامضة التي انكسر فيها صوتها، فقد كانت أشبه ما يكون بكابوس مزعج، بسرعة اندفعت القرية كلّها وتحلّقت حول الباب الذي دفعه أحدهم، فإذا الدخان يندفع أكثر سوادًا. في لحظات قليلة، صار أهل القرية يدًا واحدة تدنو وتبتعد من الحريق؛ أمّا الماء الذي كانت تستقدمه النساء من النهر، وغالبًا ما يتأخّر، كان لا يزيد النار إلّا جبروتًا وتحديًا، لكن، ولأنّ لكلّ أمر نهاية، أو لأنّ النار قد قضت مأربها، أو لأنها - وهذا الأرجح - كلّت أمام هذه اليد القويّة التي تجتمع على الأفراح والمسرات، فقد أصبحت أقلّ مقاومة ثم ما فتئت أن انطفأت فجأة.

تحلّقت أهل القرية كلّهم حول الباب بعد إخماد الحريق، كان الأمر بعد إبعاد مقصود لامحند. تقدّمت زوجته بجسارة غير محسوبة ودخلت المنزل، ولحق بها شابان اثنان، هؤلاء لم يكونوا مدرّكين أنّهم يسرون نحو الجحيم بتسرّع أقرب إلى البلادة، بينما ظلّ الكلّ تلوّكه مديّة الانتظار. قيل إنّهم لم يجدوا سوى القليل القليل منها، وقيل أيضًا إنّ ملامح وجهها اختفت، وإنّ جلدها انسلخت وأصبحت أشبه ما يكون

بحبة بطاطس مسلوقة، لكنّ الأمر المؤكّد هو أنّ حجم ذلك الشيء الذي كان ينام تحت الغطاء الأبيض الذي تعلوه بقع قاتمة السواد ليس حجم جسدها. وأنا أقف أمام بقايا العجوز، فقد كنت أقف بين الغبطة والشفقة حسيّراً.

وما هي إلاّ أيام معدودة حتى انفجرت في القرية مصيبة أخرى، فاللعنة لعنتي - كما يؤكّد شيخ القبيلة - امتدّت لتشمل زوجة امحمد والشابّين الآخرين اللذين تطوّعا لإخراج العجوز بعد إخماد الجحيم، إذ اكتشفت الزوجة ومعها الشابّان أنّ جلدة الجدّة المسلوقة بعد إخراجها من المنزل قد التصقت بأياديهم التصاقاً مرّضياً، في البدء عالجوا الأمر بالغسل المتكرّر، وفيما بعد شرعوا في وضع بعض الأعشاب والدهون التي نصّح بها فقيه القرية، لكنّ ذلك لم يؤتِ أُكله، واستمرّت المعاناة، ومع تقدّم الوقت، بدأت تعلو أياديهم بعض الندوب والتورّمات التي تنفجر بالقبح والروائح التّنة!

بعد ما وقع من أحداث، لم تعد القرية كما كانت، صاروا أكثر انفعالاً من ذي قبل. حتى إنّ أبسط الأشياء صارت تستفزّهم. أُجلّت كلّ الأعراس التي كانت مقرّرة إلى أجل غير مسمّى، حتى الأفراح الطارئة كميلاد طفل أو عودة غائب، كانت تُستقبل بفرح بائس يائس وملتبس بالخوف، الخوف من أنّ اللعنة تتربّص بكلّ فرح في القرية.

وكانت حياتي بعد ذلك مرّة جدّاً...

صار لسان شيخ القبيلة وزبانيّته أحدّ من السيف، قال بأنّ الموت ابتلع روح العجوز لما فشل في أخذ أوداد، وأنّ لعنته لن تكتفي بروح العجوز، بل ستسعى بحياة حتى تبتلع القرية كلّها.. لم أسمع هذا الكلام صراحة، لكنني استشعرت في نظراتهم التي صارت أكثر توجّساً،

حتى امحمد الذي كان أكثرهم رافة بي، أصبحت نظراته تجاهي بعد هلاك أمّه غامضة، وكلماته وأوامره المقتضبة الجافة أقرب إلى القسوة، أما زوجته، وبعد إصابة يديها بتلك القروح التي أبث أن تمّحي، فقاطعتني نهائيًا. وكنت، حين ينشر الليل وشاحه القاسي على القرية، أضيف السمع إلى حواراتهما الليلية. كانت لا تنفك تلحّ عليه بضرورة إبعادي، بحجة أنّ بقائي استمرار لمحتتها وأنّ رحيلي قد ينهي مرضها.

امحمد، الذي كان أوّل الأمر متحقّقًا في النقاش، صار في الليالي المقبلة أكثر استعدادًا للسمع وبسط الموضوع، لا سيّما وأنها تلوك الموضوع ليلاً، وأهل القرية - وعلى رأسهم شيخها - يلوكونها على مسمعه نهارًا. بمرور أشهر قليلة على الحريق الذي ابتلع أمّ امحمد، وبعد أن فهمت أنّ وجودي في ذلك المنزل أمر غير مرغوب فيه مطلقًا، صرت أقلّ تردّدًا عليه. أحيانًا كنت أعود إليه للمبيت فقط، أما أغلب الأوقات، فقد كنت أفرّ من المدرسة البعيدة إلى الجبل، وأحاول عبثًا اصطياد الأرناب التي تظهر وتختفي بلمح البصر، وحين أعجز عن اللحاق بها، أرشق الحجل بالحجارة. لكن أسعد اللحظات هي تلك التي أقضيها في مراقبة الوعول وهي تسلّق الجبل بمهارة؛ ثم بعد هذه المتعة التي لا تضاهيها متعة، أمرّ على الحقول أكل ما شئت، ثم أفرّ من نظرات أصحابها إلى الجبل، أمرّ لمأمّا على مقام سيدي عيسى أحدثه فلا يجيب، فأنشر دفاتري قربه وأراجع دروسي، وأنطلّع بين الفينة والأخرى إلى شجرة التين التي طالما كان يحكي عنها امحمد.

كانت وقتها بعيدة عن تناول يدي...

حين اقترب صيفي الأخير بإغرم، وقتها كنت في نهايات المرحلة الدراسية الابتدائية والتي كانت منتهى تدريس أهل القرية. فإذا كان

تجشّم بضعة كيلومترات من أجل الدراسة أمرًا ممكنًا، فإنّ السفر خارج إغرم - قصد متابعة الدراسة، أمر غير مقبول. فالمكان الحقيقي لأبناء القرية مسطرّ سلفًا، إنّهُ الحقل.. وما هي إلّا أربع سنوات أو خمس حتى يتزوّج أقراني ويصيروا آباء كذلك، هكذا يصبحون امتدادًا لآبائهم وربّما يفرضون على أبنائهم أن يصيروا مثلهم، أو بالأحرى امتدادًا لهم. أمّا أنا، فقد كان مصيري معلقًا، أنا الطفل الغريب الأطوار.. في تلك الأيام العصيبة التي سكنتني فيها فضاءات إغرم الأشدّ عزلة. كان ناسها ينفرون منّي دون أدنى سبب كأنّي مُصاب بعدوى، حتى امحند كان يخاطبني ببرود، ودون أن يتجشّم مشقّة النظر إليّ! وقتها فهمت أنّ وجودي في القرية أضحى أمرًا مستحيلًا، وأنّ الفراق مسألة وقت وحسب.

وكانت الأقدار أو الصدف الملعونة وراء كلّ ما حصل بعد ذلك. في صيفي الأخير وقتئذ، زار إغرم رجل غريب، قريب للرجل الذي انتشلني من بين فكّي الوادي، علمت فيما بعد أنّه كان حاضرًا يوم تحرّش بي الموت، وأنّه في ذلك اليوم الحزين، فكّر أن يتبنّاني، وأن يصحبني معه فور إنّهائي للمرحلة الابتدائية. ولأنّ القرية كلّها كانت تبحث عن منقذ، فقد وجدت في هذا الرجل - الذي سيصبح فيما بعد أبي بالتبني - منفذًا للخلاص وفرصة لا تُعوّض، لذلك فقد حرص كبار القرية على التكتّم لئلا يبلغه شيء عن لعنتي التي تسكنني، ولا عن تلك الملاحم التي أُلّفَت في خيال القرية الجمعي، والتي كان أوداد بطلها الأوحده. الكلّ تحالف لإبعادي، أبشع إحساس يمكن أن يتكبّده المرء هو أن يحسّ أنّ الجميع يتكالب ضده، أن يحسّ أنّه منبوذ كأنّما يشكو من مرض معدٍ من دون أن يملك أحدهم الجرأة على التصريح بالأمر أمامه! وكان مَرَضِي خارج حدود جسدي. هناك في أذهانهم

يحملون مرضي. الأيام التي قضيتها في الجبل بمفردي جعلتني أعني  
جيدًا، أنه ليس لي أحد في هذه الحياة، وأنني أدفع ثمن أشياء لم  
أقترفها، كان هذا الإحساس يهتصرني، يسحق دواخلي المتعبة منذ  
الطفولة.

لا زلت أذكر ذلك اليوم الحزين كأنه الأمس، حين اقترب امحمد  
والرجل الغريب مني كأمل زائف، وأذكر كذلك أنني كنت جالسًا في  
مقام سيدي موسى، قلب إغرم، أقلب صفحات القصص التي أهدتها  
المدرسة عقب تفوقي... توقف امحمد بعيدًا، تطلعت إلى عينيه  
المتعبتين، كانتا تقولان أشياء كثيرة ومبهمة، أما الغريب، فقد اقترب  
منّي بخطى واثقة، كانت ملابسه الضيقة وتلك القبة المائلة فوق رأسه  
تجعله أشد غرابة، حين وقف أمامي، انحنى ثم جلس، أخذ بعض  
القصص، قلب صفحاتها أكثر من مرة وهو يضمّر ابتسامة خفيفة،  
سألني:

– أتحبّ القراءة؟

– نعم.

وابتلعه الصمت مجددًا، وإن كانت ملامحه أكثر انطلاقًا.. أما  
امحمد فقد كانت ملامحه غائمة، أحسست أنه يبكي، وأنّ دموعه  
تنسكب داخله، استرسل الغريب:

– أتحبّ أن تتابع دراستك بالمدينة؟

– ولكنني أحبّ إغرم...

– وإغرم لن تهرب من مكانها. ما هي إلا سنوات قليلة وتعود  
إليها أكثر نضجًا ووعيًا.

وتوقف عن الكلام - أذكر هذا جيّدًا - كأنّما أحسّ أنّ هناك خللاً  
في تركيب الجملة، أو أنّها لا تناسب سنّي، وأردف:

- ما اسمك يا بني؟

- أوداد..

- هل هذا اسم؟

- بالطبع.

- إذن، ماذا لو غيرنا حروفه قليلاً ليصبح أوداد: «مراد»؟

هكذا وُلد اسمي أو كلبّي السلوقي الوفّي كما أسماه درويش،  
المهمّ أنّني تمرست بالصمت حين لم أجد الكلمات المناسبة للردّ،  
فانصرفْتُ إلى قراءة الكتاب الذي كان بين يديّ مصطنعاً نوعاً من  
اللامبالاة، أرْدُ بها كلّ ذلك الارتباك العنيف الذي خلّفه داخلي هذا  
الغريب الذي لا تزيده كلماته إلّا غرابة. حين بدأ الصمت يتّسع بيننا  
اقترب منّي أكثر، ربّت على شعري قائلاً:

- مراد.. أعرف أنّك تظنّ أنّ حياتك لا معنى لها، كما أعرف  
أنّك ذقت الأمرين هنا، لكن يبدو أنّك ولد جيّد وتستحقّ أفضل ممّا  
أنت فيه الآن، سأخذك معي إلى المدينة، ستصبح ابني وستعيش في  
بيتي. هناك ستلتحق بالإعداديّة، وسأكون سنداً لك إلى أن تكبر وتصبح  
رجلاً.

تطلّعت لأوّل مرّة بشكل جدّي إلى ملامحه وتتبّعت تفاصيل  
وجهه، ووقفت طويلاً عند ابتسامته العريضة. لست أدري أيّة قوّة  
جعلتني أصدّقه بل وأستسلم لكلماته، ربّما هو إحساسي بأنّ بقائي في  
إغرم أضحى عبأً يثقل كاهل أهلها. لم أكن أعرف وقتها أنّ رحيلي إلى

المدينة وأيامي فيها لن تكون سوى امتداد أشدّ مأساوية لكابوس استهلّ يوم نفث امحمد الحقيقة، حقيقتي في مسمعي، ولا زال مستمرًا إلى حدود اللحظة.

أشعلتُ سيجارة من أخرى، تطلّعت إلى القطيع الذي لم يعد يظهر منه سوى بقعة صفراء هناك في الأفق البعيد، دهست عقب السيجارة الميتة بقدمي، وقفلتُ راجعًا إلى الفندق...

المكان ينعش الذكريات ويثقف رؤوس أشواكها، ثم يحفّ القلب بها ويجعلها تضيق عليه إلى أن يسيل بمرارة قاسية. أذكر قول الطبيب النفسي، فتفرج شفتاي ببسمة مخدولة وساخرة:

- حاول أن تتعامل مع ماضيك مثلما يفعل كاتب حين يسرد معطيات عن شخصيّة روائية، ومثلما يعلم هو أنّ تلك الحقائق رغم أنّه متورّط فيها إلّا أنّها لا تعنيه. عليك أيضًا أن تقيم حدودًا بين أوداد الذي كان ومراد الجالس أمامي. لا تدع ماضيك يبتلعك.

وبالطبع، فالطبيب النفسي لم يصل بعد إلى قناعة مفادها أنّ أوداد ندوبٌ لا تُمحي من روح مراد، أمّا الآن وقد أغرق سحر المكان قلبي في نبذ الذكريات، فقد انقلبُ إلى حالة من الثمالة العاطفية يلبس فيها ماضيّ بحاضري، فأشعر أنّ قرون الوعل الأمازيغي الذي كنته فيما مضى تنتفض داخلي فتدّمي كلّ شيء.

الآن، وقد بدأت أتخلّص من الصدمة النفسيّة التي مررت بها البارحة، أتذكر العجوز زوجة امحمد ويدها المبتورة، فأؤكد أنّ اللعنة أتت عليها.. الآن فقط أكتشف أنّني لم أبتعد عن إغرم كثيرًا. الآن أمام جلال الجبل وتواضع النهر وغبطة الحقول ووحدة القرية، تضطرم جذوة الحنين إلى ما لست أستطيع تمييزه من تفاصيل هذا المكان،

الذي كلّمَا حاولت استكنّاه الأسباب التي ورّطتني فيه أدماني.

العجوز التي أبصرتها البارحة، زوجة امحمد، أشعلت داخلي لهيب أسئلة محرقة عن مصير ذلك المنزل الذي آوى طفولتي وإن كرمًا. آه، كيف انتهت بها الأمور إلى بتر يد واحدة دون الأخرى، على الرّغم من أنّ جلدة الجدّة التي احترقت قد التصقت بكلتا يديها، زوجة امحمد هذه كانت محايدة إلى درجة أنّها متورّطة بشكل أو بآخر في محنتي، كبرت في منزلها مهملاً، كأني شبح لا يرى، كلماتها كانت قصيرة ومتنافرة وغير مفهومة. لم تكن تظلمني في شيء، لكنّها لم تكن تقف في وجه من يظلمني، ولست أنسى يوم نزلت عليّ الجدّة أم امحمد بالضرب والشتائم، كيف أنّها لم تتدخّل، ظلّت ترمقني بين الفينة والأخرى بنظرات باردة وهي تواصل أعمالها المنزليّة، كأنّ الذي يحدث أمامها ليس جرمًا في حقّ طفل لم يقترب خطأ سوى أنّ الأقدار العمياء جرّته إلى بيتها.

في طريق العودة، فاجأْتُ سرب حجل رفرف غير بعيد عن الأرض وعاد متثاقلاً إليها، أخذت غصن أوزير شمّته بوله، أغمت عيناها قليلاً وداهمتني خيالات بعيدة عن طفولة تركتها تائهة القدم هنا، ها هي رائحة أوزير توقظ فيّ أشياء صميميّة كلّما تأملتها خرّبتني. عندما فتحت عينيّ، استبدّت بي الدهشة حين وجدت الدماء تعلو غصن أوزير الذي كنت أضعه تحت أنفي، مررت بيسراي على الأنف، فإذا هو رعاف وإذا الدماء تملأ يدي، قذفت السيارة بعيداً وأغمدت يدي في الجيب، سحبت المنديل بسرعة، ووضعت على أنفي إلى أن توقّف النزف. عجبت لهذا الرعاف المفاجئ، لكنني واصلت طريقي وإن بخطى أكثر تثاقلاً، أشعلت بانفعال سيجارة أخرى، أحسست أنّ أفكارني تتشظى وأنّ المآ حاداً يحفر بين جذران جمجمتي.

عندما انتهيت إلى النهر، رشقت وجهي بالماء طويلاً، خلعت  
 حذائي والجوارب، قمت بطي سروالي إلى حدود ركبتني، وأغرقت  
 قدمي في الماء البارد، بللْتُ شعري.. كل هذا لم يجعل نزيف  
 الذكريات إلّا أكثر احتداداً وعنفاً. تطلّعت إلى قلعة الرومي التي  
 استحالت إلى أطلال بالية، لكن ما أعقب تلك النظرة كان أشبه بإغفاءة  
 تلد حلمًا، أقرب إلى لحن هادئ جدًّا! هناك، بعيدًا عنّي تمامًا أمام  
 مزار سيدي عيسى، رأيت - أو تهيأ لي أنني رأيت - حصانًا أسود  
 رائعًا تمتطيه فتاة لا يميّزها سوى شعرها الطويل المتطاير بفعل السرعة  
 التي يعدو بها الحصان، هكذا برق طيف الحصان الأسود وسيّدته،  
 وبسرعة ابتلعهما المضيق، واستبدّت بي الحيرة.. هل كان ما رأيت  
 حقيقة أم مجرد وهم ناتج عن التعب النفسي الذي أنهك قواي العصبيّة  
 هذا الصباح؟ لكن ممّا لا شكّ فيه أنّ تلك الصورة البديعة لفتاة ترتدي  
 فستانًا أسود وتمتطي صهوة جواد أكثر سوادًا لم تتمّ بسهولة من  
 مخيلتي، ربّما هو مجرد وهم تراءى لي، ليس بحكم قصر المدّة التي  
 رأيته فيها وحسب، بل لأنّه من الصعب والأقرب إلى المستحيل أن  
 تخرج فتاة إغرم من بيتها مسبلّة الشعر تمتطي صهوة حصان!

التقيتُ بحميد قرب الفندق، استفسرتُ عن الفتاة، فأجاب بالنفي  
 وأردف ذلك بكلام كثير عن أعراف القرية ومحظوراتها، التي كنت فيما  
 مضى أحفظها عن ظهر قلب.. طلبت منه أن يحضر لي قهوة سوداء  
 وجلست في البركن الركين من المقهى، شربت قهوتي ببطء ودخّنتُ  
 سيجارة - الواحدة تلو الأخرى، تأملتُ إغرم من النافذة، تتبّع ألوانها  
 المتداخلة بنزق فنّان تشكيلي من دون أن أصل إلى سبب واحد جعلني  
 أتورط في عشقها.

في غمرة الرؤى والذكريات التي تومض وتختفي، تذكّرتُ خولة،

تذكرتُ حبّها العنيف الذي جرّها نحو الانتحار، وجرّني بعدها إلى  
مستشفى الأمراض النفسية، تذكرتُ أيضًا مذكرتها الحمراء التي تنام في  
حقيبتني في انتظار أن أقرأها، أخاف أن أفتضّ سرّها، فلا يزيدني ذلك  
إلا تعبًا وحزنًا...

وإن يكن، لا بدّ أن أقرأها، وإن كان في ذلك موتي...  
لا بدّ من ذلك.

## (٨)

«لا أعرف ذلك المكان، فالعتمة كانت تخيّم عليه! كنت متّكأ إلى حائط أو شيء من هذا القبيل، أنتحب وأنا أنأمل ذلك الرجل ضخّم الجثّة الذي لا يظهر منه سوى النصف السفلي بفعل العتمة والإضاءة الخفيّة التي أجهل مصدرها. همس الحلم في مسمعي أنّ هذا الرجل الضخّم هو والدي، كان يقبض بيده على سكين حادّ يلمع، وأردف الحلم أنّه مكلف مهمّة قتلي تحت طلب إلهي. كانت دواخلي ترتعد خوفاً، وهي من المرّات النادرة التي يعتريني فيها الخوف. بحلقت طويلاً في العتمة عليّ أستبين ملامحه أو أفورّ منه بنظرة، هي نظرة واحدة لأعرف قاتلي، لكنّ وجهه بدا أبعد ما يكون، حتى إنّني ظننت أن لا وجه له. لكن ما أذكره جيّداً أنّ الدمع كان ينهمر من عينيّ دون انقطاع. في لحظة عاصفة، صرخت في وجهه الغابر: افعلها واخلّصني، لكنّه ظلّ واقفاً لا يحرك ساكناً، كأنّه مدقوق بمسمار إلى ذلك الفراغ الذي كنّا نسبح فيه.

وكان أمر الله قد جرحني...

بكيت في الحلم كما لم أبكِ يوماً، لأنني لم أتصوّر أنّ ذبحي سيكون على يد رجل ذبحني قبل الحلم مرّات ومرّات، من دون الحاجة إلى أمر إلهي. فجأة بدأت يده التي تقبض على السكين ترتجف بعد أن صرخت فيه أن يخلّصني من حياة معطوبة.. ثم انتهت حين بدأت يده تتخلّص من ارتجافها إلى نشيج يأتي من مكان ما، التفّئ يساري فارتجفت حين رأيت خولة، ورأيت عينيها الواسعتين وقد امتلأتا دمعاً، كانت تلبس فستاناً أبيض رائعاً وتنزف دمعاً. عيناها الجميلتان تقولان أشياء كثيرة وغير واضحة، أحسست أنّها تبكي من أجلي وبكيت بشدّة من أجلها، ومن أجلي أنا الواقف على صراط أرقّ من شعرة بين الحياة والموت بين الجحيم والخلاص.. واستيقظت.

في البدء، لم تسعفني الذاكرة على تذكّر أيّ شيء، تطلّعت وأنا أكفّف أدمعي إلى خيالات النافذة وإلى باب الشرفة المشرع، تذكّرت أنّني في إغرم، ورميت يدي إلى جانبي، وتذكّرت كذلك أنّ جوليا رحلت، فزحفت إلى المصباح الصغير المتاخم للسريّر أشعلته ففزعت حين بحلقت في الحمرة التي تعلو الوسادة، مرّرت بأصابعي على أنفي فإذا هو رعاف آخر، قفزت بخفّة لا أعرف مصدرها، أشعلت نور الغرفة، ووقفت طويلاً أمام المرأة أتأمّل تلك الخيوط الدموية التي علت وجهي، أمّا عندما رشقت وجهي بالماء فقد بدا أكثر صفرة، استشعرت مرارة فظيعة في جوفي وعادوني الحلم كشريط يمرّ ببطء قاتل.

خولة.. كيف يزرغ طيفك في حلم كئيب كهذا؟ كيف تعودين إليّ دامعة لشهدي موتي واستحاليّتي إلى ذبيح الله في حلم؟ كيف تفعلين وأنت هناك في عوالم الغيب؟ ترى.. أحبّك المجنون أعادك لتصحّبيني أم أنّك اخترت أن تكوني أضحية فدائي؟ أجئت لتأخذيني بعد أن أتملّص من الطينيّ فيّ أم عدت لتستبقيني في حياة الزبل هذه؟!

متمايلاً كمخمور اكتظّ به الحزن، دنوت من الحقيقة التي تحوي  
مذكرة الشهيدة. مددت أصابعي لأفتحها، لكنني في اللحظات الأخيرة  
تراجعت. استشعرتُ تعباً قاسياً يرسو على جسدي ويجعل تلفتي إلى ما  
مضى يأخذ شكلاً أكثر مأساوية. أحاول مرة أخرى أن أفتح الحقيقة  
وأستخرج جثتها وأفتح للحزن باباً آخر في أضلعي.

الحبّ يحرق والحبّ يزهدق أرواحاً والحبّ يغرق والحبّ يرهق  
القلب والذاكرة، وهذا أضعف حبّ وأتعبه. الحبّ أزهدق روحها  
وأحرقها كفراشة في بيدر، والحبّ أرهقني وصيرني بعدها قبلة  
للأحزان.

قبل أن أطفئ نور الغرفة، أزحت الوسادة التي غمرتها دمائي، أما  
حين تمددت فوق السرير، فقد عاودتني ذكرى الحلم: ذلك الرجل  
الغريب الذي همس الحلم في خاطري أنّه والدي، لا يستحقّ أن يكون  
إنساناً فبالأحرى إبراهيم! ومن أنا لأكون ذيباً ثانياً لله في حلم، بقدر  
ما أيقظ وجعي الأول بقدر ما أكّد لي أنّ حياتي تسير وفق مشيئة خفية  
يحكمها منطق المؤامرة. أيتأمر عليّ الله أم الأقدار أم الصدف العمياء  
أم أشياء أخرى؟ لست أدري.

لو أنّه فعلها فقط وخلصني، لأكمل في الحلم ما بدأه يوم جاء بي  
إلى حياة كهذه! أحياناً، أحسّ كما لو أنّه هو وتلك التي تقيأتني قد  
ذبحاني نصف ذبحة وتركاني أنزف - لا الموت يقبل بي ولا الحياة  
تصلح ما أفسده.. نزفت كثيراً، فلو أنّه أكمل في الحلم ما بدأه في  
الواقع لارتحت، لكنها الحياة أثرت أن تتركني أواصل نزيغي في صمت  
موجع.

\*\*\*

استيقظت متأخراً، شعرت بحيويّة غريبة تسري في كياني .  
استحمت بسرعة وحلقت ذقني وقرأت بعد ذلك فصلاً لنيتشه،  
وانطلقت بخفّة طفل إلى المقهى الذي كان يعجّ بفوج جديد من  
السيّاح. شربت على مهل قهوة الصباح وأشعلت السيجارة الأولى،  
وطاردت في تداخلات دخانها تلك الفتاة الشامخة التي تمتطي صهوة  
حصان أسود، تلك التي رأيته - أو تهيأ لي أنني رأيته - البارحة .

حين انطلقتُ إلى إغرم، داهمني إحساس حادّ بالوحدة. أمّا عندما  
انتهيتُ إلى تلك الحيطان الصفراء والدروب المشبعة الضيّقة التي تعبق  
بروائح، بقدر ما تنعش الذاكرة، تجرحني. وحين انتهى بي المطاف إلى  
قلب القرية، أقصد مزار سيدي موسى، فقد ازدحمت بي الذكريات  
وتناسلت أخرى داخلي وكُبرُت بسرعة. باب المزار - كما هو دائماً -  
مشرّع على آخره. دخلته، وتقدّمتُ في الزقاق الصغير الذي يفضي إلى  
بهو كبير تتوسّطه شجرة تين وارفة الظلال. كم شاخت هذه الشجرة على  
الرّغم من أنّها تبدو متماسكة، قلبها هنا في المزار ورأسها في السماء!  
أيّام طفولتي، كان هذا المزار أحد أمكنتي المفضّلة، كم بسطت قرب  
هذه الشجرة دفاتري وكم حاولت رسمها مراراً! لطالما اعتقدت أنّ لهذه  
الشجرة روحاً خفيّة، لا سيّما وقد كان فقيه القرية يُربط إليها المجانين  
والمرضى بالحنين. . أمّا أنا، فقد كنت أتابع انتجاباتهم الطويلة، وهم  
يحاولون التملّص من الحبال الوثيقة التي تشدّهم إلى جذع الشجرة.  
وكثيرة هي المرّات التي أنخرط فيها مع هؤلاء المجانين في أحاديث  
متشعّبة، تبدأ عادة بأسئلة بريئة وتنتهي بي وأنا أصيخ السمع إلى  
أوجاعهم وهي تسيل من أفواههم. كانوا طيّبين إلى درجة جعلتني أتساءل  
إن كانوا فعلاً مجانين؛ كما يروّج لذلك فقيه القرية، أم أنّ الناس  
الآخرين وعلى رأسهم هذا الأخير هم المجانين الحقيقيّون!

قرب هذه الشجرة التي أتَّبَع الآن تجاعيد لحافها، سمعت الكثير الكثير من القصص التي أدمت أبطالها الذين انتهى بهم المطاف إلى الخبل. وقد حدث مرارًا أن شاركتهم بكائياتهم الطويلة، ليس لأن قصصهم مؤثرة وحسب، بل أيضًا لأنهم كانوا يوقظون حقيقتي ووجعي. على أيّ حال، كانت هذه الشجرة تحرّهم بروحها الخفية المقدسة، أو على الأقلّ، هذا ما كنت أعتقد أيام صباي، أمّا الآن، بعد أزيد من عقدين، ها أنا أتقدّم نحو تلك الغرفة التي بنيت حول قبر سيدي موسى، لا زالت كما خلّفتها، حتى الزربية الصفراء الرثة المنسوجة بنباتات الدوم لا زالت نائمة على جنبات الضريح، خطوط الشموع السوداء أيضًا لا تزال ترسو كأوشام على الجدران.. وكما هو الشأن بالنسبة لضريح الابن، فقد انتشرت فوق ضريح الأب الكثير من الخرق والمناديل والقليل من القطع النقدية الصفراء التي طالما كنت أتهافت عليها أنا وأترابي من أبناء القرية، ولأنني كنت مسكونًا بهذا المكان، فقد كنت الأوفر حظًا للحصول على أكبر قدر منها.

الرجل الذي يرقد في هذا الضريح كان رجلًا حقيقيًا، كما قال امحند في إحدى الليالي الماطرة وهو يجمع أبناءه تحت سلهامه الثقيل، الرجل الذي أهدى ابنه للموت فقط كي تحيي القبيلة، لست أدري لماذا أحسّ أنّ هناك أواصر ثقيلة بينه وبين نبيّ الله إبراهيم. لكن عماد الاختلاف بين القصّتين، أنّ إسماعيل نجا، في حين انفجرت دماء سيدي عيسى هناك، في ذلك الكهف الذي استحال بعده إلى مقام يلجأ إليه المرضى بالحياة. هناك قفزت دماؤه للجدار - كما يحكي امحند دائمًا - وانقلبت إلى شجرة تين حباتها دامية، لذلك تجد أهل القرية يحذّرون من أكلها، لأنّ أكلها - كما يؤكّد الجميع - ملعون إلى أبد الأبد.

قال امحمد، وهو يتطلّع إلى أبنائه المتكوّمين إلى جانبه والنوم يرتق أجفانهم:

- السّقاح الرومي الذي كان يسكن في القلعة الكبيرة عند مدخل المضيق، والتي لم يبق منها اليوم سوى أطلال بالية، كان يعكف كلّ يوم على اصطياد فرد من أفراد القرية. كانت القرية تنزف وسيدي موسى كان ينزف أيضًا، لأنّه شيخ القبيلة، ولأنّ كلّ ما يحصل لها يقع على كاهله. المهمّ أنّه كان في حاجة إلى حلّ، لذلك اضطرّ إلى مفاوضة هذا المستعمر الأوّل، وانتهت المفاوضات بحلّ دام، مضمونه أن يسلم سيدي موسى ابنه ليُذبح على يد هذا السّقاح، مقابل أن يحجم هذا الأخير عن صيده اليومي.

يسحب امحمد يديه اللتين كانتا تطوّقان أطفاله، ويزيح عن كتفيه السلّهام قليلاً لكي يحزّر حركة يديه أكثر، يمدّ أصابعه إلى جيب قميصه البالي ويخرج تبغه وقصاصة من الورق الأزرق الذي كان يُغلّف به السكّر قديماً، يضع التبغ في قصاصة الورق ويلفّها بإتقان وبراعة، ثم يمرّ برأس لسانه على طرفها، ثم يجمعها ويضغط بأطراف أصابعه على جنباتها، بعد أن التصقت وصارت سيجارة كاملة، يضعها بين شفّتيه ويشعلها بعود ثقاب ثم يرميه في الفرن ويسترسل:

- بالطبع لم يكن الرومي في مستوى الاتّفاق المبرم، فبعد أن أجهز على الابن في موقعة الكهف الحزينة وواراه هناك، عقد العزم على أن أوّل ضحيّة بعد الابن هو الأب. وفي يوم صحو مشمس، قصد سيدي موسى النهر لكي يتوضّأ، هناك كان السّقاح في انتظاره بأعين تلهج بالويل وسبّابة على الزناد. متحصّناً بقلعته المعلّقة في القمّة والتي يجهل الجميع متى بنيت ولا كيف... متناسياً أنّه مثلما يرى الناس صغاراً من على قمّته، فإنّهم كذلك يرونه صغيراً! في تلك

اللحظة الحبلى باحتمال واحد هو مقتل الولي، بحكم أن رصاصه السّفاح لا تصوّب تجاه شخص إلّا وأردته قتيلاً، كانت إرادة الله تسطر تفاصيل إجهاض المأساة، انقلب الجوّ فجأة من الصحو إلى حالة من الغضب المبهّم. أمّا في تلك اللحظة التي تحرّك فيها الرومي ليعدّل من وضعه ووضعيّة بندقية كذا لكّي لا يترك مجالاً للخطأ في اصطباد الولي. في تلك اللحظة بالضبط، التي كانت أسرع من لمح البصر، وقعت المعجزة، إذ خسف به جزء من بنيته المعلقة في الأعالي فتهاوى، لتسحقه صخور الوادي على مرأى من الولي الصالح، أمّا بعد ذلك بلحظات قليلة، فقد سُمع للنهر هدير مجلجل، وبسرعة، جرف جثة السّفاح وبندقية. أمّا ما تلا ذلك، فقد كان فصلاً لم تعرف القرية مثله، إذ إنّ الأمطار التي تهاطلت ذلك الصباح لم تتوقّف، بل عكس ذلك، ازدادت حدّة واستمرّت لأيّام طويلة، حتى إنّ أهل القرية يئسوا منها وظنّوا أنّها لن تنقطع البتّة. وفي تلك الأيام جلّها كان الولي الصالح لا يبرح طرف الوادي في انتظار أن يهدأ النهر ويتمكّن من زيارة الكهف الذي يضم جثمان ابنه. كان أهل القرية يمرّون به فيجدونه عاكفاً على صلاة مثل المطر لا تنقطع. أمّا القصص التي رويت عنه، فكانت كثيرة، إلى درجة أنّ أهل القرية، على الرّغم من غوايتهم بالحكي والحكايات، نسوها. يروي البعض مثلاً أنّهم رأوا الوعول وأسرار الحجل تنام قربه غير خائفة، لكن ما أكّده الجميع، أنّه في أيّامه الأخيرة، كان يشعّ بنور ساطع يأخذ الأبصار. ولأنّ لكلّ أمر نهاية ما، فقد فاجأت السماء القرية بيوم صحو. في صبيحة ذلك اليوم تحلّق أهل القرية حول الولي الذي استغرق في سجود طويل، حين انتبهوا إلى أنّه أطال سجوده، نبهوه أوّل الأمر، وعندما لم ينتبه، حرّكوه فإذا هو جثة هامدة. وبالطبع لم يلتفت أحد إلى أنّ المطر جاء

بموت الرومي وانتهى بموت الولي الصالح. دفن في منزله تمامًا في الغرفة المقابلة لشجرة التين التي طالما أحبها وأحسن رعايتها، وأضحى منزله بعد ذلك مقامًا ينشر فيه زوّاره أحزانهم وأمانهم، وكذا مناديلهم وأشياء منهم.

عندما يصل امحمد إلى حديث النهايات، عادة ما تشعّ عيناه ببريق خاصّ، يتطلّع إلى السقف كأنّه يقاوم وخز دمعة، أمّا أبناؤه المندفنون بجانبه، فإنّهم غالبًا ما يستسلمون للنوم قبل أن يصل إلى نهاية القصة. . وهذا ما يجعلهم يستلذّون سماعها مرّات ومرّات. أمّا أنا، فلم تكن تزيدني أحداث القصة إلّا إصرارًا على معرفة المزيد، وعادة ما كانت حكايات امحمد تحرمّني النوم، إذ أسهر ليلي وأنا أقلّب في تفاصيلها، كانت تشبع شيئًا ما داخلي لم ألتفت إلّا مؤخرًا أنّه: الحاجة إلى الأدب. هذه الحاجة التي ستغدو فيما بعد أفيونًا لا بدّ منه، لأقاوم الأسئلة التي تخزني من كلّ جانب، وكذلك، لأتقبّل نفسي على ما أنا عليه. . أمّا الآن، فلا يهمني الرجل الذي ينام في هذا القبر، أكثر ممّا يهمني الرجل الذي تحدّث امحمد عنه بشغف في ليالي الشتاء.

غادرت مقام سيدي موسى بعدما نثرت فوق قبره ما في الجيب من دراهم. بعد قليل، سيتسابق الأطفال إليها، ولا بدّ أن يفرحوا بها وهم يهرولون إلى البقال. أمّا أنا، فبقدر ما أبهجني انبلاج ذكريات السمر والحكي، بقدر ما نكأت الذكريات نفسها، جرح إبعادي عن إغرم، وعلى الرّغم من ذلك، رَمَمْتُ هذه الزيارة شيئًا ممّا تصدّع منّي بسبب حلم البارحة.

## (٩)

على الرّغم من أنّ التعب قد سلخ وجوههم وأيديهم . . هؤلاء المرابطون في حقولهم منذ بزوغ الشمس إلى غروبها، إلّا أنّ لهم عوالم لا يفتضّها إلّا من كبر بينهم. لهم مزاج وطبع خاصّان تصنعهما وتوحّدهما الحكاية، إذ لا يوجد بينهم من لم يتدفأ بها في ليالي الشتاء، ولم يتفياً بظّلّها في نهارات صيفها! صحيح، أنّهم يبدون في النهار أكثر غلظة وقسوة، لكن ما إن تغيب الشمس حتى تلين طباعهم ويصبحون أكثر إقبالاً على الحديث، وأكثر استعداداً للضحك والسمر. النهار يشحذ أجسادهم، لكنّهم يصيرون في الليل أقرب إلى الهشاشة الوجدانيّة ويضمحلّ ذلك الجفاء والقسوة اللذان لازما يومهم. أمّا الحكايات في إغرم، فلها وضع متميّز إن لم نقل إنّها تغلّف القرية بما فيها ومن فيها. . لقد نبتت في القرية كدالية، ومع الزمن، تمدّت فروعها وتشابكت خيوطها التي استحالت إلى ملاحم قابلة للوراثه، وعادة ما يضرب بها المثل في أبسط النزاعات، فبالأحرى أعقدها! ولا غرو أن تجدهم يحتكمون إلى العارف بها، لأنّه الأكثر معرّفة للحياة،

لذلك كنت، ولا زلت على يقين راسخ أنهم أكثر دراية بالأدب، ربّما لأنهم يؤمنون به أكثر من أيّ شيء آخر، ويعيشونه في تفاصيل يومهم وفي حزنهم وسخطهم وفي سويّات فرحهم أيضًا. . لذلك، فالأدب يظلّ قشرة سميكة تغلّف قلوبهم ويعشّش في دواخلهم. وللحكايات في هذه القرية معنى يطاول «الإلياذة والأوديسة» و«ألف ليلة وليلة» وغيرها. فبالإضافة إلى أنها تمتع من قضايا إنسانية صميمية لا يمكن للتاريخ أن يتجاوزها، فهي في الوقت نفسه تقوّي الوشائج بين الإنسان والمكان، وترسم طبيعة العلاقات داخل القبيلة. ولا عجب مثلاً أن ينال الشيوخ أوفر حظّ من الاحترام والوقار، لا لكبر سنّهم وحسب، بل لأنهم في نظر الجميع خزّانٌ لا ينضب من الحكايات، خاصّة وأنّ منهم من يزعم أنّه شهد وقائعها عن قرب، وقد يبالغ بعضهم ويقول: منهم من كان أحد أبطالها.

الحكاية في أصلها الواقعي قد تكون أبسط بكثير ممّا يعتقد أهل القرية، لكنّ السرّ، كلّ السرّ، في ألسنة الرواة المتعاقبين، هي التي تشحذها وتثقفها وتسبغ عليها كذباً جميلاً وضرورياً، يفجّر منها عُقداً كثيرة. إنّهُ كذبٌ غير مقصودٍ عادة وعفويّ كذلك، لكنّه مهمّ. ليس فقط لأنّه يطوّر الأحداث الواقعية، ولكن أيضاً لأنّه يبعث فيها روح الرواة المتعاقبين، فتغدو الحكاية ملحمة بعد أن كانت مجرد وقائع بسيطة وغير ذات أهميّة، ونصبح بصدد حكاية لا كما كانت، ولكن كما اشتهاها أهل القرية أن تكون. فتؤرّخ للقرية، لأنها تضرب في ماضيها العريق وتوقّع بقلم مؤرّخ ومؤلف كبير وغير معروف، قد يكون سلسلة الرواة الذين تعاقبوا على الحكّي، أو ربّما اللغة! ولم لا القرية نفسها!؟

في هضبة العرعار التي تطلّ كشرفة على المقبرة والشمس تنزل

موجعة، سحبْتُ من الجيبِ هاتفي لأستلَّ منه أصواتًا وأحزانا قذف بها  
البعيد: وردتْ في منفاي الاختياري رسائل كثيرة تعود بي إلى عوالم،  
كابدت الأُمَين من أجل نسيانها ولم أقوَ على ذلك. تلقي نضال في  
رسالة صوتية مقطعة من قصيدتها، التي أشكُّ أنَّ لها نهاية:

حبيبي متى سوف تأتي

لتكسرَ صمتي

ويدركَ غيري بأنك صوتي

وتملأ بيتي

صغارا..

حبيبي ومحبوب قلبي وحيي

تمنيتُ لو أنَّك قربي

ليعرفَ دربي

نهارا..

وإنِّي لأبكي

إذا ما ذكرتكَ سرًّا

وإنِّي لأستبكي إذا ما تذكَّرتُ أمسي

جهارا...

مددت يدي إلى الجيب، أخذتُ علبة السجائر، أخرجت واحدة،  
أشعلتها بانفعال وأعدت العلبة والقذاحة إلى الجيب. لست أدري ماذا  
تريد الرفيقة نضال مني؟ لا أشقُّ على النفس من العودة إلى حرب  
وضعت أوزارها منذ زمن طويل!

رسالة أخرى من د. بنهاشم: «السلام عليكم سي مراد كيف حالك؟ حبذا لو تزورنا في أقرب الآجال، لأننا في حاجة إلى مراجعة حالتك. أتمنى أن تأخذ دواءك في أوقاته كييفما اتفق وأن تتحاشى الذكريات الحزينة ما استطعت...».

أقفلت الخطّ دون أن أمهله فرصة إتمام وصاياه، وتطلّعت إلى القبور الموزّعة بانتظام لا معنى له. أمام بوّابة الآخرة هذه، لا أجدني إلّا مع درويش «لاعب النرد»، إذ يهمس «كان يمكن ألا أكون...». أيضًا أنا كان يمكن ألا أكون أو أن أكون ممّدًا هناك في هذه المقبرة داخل قفصٍ ترابيّ صغير، لو أنّ امحمد لم يمرّ في ذلك اليوم الصيفي الشجّيّ على ذلك الطريق الهامشيّ الذي لم يكن يومًا طريقه، كان يمكن ألا أكون لو أنّ تلك التي تقيّأتني تجرأت ووضعت وسادة على وجه الطفل الذي كُتّهُ، وضغطت برفقٍ وحنان مصطنعين، وما هي إلّا لحظات قليلة وتخلّصني من حياة الزبل التي كابدها ولا أزال.

لو أنّ النهر أحسن صيدي في ذلك اليوم الماطر وجرتني أبعد من إغرم، لكنت ممّدًا الآن في قبر صغير، لما نهشتني الأحزان التي وُلدت وشبّت معي... لو أنّ ذلك الأب المزعوم الذي لم أضفر منه بنظرة في المنام مرّ بسكّينه اللامع على عنقي أو أخمدته بقسوة في صدري، لاقتادتني عينا خولة إلى حيث لا أدري بعد أن أسلم الطينيّ في التراب.

احتمال موتي كان واردًا بالبحاح، وكان الموت يملك من الأسباب ما يكفي للإيقاع بي، لكنّه كان يخاتل دائمًا ويؤجّل باستمرار، كأنّه يستلذّ عذاباتي، أو كأنّه يقتادني إلى موت أشدّ بشاعة! لذلك لا زلت أملك لحود اللحظة إحساسًا باطنيًا دافئًا يهمس:

- لا زلت تملك من العمر ما يكفي لتصير آخر قلاع الحزن والوحشة...

متداعي القلب والذاكرة، بجانب المقبرة أقف بين الدنيا والآخرة محملاً بهواجسي، عيناى نافذتان متعبتان تطلّان على الأفق البعيد وترصدان شمساً تنقّطر - كما يقول مطران - كالدمعة الحمراء.. هكذا يتشاءب المساء في إغرم، ويزحف نحوها جريحاً! أمّا أنا فسأوقد أضلعي علّها تنير ما تبقى من هذا الدرب الطويل.

عركت في الأرض عقب آخر سيجارة كانت في العلبة، حين انتصبت واقفاً، وكانت الحلقة قد بدأت تجثم على المكان، رأيت أطياى رجال بالكاد أستيى هياتهم، لكن ما كنت متأكداً منه أنّ اللهى كانت مسبلة على ذقونهم وأنهم يجرّون بهائم محمّلة بما يشبه الصناديق.

وغادرت المكان بسرعة، وانزعاج كذلك.. وأنا ألّفت بين الفينة والأخرى وأراقبهم وهم يتعدون أكثر فأكثر. رحل النهار - كما أكّد السيّاب - «ها قد انطفأت ذبّالته».

إغرم ليلاً...

برد قليل، وأصوات حيواناتٍ إغرم تجرّ خلفها تعابير غامضة، وأنا وحيد فاضت بي وحشة الغرفة فسعيت إلى الشرفة. سماء هذه القرية صيفاً عوالم ملغزة، فبقدر وضوحها يحسّ القلب إذ يتأملها كما لو أنّ نجومها قد تتساقط في أية لحظة! يعلو نباح الكلاب بشكل مفاجئ ويخبو بسرعة فيكسر تأملي في السماء. أنقل بصري صوب الجبل، فلا تأخذني سوى تلك البقع النارية التي لا زالت تدلّ على أصحابها، أولئك الذين يرون أنّ الأرض كلّ الأرض ملك مشاع،

لذلك فقمة الجبل بيّتهم الصيفي! وما إن يدبّ الشتاء بخطواته الثقيلة حتى ينزلقوا إلى أماكن أخرى. أحياناً أتساءل بسخرية ممزوجة بالكثير من المرارة: ترى، ألم ينسوا ذات صيف طفلاً صغيراً مسربلاً في البياض؟ آه.. ما أفدح خطبك الأوّل يا مراد، حين تكون البدايات فاشلة، فلا يهمّ بعدها كيف ستجري الأمور. لأنها وإن بلغت شأواً كبيراً تظلّ مؤسسة على قسّة سرعان ما تنشطر عند أوّل ضغط.

تراجعت إلى الغرفة دون أن أغلق باب الشرفة، مررت مباشرة إلى المطبخ الذي لا يفصله عن الغرفة سوى حائط رخامي صغير، وسحبت من الثلاجة زجاجة نبيذ وأخذت كأساً لامعاً ووضعتهما فوق الطاولة الصغيرة ذات التراسيم الأمازيغية، وارتميت فوق الأريكة الحمراء المقابلة لها. نزل عليّ حزن حادّ وأنا أصبّ الكأس الأولى، قفزت بعدها إلى حقيبتني وأخذت بعض الأقراص المدمجة، وانتقيت واحداً جمعت فيه بعض الأغاني الأمازيغية وضعتّه في المسجّلة، وما كدت أصل الأريكة حتى ارتعشت جوارحي لموسيقاه واهتصرني صوت الكمنجات الشجيّ المبحوح، وانثالت عليّ الهموم دفعة واحدة، وانعقد الريق في جوفي فأهرقت الكأس التي صببت دفعة واحدة في جوفي.. فما كان منها سوى أن أذكت النار التي بدأت تضطرمّ في خافقي.

وانطلق صوت المغنية الأمازيغية بدويّاً جامعاً وحاسماً كضربة قاضية، تقول المغنية في ما يعرف بـ «تاماوایت»، وهو مّوال نسائي شجيّ عادة ما تُستهلّ به الأغاني الأمازيغية:

- يا صديقتي فلتبك

ويا أنت يا حبيبي سأتيك يوماً

ولو أَتَكَ عَنِّي بَعِيدٌ  
سُتَادِيكَ يَوْمًا قَدَمِي  
فَعَلْتُ مَا بَوَسَعِي وَلَمْ أَقْنَعِكَ بِالْبُكَاءِ  
فَلْتَبَّكَ . . . فَلْتَبَّكَ  
فَقَدْ حَانَ مَا تَوَقَّعْتَهُ  
كَأَنِّي أَطَّلَعْتُ عَلَى الْغَيْبِ  
وَأَظْهَرَ حَبِيبِي الْغَدَرَ  
مِنْ بَعْدِ مَا عَشَقْتُهُ

هذا ما كانت تقوله كلمات الموال، لكنّها رفقة ذلك الصوت القويّ الصلب ورفقة جرّاحات الكمنجات تصير حبلى بألف معنى ومعنى، بل وقد تتشظى هذه الكلمات وتفصح أكثر ممّا يفصح ظاهرها، وتسقط من يسمعها في شَرَك الهواجس. أمّا إذا كان قلبه رخوًا بفعل كدمات الحياة، فيمكن أن يبكي أو يخرّ مغشيًا عليه. «تاماوايت» وهج يشعّ ويعرّش في أعماق الأمازيغ، وتاج لمن يغنيّه، ووجع لذيذ لمن يسمعه، ونافذة مشرّعة على الذكريات التي لا تنفكّ تتصاعد كأنّها أعمدة دخان حالكة فوق مداخن حمام عتيق.

في غمرة الموسيقى التي جرحت فيّ أكثر من وريد، صبيت كأسًا أخرى، والتفتُ بشجاعة إلى حقيبتتي التي تحوي الجثمان الورقي لخولة. إلى متى سأظلّ خائفًا من قراءة مذكرات خولة؟ شربت كأسًا أخرى وانتصبت واقفًا، فاجأتني قشعريرة باردة وسمعت للكلاّب نباحًا حادًا يتناهى إلى مسمعي أشبه ما يكون باستغاثات غامضة، ومضيت إلى باب الشرفة مترنّحًا، أغلقته بعنف فصفّق، آه لو أنّ للماضي بابًا

فأسدّه وأرتاح، لكن.. هيهات! وقفتُ طويلاً أمام الحقيقة غير قادر على فتحها، قلبي يخفق بقوة وإلحاح ويدايّ تخذلانني ولا تقويان على فتح الحقيقة. تغيّبت عني أيتها القديسة الجليلة، وخلفتني رهين مذكرات ما قبل موتك، وزدت الطين بلّة حين أوصيت بألا أقرأها إذا استطعت إلى ذلك سبيلاً. أيّ قبلة موقوتة خلّفت بعدك يا خولة!

خولة... لو تعلمين أيّ نوع من الحزن ينهش دواخلي، إذا أنا ذكرتُك، لو تدركين أيّ إحساس بالذنب يهتصرني لنفصت عنك الكفن وغبار قبرك وسارعت إلى أحضاني طفلة، فأنا ما عرفتُ قبلك أو بعدك أحزن ولا أدفاً صدرًا عليّ منك...

خولة، بدءاً من الغد سأقرأكِ، وإن كنت أعلم أنّ ذلك سيكلفني لا محالة الشيء الكثير! وإن يكن.. فما عدت أملك بعدك شيئاً لأخسره. وأنا اليوم أكثر من أيّ وقت مضى مستعدّ لأن أقامر بكلّ شيء من أجل الخلاص. تراجعَت خطوات إلى الوراء، أخذت زجاجة الخمر وكرعت ما تبقى منها، فاستحكم بي دوار خفيف، ما لبث أن ازداد قوّة لا سيّما والأغنية الأمازيغيّة تنحو صوب الأفول.. أحسست أنّني أشبه ما يكون برماد السجائر قد أنكسر لأنفه الأسباب، أمّا ما حدث بعد ذلك، فلا أذكر منه سوى أنّني قذفت زجاجة النبيذ الفارغة بعنف إلى الجدار فارتدّ صوتها حاداً مزمجرًا، لا يذكر سوى بالزجاجة الأولى التي شربتها بالزجاجة نفسها التي كسرتها.

## (١٠)

في الصباح... وجدتني طريح أرضية الغرفة، ما إن فتحتُ عينيَّ  
حتى واجهتني شظايا زجاجة الخمر. شعرت بآلم في كلّ أعضائي، لم  
أتخلّص منه إلّا بدوش ساخن. أمّا حين فرشت ذقني برغوة الحلاقة  
وجعلت أحلقه، فقد اهتزّ كياني لتلك الصفرة الغريبة التي بدأت تعلو  
ملاميحي. لملمتُ بعد ذلك شظايا الزجاج ومددتُ يدي بشجاعة  
للحقيقية وسحبت مذكرة خولة الحمراء، عانقتها وقبّلتها طويلاً، وإن  
يكن لا بدّ من موت أو جنون فليكونا عاجلين! فما عدت أقدرُ على  
تأجيل ما لا بدّ منه.

أسفل.. أقصد في مقهى الفندق كانت موسيقى فيروز تنبعث قويّة  
دافئة، حتى إنّ زمرة من أبناء القرية لا ينفكّون عن التفاعل مع الأغنية،  
رغم أنّهم لا يفهمون كلماتها:

أسامينا شو تعبو أهالينا تلاوها

شو افتكرو فينا

الأسامي كلام.. شو نفعو الكلام

عَينَا هُنِّيْ أَسَامِينَا...

في بادئ الأمر، لم أنتبه إلى الرجلين الملتحيين في الطرف القصي من المقهى، ربّما إلى حدود تلك اللحظة التي لوح فيها أحدهما بيده إلى حميد، فقدم إليه وطلب منه الرجل أن يخفض من صوت الموسيقى. استفزني قوله، واستفزني أكثر إقحامه الحلال والحرام في الموضوع، فما كان منّي إلا أن استوقفتُ حميد وأمرته بلهجة فيها من الحزم والصرامة الشيء الكثير أن يترك الموسيقى وشأنها.

مذكّرة خولة تنام مكدودة إلى جانبي، ودخان السيجارة الأولى يعلو ويتشابك مع أشعة الشمس الوافدة من النافذة، التفتُ إلى الرجلين الملتحيين فوجدتهما يبخلقان فيّ بحنق واضح، فصرفتُ عنهما بصري بلامبالاة إلى سحائب سيجارتي، التي بدأت تشكّل وجه مصطفى الذي ابتلعه الظلام في ذلك المساء الحزين.

أحياناً، أشعر أنني متورّط بطريقة أو بأخرى في قتله، فأنا من دبّرت ذلك الموعد، وأنا من اختار المكان كأنتني نسقت موعده مع الموت وتغيّيت عنه لأتركه أعزل أمام قدره. كان هذا في البيضاء، ١٦ مايو اتّصل بي صباحاً واتّفقنا أنّ الليل موعدنا، وأنّ ذلك المكان الشؤم لقاءنا، لكنني في آخر لحظة، ألغيت موعدي معه باتّصال هاتفي، حين أصرت خولة أن أبقى معها، لأنّها بمشقة النفس دبّرت ذلك اللقاء الليلي، لم أكن أعلم أنّ خولة بفعلها هذا، قد ألغت موعداً لي مع موت محقق، إذ لم تمرّ أكثر من ساعتين حتى رنّ هاتفي بصخب، كان رقم مصطفى. لكنّ الصوت عكس صوته كان بارداً

ومحايدًا. في البدء سألني عن صاحب هذا الرقم، واستدرجني - بعد أن كشفت أنه ضابط شرطة - إلى الحديث عنه؛ وما أتى على إنهاء تلك المخاطبة الهاتفية، حتى بدأت تسيلُ من فمه كلمات المواساة والعزاء. مادت بي الأرض لحظتها، وشعرت برغبة مبهمه في الصراخ والتقيؤ. أما عندما استفسرتُ الضابط عن سبب الوفاة أو ظروفها، فقد امتنع وطلب منّي بلهجة أقرب إلى الأمر أن ألتحق بالإدارة العامة للأمن الوطني في أقرب وقت. بالطبع، لم أكن مضطرًا لأن أنتظر إلى حين وصولي إلى إدارة الأمن الوطني لأعرف سبب انطفاء مصطفى، بل زحف إليّ الخبر، سمعته في وشوشات العابرين، كنت أقرأه في الوجوه الخائفة، وسمعت به بإطنا من لسان سائق التاكسي الذي أفاض في شرح تفاصيله دون أن أطلب منه ذلك، هكذا ابتلع الإرهاب مصطفى حين تسلّل إليه ذلك الظلامي مطوّقًا بحزام ناسف. انتهى مصطفى غدراً بنصل أولئك الذين يزرعون الظلام، أعداؤه الحقيقيون الذين ما فتئ يبشّر باقتراب موعدهم، وعشت أنا لأنّ الصدفة أو الأقدار المجنونة وضعت خولة في طريقي ليلتها، أو لأنني بقدر ما كنت أشتهي الموت صار دائم التأجيل والمراوغة، يكتفي بجعلي أراقب سقوط كلّ من أحببتهم دون أن يبادرني بضربة قاسية تحسم كلّ عذاباتي.

انسحبتُ من الفندق وأعين الرجلين الغربيين تراقب خطواتي؛ كأنما تعدّها. أما حين انتهيت إلى النهر، فقد باغتني عواطف مبهمه. هذا النهر الوديع الذي طالما ذكرني به «بويب» السبّاب، تمسّيت بجانبه إلى أن وصلت إلى هذا الكهف المزار. أما وأنا أليجّه، فقد انتفضت داخلي طفولتي المعلقة ها هنا، فرأيتني طفلًا. نعم، رأيتني أفرّ من أشواك أسلتي إلى هذا الولي، رأيتني وأنا أتلصّص على النساء وهنّ

ينشرن أحزانهنّ ودموعهنّ، كما ينشرن مناديلهنّ فوق كومة الصخور التي تتوسّط المقام.

وضعت مذكرة خولة فوق الصخور، تمامًا فوق أحد المناديل، وانصرفنّ إلى شجرة التين الصغيرة التي انبلجت من الجبل، حين رفرت إليه - كما تقول الحكاية - دماء الشهيد، فاستحالت إلى ما هي عليه الآن.. حباتها استوت، لكنّ الحكاية تحرّم أكلها وتعتبر أكلها ملعونًا، لا أنفي أنّ غواية الأكل من خصبها الدمويّ قد خامرتني عندما كنت وعلاً صغيرًا، لكن قصر قامتي وقتها أو عدم إدراكي لبُعد المسألة الأنطولوجي كان يحول دون ذلك! أمّا الآن، فالغواية ذاتها تستيقظ داخلي وحبات التين في متناول يدي، لكنّ شيئًا ما يستوقفني، ليس الخوف طبعًا، فلست أعرف أحدًا حقّت به لعنات السماء والأرض أكثر منّي، كلّ ما في الأمر، أنّي ربّما مصاب بالتباس العواطف وعمى الإرادة، الأمر الذي وضع غشاوة ضبابيّة بيني وبين ما أنوي فعله.

أخذت المذكرة الحمراء بين يديّ، وقعدت تحت شجرة التين المقدّسة. أشعلت سيجارة وفتحت المذكرة بشكل عشوائي على إحدى صفحاتها الأولى. كان خطّها يلوح جميلًا متماسكًا وعذبًا، لكنّ المربّعات الصغيرة المتوارية خلف الكلمات تبرز، أو أخالها كذلك، حتى إنّها شوّشت عليّ القراءة، قلبتُ الصفحة وقلبت بعدها صفحات أخرى. كانت خولة تترك حيّزًا فارغًا يمين كلّ صفحة، ربّما لأنّها كانت تسطر منذ لحظة الكتابة مشاريع العودة إلى تلك الهوامش. كتبت:

«من عادة الأشياء الجميلة أنّها تأتي بسرعة مفاجئة، تدهسنا بعنف وقوّة وتغمرنا بسعادة موجعة، أقول موجعة لأنّها تأتي بعد أن كان اليأس ورتابة الحياة تاكلان منّا أشياء كثيرة، لكنّ

الخوف، كلّ الخوف، أن تكون سعادتي مجرد طيف عابر،  
لأنّ الحياة لا تكون كريمة بهذا الشكل وباستمرار..

اليوم، ليس كغيره من الأيام التي كنت أحرص فيها على  
الجلوس في مقدّمة المدرّج وأكتفي بمراقبته، وهو يلقي  
محاضراته ببراعة، اليوم التمسْتُ منه أن يشرف على بحثي  
الجامعي، لذلك خصّني بلقاء كنّا فيه لوحدا، صحيح أنّ  
الحديث عن البحث ابتلع معظم وقتنا، لكن كانت فرصة لا  
تُعوّض لأرصد أدقّ تفاصيل وجهه، لأغرق في عطره وأضيع  
في خطوط يده، وكما يفرّ الماء من بين أصابع ترتجف، انزلت  
الوقت من بين أصابعي بسرعة، لكن وأنا أودّعه، ظللت  
للحظات مشدوّهة أمام عينيه الجميلتين، وداهمني إحساس  
غامض ومفاجئ بأنّ في هذا الرجل شيء منّي، وبأنّ في أشياء  
منه. أحسست أنّ شيئاً مزلزلاً سيجمعنا. أحببته. هكذا تدفّق  
داخلي هذا الوجد الخفيف أو انفجر من الخاصرة.. لست  
أدري، المهمّ أنّه أسرّني وجعلني على يقين تامّ أنّ جسدي  
يضيق عمّا أحسّ.

وانفجر حبّك من الخاصرة وطوّقنا معاً، وها هي ذكراك تبرزُ،  
فمن قال إنّ النسيان سيدركك يوماً؟ ها أنتِ تنفضين عنك غبار القبر  
وتتنفضين على الكفن، وتمثّلين بين يديّ ذاكرة متقدّمة. تُرى، لماذا  
اخترت الأحمر لوناً لذكرياتك؟ لأنّ هذا اللون فاض عن معاني الحبّ  
فاختزله الماضي، أم كنتِ على يقين من أنّ كلّ ما ستخطّه أصابعك  
الرقيقة سيكون دامياً؟

وأنا أفرأك، أيتها القدّيسة الجميلة، تجثو على وجهي مسحة  
الأسى، وتطبق على جوفي غصّة مريرة، تعود بي كلمّاتك، خطّك

وأسلوبك، إلى ماضينا العنيف. وكان بحثك الجامعي «أول ما قاد المودة بيننا».

لم أكن أظنّ أنّ حبّ طالبة لديّ سيخرّب بشكل نهائي قلبي، الذي كنت أحرص على ترميمه كلّما دعت الضرورة. أذكر جيّدًا أنّك كنتَ تجلسين في مقدّمة المدرج في كامل تألّقك، وكانت تعلو ملامحك آيات الإعجاب التي أخفقت في إضمارها، أو ربّما كنت تتعمّدين إظهارها. لم أكن أدري أنّك نيزك يقترب بشغف من أجوائي، لم أستشعر أبدًا بوادر الطوفان. هكذا.. تأتي الأشياء العظيمة ببطء وشراسة، ولا تغادرنا إلّا بعد أن تخلف فينا ما لا نقوى على ترميمه.

مرّ قرب المزار نسوة وأطفال.. أمّا النسوة، فقد ألقين التحية وواصلن طريقهنّ، في حين هرول الأطفال نحو ركام الصخور وجعلوا يفتشون عن القطع النقدية الصفراء التي يخلفها زوّار المقام خلفهم. أخدمت يدي في الجيب وسحبت ما فيه من قطع نقدية ومددتها لهم، توجّسوا أوّل الأمر، لكن بعد أن حدّثهم بالأمازيغية سرعان ما تهافتوا على النقود وفرّوا.

بأيّ حزن سأقرأك أيتها البهيّة.. وأنت لم تتغيّبي قطّ عني، لا زلت حاضرة، يملأ حضورك حياتي. شعرك الأسود الحريري الذي طالما عشقته لا يزال يطلّ من ثقوب الذاكرة ويطوّقني، لن أنسى جمالك الباذخ، عينيك الواسعتين كعيني مهاة، ولا أنفك الدقيق الحادّ والمرتفع قليلاً في تحدّ وتعال، كان جميلاً إلى درجة لا يمكن معها استكناه سرّ جماله، لكنّه عموماً كان يضيفني على شفّيتك سحرًا خاصًا، ويجعل رسمهما أشدّ إثارة، شفّتك كانتا تبرزغان في مدى وجهك القمري كوردة أكملت تفتّحها، أمّا الجسد... يا لعنة الجسد! كيف تداهمني فنتته حتى من بعد ما أسلمتُك للتراب، كان عاصفة مخرّبة،

كلّ ما فيه يعكس كبرياءً من نوع خاصّ.

الجسد لفرط ما بلغ من الكمال كان مستعدّاً لأيّ رحيل طارئ..

الأشياء الجميلة والكاملة ترحل بسرعة، سواء اختارت ذلك أم لم تفعل، ربّما لئلا تختلّ بسببها نوااميس الحياة. ورحلت يا خولة بعدما خذلتك وتخلّيت عنك. رحلت لأنني لم أكن في مستوى عشقك. وأنا أشدّ على مذكّرتك الحمراء تهتصرني غربة مريرة، وأشعر كما لو أنّي أشدّ على معصمك الذي انفجرت دماؤه، وأحسّ أصابعي تنزّ دماء.. هي حتماً دماؤك. فلماذا ضمّخت بياضك الحليبيّ بحمرة الخطيئة؟

فتحت المذكرة من آخرها، وجعلت أقلب صفحاتها دون معنى، إلى أن واجهتني تهمتي، وقد اقتبستها خولة عن امرئ القيس وتصرّفت في حركاتها، وقد كتبت بخطّ مضغوط ومشدّد، كما لو أنّها كانت قد كتبتها وجعلت تُعيد رسم كلماتها مرّة تلو الأخرى:

«أغرّك منّي أن حبّك قاتلي»

وكان حرف الكاف المفتوح في (غرّك وحبّك) والذي تعمّدت شكله، يضمّ ألف أصبع اتهام واتهام تبرّز في المذكرة وتلاشى وتتخذ أشكالاً غير معقولة. أفعلاً قتلك حبّي كما كتبت؟ طبعاً لا، فأنا من قتلتك بمديّة غيابي.

أشعلتُ سيجارة من أخرى، وانسحبت من مقام سيدي عيسى متأبطاً مذكرة خولة، بعد أن اشتعلت الذكريات، أو لنقل أنّها تورّمت داخلي وجعلت تتضخّم وتغلّف جميع حواسي، فلا أنا أشمّ إلّا بذاكرتي، ولا أحسّ ولا أبصر ولا أفعل أيّ شيء إلّا بها، هي التي امتلأت إلى آخرها، فأين أنت أيّها النسيان؟ لماذا لا تمرّ كموجة وتغمرها وتمحو ما استطعت، فقد أتعبتني. خذ في طريقك كلّ شيء

حتى تلك الذكريات الجميلة والقليلة، فما عدت أقوى على حياة أستهلُّ يومي فيها بنش رفوف الماضي، وأنهيه وأنا مكدود ومنكفي على وجهي فوق أوراقه.

سلكت في طريقي إلى تلة العرعار طريقًا ملتفًا وطويلاً، لكنني أثرت ذلك فقط، لأنه لا يمرّ على ذلك المنزل الذي لا ينفكّ يقلّب جمر الذكريات... تتبعت مجرى النهر الصغير من المقام مروراً بالحقول المتاخمة للنهر، والتفت حول بعض المنازل وانتهيت إلى تلة العرعار.

تلقيت العديد من الرسائل، أهمّها تلك التي أرسلتها جوليا قائلة فيها إنها ستأخر يومين أو ثلاثة أيام أخرى، وعدت من حيث أتيت. في طريق العودة، لم يكن يخطر ببالي أن أراهم بمثل هذا الوضوح والقرب. ففي المرّات السابقة كانوا قد تداخلوا وحلّكّة الغروب لدرجة أنني كنت أشكّ إن كانوا فعلاً هم أم لا، أمّا الآن فهي بعضهم يمرّ على بعد أمتار منّي، وها أنا أتأمل جلايبهم الفضفاضة ولحاهم المسبلة كالمكانس التقليدية، حثثت الخطو دون أن أطيل التأمل في وجوههم، تساءلت في سرّي إن كانوا إخوان قتلة مصطفى أم كانوا أكثر اعتدالاً؟ ولم لا يكونون أشدّ تطرّفًا أيضًا ما داموا يؤثرون العزلة والطرق الهامشيّة. لكن مهما تكن درجات تطرّفهم، فإنّ أشكالهم لا توحى إلّا بفكرة واحدة، أذكر أنني رأيتهما جملة مكتوبة في أحد مراحض الحيّ الجامعي «ليس في القنافذ أملس».

بعدها بلحظات، حدث الأمر بشكل مباغت، إذ شقّ خيط بلّ شفتيّ ونزل على قميصي خط دم أحمر مررت بيدي اليسرى - والتي كانت تشدّ ذراعها على مبدّرة خولة إلى يسار صدري - على أنفي، واندفعت الحمرة التي كانت تملأها إلى عينيّ آلفاً من الصور والتعابير

المهمة، وضعت المنديل على أنفي ومضيت بخطوات متسارعة تصوّبها الطفولة نحو النهر.

أغرقت قدمي في «بوبي»، وأنا لا أزال أنزف أنفاً وقلباً وذاكرةً. انحنيت وأخمدت المنديل في النهر، فاندفعت حمرة بقوة، لكنّها سرعان ما تبددت أمام اندفاع الماء الصافي، ولم يبق على صفحة الماء سوى قطرات دمي التي كانت تسيل من أنفي وتتسظى فوق الماء وتختفي. رشقت وجهي بالماء طويلاً إلى أن توقّف النزف، غمرت شعري ورقبتي بالماء، وحاولت غسل الدم الذي تدفق على القميص، والذي أرى أن يمتحي إلا بعد أن خلعت القميص وأغرقت نصفه العلوي في الماء.

حين رفعت رأسي واستقام وقوفي بعد طول انحناء، صكّ أذني صوت حادّ أشبه ما يكون بصفير مربع، ترددت داخلي أصدااء دقات قلبي البطيئة المتعبة. وطفا على عينيّ سواد كثيف تتخلّله دوائر تكبر وتصغر، لكن سرعان ما عادت الأمور إلى نصابها بعدما خلعت الموت يراودني.

أخذت المذكرة وقفلت راجعاً إلى الفندق متناقل الخطوات. حين اقتربت، لمحّت حميد، وهو يتّجه نحوي بخطى متسارعة. توقّف أمامي وتنهّد بإعياء، وقال:

– السلام عليكم سي مراد.

رددت التحية، وتطلّعت إليه وهو يتفرّس في وجهي وقميصي المبلّل:

– هناك سيّدة في الفندق تسأل عنك.

– سيّدة؟ أتقصد جوليا؟

- لا، لا.. ظاهر حالها يقول إنها مغربيّة.

- مغربيّة؟

وأشاح بوجهه جهة الفندق، وأشار بسبّابته إلى المرآب المواجه للفندق قائلاً:

- لقد جاءت في سيّارة مرسيدس جميلة.

- طيّب.. شكرًا سأذهب للقائها.

وانصرف حميد، أمّا أنا، فقد أخذت مذكرة خولة بيدي اليسرى وشدت عليها بقوة، ووقفت أمام السيّارة التي أشار إليها حميد دون أن أظفر منها بمعلومة ذات أهميّة. جلّ ما تفصح عنه مختزل في لوحتها: إنها مغربيّة. انقبض قلبي، لأنّ د. بنهاشم هو الوحيد في عوالم القياء هناك يعرف مكاني، كما أنّ جلّ أهل إغرم يجهلونني، وبالتالي كنت أفترض أنّني ابتعدت إلى حيث لا يجديني أحد.

في المقهى، نفر من الأجانب. وفي الطاولة القصيّة المواجهة للنافذة، هناك سيّدة تجلس وحيدة يواجهنّي ظهرها، كان المعطف البنفسجي الباذخ والأنيق ينام على جسدها الممتلئ بطمأنينة، أمّا شعرها الحالك، فقد كان ممدّدًا بانسياب على ظهرها. اقتربت أكثر منها غير آبه بنظرات السيّاح الذين كانوا يراقبون خطواتي باهتمام بالغ.

استدارت بشكل مفاجئ وحاسم، ففاضت الذكريات وغمرت أشياء كثيرة داخلي وأغرقت أخرى، أحسست أنّ العالم يتفكّك فجأة ويُعيد تركيب نفسه بشكل مختلف، أحسست أنّني غريب عن نفسي حتى كدت أسأل هل أنا فعلاً أنا؟ في تلك اللحظة بالذات، لا أدري إن كان الزمن يتقدّم للأمام أم يتراجع للوراء كي يقوى على التقدّم.

## (١١)

على الرّغم من أنّ رياح الزمن غيّرتها كثيرًا، وأبدلت ذلك النحول  
الأنيق الذي كان يميّزها أيام الجامعة بامتلاء لا يصل إلى حدود  
البدانة، فإنّي لم أجد صعوبة في تذكّرها، ظلّت نضال جالسة تراقبني  
بنصف التفاتة ولا تنبس ببنت شفة، وبقيةً واقفًا لا أجد مهرّبًا لنفسي  
مما أنا فيه. في تلك اللحظة المشحونة بالماضي، كنت أستشعرُ قطرة  
ماء تنزلق ببراعة من شعري، وتتسلّل تحت القميص وتتجاوز نصفه  
المبلّل.. كانت تدغدغني وتنقضُّ عليّ في لحظة لا تتسع لانبثاق  
الذكريات ولجم تلك القطرة في آن.

ندّت شفتاها عن ابتسامة خجولة وهي تتأهّب للنهوض، ثم قالت  
وهي تقلّص المسافة بيننا بخطواتها المتثاقلة والواثقة:

– أهذا مراد أم خدعتني عيناى؟

ثم عاودت الابتسام، وإن بمكر لا يخفى وهي واقفة أمامي،  
وأردفت:

- ومن غيره! «وهل يخفى القمر»؟

ومدّت يدها مصافحةً، كنت مأخوذاً لحظتها بعبثية الأقدار التي لم أكن أظنّ ستفعل ما فعلت في مثل هذا الزمان وهذا المكان الاستثنائيين. حين التحمت يدانا، شعرت بإحساس غامض كأنني أكتشفها للمرّة الأولى، قلت:

- اشتقت إليك أيتها الشاعرة المناضلة..

- وأنا أيضاً، مراد، اشتقت إليك.

- بأيّ معنى يا نضال؟

- بأيّ معنى؟

وقلبت شفتها السفلى دلالة الاستغراب، وندّت عنها ابتسامة ساخرة، واسترسلت:

- يا سيّدي، بمعنى بحثي الشاقّ عنك وأنت تستريح بين أوتاد الأرض هذه.

- مرّت سنون كثيرة... شاقّة ومتعبة.

- نعم، هذه هي الحياة دائماً بين مدّ وجزر.

- وأين أنت يا رفيقة من مدّها وجزرها؟

- هو حديث ذو شجون، أفضل عدم الخوض فيه، على الأقلّ الآن. وأنت؟

- تماماً كما خلّفتني، أسير وفق ما تمليه قيود الحياة.

وافترقت يدانا بتواطؤ خفيّ منّا.. هي لحظة أيقظتني من غمرة هذا الحلم - الحقيقة. إنها نضال، الرفيقة نضال. وهي في إغرم قريتي الفاضلة. إنها هنا والآن. قالت:

- ألن تدعوني إلى فنجان قهوة؟

- طبعًا.

وجلسنا إلى طاولة غير تلك التي كانت تجلس عليها، لست أدري أيّ رغبة مجنونة ألحّت عليّ أن نجلس إلى تلك الطاولة، التي كان يجلس فيها الملتحيان صباحًا. كانت ملامح نضال تحتفظ بالكثير من إشراق الماضي ونضارته. شفتان هائجتان وعينان واسعتان وقوام أنيق وممتلئ أكثر. أمّا ثيابها الفاخرة، وذلك الخاتم الجميل الذي كان ينام بهدوء ملوكي على يدها اليسرى، وتلك الأقراط الذهبية التي تتدلّى من شحمتي أذنيها.. هذه الأشياء، إضافة إلى السيارة الجميلة، لم تكن لتؤكّد سوى حقيقة واحدة: أنّها اغتنّت.

قالت، وقد انتبهت إلى أنّها أطالت التأمل في وجهي:

- لم تتغيّر كثيرًا كما توقّعت!

- ولا أنتِ.

- لا تزال تحتفظ بجاذبيّة الماضي وأناقته، إن لم نقل إنك زدت..

وضحكتُ لقولها ولعجزها عن بلوغ هذا العجز الذي يقبع داخلي، أحيانًا أرى أنّه لو كان لأحزاني صدى ولو بسيط على شكلي الخارجي، لشابت نواصيّ وتقوّس ظهري ودبّ في أعضائي الوهن. قلت بعد أن لمحت حميد يدنو:

- ماذا تشربين؟

- إن كان من الأمر بدّ فليكن عصير برتقال.

حين وقف حميد أمامنا بانضباط، قال:

- سي مراد، أتأمر بشيء؟

- عصير برتقال وفنجان قهوة.

وانصرف بسرعة. تطلّعت إلى نضال التي كانت ساهمة قائلاً:

- إذا كيف عثرت عليّ؟

- الصدفة يا مراد.

- لم أفهم.

- تصادف هذه الأيام أن كنت في مدينة ميدلت المجاورة، سألت مصادفة عن قرية باسم «إغرم» التي حدّثتني عنها في المخابرة الهاتفية، فقبل لي إنّها قرية منسية ومهملة تقع في خصر جبال عيّاش، وقد افتضّ وحدتها مؤخرًا فندق.

والتزمت الصمت لبرهة وهي تتطلّع لمذكّرة خولة التي كانت تستلقي على مقعد بقربي، قلت لأعيدها إلى الحديث الذي كانت بصده، أو ربّما لأبعدها عن أيّ حديث محتمل حول المذكّرة:

- وماذا بعد ذلك؟

- قلت: ما دام في الأمر فندق، وكذلك احتمال العثور على حبيب سابق، فلم لا أغادر؟

- جيد.

- وعندما انتهيت إلى هنا، أنت تعرف البقية، من يسأل لا يتوه.  
وابتسمت بمكر واضح، وأردفت ربّما رغبة في جرّ الحديث نحو أفق آخر:

- مراد.. أنسيّتي؟ أقصد هل نسيت ما كان بيننا؟

- للأسف، أنا مُصاب بإحدى العاهات المستديمة الأقلّ انتشارًا في زمننا.

ضحكت للفكرة وغرابتها، ثم سألت:

- وما هي؟

- إنّه داء فقدان التحكّم في الذاكرة!! للأسف أنا لا أنسى وهنا تكمن المأساة، لم أنسك مثلما لم أقو على نسيان أشياء كثيرة.

أشعلت سيجارة وأخذت نفسًا بشراهة، واسترسلت:

- إذا قلت لم أنسك، فالأمر لا يعني أنني لا زلت أفكر فيك بمنطق الحبّ. لم أنسك فقط، لأنّ ذاكرتي مريضة لا يخترقها النسيان.

أقبل حميد يحمل صينيّته، وضع كأس العصير أمامها وفنجان القهوة أمامي، ثم مضى بخفّة. استعرت من ابن الرومي شطر بيت أناوش به ماضيها فخير وسيلة لأتلافى بها أسئلتها أن أبادرها بسؤال:

- كيف حالت بك الحال من بعدي؟

ودوّت ضحكتها، ثم ما فتئت تلك الضحكة أن انقلبت إلى بسمة ممزوجة بالكثير من الحزن. قالت:

- سؤال ماكر! على أيّ حال، خسرتُ حربي يا مراد، وإن لم تكن حربًا بالمعنى الصحيح، اكتشفتُ بعد فوات الأوان أنني لم أفعل شيئًا سوى مقارعة الطواحين الهوائية. اكتشفت أنّ دونكشوتًا صغيرًا كان يضرب خيمته داخلي.

- لماذا؟

- لأنّ مصير الرفاق لم يخرج عن أحد أمرين: منهم من خانوا ومنهم من تعرّضوا للخيانة.

- وأنّ يا رفيقة؟

- أنا! لست أدري. كنت أريد أن أنتقم لأبي الذي ابتلعتة الدهاليز والأقبية المظلمة، أبي الذي اكتشف متأخرة المكان الافتراضي الذي دُفن فيه، هو وبعض رفاقه.

وصمتت للحظات وتنهّدت بعمق، كأنها تستسلم لتدفق الذكريات واسترسلت:

- الهزيمة تبدأ حين نجعل من الفكر ذريعة لتحقيق غايات شخصية.

وعادت إلى الصمت. كان سكوتها يلهج بكلمات غائمة وعصيّة على الفهم، تتدفق من ثقب الصمت حمماً غاضبة. أما عيناها فكانتا تضجّان ببريق غامض ومثير. راقبتها وهي تشرب من كوب العصير، كانت يدها التي امتدّت إلى الكأس بلباقة تقول أشياء كثيرة وتذكّر بأشياء أخرى، كم اقتلعت هذه اليد من حجارة لتروي غضب الرفاق، وكم جرّت من فروع الأشجار لإقامة المتاريس أيّام المواجهات! لكنّ الخاتم الثمين يشنّ هذه الصورة القديمة المتداعية. . . قلت لأتجاوز الصمت الذي بدأ يتّسع بيننا:

- وكيف غادرت الجامعة؟

- حكاية طويلة. المهمّ غادرتها، لكنّها لم تغادرني. لا زالت تعشّش مثلك في تخوم القلب القصيّة.

- مثلي؟

هكذا صحتُ مستغرباً، فأجابت بسرعة حاسمة:

- أنت تعرفني، أو على الأقلّ لا زلت تذكر أنني صريحة للغاية.

أنا نفسي لا أعرف لماذا ولا كيف تناسل حبك بين أضلعي خلسة!  
هكذا أكتشف وأنا أفتح نافذة القصيدة على مصراعها أن حبك رغم  
غيابك ظل ساري المفعول، الشعر جعلني أكتشف أن حلقة حبك كانت  
هي الأقوى والحقيقية أيضًا في سلسلة الأكاذيب التي عشتها ولا  
زلت...

- نضال! قل لي..

وأومات لها بعيني صوب الخاتم الذي ينام على يدها:

- هل تزوجت؟

- مرتين.

- الأول؟

- كان رقيقًا من مدينة وجدة، اكتشفتُ بعد زواجنا ببضعة أشهر  
أنه لم يكن رقيقًا بل كان أحد بياذق النظام، كانت هذه سنة عشتها في  
جحيم الخيانة، كما كانت المرة الأولى التي أصادر فيها القضية  
وأخونها، ولو أن الأمر كان دون وعي مني.

- وهل هناك حالة خنت فيها القضية عن وعي؟

- نعم. في الزواج الثاني، بعد أن فطنتُ إلى زيف حياتي بين  
حلم لا يكتمل - كما يُقال - وواقع لا يحتمل. هكذا انفضحت الهوة  
التي كانت تفصل بين الواقع والحلم السبعيني الذي لم تكن سوى  
امتداد بائس له.

- وما علاقة هذا بالزواج؟

وضحكت بصخب، ثم تطلعتُ إلى عينيَّ قائلة:

- تزوجت بالنظام.

وضحكنا معًا، وتحدّثنا بعد تناول وجبة الغداء عن الرفاق وعن  
جامعة ظهر المهرّاز، وعاج بنا الحديثُ إلى الحبّ.. أمّا عندما  
انكسرت الشمس عند خاصرة المغيب، فقد قالت بنبرة أقرب إلى  
الحزن:

- أدركني الرحيل.

- أبهذه السرعة يرق طيفك ويغيب؟

- ربّما.

- فلتجلسي.. ففي الفندق متّسع للغرباء والمرضى بالحنين.

- أنسيت أنّي متزوّجة؟

- لم أنسَ، ولست في حاجة إلى أن تذكّرني بذلك.

- إذن سَأبقى.

وعدلتُ عن فكرة الرحيل، وفي داخلي كنت أودّ لو أنّها ترحل.  
حتى الكلمات التي قلتها لأستبقّيها لم تكن إلّا من باب اللباقة، لكنّ  
الظاهر أنّها كانت تنتظرها لتبقى.

واقفين كُنّا أمام قصب انتصب غير بعيد من الفندق، وحال دوننا  
ودون رؤية الشمس وهي تنزلق بثناؤب خلف الجبال. مشينا قليلاً إلى  
أن بدأت حلكة الليل تزحف بوحشيّة وضراوة على القرية، أمّا ونحن  
نقترب من الفندق فقد تطلّعت إلى أعلى الجبل مصادفة، وغبت في  
متابعة أشباه أطياف تبدو تارة وتضممرها الحلكة تارة أخرى، رجال  
وبغال ولحى.. إلى أن انتبهتُ نضال إلى غيايبي وحركت ذراعي قائلة:

- أين غبت؟ أبهذه السرعة؟

- أنا معك.. أندخل؟

- لیکن ما ترید . .

\* \* \*

حبیبی تصوّر بآئی . .

إذا ما ترفقت الذکریات حزنْتُ

وکدت أُموتُ

إذا الجوّ أمطرُ . .

حبیبی، أعدلّ

إذا أَلصقوا بی الجنونُ . .

وقالوا بآئکَ ولید الظنونُ!

وأني على الزیفِ عشتُ

ولو يدركونُ

بآئی لأجلک یا مبتدای

لأجلک یا متهای

ولدتُ

ولولاک ما کنت . .

لو یعلمونُ

لما ظلمونی

وقالوا جنتُ!

فدعهم یقولون ما یشتهون

فهم مخطئون

وهم يحقدون

عليّ، لأنّي عشقتُ ..

ألقت نضال قصيدتها، وعلقت في نهايتها أنها الرسالة الأخيرة،  
كانت تجلس على الكنبه الحمراء، وكنت ممدّداً فوق السرير .. والليل  
خارج الفندق شرسّ كشفاه ظمأى، ومندفع وأهوج كأحزاني، سألتها  
ببرود مفتعل:

- لماذا الشعر يا نضال؟

- لأنّه الأمر الوحيد الذي يمكن أن أجيده.

- ولكنك تغتاليني بقصائلك.

والتفتت إليّ وقلبت شفتها دلالة الاستغراب. أغمضت عينيّ ثم  
تطلّعتُ إلى سقف الغرفة قائلاً:

- ربّما لا تدركين المعنى العميق، لأن يكون المرء مستهدفاً  
شعرياً ..

- كيف ذلك؟

لم أجب، فأطبق صمت موجه على الغرفة لا يفضحه سوى نباح  
كلب يعلو وينكسر، كانت الذكريات تتفجّر في جوفي مرّةً إلى أن  
داهمني صوتها بعد مدّة من الصمت:

- أكبر تغير لاحظته فيك هو أنك صرت قليل الكلام كثير  
الشرود.

- ربّما لأنّي متعب.

وابتلعني الصمت مرّةً أخرى، وكنت أتمنّى لو أقول لها أشياء  
كثيرة، أن أقول مثلاً إنني حزين لدرجة أنني لا أصلح لقصائدها، وأنني

وخشب الطاولة أمامها مقطوعان من شجرة واحدة! وددتُ لو أنني  
أخلع قميصي وأدير لها ظهري، لترى الندوب التي تنخره وتقوم دليلاً  
واضحاً على طفولة منتهكة، تمنيتُ أن أقول لها إنني أحملُ فوق كتفي  
حينئذ ثقيلًا إلى كلمة: بنيّ. وأرتمي بعد ذلك في حضنها وأنشج  
بصخب، وأظلّ مسجّى على خصرها إلى أن أشفى أو أموت..

اتجهت صوب الثلاجة الصغيرة، وأنا أشعل سيجارة بنرفزة  
حاولت جاهداً إخفاءها. أخذتُ زجاجة نبيذ وكأسين أنيقين وسحبت  
معي كرسيًا، بحكم أنّ الأريكة التي كانت تجلس عليها نضال لا تتسع  
لشخصين إلّا إذا كانا متعانقين. وضعت الزجاجة والكأسين فوق  
الطاولة وجلست إلى الكرسي، قالت:

- أما زلت تفعلها؟

وضحكنا معاً، وإن تحرّينا الصدق فقد ضحكنا لوحدها، أما أنا  
فقد جاريته وتظاهرت بالضحك:

- نعم، لا زلت.. لكنني لم أستحل بعد إلى سكير رسمي.. هل  
يزعجك دخانُ سجائري؟

- لا، لا بأس.. سنشرب إذاً. ليكون الأمر في حدود الكأسين،  
لأنني لا أريد أن تسحبني دوامة الثمالة.

وصبت النبيذ في كأسينا معاً، وهاجمتها مستفزاً:

- حدّثيني عن زوجك؟

ارتبكت ملامحها وخامرها الأسى، حين قالت:

- حبّذا لو نؤجّل هذا الحديث إلى أجل غير مسمّى!

وأهرقت الكأس دفعة واحدة في فيها واسترسلت بقلق مفضوح:

- لا شك أن سؤالك يضمر سؤالاً أعمق هو: ماذا تفعل سيّدة متزوجة في غرفة رجل أعزب ليلاً؟

- لم أقصد ذلك.

- لا فرق، فالسؤال منطقي للغاية.

وصبت كأسها الثانية، ثم أضافت:

- تمهل إذا كان لا بدّ من أن أفتح باب الأوجاع، أولاً لست سعيدة في حياتي الزوجية - هذا إذا كانت حياة زوجية بالمعنى الصحيح! أحياناً أجدها أقرب إلى نوع من الدعارة الشرعية.

ورشفت من كأسها جرعات متقطعة.. كانت بادية الاضطراب، استرسلت:

- إلى جانب أنه يكبرني بما يزيد عن ربع قرن، أجده خيانتني الكبرى للمبادئ التي طالما آمنت بها. حين تزوّجته أحسست أنني خذلت أبي في قبره. إنه رجل أعمال كبير، وفوق ذلك، رجل سياسة رفيع المستوى، يحلو له في لحظات صفائه أن يكون سادياً معي، إذ يؤكد أنه أحد زعماء الرأسمالية في المغرب. لا شك أنك تعرفه، لكن لا داعي لتعرف اسمه.. بالمناسبة، نسيت إخبارك بأمر على قدر كبير من الأهمية..

وشربت ما تبقى في كأسها الثانية من نبيذ، ودون أدنى اهتمام بأنها سبق وصرّحت أنها ستكتفي بكأسين اثنتين، صبت كأساً ثالثة وأردفت:

- أنا زوجته الثانية، أو لنبسط الأمر أكثر ونقول، أنا عشيقته حين يعوج على مدينة فاس. أمّا الزوجة الرسمية أو «أم البنين»، كما يحبّذ

أن يسمّيها، فتقطن بالبيضاء، تصوّر يا مراد أيّ حزن يمكن أن تستشعره إنسانة ثوريّة تُزفّ بين عشية وضحاها إلى رمز للانتهازية والوصوليّة؟! أنا متعبة.

وكانت تبدو متعبة فعلاً. عجبت كيف انتهت بها الحياة إلى هذا المصير! قلت:

- لا يهّم، فالحاضر على أيّ حال، أجمل من سنوات الجمر التي قضيتها في الجامعة..

- لا أظنّ ذلك. لم أنس قطّ قول لامارتين الذي طالما ردّدته «أيّ جرم اقترفناه لكي نستحقّ أن نولد».

- لماذا لا نترك هذه الأحاديث جانباً.

- كنت أجيبك عن سؤالك الأوّل.

- الأوّل؟

- سألتني لماذا الشعر؟

أشعلت سيجارة أخرى وانتصبت واقفاً. بحثت في أحد الرفوف عن بعض الأقراص المدمجة، وأنا أقول لها:

- أنرقص؟ عندي أغان قد تروقك.

- أقسم أنّك لم تزد إلّا جنوناً.

- وإن يكن، أليس شرفاً أن تراقصي مجنوناً.

- بلى.. لفعل ذلك.

والتحم جسداًنا على أنغام موسيقى هادئة لمغنيّة فرنسيّة شهيرة، دكّرني بجوليا وغالبت ذكريات كانت تطفو بسرعة وتخبو، وفي غمرة

انتشائنا وهي تنام برأسها على صدري ويدي تطوق ظهرها، همست:

- أأحببتي يومًا يا مراد؟

انحنيت إلى أذنيها قليلاً، وهمست:

- لست أدري، لأنني كنت ولا زلت أعيش التباس عاطفة الحب بعواطف أخرى.

وتطلّعت إليّ بحزن، كانت ملامحها تعود بي سنوات إلى الوراء، إلى المواجهات الدامية مع رجال الأمن تارة ومع «الإسلامويين» الذين ابتليت بهم الساحة الجامعية تارة أخرى. الموسيقى تندفع في خلايانا المخمورة بقوة وتهوّر، أمّا شفاتها وهي تتطلّع إليّ فقد كانتا أشبه بأمل مزيف، انحنيت مدفوعاً بطيش أخرج وأنجذب إليّ بعفوية، فالتحمت نهداها أكثر بصدري ودنوت. الغريب أنني في تلك اللحظة كنت على يقين تام أنني أخطّ حماقة أخرى..

والتحمت شفاهنا في قبلة الخطيئة، انصهرنا في جحيمها الشهوي وافترقنا في لحظة واحدة، كأننا كنّا متواطئين بشكل خفيّ على فعل ذلك. حين تطلّعت إلى ملامحها واجهني حزن عميق، لست أدري لماذا ألحّت عليّ صورة خولة وقتها. قلت معتذراً:

- أنا آسف، قد خرجت الأمور عن منطقتها السوي.

- لا عليك.

وعدنا إلى الرقص مجدداً على الإيقاعات السريعة لـ «ليالي الأنس في فيينا»، ندمت على تلك القبلة التي ما كان عليّ أن أتورط فيها. غنيّاً معاً وضحكنا بصخب ووجع، وقلت لها في قمة فرحنا الطارئ والموقّت بأنني لا أفكّر في علاقة جسدية معها.. ببساطة لأنها متزوجة.

- فتحتُ لها باب غرفة أخرى في الطابق الثاني، قائلاً:
- لا شك أنّ الغرفة ستروقك، فهي مشابهة لغرفتي.
  - نعم، إنها جميلة.
  - إذًا، تصبحين على وطن.
- هكذا قلت ممازحًا واستدركتُ:
- تصبحين على خير.
  - أمسية سعيدة.

## (١٢)

لم يمرّ وقت طويل حتى سمعت طرقًا خفيفًا على الباب، قفزتُ من السرير بخفّة وعلّ، كنت عاري الصدر. فتحت الباب، فإذا هي نضال. ظلّت لثوان تبخلق في صدري قبل أن تقول:

- في الحقيقة، غادرني النوم وجئت لإزعاجك قليلًا.

- تفضّلي.

كانت ترتدي فستانًا أزرق قصيرًا، لكنّه شفاف لدرجة أنّ تفاصيل جسدها تبدو واضحة. نضال كانت طريّة ومثيرة لدرجة لا تقاوم، عدت إلى السرير واستلقيت دون أن أضع لباسًا على جسدي، بينما جلسّت هي على الأريكة وصبّت كأس نبيذ آخر، أخذت الكأس بيسراها وانتصبت بأسقّة كشجرة تين، ثم أهرقت الكأس في فمها ببراعة سكّير متمرّس، وتطلّعت إلى جسدي بمكر يظهر من التماع عينيها، وجعلتُ تقترب من السرير بخطى متحفّظة، وفي كلّ خطوة تخطوها كانت الذكريات تنبعث من رمادها وتحلّق في سماواتي عنقاء قويّة. نضال

شهية وطازجة كنفاح إغرم، وجسدي يبدو أشد تماسكاً ما دام يقوى على لجم الدماء الجنسية التي تغلي داخلي وتفور، وتحتين الفرصة المثلى للانقراض.

وقفت قرب السرير، ودون أن تنبس ببنت شفة، شرعت في خلع ملابسها ببطء معذب إلى أن استحالت إلى ضيعة ذات قطوف دانية، كان جسدها شمساً محرقة تدنو وتنفجر داخلي آفاقاً من الصور المغرية، ورغم قصر اللحظات التي كنت أتأمل فيها هذا الجسد المشتهي، إلا أنها مرّت داخلي دهرًا كاملاً. حين وضعت ركبتيها على حافة السرير كانت دمائي تقول إنني لن أبرحها إلا جثة هامدة. اقتربت أكثر وزحفت بكامل عريها على جسدي، وتسارعت أنفاسها حين شددت على حلمتي نهديها الحماوين اللتين كانتا تشعان خصباً ووهجاً. كانت صورتها القديمة تنطمس وتتبدّد وكأنني إزاء جسد غيرها، أمّا وأنا أتابع ارتعاشات أسوارها اللحمية، وشهيقها يعلو وينكسر ليستحيل إلى زفارات متقطعة، ثم وأنا أتابع تأوهات بلذّة، مددت يدي إلى مواطن ضعفها. كنت أستفز جسدها ليكون بالحرارة المطلوبة وأحرّض عليها تخوم رعشتها السحيقة. حين التحم جسداً كانت يداها تشتبك بالندوب الراسية على ظهري وتئنّ، تتأوّه، وتصرخ بكلّ ما فيها من جنس وشهوة، وتستزيدني بلهفة كأنّ عطش سنين يسكن هذه المرأة الفتنة!

حين بدأت تظهر على زجاج باب الشرفة خيوط الفجر، وكان صباح الديكة يتناهى إلى مسمعينا على الرّغم من أنّنا بعيذان عن القرية. كنّا قد استسلمنا للتعب المتدقّ في جسدينا، وقتها انقلب شهوتي إلى ندم يهتصرني، وتذكّرت خولة وأنا أطفأ نور الكهرباء.

تذكّرت خولة والسنين الخوالي.

أيام لا نخشى عن الجنس ناهيا...

لم أنم أكثر من أربع ساعات، استيقظتُ وأخذت دوشًا، وجلست على كرسيٍّ في الشرفة. قرأتُ فصلًا لنيته عن الشعور بالندم، هذا الشعور الذي لا يزال يستبدُّ بي ويخزني في كلِّ مكان من جسدي. أمّا إغرم صباحًا، فكانت تنفضُ ليلها كما جرت العادة والشمس تزحف رويدًا رويدًا وتبسط حبالها الذهبية على حمرة الجبال وعلى صفرة المنازل واخضرار الحقول، فتغدو هذه القرية المجنونة سيّدة في أوج بهائها.. هكذا تفتعلُ إغرم هدوء مليكة في عرشها الأخضر. كنت عبثًا أحاول الاندماج مع أثير خافت تأتي به نسائم الصباح هو مزيج من كلِّ الأصوات التي تستيقظ في إغرم، وغشيني حزن لم أقوَ على كظمه حين تذكّرت ما حلَّ بي بعد إغرم، وانسجت من الشرفة...

كانت نضال لا تزال ممدّدة على السرير، لكنها مستيقظة. قلت:

- صباحك سكر..

- صباح الخير، تراك استيقظت باكراً؟

- نعم، منذ ما ينوف عن ساعة.

- وماذا فعلت؟

- أخذت دوشًا وقرأت فصلًا لنيته.

وناولتها لباسها الذي انزلق الباردة إلى الأرض، منظر المرأة، وهي تتجرّد أو تفرّ بعد ليلة جنس إلى ملابسها، أشهى بكثير من رؤيتها متجرّدة تمامًا، هكذا عبرت الخاطرة وأنا أتأملها وهي تعود إلى لباسها، أمّا بعد خروجها من الحمام فقد طوّقت يدها وسحبها إلى الشرفة فواجهتنا الطبيعة بألقها وبهائها. إغرم تتجرّد من ليلها.. فما

أشهاها! هكذا قلت في السرّ، وأنا أشدُّ على خصر نضال وأتكلّ  
بصدري على بلاطة ظهرها، قالت:

- إنها القصيدة، هذه القرية في استيقاظها الهادئ تقول ما يفكرُ  
فيه المرء من دون أن يجد الكلمات المناسبة ليقوله، هكذا تقول شعراً  
بصمتها البدائي الثقيل، بطهرها المجمع.  
- وها أنت تقولين فيها شعراً.

ضحكنا معاً، وتحدّثنا في الشرفة عن الجمال والأدب والحبّ  
وانتظرتُها لتستحمّ.. وقبل أن نذوب في الفضاءات اللامتناهية لإغرم  
عرجنا إلى المقهى وتناولنا وجبة الفطور. قالت ونحن ننسحب من  
الفندق:

- لماذا هذه القرية؟

- لأنني وجدتُ ذات يوم على الإنترنت صورة فندق معروض في  
مزداد علني، فقدمت أوّل الأمر إلى هنا، أعجبتني القرية فاشتريتُ  
الفندق. هذا كلّ ما في الأمر..

وحاولت ما استطعت أن أبعدُها عن هذا الموضوع، لأنّي أعتقد  
أنّ ردّ فعلي إذا هي تمادت في السؤال لن يخرج عن أحد أمرين: إمّا  
أنتني سألتزم الصمت ولن أجيبها، وإمّا أنتني سأستوقفها بكلمات فيها  
الشيء الكثير من الصفاقة.

بعد أن طُفنا القرية ومررنا من حقولها، وعبرنا من أزقتها إلى  
مختلف مزاراتها، انتهى بنا الأمر إلى المضيق الجبلي. اخترقناه برميّ  
بهذه العزلة المشبوهة التي يوقرها لنا المكان. هكذا.. يدًا في يد،  
كانت نضال تبدو أصغر من سنّها بكثير، لكنّها على أيّ حال ليست  
الرفيقة نضال التي عرفتها. الجبل خاشع لا يقلق هدوءه سوى وقع

أقدامنا وثرثرتنا، فكلّ حديث في السياسة ثرثرة قالت وأردفت:

- نحن في حاجة لسياسة جنسيّة كذلك، يجب أن يخرج الجنس من قائمة تابوهاتنا الطويلة.

- ربّما.. لكن يجب الاعتراف أولاً بوجود أزمة جنس. فعمق المشكلة يكمنُ في أنّ الإنسان العربي من المحيط إلى الخليج لا يزال يفكّر بخصيَّتيه، لكنّه يكابر ولا يعترف بذلك، بل الأدهى أنّه يستسلم لازدواجيّة بشعة بين شعارات يكرّسها لصالح القبيلة التي تعيشه في العلن، وبين حقيقته في السرّ.

- نعم، هذا ما يقف حجر عثرة بيننا وبين الحداثة..

وضغطتُ على يدي التي لا تزال تشدّ على يدها، وأومأت لي بيدها الأخرى إلى الجهة الظليلة من الفجر تمامًا، إلى مكان محجوب عن الأنظار، قائلة:

- لنجلس هناك، تعبثُ.

- لِمَ لا.

وما كدنا نصلُ إلى ذلك المكان حتى طوّقت يداها عنقي، وقالت وعينيها تلتمعان بمكر واضح:

- أشتيهك.

واقتربت حتى التحم جسدانا، وتطلّعت إليّ بشراسة ذئبة جائعة تستجدي لحظات جنس ومتعة، انزلقتُ يديّ بشكل لاإرادي من خصرها إلى ردفها وضغطت عليهما بشدّة، كان ثوب التّورة رقيقاً رغم كونها فضفاضة ومحتشمة، ولم تكن تلبس تحتها سوى تَبّان كنت أمرّ على تفاصيله بأصابعي وأنا أشدّ على ردفها، ممّا يرجّح أنّها خططت

للأمر. قَبَلْتُهَا بعنف لم تكن تملك أمامه سوى التراجع، إلى أن استندت ببلاطة ظهرها على الواجهة الجبلية للمضيق. طَوَّقَتْ عنقي بكِلتا ذراعيها وأنا أضغط على جسدها فيردّه الجبل، أما عندما مرّرت بأصابعها بين لحمها المتماسك الشهيّ والتّورة، فقد علا شهيقها باضطراب وتلعثم:

- أَحَبَّكَ .. بكلّ ما فيّ من عطش إليك، أسألك أن تزيدني منك.

تطلّعتُ إلى مختلف الجهات مخافة أن نكون على مرأى من أحدهم، في تلك اللحظة واللحظات التي تلتها، شعرت برغبة مبهمّة ومجنونة في الركض.. هكذا نصف عار، وأجتاح إغرم بجنوني وطيشي فاتحًا، في مثل هذه الحالة - النادرة عمومًا - أحسّ أنّ شيطانًا أحمر الوجه ذا قرونٍ وَعَلِيَّةٍ يقبع داخلي ويبقر أحشائي كلّما انفجر ضاحكًا.

في طريق العودة، قالت:

- أتدري أنّني، في ذروة لحظّاتنا الجسديّة، أتمنّى لو أنّك زوجي، بدل ثقيل الصدر ذاك. في غمرة جحيمك العذب والرّعدة تستبدّ بي من أعلى رأسي إلى أخمص قدميّ، لا أشتهي شيئًا سوى ألاّ تنتهي معاناتي اللذيذة معك وأنت تنغرس فيّ، تمنّيت لو تلتحم أعضاؤنا، صدّقني لم أمارس الجنس بهذه الشراسة من قبل، لم يمرّ بسفوح سيّل كسيلك الجارف الذي يجرّني إلى أقصى تخوم اللذة، أنا أعشّقك.

وطَوَّقَتْ ذراعَيَّ بيديها وشدّت عليها بقوة مضاعفة، واسترسلت:

- واشتهيتك مرّة أخرى، ولا شكّ أنّني سأنفق ما تبقى من حياتي في حالة عطش إليك.

كان لصوتها صدى داخلي في ذلك الرأس الشيطاني الأحمر،  
الذي لا ينفك يكركر بصخب فتتحرك قرونيه وتجرح الجدران الداخلية  
لجسدي. أخاف أن يفيض فمي دمًا وأخر صديق نزيه داخلي. أجبتها  
بتصنّع لا يُخفى وبنوع من المجاملة أيضًا:

- وأنت أيضًا طازجة وشهية لدرجة لا تُقاوم، ولا أخفيك أنني  
حين أضمك إلى ذراعي أحس أنك بركان في حالة نشاط تام.

- البركان لمن يجيد تنشيطه يا مراد، وهذا أمر تتقنه جيدًا.

وضحكنا للأمر، وعيناها لا تزالان تضجّان بلهيب الشهوة  
الحارق، عندما اقتربنا من الفندق لمحت سيارة الجيب خاصّة جوليا،  
إذن عادت الشقراء، أحسست أن موقفي بينها وبين نضال سيكون  
حرجًا، تخيلت لو أضاجعهما في سرير واحد فابتسم الشيطان الأحمر  
داخلي بخبث، بادرت نضال قائلاً:

- نسيت أن أخبرك بأمر مهم، ربّما أخبرتك به هاتفياً.

- خير إن شاء الله؟

- جاءت معي إلى إغرم فتاة فرنسيّة، كانت في زيارة لأخيها  
بمراكش، والواضح أنها عادت.

اكفهرت ملامحها فجأة، وبدا الأسى عليها واضحًا، فارتمت بين  
ذراعيّ مقبلة وقالت:

- على أيّ حال، بإمكانك أن تخبرها أنني مجرد صديقة قديمة  
قدّمت إلى هنا مصادفة. أمّا أنا فسأرحل. لا شك أن زوجي يتساءل  
عن مكاني.

- كما تشائين، على ألا تفهمي من كلامي أنني أطلب منك

الرحيل .

أما بعد ذلك، وما كدنا نتجاوز عتبة الفندق حتى انطلق صوت  
جوليا المشاغب:

- مراد ..

وهرولت إلى حضني الذي كان إلى وقت قريب ملك نضال،  
عانقتني بحرارة، وبعد أن فضّ اشتباكنا، أخذت وجهي بين يديها  
تطلّعت إليه كأنها تبحث فيه عن شيء أو تقرأ فيه ما فعلتُ في غيابها،  
قبلتني بنزق ودون أدنى اهتمام بالجالسين في المقهى، ولا بنضال التي  
شعرتُ في تلك اللحظات أنّها تحترقُ في صمت، قدّمتهما لبعضهما  
بعضًا. كان الأسى يجثم على وجه نضال، رغم أنّها تتجشّم مشقة  
افتعال الهدوء والاتزان.

جلسنا ثلاثتنا إلى طاولة واحدة، تحدّثنا طويلاً، وفي كثير من  
الأحيان عن أشياء تافهة، إلى أن استأذنتنا نضال وانسحبتُ إلى غرفتها  
لتنزل حقيبتها الصغيرة. عندما سمعتُ وقع أقدامها وهي تنزل سلالم  
الفندق، استأذنت جوليا وأوصلت نضال إلى سيّارتها. بعد أن وضعت  
الحقيبة في السيّارة قالت باضطراب يفضّحه ارتباك أصابعها:

- أحسدها .. وأشكرك، دوّنتُ لنفسي برفقتك ذكريات لا أظنُّ  
أنني سأشفى منها ..

- وأنا كذلك، أتمنّى أن تسعفك الظروف وتعودي مرّة أخرى.

- سأفعل، وإن لم أستطع، فكن على ثقة أنّي سأبحثُ عنك في  
البيضاء ..

وتطلّعت إليّ بذلك الشره الجنسي الذي يتحرّك داخل عينيها،

ويبدو من خلال الطريقة التي تحرّك بها شفّيتها، قبلتها بعنف واشتهاء وعيني على باب الفندق مخافة أن ترمقنا جوليا، وأسلمتها بعد القبلّة العاجلة إلى سيّارتها مودّعا. لمّا انطلقت السيّارة وخلفتني مثقلاً بالأسى والحزن، تطلّعتُ إلى البعيد، إلى الواجهة الجبلية المواجهة للفندق، فرأيت رجلاً مسربلاً في بياض لا ينسجم مع تلك اللحية الضخمة السوداء التي تنام على وجهه، تأكدتُ أنّ شيئاً ما يسير في إغرم على غير ما يرام. لا شكّ أنّه كان يرمقني وأنا أقبل مودّعتي. أشحتُ عينيّ عنه إلى سيّارة نضال التي كانت تجرّ ذيلاً من الغبار، ثم أحسست بأنفي ينزّ. تطلّعتُ إلى الأرض. فإذا هي قطرات الدم الثقيلة تحاول دون جدوى شقّ بطن الأرض كانت تنزل باندفاع وتهوّر وتنشظى إلى خطوط تتمدّد إلى مختلف الجهات. بقيت لثوان شاخصاً ومشدوهاً أتأملها إلى أن أدركني صوت جوليا ومنديلها.

كان هذا الدم المتدفّق ينكأ جراحات وذكريات دموية كثيرة..  
لطالما كنت متأكّداً أنّ الدماء صنعت شقاً كبيراً من ذاكرتي:

أحمر،

أحمر،

الحبّ أحمر والشعر كذلك، الجبال حمراء ووجعي كذلك..  
والشيطان ذو القرون الوعلية داخلي أحمر.. لا شكّ أنّ غبطته مزّقت أكثر من شريان داخلي..

في تلك اللحظة التي فتحت فيها صنبور الماء وتطلّعتُ للمرأة، شعرتُ أنّ المرض في طريقه إليّ، وأنّ جسدي مهما بدا قوياً ومتماسكاً لا بدّ وأن يكسر المرض شوكته، تذكّرت الرجل الذي كان يقف فوق الجبل مغتبطاً في بياضه... آه! وإغرم قد تمرض بأمثاله من

المتطرفين أيضًا إذا دخلوها . . . وتوقف النريف، وأنا أستعيد ما قرأته  
في مذكرة خولة صباحًا :

«لم يكن هذا اليوم كسائر الأيام، إذ لم نكتفِ - كما جرت  
العادة - بالقبل أو العناقات الطويلة التي لا تنتهي، بل تركنا  
لملابسنا فرصة أن تحلّق في سماء الغرفة. كانت سعادتنا  
بذلك لا توصف . . . وارتيمينا في السرير، وعلى الرغم من  
أنني شعرت ونحن عاريان مأخوذان بدوامة القبل، أنه يخطط  
لكلّ مرحلة ببراعة روائي وقلب عاشق، إلا أنني لم أكن خائفة  
بل كنت أجد الأمر دليلاً على ثقته بنفسه وبما يفعله .

حين اتّكأ على جسدي بخشونة جميلة وامتزجت داخلي  
أحاسيس قديمة بأخرى جديدة ضاربة في الغموض، قال لي  
همسًا :

- لم أعد أستطيع المقاومة .

- وأنا لا أملك إلا التمادي في هذا الجنون العذب .

وشقّ بعد ذلك التحام فخذيّ، كنت أحسّ به يلتحم بي . .  
وقتها فقط داهمتني رعشة قويّة ولذيذة، شعرت بوخز مؤلم  
وينزف يشقّ الخاصرة. تطلّعت إلى الدماء، فإذا هي وردية  
ضاربة إلى الحمرة. كنت أعلم أنها المرّة الأولى والأخيرة  
التي تقع فيها عيني على هذه الدماء، لكن - قلت في سرّي -  
إن كان لا بدّ أن يفضّها رجل فإنّي لا أجد أحقّ وأجدر بذلك  
من مراد . . . بالطبع، لم أضع الأمور في كفة الخطأ  
والصواب لئلا أحزن، قلت :

- أنا أحبه وهذا كلّ ما في الأمر . . أحبه .»

## مع مسودات رواية «مراد الوعل» لجوليا (ك)

هذه القرية الماكرة لم تكن بمنأى عن كلِّ ما وقع لمراد، كانت متورّطة مثلي أو أكثر في قتله، لكنّها كانت أخبث منّي حين قرّرت أن تواصلَ حياتها بعده بكثير من التأنّق، كأنّ أمره لا يعينها. هذه الحسناء ماتت على الأقلّ بالنسبة لي مع مراد (وأقصد بموته اختفاءه، أليس الاختفاء أشدّ أوجه الموت فظاعة؟!).

ها أنا ذا قد عدتُ مرّةً أخرى، المطار نفسه لم يتغيّر، لكنّ قلبي يرقص كأنّ مراد في انتظاري، وضعتُ عطر حبيبتيّ المفضّل كما فعلتُ سابقًا لأستفزّه، وجئتُ له بمذكرتها الحمراء التي ترجمها لي كاتب عربي مغمور، والتي استندتُ عليها لأكتب أحد أشهر رواياتي، كان قلبي يزغرد كنساء عربيات يؤبّن على أنغام الزغاريد شهيدًا... أحبّك لو تدري كم أحبّك، وها أنا أعود لأعانقك في ذكرياتنا المشتركة وأستجدي صفحك، وأتوسّل إليك بحكم الغواية التي تسكنني أن تلهمني حياتك لأكتبك بأقلّ قدر ممكن من الخيانة..

ومضيتُ إلى إغرم، كانت تبكي، لحظتها فهمتُ أنها تبكيك شتاء لترقص لغيابك صيفاً، لكنّها ذابلة وعارية أمام المطر، ووسط هذا العويل الجنائزي للرياح كانت تختفي أو تكاد.. فأين أنت يا ذبيحها الثاني. أين أنت يا صريع عشقها، يا عابدها ومعبودها؟ أيُّ أرض أناية امتصّتك؟!

كنتُ أعلم، وأنا أتكوّر صوب هذه القرية المهبولة، ثم وأنا أدير المفتاح في كوة باب كان ذات يوم باب فرحتنا وجنوننا المشترك، كنتُ أعلم أنني لن أجذك مختبئاً خلف الباب تنتظرني، أن أدخل ثم تطبق بيدك على عينيّ، ولا أن أجذك تدخّن بشراة في الشرفة، أو تقرأ بمازوشية مفرطة مذكرة حبيبك التي وهبتك حياتها، لكنني والحال هذه، متأكّدة أنك مبدّد في كلّ شيء، وأنّ أنفاسك وروائحك تملأ الغرفة..

أما وأنا أفتح الغرفة، فقد استيقظ داخلي كلّ شيء.. حتى أشياءنا الصغرى اندفعت إلى الذاكرة بعنف وخالجني حزن عميق، كذلك الحزن الذي يتابنا حين نغرق في صورة طفل قُتل دون أن يجرم في حقّ أحد، وقتلُك يا مراد! فما أفضحني وأقسانني!! تجرّأت باسم الأدب على قتل ملاك. ولكنني أحبيته إلى درجة جعلتني أقتله!

وها أنا قد قتلته وكان ما كان.. ماذا بعد؟ تجري السنين دون أن أجد كوة ولو بحجم ثقب إبرة، أنفذ من خلالها إليك وأكتبك على الرّغم من أنّ في حوزتي كلّ ما يلزم لأفعل. كانت حياتك أكبر منّي، أكبر بكثير ولم يكن يليق إلّا بك كتابتها، أمّا أنا المغلوبة على حرفي، فإني مهما حاولتُ أن أتقمّصك فلن أكون «أناك» بصدق، لذلك أجدني كلّما حاولتُ أن أكتبك شرعتُ في الكتابة عنيّ، واختزلتُ حياتك في ما دار بيننا وفرتُ حيواتك الأخرى من بين يديّ كالزّبوق.

غرفتنا باردة وحزينة جدًّا . . . فتحتُ باب الشرفة، دَخَنْتُ طويلاً وأنا أتملّئُ برؤيةٍ إغرم - كما لم أرها يوماً - تبكي بنشيج مسعور، والوادي يهدر وتصطخب أمواجه كأنما تحاول ابتلاع القرية، كان كلُّ شيء غاضبًا بشكل غير مبرّر، لكن بفضلُه عرفتُ القليل عن مراد، نحن نكذب بشكل مقصود إذا قلنا إنّ ذاكرة الأمانة لا تتدخل في تكويننا النفسي .

مراد كان أبعدَ ما يكون عن صيف إغرم، عاد إليها في الوقت الذي كانت تستجدي هدنة . بمعنى آخر قرّر العودة صيفًا لأنّه الفصل الذي لا تشبههُ فيه إغرم، كان هذا هو الوضع الوحيد الذي ربّما جعل حياته فيها ممكنة، أو على أبعد تقدير كان هذا الوضع هو الوحيد الذي يسمح فيه لمراد بالانسحاب من إغرم بأقلّ قدر من الخسارة، لذلك لم أستغرب أن يتمّ ذلك بشكل نهائي مع أوّل قطرة مطر . . . أمّا والشتاء على ما هو عليه الآن، فقد فهمتُ سرّ تناسيه لهذا الفصل، وكأنّ إغرم لا فصل لها سوى الصيف، الشتاء في إغرم غامض كمراد؛ فاضح، فاحش، ومليء بالمتناقضات كمراد؛ دافئ وحزين يلعب دور الصبيّ العجوز أو العجوز المتصابي تمامًا كمراد؛ شتاء إغرم يبلغ حدّ التماهي مع مراد . . فلا أنا الآن أقوى على النفاذ إلى أعماقه ولا أنا أستطيع التخلّص منه ومن ذكرياته .

لكن كيف أنسى؟ ترى أينسى القاتل وجه الضحية ولحظاتها الأخيرة وهو يستلّ مديته من لحمها؟ بالطبع لا، لذلك لستُ أنسى ليلتنا الأخيرة التي هيأتُ فيها مراد للرحيل الكبير، كانت ليلة من زمن آخر وكان فيها مراد ملاكًا ضائعًا متأكدًا أنّ نهايته قد دنّت لا محالة، ولم يكن يملك أمام هذه الحقيقة البمّرة سوى ابتسامته الساخرة من الحياة ومن كلِّ شيء، في تلك الليلة الباذخة شرب مراد كثيرًا ودخّن طويلاً

ورقص بهدوء وإتقان وفرح، ومارس الجنس بشراسة، كأنما كان يستنزف ملذات الحياة ويأخذ منها قدر ما يستطيع، لأنه كان يعلم أنني قد زرعْتُ في أوردته ما يودي به نحو الموت.. كان كريماً جداً حين علم بأنني أشرع في قتله، ولم يغضب ولم يثر، كرمه أصابني في مقتل، حين اختفى وضعتُ يدي على حقييته، ارتبكتُ أوّل الأمر وأنا أسحب الشرائط الصوتيّة، كانت تقبع داخلي ذبالة أمل في ألا تكون الشرائط مستنسخة عن شرائطي، لا سيّما وأنها تتشابه في العدد والترقيم، لكن فور أن وضعتها في المسجّلة الصغيرة حتى أغمي عليّ. كانت المرّة الأولى التي يُغمى فيها عليّ، استيقظتُ حين أذن الموت بذلك، لحظتها شعرتُ أنّ الإغماء موت تجريبيّ وإنذاريّ في الوقت نفسه، استيقظتُ على صوتي وهو يتدفّق من الثقب الصغير للمسجّلة، كدتُ أنكر صوتي، ليس فقط لأنني لا أعود إلى ما سجّلته إلّا بعد رده من الزمن، وبالضبط بعد أن أكون قد حقّقتُ مسافة بيني وبين الصوت الذي كنته، بل لأنّ الصوت كان لاإنسانياً البتّة، وكان فيه من الإجرام أكثر ممّا فيه من الأدب..

# الفصل الثاني

## خianat بالجملة

«الألم هو أكبر مساعد على تقوية الذاكرة»

نيتشه

«وشردني رفاتي ..

إلى ما لم تشأ سفني الأصيله

تركْتُ الحلمَ يكبرُ فيَّ

ويأكلُ من حياتي

ويسعى حية في كل أعضائي العليّة»

**مراد الوعل**

«إنّ الحزن الصامت يهمس في القلب حتى يحطّمه»

**شكسبير**

## (١)

أيقظني آذان الفجر!

أنقذني من هول ذلك الكابوس المرعب، لكنّه حرّك داخلي  
الخوف الطفوليّ الذي كنت أستشعره كلّما سمعتُ المؤذّن يعلن حلول  
الفجر، كانت عيناى لا تزالان دامعتين وجسدى يتصبّب عرقاً، أمّا  
الوسادة فقد كانت مبلولة تماماً، رأيتُ فيما يرى النائم أنّني كنت  
أركض بسرعة مجنونة وإحساس بالخوف يكبلّني، كأنّ شيئاً ما أو  
شخصاً يطاردني، وأنّه على وشك أن يمسكني، كنت هارباً من مزار  
سيدي عيسى حيث رأيتُ أمراً هائلاً لا أتذكره، وكان نباح كلاب لا  
أراها يحاصر خطواتي، والليل مستحكم بالقرية التي أسلمتني فجأة  
لدروب المدينة الضيّقة، هي نفسها المدينة التي نفيتُ إليها بعد إغرم!!  
كانت أصوات السكارى تتعالى معربة، هكذا مررت طفلاً أمام منزل  
كان فيما مضى منفاي الأول، رأيت صفية تحمل في يدها قضباناً ملتهبة  
كتلك التي نخرت بها ظهري، صاحت فيّ بوجهها المدوّر والزبد يتطاير  
من شدقيها:

- وأخًا فيك يا ولد الحرام.

هربتُ من صوتها القاسي.. هربت بسرعة مجنونة، إلى أن أسلمتني الدروب الضيقة للمدينة - ولا أدري كيف! إلى غرفتي باغرم حيث وجدتُ على السرير خولة عارية تمامًا، نذتُ عن شفتيها ابتسامة حزينة، وفتحت ذراعيها إليَّ كأنها تشجّعني على عناقها، فألجأني الخوف إلى أحضانها وأنا أصبح بها: دثّرني، دثّرني!! فتوحّدتنا في السرير. كان جسدها الميت العاري يحاصرني بحنان أموميّ طالما افتقدته، جعلتُ تربتُ على شعري الأسيب، فبكيت طويلًا على صدرها وغرست وجهي بين نهديها الصلبين، كانت دمعاتي تنسكب على جدرانها فأجهش أكثر فأكثر، وأمصّ دموعي على صدرها قائلاً:

- سامحيني يا خولة، أرجوك أن تفعلني وإلا خذيني معك...

وما كدتُ أنهي كلامي حتى شرعتُ تفكُّ الطوق الذي ضربته عليّ بجسدها، فاستيقظتُ...

تقلّبتُ جوليا في نومها بعد أن سقطت مكدودة بعد ليلة جنس طويلة، كان جسدي يفيض برائحة أشبه ما تكون برائحة الخيول، رائحة شهوية، أمطتُ الملاءة عن جسدي، تسلّلت بخفة من السرير وانتصبت واقفًا، وترنّحتُ أوّل الأمر يمنةً ويسرةً. انقضّ على جسدي بردٌ فادح، فسارعتُ إلى إغلاق باب الشرفة الذي كان مشرّعًا عن آخره وانصرفْتُ إلى الحمام، تأملتُ طويلًا وجهي في المرأة، كان ممتقعًا وشبه غائب، رشقته طويلًا بالماء وتأملتُ جسدي، تخيلتها تطلّ من زجاج المرأة وتطوّق ظهري كعادتها كلّما انشغلت بحلاقة وجهي عنها.

في السرير، كانت الملاءة قد انزاحت قليلًا عن ظهر جوليا. أعدتُها إلى مكانها، وعدتُ إلى الجانب الآخر من السرير وبشجاعة

فارغة من أيّ معنى، وربما محاولة منّي للهروب للأمام، قمتُ بقلب الوسادة التي بلّ وجهها إلى صفحة أخرى، إلى الوجه الآخر الذي لم يُبلّ بعد.. وبسرعة استجبت لنداء النوم.

\*\*\*

هي رياح المرض إذن!

تهبّ دون مقدّمات واضحة لتقصّف تماسك الجسد، وتبدّد كلّ المحاولات التي قمنا بها من أجل لمّ الشتات، هي قطرات دم تتدفّق من دون إذن أو سبب في لحظات سكون وسلام، نزيف يخيّط الفضاء بين الأنف والأرض، قطرة تنفجر تلو أخرى وتمتدّد في كلّ اتجاه، لا تذكّرني سوى بدرس من دروس التربية التشكيلية عندما كنّا صغاراً، نُسقط قطرات الحبر على الورق وننفخ فيها بقوة فينفجر الحبر في كلّ الجهات، تماماً كدمي حين يرتطم بالأرض.

مذ قلت لخولة في الحلم الكئيب دثّرني، دثّرني حزن جافّ وقاس... آه كانت تلبسني بعناقه، أو بالأحرى كانت تلبسني جسدها - الفتنة. أهكذا يعانقني الموت دون أن يفكّر بجعله عناقاً أزليّاً؟

حزن فادح ودرجة حمى مرتفعة وضغط دم مضطرب.. قالت جوليا بلهجة مثاقلة:

- لما لا تزورُ الطبيب؟

فأجبتها بلغة محمومة أقرب إلى الهذيان:

- لن أخرجها إلّا ميتاً.

ابتسمتُ لفكرتي وهي تقدّم لي حبوباً - قالت إنّها مسكّنة...

أغسطس.. شهر الحزن والتفتّت والانحلال، شهر الوجع الذي

يتسلّل تحت الجلد وينخر الأعماق. عندما تمدّدت جوليا كلبؤة قربي  
على سرير المرض، ألقت ذراعها على صدري المتعب ونام شعرها  
الذهبي على زندي العاري، قلت:

- هل تريدان سماع شيء عن تيه أوداد؟

- ماذا تقصد أولاً بالتيه؟

- أقصد هجرته، أو على وجه التحديد تهجيّره من إغرم إلى  
المدينة.

- إذن، احكِ إن كان الأمر يريحك.

- بعد تفوّق أوداد المدرسي وبعد الدمار الذي حلّ بعائلة امحمد  
التي آوته، لم يجد أمامه سوى يد تنادي بالرحيل، قال: إلى أين؟ قيل  
له: إلى المدينة... قال: وما المدينة؟ قالوا له: لا تخف إنّ شيء لا  
يُخاف... ومضى مع اليد التي اقتادته طفلاً مضرباً بأوجاع الحياة.  
كان يوماً حزيناً للغاية ذلك اليوم الذي يغادر فيه مملكة الجتّة - إغرم،  
ويمضي صوب أفق مجهول. في ذلك اليوم - كما قال لي فيما بعد -  
كانت تسيل منه أشياء صميّة، كانت طفولته تتشبّث بتربة إغرم لا  
تبرحها، غادرها وصرّة الملابس المرقّعة ترقص في يده رقصاً غير  
منتظم...

رمت جوليا فخذها الشهيّ فوق الخاصرة، فأهاجت داخلي براكين  
عجز المرض عن إطفائها، ودأبت بأصابعها القمحيّة زغب صدري...  
كانت الحمّى تمضغني، لذلك كنت خائفاً من أن تخذلني العبارة،  
وأنزلتني إلى استعمال ضمير المتكلّم بدل الغائب، فتنفّض أوراقي أنا  
المسكون بالضميرين معاً.

- غادر إغرم، لكنّها ظلّت مزروعة داخله وظلّ مسكوناً بها، كان

حنين الوعل دائماً للجبل وحمرة العنيفة للوادي وصخوره الصماء  
الصلبة للحقول وخضرتها التي تتناسل في الروح وتبعث في الجسد  
إحساساً فجاً بالحرية...

- وكيف وجد المدينة؟

- لست أدري كيف ترين المدينة هنا! لكنّها أسوأ ممّا تتوقعين،  
بالإضافة إلى أنّه من الصعب أن يعيش وعمل في المدينة من دون أن  
يستحيل إلى كلب ضالّ أو هرّ... انتقل إلى أحد الأحياء الشعبيّة..  
كان حلمه البسيط يتعقّد، ومشروع عودته يتعدّد ويتأجّل باستمرار، إلى  
أن أصبح بمضيّ الوقت أمراً غير مرغوب فيه، كان الحسين، هذا  
الرجل الذي تبنّاه، أباً لثلاث بنات وزوجاً لصفية، هذه المرأة التي  
كانت تشتعلُ حقداً تلقّفته وأنشبت أظافرها داخله في منرج خارج عن  
سيطرة الصدف. ذات يوم سألته: كم مرّة متّ؟ فأجابني ببؤس: أكثر  
ممّا تظنّ...

- وكيف كان الوضع المادّي لتلك العائلة؟

- متوسّط أقرب إلى الفقر، كان ربّها الحسين موظّفاً بسيطاً براتب  
هزيل، لكنّ العائلة وفّرت له حقبة مدرسيّة بلوازمها، ورغم الضغوط  
والمضايقات التي كانت تحفّه من كلّ جانب، إلّا أنّه استطاع في ظرف  
قياسيّ، أن يحقق نتائج باهرة على مستوى التحصيل الدراسي، الأمر  
الذي جعله موضع استغراب الجميع، حينها، وبعد أن التفت إلى  
نبوغه، وضع أحلامه نصب عينيه ولم يراهن إلّا عليها... كان يعرف  
ما يريد!

وداهمني دوار حادّ، حين استفسرت جوليا عن طبيعة العلاقة التي  
تجمع أوداد بربة البيت صفية! آه، لو تعلمين أيتها البهيّة أنّ الندوب

العريضة التي لا زالت موشومة على ظهري هي من فعلها، لو تدرकिन أي إحساس يتاب الطفل الذي كتته، وهو يواجه الملامح القاسية واليد التي تشدُّ على قضيب حديدي ملتهب وتضعه بشكل بشع على ظهره، أيَّ إحساس فادح بالألم أحسَّه ورائحة جلده المشويّ تنتهى إلى أنفه.

تحت الدوش الذي كان ينشج ببكائيات حزينة، كان جسدي يوجعني، أما الحمى فقد زارتني على خلاف المتنبئ في وضوح النهار، ولاكت دواخلي واهتصرت عظامي. متكوّماً كصرّة ملابس بالية تحت الدوش، والماء إذ يجتاحني مثلما تفعل المصائب ينزل من الذكريات ثقلها. وانتحبتُ، فاندمج بكائي الأقرب إلى الهمس مع النشيج الصاخب للماء، ترى أيّ ذنب اقترفه أوداد هذا الطفل المريض بالحزن والحنين ليلقى من الحياة ما لقي؟ طالما كان متماسكاً، أو على الأقلّ كان يظهر لنفسه وللآخرين أنّه متماسك، لكنّ الحقيقة أنّه مسكون بالوجع وقابل للتفتّت. . . وها أنا ذا يُزعزعني المرض ويغرقُ فيّ أظافره اليابسة، وتذكّرت في لحظة ألم خولة، خذيني إليك أيّها القدّيسة. . .

دڌريني بالموت،

دثرينى . .

\* \* \*

«كان دائم التهرُّب من ماضيه، لا يتحدث عنه.. وهذه حقيقة كان عليَّ أن أفهمها مبكرًا وأن أتقيّد بعدم الاقتراب منها.. كان يفرُّ من أسئلتي، يضطرب أحيانًا، وقد يغضب إن أنا تباديت في السؤال. كان يسكنه حزن غامض مرتبط بما خلف أبواب الماضي التي كان يُحكم إغلاقها..

في صباح هذا اليوم، قدمتُ إلى منزله وجلسنا إلى فنجاني

قهوة أعدّهما بيديه، كان جميلًا في هدوئه الصباحي. خبرته بأنّ أمي مسافرة فلم يأبه كثيرًا، تحدّثنا بعدها عن أشياء عديدة ومتشعبة. وحين وقعت يدي وأنا أتأمل مكتبته على أحد دواوين درويش المبكرة، طرث إليه، وقرأتُ له من قصيدته الشهيرة للحنين إلى الأمّ، ولم آتِ على إتمامها حتى اكتظّ عيناها دمعا، وكان هذا اليوم هو أوّل يوم يميط فيه مراد اللثام عن شيء من ماضيه. قال لي: أمي يا خولة! وابتلعه صمت بهيم، حتى إنني ظننتُ أنّه لن يقول أيّ شيء بعدها. لكن قال وبصوت متهدّج: أمي ماتت منذ زمن بعيد جدّا، لدرجة أنّي أجهل ملامحها..

كانت كلماته تبكي وتستفزّ مدامعي.. قفزتُ إليه، طوّقت رأسه بحنان. أمّا ما أردف ذلك فكما لو أنّها كانت لحظات مقتبسة من زمن غير زماننا، لست أدري على وجه التحديد كيف وقع الأمر، لكنّه في ذلك العناق الحزين، شرع يعرّيني شيئًا فشيئًا قبل أن يطرحني على السرير، ودون أن ينبسَ ببنت شفة، سقط مكدودًا إلى جانبي، أخدم وجهه بين نهديّ وجعل يمسّ كلّ نهد على حدة لكن بحزن عميق، في الوقت الذي كان مستسلمًا ومغلوبًا على أمره وموجوعًا بشيء ما خفيّ، كنت أستلذّ إحساس الأمومة المبكر.. أحبك يا مراد بكلّ أحزانك.. أنا أحبك».

وأنا أيضًا أحبك، وإن لم أنتبه للأمر إلّا بعد غيابك...

في تلة العرعار أمام القبور، كنت واقفًا بالكاد يحملني جسدي، وجوليا هناك على بعد أمتار تناجي مسجّلتها الرمادية بعد اتصال هاتفي طويل.. كنت مأخوذًا بكلّ شيء من حولي، حين نمرض ينقلب كلّ

شيء رأسًا على عقب، كأنّ العالم يتفسّخ أكثر وتتسع الأشياء من حولنا تارة وتضيّق تارة أخرى، كلّ شيء يرتبك مثل الجسد والروح، يعود بي هذا المرض إلى مرض آخر كدت أهلك بسببه، كان ذلك بعد انتحار خولة، سقطتُ لأشهر، وكنت أمام أبواب الجنون المشرّعة، طالما اعتقدت أنّه لا يفصلني عن الجنون سوى خيط رقيق وقابل للتمزّق في أيّة لحظة.

عندما أمرضُ - وكان الأمر نادرًا جدًّا - يفتحُ اليأس في أضلعي ثقبًا واسعًا، أشعر إثره كما لو أنّني أجوف وتدهسني ببساطة كلّ الأوجاع التي عبرت.. أحيانًا، أحسّ أنّ دوري في حياتي لا يتجاوز صناعة الخييات، كلّما دخلت قلبًا أضعته وكلّما مسّني كره قتلته، الجدة احترقت لأنّها كانت تكرهني، ومصطفى صديقي الوحيد طواه الإرهاب لأنّه أخلص لي في صداقته، صفيّة ابتلعها الموت لأنّها عدّبتني، وخولة انتحرت لأنّها أفرطت في حبّي.. فلماذا يموت الذين أحبّهم والذين أكرههم على حدّ السواء؟! وتكتفي الحياة بدور المتفرّج المحايد..

اقتربتُ خطواتُ جوليا المتناقلة، ولم يزد همسها للمسجّلة إلّا سرّيّة، ماذا لو علمتُ جوليا أنّني أوداد الذي لا أنفكُ أحدثّها عن شذرات من طفولته، ترى هل ستواصل عشقها لي بمنطق ما أنا عليه الآن أم بمنطق ما كنتُ عليه فيما مضى، هل سينقلب الأمر إلى شفقة؟

- كيف حال موجوعي الجميل، لا شك أنّك تتماثل للشفاء!

قالت، وأنا أضع كفيّ على خصرها الشريّ، فكيف تظنّ أنّني أتماثل للشفاء وأنا ذاكرة من وجع.. حتى في أقصى الحالات التي أبدو فيها سليمًا لا أشكو من شيء، تكون هناك قطرات دم تنزّ في الذاكرة وتهتصر الروح والجسد معًا.

- نعم، جميلتي أحسُّ أنني كذلك.

- وأريدك ألا تفكر إلا في أمر واحد، هو أنك لست مريضًا، لأنَّ بداية المرض الحقيقي هي عندما نقتنع أننا مرضى. وإياك أن تنسى أنني حبيبتك وطبيبك أيضًا.

ووددت في سرِّي لو أنها قالت: وأمك وأختك أيضًا. . لو أنها تحاول أن تسدَّ مسدَّ المرأة في حياتي. . واسترسلت وهي تمرُّ بأصابعها على جبينني:

- على أيِّ حال، حرارتك انخفضت وهذا مؤشر إيجابي.

ومرّت بأصابعها الجميلة على أنفي تداعبه كأنما تداعب غرّة حصان، ففجّرت جانبًا من الذاكرة بطلقة عشوائية، كانت من عادة خولة أن تفعل الشيء نفسه وتداعبني بتلك الطريقة. قلت:

- كيف أبدو يا صغيرتي؟

- وسيم واستثنائي. .

- وماذا أيضًا؟

- غريب الأطوار أحيانًا وغامض.

ومرّت بأصابعها على فتحة القميص، وبخفة فكّت الزر الأول وجاءت بعده على باقي الأزرار بمهارة وبشغف جنسي واضح، قلت:

- وماذا أيضًا؟

- مقنّع جسديًا إلى أبعد الحدود.

وجعلت تداعب بمهارة الزغب الذي يشقّ الصدر. . في الوقت الذي غرستُ أصابعي في سنابل شعرها، تنهّدت بعمق وعضّت على شفتها السفلى. ملامحها كانت متألّقة وناصعة، أما أنا فكنت أحسُّ

كما لو أنّ طبقة من الصدا تعلو ملامحي، حين هممتُ بتقبيلها انبعث  
الشیطان ذو القرون الوعلیّة من رماد المرض وجعل یرقص . قبلتها قبلًا  
متقطعة على شفتيها وجيدها وأرنبة أذنها . . وتوقفتُ بحجة أنّه من  
المحتمل أن أعديها .

ومضينا ونحن نشتبك بين الحين والآخر في عناقات متحفظة  
ومتقطعة في تلة العرعار بين إغرم وقبورها، بين أحيائها وأمواتها . حين  
تطلعت إلى الأفق البعيد المنبسط خلف القبور، رأيتُ رجلاً ذا لحية  
مسبلة، أو ربّما ذا وجه أسود، إذ إنّ عامل البعد یربك الرؤية أو ربّما  
هو المرض كذلك يضعف الحواسّ، ولكي أناكّد، أمسكت جوليا من  
ذراعيها، وبخفة بدلت مواقفنا قائلاً:

- عذراً . . حبيبتي، أريد أن أعرف إن كنتِ ترين أمامك رجلاً  
يلبس ثوباً أبيض!

وجعلت تتأمل، بينما أبحرْتُ أنا في أزرق عينيها، وغصة حمقاء  
تشدّ على جوفي . . قالت:

- لا، لا أرى أحداً .

- ركّزي جيّدًا!

- أنا متأكّدة، ليس هناك أيّ شخص بتأتا .

## (٢)

بعد أن لفظتني إغرم بحجة أنني تواطأت مع القدر في اغتيال  
العجوز..

وبعدما اعتبرني لعنة ابتليت بها القرية..

وبعدما قدّموا الذبائح والأضاحي لرجال البلاد، واستفتوا  
عجائزهم في أمري..

وبعد أخذ وردّ، قرّروا نفيي بعيداً عن إغرم.

بعد إبعادي القسري تلقّفتني المدينة كهديّة من السماء، فتحت  
أضلعي كأنّها تفكّ خيوط الهدية، فما وجدت غير قلب مدمّى، لم  
ترأف به بل دقّت فيه العديد من المسامير الغليظة وردّت الأضلع إلى  
حيث كانت، كأنّما لم تفعل بالقلب ما فعلت.. وأسلمتني لنزيف  
موجع لا ينقطع.

باختصار، في المدينة كنت على موعد مع أوجاع أخرى...

بمنطق الحاجة إلى ذكر في البيت، استقدمني الحسين إلى المدينة بعد أن تأكد أنّ أهل القرية قد عقدوا العزم على القذف بي في إحدى الخيريات، تجنّباً لمصائب أخرى - على حدّ تعبيرهم - تبنّاني بشكل رسمي مستغلاً في ذلك منصبه وعلاقاته في وزارة الداخلية، وكذا سجّلي في «كناش الحالة المدنيّة» الخاصّ به، وغير اسمي بطريقة ذكية من أوداد إلى مراد. لكن فور مقامي إلى منزله، اندلعت حربٌ ضروس بينه وبين زوجته. . وكانت حجّتها في ذلك أنّه لم يأخذ مشورتها. كان هذا ما صرّحت به، أمّا ما لم تصرّح به فكان الحقيقة المرّة التي ألقتها، هي التي كانت أمّا لثلاث فتيات، انتهى بها التفكير بشأني إلى أحد أمرين، إمّا أنّي ابن حقيقي لإحدى خيانات الحسين، وإمّا أنّ الحسين لم يأت بي إلّا حبّاً في صبيّ عجزت هي أن تأتي به وبالتالي أكون في كلا الأمرين برهاناً على رغبة الأب الملحّة في ابن ذكر، وتأكيداً على عجز صفيّة من جهة أخرى. لكن صفيّة كانت سيّدة عنيفة إلى درجة لا تطاق، حتى إنّ الحسين كان يرهبها ويتحاشى لحظات غضبها، ولا يملك إلّا أن يواجهها بالصمت في الوقت التي كانت هي ناراّ تندلّع باستمرار ولأنّفه الأسباب.

سجّلي الأب في إحدى الإعداديات المجاورة، ونسيتي تماماً، في الوقت الذي بدأ حقد صفيّة يتضخّم أكثر فأكثر، الأمر الذي جعلها تتحين الفرص وتتبع أبسط زلاّتي لتصبّ عليّ جام غضبها، شأنها في ذلك شأن العجوز أمّ امحمد. لم أجد لي موطأ قدم في هذا المناخ الجديد إلّا بأعجوبة، كان المنزل يقع في حيّ قديم ضيق الدروب بـ «المدينة القديمة»، وجرت عليّ محاولة انخراطي في السير العادي لهذا الحيّ الويلات، وكلّفني ذلك سلسلة من العراكات مع أترابي من الصبية. وعلى الرّغم من أنّي كنت أظفرُ بهم، إلّا أنّ سعادتني بذلك لا

تدوم كثيرًا، إذ سرعان ما تظفر بي صفة التي كانت تجد في شكوى أمهات المهزومين ذريعة. لذلك كانت أسعد اللحظات هي تلك التي أعيشها في الفصل الدراسي، كنت أحظى بتقدير خاص من أغلب الأساتذة، ربّما شفقة على هذا الطفل ذي الملابس الرثة والبالية، وربّما - وهذا الأمر المرجّح - إعجابًا بالتفوق والذكاء المنقطعي النظير بالنسبة لطفل في ذلك المستوى.

وعلى الرّغم من أنّني انتقلتُ إلى حياة اجتماعيّة أكثر رحابة، إلّا أنّني كنت أعيش عزلة ووحدة قاسيتين، ملابس رثّة وحذاء لا ينسى، كان دائمًا فاغر الفم، أمّا ملامحي فكانت تفيض بؤسًا، أيّامها كنت أتحرّج من الجميلات اللواتي كُنّ يدرّسن معي، بيشاوات، نظيفات، وطاهرات كملائكة منزلة يتطلّعن إليّ بازدراء واضح وأحيانًا بحسد خفيّ، لا سيّما عندما توزّع علينا نتائج الاختبارات..

لست أنسى ذلك اليوم الماطر الذي لا يشبه أيّ يوم، حين استوقفني مدير الإعداديّة عند بابها وتطلّع إليّ بازدراء، قائلاً بنبرة أقرب إلى النباح:

- أنت؟ ماذا تفعل هنا؟

أجبت ببساطة:

- أدرس هنا.

فنظر إليّ بتعال واضح، وأطال التأمّل في ملابسي البالية وملامحي المتسخة، وجرّني من كتفي ودفعني خارج المؤسسة معربدًا:

- كلوشار.. اخرج من هنا ولا تعد إلّا والذك معك.

وجرحني مرّتين.. المرّة الأولى، عندما طردني بتلك الطريقة

السافلة، والثانية حين أمرني بأن أعود بصحبة (والدي)! هكذا أطفأ في صدري رصاصتين، وولّى مدبراً بجثته الضخمة ورأسه الكبير المكور التي تحقّه الشحوم من كلّ ناحية، أما أنا فقد أسلمتُ جسدي إلى الأرض متكأً على حائط المؤسسة، بكيت بحرارة واستسلمت للمطر وهو يجلدني، ويضخّم داخلي ذلك الإحساس المستبدّ بالضيق.

ما أبشع أن يطعن الوعل في حرّيته.. أن يسجن خلف قضبان قفص في حديقة الحيوان! مرّت عليّ أيّامٌ وشهور تعيسة جدّاً، صدق الذين قالوا إنّ الخيالات لا تجرّ إلّا خيالات أخرى أكثر سخاءً؛ وصفية كانت جحيماً، بل ناراً تضطرم وتحرق في طريقها كلّ شيء. عشتُ معها أنعس أيّامي وأنا أراقب في صمت طفولتي وهي تنتهك وتحترق، ودمائي وهي تسيلُ إثر كلّ مرّة يرسو فيها قضيب حديدي ملتهب على ظهري ويخطّ ندوباً في الظهر والروح، عجز الزمان عن محوها.

وما كادت دراستي بالمرحلة الثانوية تنتهي، حتى انفجر جسدي بشكل غريب ومزعج ولافت للانتباه... ارتفعت قامتي عن الأرض أكثر، واتّسع جسدي وبرزت عضلاته مفتولة، ودبّ الزغب فوق ذفني.. هكذا كنتُ أراقب جسدي وهو يتفتّق - كزهور إغرم حين يزفّ الربيع - ببراءة. وكانت تلك الليلة التي انفجر فيها الماء بين فخديّ، وكلّ الأطياف والخيالات التي سبقت ذلك إيذاناً بأنّ مجرى حياتي سينجرف كثيراً، وأتّه لن يبتعد عن أجساد الفتيات اللواتي تفتّقن نهودهنّ كتفّاح إغرم، وفاضت أجسادهنّ، وثقلت أردافهنّ التي كانت الأثواب الفضفاضة وقتها - على عكس بنات اليوم - تعجز عن إضمار خصبها الطافح، ومثلهنّ كانت بنات صفية قد تبرعن الواحدة تلو الأخرى، الأمر الذي جعل صفية تضرب عليّ حصاراً مستمراً، رغم أنّي لم أكن أتجاوز يوماً حدود الأخوة المفتعلة، حتى في ذلك اليوم

الذي جاءني فيه الوسطى شبه عارية، وارتمت بين أحضاني بولٍ جنسي! أذكر أنني فررتُ منه بأعجوبة، على الرغم من أنّ نداء الجسد كان يضحّ داخلي.

مع هذه التغيّرات الجسديّة المهمّة والمفاجئة تضاعف حقد صفيّة، وطفل الأمس الذي عجزت على أن تأتي بمثله يصبح رجلاً. أصبحت تتهجّم عليّ لأنّفه الأسباب غير آبهة باستعطافات بناتها وزوجها، بل إنّ الأمر لم يكن يزيدّها إلّا حقّداً. لم أكن أتصوّر أنّ هناك إنساناً يحمل داخله كلّ تلك الضغائن ولا يزال حيّاً.

في تلك الأيّام الشائكة التي سبقت التحاقني بالثانويّة، والتي كانت تتحرّك ببطء سلحفاة تعرّفتُ على مصطفى، كان أستاذاً بالإعداديّة التي كنت أدرس بها، لكنّني لم أتلمذ على يده بل إنّ تفوّقي وتميّزي هما الأمران اللذان جعلاه يلتفت إليّ برحمة واضحة. عرض عليّ أوّل الأمر مجموعة من العناوين المغرية التي كانت تزخر بها مكتبته، ومع كلّ كتاب كنت أقرأه كنّا نردفه بنقاش، ومع كلّ نقاش كانت علاقة التلميذ بالأستاذ تنتفي وتحلّ محلّها صداقة لا تنفكّ تكبر مع الأيّام وتتوطّد، إلى أنّ جاء ذلك اليوم الذي أطلّعت فيه على أشياء صميميّة من محنتي. لم يخف تأثره أبداً، لكنّ الأمر لم يغيّر شيئاً من نظرتي إليّ بل زاد من حبّه وتقديره لي.

في بدايات التحاقني بالثانويّة وما رافقها من تغيّرات، وجدتُ نفسي ولأوّل مرّة أفكّر بشكل مختلف في الجنس اللطيف - والذي لم يكن لطيفاً معي! فبعد الترقية التي حصل عليها الحسين اشترى لي ملابس جديدة، كما أنّ مصطفى لم يكن يتردّد في دعمي بين الحين والآخر مادّيّاً، لذلك وجدتني أنكفئ على جسدي بقوة، وأصرّ على أن أبدو دائماً في أفضل حال.

وما كادت السنة الأولى في الثانوية تأفل، حتى توجّنها بحبٍّ  
أوّل. تعرّفت على ليلى، وكنت مجنونها الماجن. ليلى هذه كانت  
مملكة للخصب، ورغم أنني كنت أعرفها من قبل، إلّا أنّ الطريقة التي  
فاض بها جسدها والنضارة والجمال المفاجئين، جعلاني ألثفت إليها  
كأنّني أكتشفها لأوّل مرّة. كانت أجمل اللحظات وقتها هي تلك التي  
نقضّيتها معًا بعيدًا عن أعين المدينة، لست أنسى تلك الأويقات التي  
أزريح فيها المنديل الذي كان يغطّي رأسها، فينتفض شعرها الأسيب  
البنيّ ويشتبك بأصابعي كلّما هممت بتقبيلها، شفتاها كانتا مصراعِي  
الجسد المفتوحين أمامي، كانتا غوايتي الأولى! لكن، ومثلما تأتي  
الأشياء الجميلة بعفوية وبساطة، فإنّها كذلك ترحل.

ليلى كانت جزيرتي الأولى، لكن سُفني لم تطل عندها المكوث،  
لأنّها سفن مسالمة، ولأنّ مدينة القهر والضعينة والكبت، مدينة الوجد  
والقيء، أرسلت قرصانًا ليغتصبها باسم ورقة صفراء كملامحها يوم  
بكت بين ذراعِي، بعد أن وافقت (القبيلة) على تأطير هذا الاغتصاب  
الوحشي بكذبة كبرى تسمّى: الزواج.

وتزوّجت حبيبتي الأولى، وعدت إلى وحدتي المريرة وكابدت  
الأمريّن لنسيانها. بعد أن غلّفها هذا الزواج، كنت أراها لمامًا في  
بعض الشوارع، وقد تصادف كثيرًا أنّنا كنّا نتقاطع. أنا وحدي، وهي  
تتأبّط ذراع قرصانها. كانت تنفجر ضاحكة كلّما رأتني ربّما لتغيظني،  
أو ربّما لتوهمني كما توهم نفسها أنّها نسيّتي.

بهذه الطريقة، تعرّفتُ على القبيلة التي تعشّشُ في ذهن كلّ فرد  
من أفراد هذه المدينة المزبلة، التي لا تفكّر سرًّا إلّا فيما بين فخدِها  
وتحارب جهازًا كلّ من يفكّر في ذلك، تأكّدتُ أنّ المدينة ترفض  
أمثالي وأمثال مصطفى وأبطال الروايات التي كان يختارها لي، ترفض

الاعتراف بالتناقضات التي تعيشها، ترفض أن تزيج عن وجهها القناع الذي يتزاح من تلقاء نفسه ليلاً.

ولأنني كنتُ أخرج أيامها ليلاً لألملم زجاجات الخمر الفارغة قصد بيعها صباحاً، فإن هذا الأمر أطلعني على الوجه الحقيقي للمدينة. كنت ألمح أولئك الذين يعطون الناس وينصحونهم نهاراً، وهم سكارى تتقاذفهم الجدران ليلاً، فكيف ينهون عن شيء ويأتون بمثله؟ أيّ خراء هذا الذي يقبع داخل جماجمهم! أيّ روائح للزبل تتبخر من أفواههم الواعظة!! في ليل المدينة العاهرة، سمعتُ صراخ بعض النساء وهنّ يُضربن أو يُغتصبن، رأيت اللواتي يتسللن ليلاً إلى منازل أخرى، وتأمّلت السكارى وهم يعربدون ويضربون كلّ شيء يجدونه أمامهم لا سيّما أكياس القمامة. رأيتهم يتبولون على الأرصفة والجدران أو يصطفّون أمام أبواب المومسات ويدخلون تباعاً، ليل المدينة كان يعرّي الجسد المسخّ للقبيلة التي تعيش داخل كلّ فرد، هذا الجسد المسخّ الذي تمّ السعي على مرّ قرون إلى مواراته في أثواب بيضاء لا تصلح له بل، ولا تزيده إلّا بشاعة.

- اغتالت المدينة أفراسي الموقّعة، اغتصبت حبيبتني لا بشرعيّة الحبّ بل بشرعيّة العرف. أيّ مرض هذا الذي تفتّس هنا منذ زمن بعيد!! لم يكذب مظفر النّواب حين صرخ: ما أوسخنا. ما أوسخنا. ما أوسخنا...

قلت لمصطفى ذات حديث شجي!

- تمنّيت لو أحرق تلك المدينة بما فيها ومن فيها.

قلت لبنهاشم، وأنا مستلق على أريكة عيادته:

- المدينة اختارتنا، والقبيلة والتفكير القبلي لا يزالان داخلنا.

قلت لخولة:

وناولني مصطفى مجلّدًا أحمر قائلاً:

- هذا «رأس المال» لكارل ماركس، آن أو ان قراءته، وتذكّر أنّك لن تكون رجلاً حقيقياً إلا حين تختار أنت ذلك.

واختفى من حياتي طويلاً، والتقينا فيما بعد في الدار البيضاء مطلع الألفية الجديدة، وصرنا أصدقاء.

\*\*\*

الغروب في إغرم، هروب مشروع إلى العوالم الداخلية..

وأنا أرى إغرم عروساً مجلّلة بعبق سحري خفيّ، لا يستشعره إلا من اغترف من نهرها وذاب كقطعة ثلج في حقولها البديعة. من هنا، أقصد من فوق هذه الهضبة العالية، تبدو إغرم والعتمة تكسوها ككاسية عارية..

وجوليا أمامي، أشدّ على خصرها بأصابعي وتستند ببلاطة ظهرها على صدري المتعب، كنّا معاً مستسلمين لغروب إغرم، لكن كان كلّ واحد منّا يصغي لأوجاعه وهي تنتفض كسمكة سُحبَتْ من إنائها. ها أنذا قد عدتُ إليك بعد ربح من الزمن يا إغرم، مدّمتُ بأحزان غير تلك التي عرفتُها، عانيت كثيراً وبطشتُ بي الحياة، ولا زلتُ رغم كلّ الخسارات واقفاً أرّدت مع عجوز همنغواي مقولته الشهيرة: «يمكن للإنسان أن يدمّر لكنّه لا ينهزم».

وقَعْتُ على جيد جوليا قبلة طائشة، فارتعش جسدها أمامي، والشمس في الأفق انزلقت نحو هاويتها السحيقة.. فما أفدح هذا الانتحار اليومي، هذا الاندحار الاعتيادي! معاً كنّا أنا وخولة، قبل

سنوات في مثل وضعيتنا أنا وجوليا، ويداي تحطّان كفرأشتين متعبتين على خصرها، كان ذلك ذات غروب في شاطئ البيضاء. معاً، كنّا نتملّى بمنظر الغروب، كنّا عاشقين دون أن ندري، عاشقين لا يعرفان شيئاً عن فقه النهايات. أتذكر جيّداً أنّها سألتني:

- أتحبّ الغروب.

- أحياناً، لكنني أخافه.

- لماذا؟

أجبتها بحزن:

- لحلم بئس عاودني أكثر من مرّة، كنت أرى فيما يرى النائم أنّني أقف على شاطئ جميل وأتأمل الغروب، لكنّ الشمس لم تغب بل سقطت على البحر، ولم أشتعل ولا اشتعلت الأشياء من حولي ناراً، بل كان ذلك الصوت الصاخب لانطفائها رهيباً وحاداً، كنت أتأمل الناس على الشاطئ وهم مشدوهون لا يتحرّكون. تحرّكت بينهم، كنت الوحيد القادر على ذلك، وراقبت الدماء وهي تنزل من آذانهم إثر ذلك الصوت الصاخب.. وكان آخر ما رأيت، أنّني مددتُ أصابعي إلى أذنيّ فتحسّست البلبل وتطلّعت إلى أصابعي، فإذا هي قد احمرّت، وإذا هي الدماء تندفع أكثر فأكثر من أذنيّ قبل أن يكتسح الأحمر كلّ شيء تقع عليه عيناوي.

ولم أخبر خولة وقتها أنّني استيقظتُ على رعاف.

في طريق عودتنا، أنا وجوليا، كان أذان المغرب يعلو بارتباك وרטانة قبل أن يكسره الصمت، وهناك في الأعالي زوج نسور يحوم حول قمة الجبل، ويرسم لوحة أخرى من لوحات إغرم البهية.

\*\*\*

«حين رأيت الهاتف يرتجف في يده، ثم حين خذلته دمعة، أدركت أنّ في الأمر خطبًا ما. بعد المكالمة، فرّ تاركًا خلفه كلّ شيء. بعد هذا الخروج الغامض والسريع، أوردت نشرات أخبار عاجلة نبأ وقوع تفجيرات في الدار البيضاء.. شعرت أنّ لخروج مراد بذلك الشكل علاقة بالأمّ. حين عاد كانت دموعه تسبق كلماته، قبلني بقوة غير مفهومة، ثم قال بكلمات غائمة:

– حبيبتى أنقذتني من موت محقق.

لم أفهم شيئًا، لا من كلامه ولا من دموعه، كان مخربًا بصفة تامّة. راقبته وهو يهرق في فيه كأسًا تلو أخرى ثم وهو يهذي، اشتعل جسده بالحمى تلك الليلة.. كانت المرّة الأولى التي أعرف فيها أنّه يجيد التحدّث بالأمازيغيّة، تحدّث عن الماركسيّة والسجون والنضال، ورفع بعض الشعارات اليساريّة التي لا زال الطلبة إلى اليوم يردّدونها في مظاهراتهم.. وبكى بعد ذلك بشدّة هامسًا في أذني:

– صديقي الوحيد مات اليوم، مات على يد أعدائه الحقيقيين الذين طالما انتظرهم، يا لتفاهة الأقدار.. لماذا تنطفئ الفراشات بسرعة!!».

في تلك الليلة الحزينة وقبل أن أعود إلى خولة، عرجت بي سيّارة الشرطة إلى ثلاجة الموتى قصد التعرف على الجثة. لن أنسى ما حييت تلك اللحظات المجنونة، حين أمارط ضابط الشرطة الغطاء الأبيض عن وجه مصطفى، كأنّما توقّف الزمان أو تباطأ بشدّة، كأنّي كنت أنزلق في منحدر حادّ، وأنكّور وأنالّم دون أن أملك سلطة التوقّف، داهمني

إحساس فظيع بالاختناق ثم الغشيان، كان الإرهاب قد شطر وجه مصطفى نصفين، الأول لم يغيّر قط بل وكان أكثر بياضاً وشفاء، والثاني أكله الظلام وأحرق شعر تلك الجهة وأكل لحمة الخد وعرى أضراسه.. لكنني كنتُ أراه جميلاً وطيباً، فانهض أيها الرفيق، انهض وكلمني! آه هذا الظلُّ الذي أبقت منك أقيّة النظام جاء الظلام وابتلعه، لم يجبني ولم أصح السمع أيضاً لأوتار قلبه وهي تتكلم، كنّا نفتعل معاً الهدوء ولو في أشدّ اللحظات احتراقاً. جاؤوا بكفرهم ليزيدونا تناقضات يا صديقي، هم سليلو الكره والظلام.. وابتسم الشطر المشوّه من وجهه، أو أحسستُ بذلك، لا فرق. وسحبني دمة غاضبة من فوضى الذكريات كما سحبني كذلك يد الضابط من ذراعي. كان يلهج بكلمات لا أكاد أسمعها.

كان أمراً وارداً أن أكون الآن ممدّداً إلى جوارك، لو أنّ الحياة لم ترسل خولة لتؤجل مواعيدي معكما، أنت والموت. أنا الذي أخذتك من يدك إلى موعدك الأخير وتغيّيت عنك، لأنّ الحياة لم تسأم مني بعد، ولا أنهت لعبتها القذرة معي. أرادتني أن أبكيك وأبكي بعدك خولة أن أتورط بشكل أو بآخر في قتل من أحببتُ. أرادت الحياة أن تعلّمني بكما كيف يكون الحبّ وجهاً آخر للجريمة. أجمرتُ حين أحببتكما، وأنا على علم مسبق بأنّ اللعنة تنغل في دمي.

\* \* \*

- حبييتي.. هل تعرفين شيئاً عن موت الفراشات؟

- لا، ولكنني أعرف الكثير عن حياتها.

هكذا ردّت جوليا بمكر، وهي مقبلة تحمل في يدها حقنة الشفاء كما صرّحت من قبل.

- يقولون إنها تموت بسرعة وخفة!

قلت: وخولة ومصطفى لا يفارقان الذاكرة! فأجابت بسرعة حاسمة:

- ولكنك ستعيش أكثر مما تظن يا حبيبي.

قمت بطي القميص حتى الساعد، قائلاً:

- لست أقصد نفسي. لست جميلاً بقدر الفراشات! كل ما أقصد أن الأشياء الجميلة، فراشات أو وروداً أو غيرها، لا تعمّر طويلاً، ينفجر جمالها بسرعة وبسرعة ينطفئ. غريب رحيلك الشتوي يا جوليا!

كنتُ أهذي. بسمت عن برد، كما قال المتنبي، فتمطّ شفتاها وعضّت على السفلى في إحياء مثير، لحظتها وخزني رأس الحقنة، انحنت جوليا إليّ تقبلني، ذبنا معاً في حرارة القبلة والحقنة تنام في لحمي. إلى حدود تلك اللحظة، كان كلّ شيء مفهوماً، لكنّها قبل أن تسحب الحقنة تطلّعت إليّ بنظرات غامضة وبعينين دامعتين، وببراعة سحبت الحقنة، ومَرّت بقطعة قطن على الثقب الصغير الذي خلّفته في ساعدي الأيسر، اجتاحتني بعدها أحاسيس غريبة، ارتخاء وصفاء ودهشة.. كما لو أنني فقدت الذاكرة للحظات، كما لو أنني كنت أكتشف نفسي لأوّل وهلة، وأرى حياتي من زاوية نائية بالغة التعقيد والغرابة. كانت الأشياء من حولي.. روائح وصور وأصوات تتناهي إلى حواسي واهية، حتى صورة جوليا وتلك الدموع الثقيلة تتقطر من عينيها، كانت تبدو لي بعيدة وضعيفة.

- أحبك يا وُغلي..

قالت، ثم غيّبها نشيج لم أجد له معنى، ارتمت على صدري وطوّقت عنقي بذراعيها واسترسلت في البكاء. ولأنني أسئع معنى

أن يداهم الانكسار المرء أحياناً، لم أحاول أن أكسر بطنين أسلتي  
تواربها خلف سياج أحزانها، وحين فضّت عناقنا طارت إلى مسجّلتها  
وفرت بعدها إلى الشرفة هناك، حيث ظلت تناجي همساً نفسها، أما  
أنا فدهشتي الطارئة بدأت تزول شيئاً فشيئاً؛ وعلى الرغم من أنني لا  
زلت أستشعر بعض الخدر في أطرافي، قلت: قد يكون الحلّ في كأس  
خمر، حين وضعت الزجاجاة فوق الطاولة دخلت جوليا طلقة الملامح،  
كأنها أزاحت ذلك الغمّ الثقيل الذي كان جائماً على صدرها، تناولت  
كأسها وشربته دفعة واحدة، أطلقت موسيقى صاخبة ورقصت بجنون،  
ودارت حول نفسها وهي تكرر إلى أن سقطت على السرير. أيقنت  
وقتها أن نوعاً من الجنون يسكن جوليا، أما حين انكسر إيقاع  
الموسيقى وصار أقلّ صخباً فقد شرعت في خلع ملابسها..

جوليا طازجة وشهيّة تتعرّى أمامي، فيزغرد الشيطان الأحمر  
داخلي. وقفتُ أمامها بعد أن نفضتُ شهيتي الجنسيّة عني كلّ تعب  
وعياء، فداعبتُ أنفي تماماً كما كانت تفعل خولة، فانفجرت الذكريات  
جميلها وتعيّسها داخلي.

في تلك الليلة التي أثقلتني فيها غربة مريّة وغامضة، طارحت  
جوليا الغرام، لكنّ النزيف أدركني، وأدركني حنين قاس إلى  
الشهيدين: مصطفى وخولة!

### (٣)

استيقظتُ على ألم يشطر رأسي وعلى رعشة تتغلغل كمدية في جوف عظامي، تركت السرير أوّل الأمر هرباً إلى الشرفة لأنأمل صباح إغرم، ثم دنفتُ بعد ذلك إلى الحمام. استوقفتني المرأة، أو بالضبط استوقفتني وجهي الذي كان بعيداً وغريباً عني. كان شاحباً إلى حدّ يبعث الأسى واليأس معاً. انتبهتُ إلى أنّ شعر الذقن قد تمدّد في غفلة مني.. أكره اللحي - قلت في السرّ - وأكره أيّ شيء يمتُّ بصلة إلى قتلة مصطفى.

لمّا كانت شفرة الحلاقة تجري في وجهي وتجرّ معها شعر الذقن ورغوة صابون الحلاقة، تمنّيت لو أنّ للذاكرة شفرات تحلقها وتزيع عنها أكوام الذكريات البالية والمتسخة التي تجثم فوقها، على الأقلّ، سيكون أمام المرء احتمال استنبات ذكريات جميلة!! في لحظة سهو، انحرفتُ شفرة الحلاقة وجرحتُ أسفل خدي قليلاً، رشقتُ وجهي بالماء طويلاً ومسحته بفوطة، لكنّه ظلّ يلوح هناك في المرأة بعيداً عني وغريباً كأنّه ليس وجهي. تأملتُ شعر رأسي، فإذا هو قد طال أيضاً

أكثر ممّا ينبغي، حتى إنّهُ بدأ يغطّي أذني، أمّا الجرح، جرح الحلاقة، فلا يزال ينزّ دماً. جرفتُ الدم بأصابعي وتلاعبت بها. إنّها الإثبات الوحيد على أنّ من يخلق في المرأة هو أنا لا غيري، وضعتُ ضمّادة صغيرة على الجرح وانسحبتُ من الحمام. تأملتُ جوليا الممدّدة على السرير كأنّني طاووس، وارتديتُ ملابسِي. . . سحبتُ من الرفّ مذكّرة خولة وانزلتُ بخفّة إلى المقهى، حيثُ وجدتُ حميد يرتّب ببطء صباحها. حيّاني وهياً لي طاولة، بينما تناولتُ سيجارة من العلبة، طلبتُ منه أن يهَيئ لي وجبة الفطور واسترحتُ على المقعد، ووضعتُ المذكّرة على مقعد آخر.

أشعلتُ سيجارة الصباح، فاندفع دخانها متطايراً في كلّ ناحية، سيجارة الصباح الأولى ليست كباقي السجائر. عادة ما يكون فيها شيء من السيجارة الأولى بدخانها الغريب والعنيف في آن، يتدفّق ملء الرئة كسمّ زُعاف، ثم ينسحب ساخناً من الفم، يتطاير ويرقص ويتداخل ثم يتبدّد ويتلاشى، ولا يبقى منه فيّ سوى ذلك الإحساس المستبدّ بأنّ ما قمتُ به خطأ لا يغتفر، لكن مع النَفَس الثاني وما يليه، أستلذّ ذلك الإحساس بالخطيئة أكثر ممّا أستلذّ بجرجعات النيكوتين التي تندفع في رثتي!

تأملتُ حميد وهو يقوم بأعماله، أحياناً أتمنّى لو كنت رجلاً عادياً وبسيطاً كحميد. صحيح أنّه يعيش على الكفاف، لكنّه لا يجرّ خلفه أيّ حزن فادح، يعيش في قرية لم يُخلق إلّا لها، له أب وأمّ وإخوة وأطفال وبيت يعود إليه، قد يكون سعيداً وقد لا يكون، المهمّ أنّه ليس تعيشاً بالقدر الذي يجعل حياته بالغة التعقيد أو غير محبوبة. حميد، من المؤكّد أنّه كان يعرفني، لكن من المؤكّد أيضاً أنّه أسقطني بسرعة من ذاكرته، لأنّني لم أسكن فيها إلّا على الهوامش الضيقة التي سرعان

ما تمحوها هموم الحياة الأشدّ بساطة . . نسيني تمامًا مثلما فعل أهل  
إغرم جميعهم، ومن غير المستبعد أنّه كان من بين أولئك الذين طالما  
تطلّعوا إليّ بازدراء وشفقة! هذا وارد بشدّة. الحياة أسوأ لعبة يتورّط  
فيها أمثالي. نعم، رغما عني دخلتُ اللعبة بحصان أعرج، دخلتها وأنا  
على علم مسبق أنني خاسر، خاسر لكنني عشتها لا بحثًا عن تعادل  
سليبي وإنّما على أمل الوصول إلى أقلّ النهايات مأساويّة، أمّا الحياة  
الحقيقيّة فربّما هي أجمل لعبة ماتت فيّ قبل أن يلفظني رحم إلى  
الجحيم.

والتفتُ إلى مذكرة خولة التي لا تفارقني، لا وسيلة في حوزتي  
لتأبين حبّنا إلّا بقراءتك أيتها الشهيدة، بل ولا وسيلة في حوزتي  
وحوزتك لنتنقم معًا إلّا هذه الجثة الحمراء، التي جعلت منها حبلاً  
تنشرين فيه مرّ حبّنا وحلوه! أقبل حميد، ووضّع الفطور على الطاولة  
قائلاً:

- شهية طيبة أسي مراد.

- شكرًا.

وهمّ بالانسحاب، لولا أن استوقفه قولي:

- حميد . . أريد أن أسألك.

- تفضّل سيّدي.

- أسبق لك أن رأيت وجوهاً غريبة عن القرية؟

- القرية يزورها يوميًا العديد من الغرباء ويرحلون . .

- لا . . لم أقصد السيّاح، أقصد أشخاصًا ملتحين، وظاهر حالهم

يقول إنهم مترمّتون دينيًا.

أطرق يفكر، وقد علت ملامحه علامات التعجب واضحة، طوى شفته السفلى وحرك رأسه سلبيًا:

- لا، سيدي لم أر أشخاصًا كهؤلاء، أنت تعرف أن حياتي لا تخرج عن مكانين، الفندق والمنزل. وجلّ الملتحين الذين أراهم هم أبناء إغرم، وأعرفهم واحدًا واحدًا. هل في الأمر خطب ما؟  
- لا، لا شيء. بإمكانك العودة إلى عملك... شكرًا.

وانسحب بلطف وبساطة، وانصرف إلى وجبة الفطور بنهم مسبوق. كنتُ أشعر بجوع فظيع، إنه المرض، محنة الجسد، لكنني حتى في لحظات المرض أشكل استثناء مزعجًا، إذ عادة ما يدفع المرض الناس إلى هجر الطعام؛ أمّا أنا فلا يزيدني المرض إلّا إقبالاً عليه.

بعد أن أنهيت فطوري، طلبت من حميد أن يهتئ فطورًا آخر أصبحه معي إلى جوليا، أمّا حين هممت بالانسحاب قال لي:

- أنت والسيدة التي معك مدعوّان إلى تناول العشاء عندي في المنزل، إن تشرقتما بقبول الدعوة.

- لِمَ لا، يسرّني أن أقبل.

- إذا، سأصحبكما معي ليلاً، وشكرًا على قبول الدعوة.

- على الرحب والسعة.

جوليا لا تزال نائمة، كانت رائعة حتى في منامها، ملاك يرسو على السرير وفوضى الملاءة يضمّر تفاصيل جسد مشتهى، دنوت أكثر منها ومددت أصابعي إلى خصلات شعرها القمحيّة وأزحتها عن ملامحها. كانت أروع من غزالة! انزلقت أصابعي إلى شفتيها

المكتنزين، فضجّ نداء الجنس داخلي. تخيلتُ أنني أضاجعها وهي نائمة، إلّا أنني سرعان ما صرفت عني هذا الجنون، واكتفيتُ بمداعبة شعرها إلى أن فتحتُ عينيها وأسبلتهما بسرعة، همستُ في أذنها:

- صباح الخير، جميلتي ..

وقبلتُ أرنبة أذنها إلى أن استيقظت وأماطت الملاءة عنها، فبدت كسيف يُسحب من قرابه:

- صباح الخير، أيها الوسيم! هل استيقظتَ باكراً؟

- نعم، كما ترين .. وحلقتُ ذقني وتناولت وجبة الفطور، وجئتُك بوجبة أخرى.

- شكراً حبيبي، لكنني أفضل أن أستحمّ أولاً.

- لِمَ لا، ولنفعل ذلك سوياً!

ابتسمتُ لجنون الفكرة، قائلة:

- سيكون الأمر جميلاً ..

ومددتُ لها يديَّ إلى أن انتصبت واقفة كشجرة أرز، سحبتها إليّ. فارتمت بين أحضاني، شعرتُ في تلك اللحظة أنّ المرض يضخّم من حاجتي للجنس، لذلك انزلقتُ أصابعي فجأة وفكّت حزام منامتها، وتوغّلت أصابعها هي تحت القميص ثم جعلت تفكّ أزراره زراً تلو الآخر؛ كنّا في تلك اللحظة أقرب إلى مراهقين يلتفتان لأوّل مرّة إلى ثروة جسديهما، ولم نستفق من ذلك الذهول العجيب الذي داهمنا ونحن نجرّد بعضنا من الملابس، إلّا ونحن جسدان عاريان إلّا من أحزاننا.

واشتبكنا عاريين تحت الدوش، الماء يتدفّق أوّل الأمر بارداً،

لكنّه لا ينفكّ يدفاً رويداً رويداً. كنت في تلك اللحظات أغالب رغبة ملّحة في الفناء في جسدها إلى أبعد احتمال، وعلى الرغم من أنني مريض، إلّا أنني لم ألجأ إلى جسدها كمتعب تماماً، كما فعلتُ مع خولة ذات حلم! ولا همستُ في أذنها: دثّريني، بل ضلعتُ إليّ جسدها عاشقاً، ورسّيتُ أصابعي على ضيعة ردفها أشدهما إليّ بكلّ ما فيّ من شبق، فثنّ جوليا وتنهّد وتتطّلع إليّ ببراءة، فلا أملك إلّا أن أوقع على شفّتها قبلة ساخنة نندمج معاً في أثيرها، ونكتظّ بها جنساً ورغبة - وإن مضمرة - في التحام أبديّ أو حلول، علّنا نلغي المسافات القصيرة التي يحسن الماء استغلالها. جوليا تشتعل كنيزك، تكرّر بكلّ ما في جسدها من محنة وتفرد كغزالة، تغمرني بشهويّة وتراجع، تنفّلتُ أحياناً من صخب اللحظة وتتلوّى أحياناً أخرى كأفعى، وأنا ثابت متّزن الخطى، أحاول بأصابعي وبالمهارة الوحيدة التي أهدتني إيّاها الحياة ترويض ما لا يروّض.

أحياناً، أعتقد أنّ في جسد جوليا معنى وسراً خاصّين، لا أجد لهما تفسيراً إلّا في تلك الأجساد الطريّة الشقراء التي كانت ولا تزال تسوّق في الأفلام البرنوغرافية.. أجساد شهية تمتلئ بالحياة، لكنّها كانت مستحيّلة في الوقت نفسه. أيعقل أن يكون سبب إقباله النهم على جوليا هو الحنين إلى ما صدّقه البصر وخانه الفعل؟! أيعقل أن يكون عطشي إليها فعلاً تأجّل في الماضي؟ لستُ أدري.. كلّ ما أعرفه الآن أنني إزاء جسد ساحر ينفثُ داخلي أسئلة حارقة عن جدوى الحياة والموت.

في الطريق إلى منتهى الشهوة، كانت حواسّي تزغرد لهذا الفرح الغامض والفجائي، إلّا أنّ ذكرياتي كانت تومض كالبرق وتخبو، تباغتني كلّما أحسستُ أنّ في الجسد أملاً في الشفاء منها. عندما

أطبقتُ جفنيّ لأستلذّ بتلك الرعشة المستبدة التي تملكنتني، رأيتُ طفولتي تصعد الجبل في ثبات بحثًا عن موتها الأول، أمّا عندما بدأ يعلو أنينها وهي تشدُّ بأظافرها على ظهري، وأنا أضرب أسوارها اللحميّة المتماسكة، فلم أذكّر غير خولة.. وخفتُ - أنا المغمض العينين - أن أفتحهما على الشهيدة فأخرّ صعيقًا..

جوليا تصرخ وتغرق أظافرها كهرة في الظهر، جوليا تئنّ، تُجنّ وتعلن شغفها الأبديّ بي، أمّا أنا فكنت أستنزف لحظات الفرح الطارئ معها، وأحتمي بمحنة جسدها من ذكرياتي التي تتقدّم خطوتين وتراجع خطوة.

\*\*\*

القنديل يرقصُ في يد حميد وترقص معه ظلالنا. كان يفتضّ الحلكة المطبقة على دروب إغرم. حميد يتخلّف عنّا قليلًا وجوليا تتأبط ذراعي، عائدين إلى الفندق، بعد أن لبّينا دعوة حميد وعائلته، هذه العائلة التي تجشّمت طيلة السهرة الحديث بالعربيّة ونسيتني، لم تكلف نفسها عناء الالتفات إلى وعل لقيط ينام في الرفوف المهملة لذاكرتهم. كنت مأخوذًا بأطفال حميد الثلاثة، ربّما لأنهم كانوا يجروني أكثر من أيّ شيء إلى مستنقع طفولتي، كانوا يكررون بشكل احتفالي، وتصلني وشوشاتهم بالأمازيغيّة، فلا أجد صعوبة في فهمها. وعلى الرّغم من أنّني كنت أفعل البسمة وأحاول ما استطعتُ أنّ أضمر الحزن الثاوي داخلي، إلّا أنّ مجرّد التفاتة إليهم كانت كفيلة بإرباك لغتي وإسقاط تلك البسمة.. كانوا ملائكة إغرم، وكنتُ الملاك المطرود من رحمتها. وانتهت السهرة بموافقتي - أمام الإصرار القوي للعائلة - على حضور حفل عرس سيقيمه أحد أقربائها.. وكنت لا أزال أحمل معي خوفًا دفينًا من أعراس إغرم، من موسيقاها التي تنهش الأعماق

وتتركني على حواف الأسئلة الصعبة هُنا يجرحني كل شيء وأي شيء. سألتُ جوليا:

- كيف وجدتِ الدعوة؟

فأجابت بصوت متقطع، ربّما كان سببه ذلك البرد الذي يخرج صيفٍ إغرم، وآبه على وجه التدقيق، أجابت بعدما شدّت على ذراعيّ بقوة:

- كانت رائعة جدًّا، على الرّغم من أنّني كنتُ بعيدة عن حواراتكم، إلّا أنّني كنت جدّ مغتبطة بالتفرّس في ملامحكم وتأمل ذلك الفضاء الأمازيغي الأصيل، خاصّة ذلك السقف العجيب والأعمدة البنيّة الداكنة التي تحمله. كان الأمر رائعًا! أفي مثل هذا المنزل كنت تسكن أنت وصديق طفولتك أوداد؟

نزلت عليّ كلماتها الأخيرة باردة قاسية.. أيعقل أن يكون الإنسان بمثل هذه القسوة دون أن يدري؟ اضطربت واصطخبت الكلمات في فمي، لكنني افتعلت هدوءًا لولا أنّنا نسير في درب مظلم لانفصح.

- منازل إغرم تمامًا كسكانها متشابهون.

- ولكنك أنت وصديقك أوداد لا تشبهونهم!

- ولا نشبه بعضنا بعضًا أيضًا. لكلّ منا ظروفٌ غيرته.

- ماذا عنك؟

- غيرتني الحياة خارج إغرم كثيرًا، ربّما تكون العزلة أيضًا سببًا في اختلافي.

- وماذا عنه؟

- ولدت معه ظروفه التي عزلته وحالت دونه ودون إغرم. . وأنت تعرفين القصة!

- هكذا إذن؟

- إلى حدّ ما .

وتطلّعت إلى السماء، كانت نجومها أشدّ توهّجًا ونضارة، تبدو مترامية في الفضاء كقطيع يتحرّك بغير انتظام؛ وعلى الرّغم من ذلك الضباب الخفيف الذي يتمدّد شيئًا فشيئًا، فإنّ ذلك لم يكن يزيدها إلّا تألّقًا، ولأنّها ليلة من ليالي أغسطس، فقد تذكّرت قصيدة لألفريد دي موسيه، فهمست بها لجوليا، ربّما لأصرفها عن ذلك الموضوع المرّ الذي أثارته: «ليلة أغسطس».

أحبّ. . . وأريد أن أنشد الفرح والسرور،

تجربتي المجنونة. وأريد أن أحكي وأعيد بدون حبيبة. .

قرّرتُ بشكل جدّي الحياة والموت حبّا.

أمام جلال السماء وهذه الشجرة الأوروپيّة الباسقة تطوّقُ ذراعي والليل يستحكم بالمكان، وخرير المياه يندفع من مكان قريب وينسكب في الأذان كذكرى أغنية حزينة، أمام كلّ هذه العوالم التي تسبح في فراغ ما، تتعرّى الكلمات وتفرّ. . إذاك إمّا أن تقول شعراً أو ترقص أو تتمترس خلف صمتك، هكذا تنحصر الخيارات كثوب مبلّل على جسد جميل، ويصاب القلب برهافة ويكي دونما سبب.

بعد أن ودّعت حميد صعدنا السلالم بثناقل، كانت الغرفة تغرقُ في عبق جنسيّ ألفته وحفظته عن ظهر قلب. سحبْتُ من الثّلاجة زجاجة وأخذتها رفقة كأسين إلى الطاولة، وراقبتُ بوله جوليا وهي

تخلع ملابسها وترتدي أخرى .

أهرقتُ الكأس الأولى في جوفي، ونهضتُ بحثًا عن الموسيقى،  
قلّبتُ الأقراص المدمجة، جرّبتُ بعضها إلى أن استقرَّ قلبي على لحن  
عاد بي سنوات إلى الوراء، أربكتني أول الأمر موسيقاه، عدتُ إلى  
الأريكة وصبيبتُ لي كأسًا أخرى أحتمي بها من هذه الأغنية الواخزة،  
التي تقتاد ذكريات خولة من يدها إليّ .

- الموت الخداعة داتلي لي نسعى خلّاتني لوحدي ..

وتسلّلت خولة بين ثقبوب الذاكرة وغلّفت خرومها بسواد لزج،  
أهرقتُ الكأس الأخرى دفعة واحدة في هذا الجسد الخربة، وأشعلتُ  
بانفعال سيجارة:

- مون أمور مون أمور، مشالي واسكن بين القبور... مون  
أمور.

خولة .. أتغفرين لي ما فعلتُ بقلبك الحزين يوم قرّرتُ الرحيل،  
يوم آثرتُ الهروب إلى الأمام، تركتك تستهلكين الانتظار والجنين في  
أحشائكِ يكبر يومًا بعد يوم ويؤذن بالفضيحة، اخترتُ الموت لأنني  
تغيّبتُ عنك أكثر ممّا ينبغي، لأنني كنت جبانًا لم أجد سوى الاختفاء  
دليلاً لأروّضك على النسيان .

خولة .. أتغفرين لي ضياعي بعدك؟!!

ودبّت في أوصالي رعشة حادة واستحكمت بجيبي حرارة قاسية،  
ارتجفت الكأس في يدي، وكان هذا الأمر وحده كافيًا ليؤكد لي بأنّ  
جسدي لم يعد هو الآخر يطبق انتظار موت عابر .

حين أطلّت جوليا، كنتُ ساهمًا عند أبواب الثمالة . كانت ترتدي

تنورة أقصر من قصيرة وقميصا مشدودا وقصيرا أيضا يظهر سرتها، وتضع كحلا على أهدابها وما يمكن أن نصلح عليه «أسود شفاه» على شفيتها. كان السواد الذي اشتبك فجأة بملامحها يثير داخلي قلقا وخوفا مبهمين، كأنها ليست جوليا التي أحفظها وأعرفها كما يعرف المرء ظاهر يده. كانت تحمل حقنة أخرى؛ ومع كل الإمكانات التشكيلية التي خلفها الأسود على ملامحها، كانت تبدو ملاكا شيطانا انزلق إلى الأرض. سألتها:

- ما هذا السواد كله، هل للأمر علاقة بالساحرات الأوروبيات القديمات أم بطقوس عبادة الشيطان؟

وضحكت بصخب، قبل أن تجيب:

- شيء من هذا وشيء من ذاك.

وحين انتهت إليّ مدّت أصابعها إلى أنفي وداعبته، كما كانت تفعل خولة.. فهزّني حنين فادح إليها، فقلت مستفسرا:

- جوليا، لماذا تداعبينني على هذا النحو؟

وتماما، كما يستقبل عابر في شارع ما سطل ماء يهرق عليه من فوق، استقبلت إجابتها التي لم تختلف في شيء عن إجابة خولة عندما سألتها عن سرّ هذه المداعبة:

- أنا أداعب حصاني الجميل، ألسن كذلك؟

أيعقل أن تكون الصدف بهذا الغباء؟ أم تراني لشدة ما أغرقت قلبي في الخمر، توهمتها تقول ما كنت أريد أن أسمعه:

- يجب أن تأخذ الحقنة هذه الليلة! لقد بدأت تتماثل للشفاء.

وامثلت لرجبتها وشمّرت عن ساعدي الأيسر، قبلتني أول الأمر

فداهمني عطرها، إنه العطر نفسه الذي كانت تضعه خولة. أحسست  
لوهلة أنّ ما يجري لا يفسّره إلّا أحد أمرين، إمّا أنّ حواسّي بدأت  
تخذلني - وهذا المرجّح - وإمّا أنّ القدر يضمّر لي شرًّا إضافيًّا.

بعد وخزة الحقنة، شعرتُ بارتخاء طفيف، ثم دبّ في كلّ  
أعضائي إحساس غريب... لكنّه سرعان ما انجلى، ورقصنا تلك  
الليلة بجنون وفرح، وقمنا بأشياء كثيرة مجنونة.. وكانت أويقاتُ الفرح  
التي نختلسها من قبضة الأقدار اللعينة تمرّ بسرعة، ولم أدر بعد أن  
ألجأني التعب إلى حضنها سوى أنّني استغرقتُ في نوم بائس ورأيتُ  
كوابيس غامضة، فما أتعب نوم الوعول!

\* \* \*

«يظلّ غشاء البكارة في هذا العالم الموبوء عقدتنا وهاجسنا  
الأبدي، أمام أسوارها الشفافة الهشة تموت الأنوثة الحقيقية،  
ولا يبقى منها سوى زغاريد القبيلة وترّاتها وحموضة  
ناسها..»

أمّا عنّي يا مراد، فقد أسقطتُ على أعتابك كلّ مفاهيم الشرف  
المزيّقة التي ملأت بها القبيلة مسمعي، وقدّمتُ لك قلبي قبل  
أن أقدم ما ترى فيه الشرقيّة كلّ حياتها.. منذ تلك اللحظة  
المسروقة من تقاطع حلم عابر ويقظة هشة، أحسستُ أنّك  
منّي، أنّك تقاسمني حتى الهواء الذي أتنفّسه..

خولة.. صباح الخير.

هنا في هذه القرية حيث تنتهي الأحلام والذكريات، أنّ لي أن  
أصبح: اشتقتُ لبهاء حضورك جدًّا...

لماذا يا خولة كلّما قرأتُك انتفض الشوق في عينيّ دموعًا؟! يا من

تركّتك على الحواف الصعبة للموت، حين أقلب صفحات ذاكرتك أو  
مذكراتك لا أجد سواي، سوى آثار قدميّ المضمّختين بالدم والخطيئة!  
أراني في كلّ ما تكتبين حبيبتي كأن ليس في ذاكرتك إلّاي. أهملت  
حتى نفسك أحياناً. أعتقد أنّي لو أحبتك بربع الطريقة التي أحبتني  
بها لما كان ما كان، لكنّ الحياة سطرّت لكلّ منا طريقه سلفاً، فكانت  
مشيئتها أن أكون قاتلك وأن تكوني الشهيدة، ثم راحت ترقبنا من بعيد  
بطريقة فيها من الاستهزاء والسخرية الشيء الكثير.

طويت مذكرة خولة حين تناهى إلى مسمعي صوت سيّارة وافدة،  
وبفضول خفيّ تطلّعتُ إلى الشرفة، فإذا هي سيّارة مرسيدس، ما كدت  
أنهي قراءة لوحتها حتى انسحبت منها نضال...

على عجل، ارتديت قميصاً ورميتُ آخر أدماء نزيف صباحي  
قويّ، تركتُ جوليا غارقة في بياض الملاة التي تحتفي بكروم جسدها  
الجميل. في المقهى، واجهني ظهر نضال. كانت حركة قدميها دليلاً  
واضحاً على توتّرها، باغتني حميد:

- صباح الخير.

فالتفتُ إليه ورددتُ التحيّة وتقدّمتُ بخطى متثاقلة نحوها، في  
حين انتصبّت هي واقفة فبدت في رونق الأخضر الذي ترتدي شجرة  
وارفة، صاحت:

- صباح الورد، مراد.

- صباح الخير، كيف هي أحوالك؟

ومددتُ لها يدي في برود، لكنّها لم تتوان في الارتماء في حضني  
ومعانقتي بحرارة.. فكّرت أنّ موقفي أمام حميد قد غدا حرجاً، إذ  
ربّما لم يعد يفهم من حياتي سوى أنّني سكيّر وزير نساء!!

قالت:

- اشتقتُ إليك كثيرًا، ولستُ أبالي إن كان مجيئي إلى هنا حماقة أم لا.

وبقيت مأخوذةً بالمفاجئة، لا أنبس ببنت شفة. كانت الكلمات تتمزق داخلي وتتطاير أوراقها في كل ناحية، وفقت طويلاً لا أجد ما أقول. راقبتُ ملامحها وهي تتبدل، وفمها وهو يلهج بكلمات أكاد لا أسمعها.

جلسنا إلى فنجانٍ قهوة، بالكاد سمعتها تقول:

- إن هي إلا ساعة وأعود أدراجي، كل ما في الأمر أنني اشتقتُ إليك، وإلى هذه القرية.

- ولكنك تدركين مدى تعبي وغناي عن أية علاقة سرّية.

- ولكنني مجنونة بك يا مراد... مجنونة!

ونفّسني بيننا صمت حزين، فاسترسلت بنوع من التوسّل:

- ألسنت من كنت تردّد منذ عهد بعيد قول لمارتين: «نعشق الحياة من خلال من نحب».

- بلى، ولكنني اليوم أقول مع فاروق جويدة: «لا أنت أنت ولا الزمان هو الزمان». يجب أن تعلمي أنّ وضعك الآن لم يعد يسمح بالحبّ أصلاً.

- أتقصد زواجي.

- نعم.

ودوّت ضحكها لهنيئات، ثم قالت:

- لا شك أنك جننت! أيّ زواج هذا الذي تتحدّث عنه؟ إنها

مجرّد ورقة يفتصبني بموجبها على مرأى من الجميع، يستبيح جسدي في ما لا يزيد عن ربع ساعة ثم ينكفئ على وجهه ويعلو شخيرته، حتّى قبل أن أنسحب إلى الحمام.. أنا مجرّد عشيقته. أمّا الزوجة الحقيقيّة التي استنزفتُ فحولته واستنزفها كذلك، أمّ الأولاد كما يسمّيها أو أمّ الورثة، فلا تعرف عن أمري شيئاً.. فهمت؟

– أحاول أن أفهم. لكنني لا أستطيع.

وانسحبنا باحثين عن إغرم. كان المرض لا يزال يقضم القلب الذي يخفق بقوة احتجاجاً على هذه الخيانة الصباحيّة، ولم نعج على إغرم كما تمّنت. فقط في تلك اللحظة التي ضغطت فيها على يدي، وأومأت برأسها أن نتّجه صوب المضيق الجبلي، فهمت أنّ لوثتي الجنسيّة أعادتها إليّ. أشعلتُ بانفعال سيجارة، لكنّها خطفتها بخفّة من شفّتيّ، فأشعلت واحدة أخرى.. ومضينا.

## (٤)

أربكني، ونحن نخترق المضيق، خوفٌ من أن نكون مراقبين، لا  
سيّما من طرف تلك الأشباح التي تبدّي هنا وهناك، تلك الخفافيش  
الملتحية التي لا تؤمن إلّا بالدماء، ترى.. أیحصون خطواتنا من عل؟

التعب يحطّ على جسدي، ويدّ نضال تعانق يدي وتستدرجني. كنّا  
نمضي باسمين ابتسامًا مزيّفًا، في لحظة كانت نضال قد خطّطت لها  
جيدًا، سحبت يدي بدهاء صوب جزء مستور من أجراف الجبل، وتأكد  
لي تخميني أوّل ما رأيتها بأنّ الجنس هو جلّ ما أعادها إليّ. فلماذا  
كلّما وطأت امرأة أدمنتني، وخفتُ أن يكون الأمر نفسه هو سرّ  
انجذاب جوليا أيضًا.

في كلّ امرأة مثقّفة شيء من الغباء حين يتعلّق الأمر بالرجل  
والجنس، هكذا فكّرت وأضفت في سرّي، كم أنا في حاجة إلى امرأة  
تنادينني: بني! فأطير إلى حديقة صدرها طفلًا وأظلّ بين ذراعيها، أقصّ  
عليها ما خرّب قلبي المعطوب قبلها.

وضعت يداً على خدي الملهب، فكدت أبكي لولا أن الشيطان  
ذا القرون الوعلية انفجر ضحكاً وهمستُ بي أن أتقدم للأمام، خططُ  
على شفيتها قبلة، فعادت بي ملامحها إلى ذكريات ظهر المهرار، إلى  
مسالك كلية الآداب الضيقة.. هناك، حيث كنا رفيقين عاشقين يسرقان  
لحظات عشق وامتعة! كيف تغيرنا بهذا الحجم، نضال..؟ وهل كانت  
من سخریات القدر أن أنتظر إلى أن يفتضك غيري لنمارس كل هذا  
الشغب الجسدي؟

اللهفة كانت تفك الأزارر والوله يزيح الملابس على عجل، ونحن  
نزدحم ببعضنا، وينفجر الشيطان ذو الرأس الأحمر والقرون الوعلية  
ضحكاً حتى لتكاد قرونه تمرق أحشائي، ويلتحم الجسدان وتنزلق ركة  
ويطفو على راحتي نهد، وتشرئب الدماء، وينتابني إحساس فادح  
بالاغتراب.. أيعقل أن تكون قد تكبدت كلّ هل المسافة من أجل  
لحظات جنس؟ أيعقل أن تكون بهذا الجنون؟ لا أدري. لكن ما أنا  
متأكد منه هو أن هذه المرأة في غمرة اللذة تستزيد وتستزيد! أيّ نهم  
يسكن هذه المرأة، وأيّ عطش يعشش في هذه الشاعرة المناضلة. فهل  
يعقل أن تجمع بين النضال والجنس، بين الشعر والجنس في مخدع  
واحد؟

قالت، ونحن عائدون من غربة الجسد:

- أنت آخر الفحول...

ضحكتُ في سرّي، وقلت ممازحاً:

- ولماذا أغفلني الأصمعي في طبقاته؟

- لأنك أكبر من الشعر.

وانفجرنا ضاحكين، ثم أردفت والتورد يعلو وجنتيها:

- عندما تلتحم بي أتمنى لو أننا لا نفرق، أتدري؟

- ماذا؟

- أدمتُك.

وابتسمتُ لقولها في الوقت الذي كان حريًا بي أن أذرف هذه الدموع المتمترسة خلف زجاج عيني:

- بعد هذا اللقاء الرائع في هذه الرقعة البهية من الأرض، ما عاد بإمكانني أن أتجاهل وجودك، أو بالأحرى عودتك إلى حياتي.  
- ولكنك...

لكنها وضعت سبابتها على شفتي ملتزمة صمتي، ثم اقتربت وهمست:

- أحبك يا مراد - فهم أصحابي - هذه هي الحقيقة الوحيدة التي يجب أن تتأكد منها، وما دون ذلك باطل يا حبيبي باطل..

ومضينا بعد ذلك نقترّب من بعضنا حينًا وتُبعدنا جنادل الوادي أحيانًا، واستغرقنا في حديث طويل عن السياسة الجنسيّة في العالم العربي، إلى أن انتهينا إلى الفندق، فدَنَقْنَا إلى سيّارتها.. خفتُ أن تطلّ جوليا من الشرفة فينفّض أمري، قبلتها على عجلٍ وامتنطت صهوة سيّارتها، ومضت تُخرج يدها من النافذة وتلّوّح لي مودّعة. أمّا أنا فقد تتبّعت السيّارة بحزن وهي تجرّ ذيلًا من الغبار، كانت تصعد القمّة في رتابة ممّلة، هناك حيث بدا لي شبح رجل ملتح، كان يبدو حينًا ويضمّره الغبار حينًا آخر، إلى أن طواه الأفق البعيد.

\*\*\*

غارقة في جلال نومها، كانت جوليا..

والملاءة كعادتها انزاحت عن جسدها، وواجهني ظهرها العاري كروحي. تجولت في الغرفة، رتبت القليل من فوضاها، وحاولت أن أعيد بعض الأشياء إلى مكانها. قذفت ببعض الملابس التي أدماها الرعاف إلى سلة، وأعدت الأقراص المدمجة إلى مكانها، ولملمت ملابس جوليا التي بددها التحام ليلي لم أعد أذكره نهائياً. وضعت تلك الملابس فوق الحقيبة، لمحت في أحد جيوب الحقيبة المفتوحة دفترًا صغيرًا، ترددت أول الأمر في تصفحه، إلا أن قوة خفية ألحّت عليّ أن أفعل.. شيء أقوى من مجرد فضول عادي، كأنّ الحقائق حين تنضج وتستوي لا تنتظر منك أن تبحث عنها، بل تتقدم هي نحوك! وقد يكون الأمر غير هذا تمامًا، قد تكون الحقيقة سلسلة صدف تتعري الواحدة تلو الأخرى، لكن أيّا كانت هذه القوة التي تقتادنا نحو اكتشاف حقيقة ما، فإنّ أهميتها سرعان ما تتبدد، بل ويغيب السؤال بشأنها ما إن نكون حفاة أمام أمر نكتشفه أو نكتشف أننا كنّا مغدورين به، وأنّه كان يعيش معنا، وربما في دمنّا دون أن نعي ذلك.

سحبت الدفتر الصغير وفتحته. هل كان الأمر فضولاً، قدراً أو لوثّة تعيش داخلي؟ لا أدري. راقبت جوليا وهي ممددة لا تتحرك، وقرأت خواطر كتبها بلغة أدبية راقية ما كنت أتصور من قبل أنّها يمكن أن تكون بهذه الجماليّة. في تلصّصي السريّ والهادئ على دفترها، وضعت يدي على رقم هاتف مغربيّ، كان الأمر مثار استغرابي، إذ إنّ جوليا لا تنفك تؤكّد أنّني جلّ ما تعرف في المغرب. لحدود تلك اللحظة، كانت هناك إمكانيّة للتراجع بمجرد أن أرجع الدفتر إلى الحقيبة وأنصرف إلى شأن آخر؛ لكنّ اللعنة حين تندلع، فلا أحد يعرف أين أو متى تخمد. سحبت من الجيب هاتفي لأدوّن هذا الرقم

وأعرف فيما بعد صاحبه، لكنني لم أكن مضطراً لذلك. من سلبيات التكنولوجيا أنها جعلت كل شيء مكشوفاً وعلى قدر كبير من السهولة، إذ ما كدت أنهي تدوين الرقم في هاتفي الخاص، حتى وجدت أن الرقم موجود أصلاً باسم الدكتور بنهاشم. اضطربت يدي قليلاً وهزنتي رعدةً مخبولة، حين بحلقتُ جيداً في اسم بنهاشم غير مصدق ما أرى.. أيعقل أن تكون جوليا إحدى مريضاته؟ لا.. لا يبدو الأمر منطقيّاً. أحسستُ بالضيق وبوخز أسئلة كثيرة وأنا أعيد الدفتر إلى مكانه.. لكنني حاولت أن أتماسك، أو على الأقلّ أن أبدو كذلك، حاولت أن أتجاهل الأمر، فكَرْتُ ما دامت الصدف هي التي اقتادتها إليّ، فلا شكّ أنّ الصدف نفسها هي التي اقتادتها إليه؛ وما دام بحثها عن الجانب الجنسي في العالم العربي هو الذي ألجأها إليّ، فليس بعيداً ولا غريباً أن يكون الموضوع نفسه هو الذي ألجأها إليه، هكذا كنت أتحايل على نفسي، ربّما لأستقرّ على صيغة لا تقلق هذا السلام العاطفي والجسدي الذي أنفياً تحت ظلاله صحبة جوليا.

وانتصف النهار، وجوليا لا تزال مستغرقة في نوم عميق...

تردّدتُ أوّل الأمر في إيقاظها، لكنني مللتُ الانتظار. تمدّدتُ إلى جانبها في السرير وأزحمتُ عن وجهها خصلات شعرها القمحيّة الجميلة، فإذا السواد يعلو محيط جفניה.. وحده الكحل يفضح بكاء جوليا الليلي! فما الذي أبكاك أيتها الجميلة الشقراء؟ وقلت في سرّي: لست عجوز غارسيا ماركيز التسعيني لأحاور نوم جوليا، ولا هي غيلغادينا النائمة. وضعتُ أصابعي على شفتها السفلى مداعباً، وما هي إلّا لحظات حتى اندفع أزرق عينيها قوياً شرساً، قالت بتثاقل:

- صباح الخير حبيبي هل استيقظت باكراً؟

- صباح الخير جميلتي. نعم، استيقظت باكراً.. لكنني لم أشأ أن أوقظك.

- حسناً، وماذا فعلت؟ لا تقل إنك خرجت من دوني؟

- للأسف، فعلت.

وكان حرياً بي أن أكاشفها بأنني ببساطة مارستُ الجنس مع جسد لاجئ. ولم أسألها، لا عن سرّ بكائها الليلي ولا عما يفعل رقم بنهاشم في دفتراها، واكتفيت بمراقبتها وهي تفرّ عارية بهيّة إلى الحمام. أشعلتُ سيجارة ثم أصخّنتُ السمع إلى الماء وهو يتكسّر على جسدها الباسق كشجرة أرز، كان يتناهى إلى أذنيّ أوّل الأمر مثيراً، إلّا أن صدها في ما بعد يتردّد داخلي كأوان تتحطّم.

بعدما أنهت الدوش مددت لها الفوطة، وانسحبتُ من الحمام التصقت بي، قبلّتني بشغف، ثم ارتدت ملابسها وسحبت من جيوب الحقيبة مسجّلتها الرماديّة الصغيرة، ونزلنا بتأؤّبٍ سلاّم الفندق إلى المقهى. جلسنا في ركن ركين، كان المقهى على غير عادته مكتظّاً بالأجانب! تناولنا بسرعة وجبة فطور، وتركنا الفندق صوب «جميلة» معلّقة في الهضبة المواجهة للفندق نحو إغرم.

في طريقنا عبر الحقول، رأيت فلاحين يشمّرون ثيابهم إلى سواعدهم ويكدحون، رأيتُ الفؤوس وهي تعلو لتطاول السماء ثم تهوي بغضب عنيف وغير مبرّر لتشقّ الأرض وتفجّر حياة وخصباً، إلى أن استوقفنا زمرة أطفال، كانت أياديهم الصغيرة تحمل تفاحاً وخوخاً. ببراءة وخجل كبيرين، ناولونا الفاكهة وهم يكركرون ويتهايمسون، وما إن أخذنا ما لذّ وطاب منها حتى قفلوا هاربين إلى ذويهم، مخلفين داخلي غصّة مريّة - كم كنت أشبههم، وكم هم أنا!

وكاد الدمع يخذلني على مرأى من جوليا، لولا أنني تماسكت. لوحتُ  
لذويهم شاكرًا فلوّحوا لي أيضًا، وشممتُ الفاكهة، فإذا رائحتها توقظ  
داخلي كلّ السنوات التي قضيتها هنا دفعة واحدة، واختلطَ داخلي فرح  
من يحبُّ لأوّل مرّة بحزن من يرى حبيبته لآخر مرّة... وانقضّت عليّ  
أسئلة وهواجس مريرة. ما كدنا نجهز على حبّات الفاكهة حتى انتهينا  
إلى المنزل القديم، قلت:

– أتذكرين أوداد؟

– وأذكر مأساته أيضًا.

نزلت عليّ كلمة «مأساة» باردة كقطعة ثلج تنزلق بين الظهر  
والقميص، ماذا لو قلت لها إنها تطوّق ذراع المأساة؟ ماذا لو علمت  
أنّ المأساة نفسها أحبّتها وطارحتها الغرام بكلّ ما فيها من شجى  
وأنين؟ ما كان أبعدك عن كلمة «مأساة» يا جوليا! فلماذا هذه  
الرصاصة، هذه الطلقة العشوائية التي أطلقتها على مقربة من وجع  
عتيد؟ لستُ أدري إن كان سيأتي يوم، وأخبركِ أنّ أوداد الوعل الذي  
لا أنفك أحدثك عنه، ما هو إلّا الوجه المسخ لمراد.

– المأساة أكبر من أن تأخذ شكلاً بسيطاً أو تختزل في شخص  
محدّد.

قلت هذه العبارة وأنا في حالة أقرب إلى الهذيان، وانصهرنا في  
الدروب الضيقة الصفراء، وكانت تلة العرعار وجهتنا.

\*\*\*

سألتُ جوليا، ونحن واقفان نواجه القبور الموزّعة بانتظام عبثي  
على بساط ترابي شاسع:

- أشعرين أنك سعيدة؟

- إلى حدّ ما .

- كيف ذلك؟

- هي أشياء لا ينبغي أن نفهمها كثيرًا، لثلاً نمرضُ بأسئلة أخرى لا أجوبة لها . في النهاية لكلّ منا لحظات سعادة وبؤس .

- وأيّهما يغلب؟

- لنقل تجاوزًا الثانية، ولا شك أنني حدثتك عن القليل من تعبي .

وقلت بمكر، وأنا أركّز في أساريها كأني جهاز لكشف الكذب :

- ألم تضطرك أحزانك يومًا إلى البحث عن معالجة نفسيّة؟

إلا أنّها أحببت توقّعاتي، إذ أجابت بشكل عفويّ والبسمة تعلو محيّاه :

- لا ، لم أفكر في الأمر قطّ .

وابتلعنا صمتٌ جاف وقاس، كنت خلاله أنفّرس في ملامحها علّني أصطاد ما يشفي غليل أسئلتي، ويفسّر لي حضور رقم بنهاشم في دفترها! لكن عبثًا ما أحاول، ربّما لأنّ جمالها وزرقة عينيها على وجه خاصّ تفضّ أيّ حصار، أحاول ضربه على أساريها . . .

استأذنتُ جوليا الرحيل وتركتها لأختلي بهاتفني، دنوثٌ بخطي مضطربة من القبور، فكّرت، أو بالأحرى تساءلت، إن كانت هذه المقبرة تضمّ جثّة (أبي) أو (أمي). لكنّني لم أستسغ التفكير في الأمر. لا يهمّ الآن من هما، أو أين هما، لأنّهما ماتا فعلاً، وإن كانا لا يزالان على قيد الحياة. غيابهما أحد أوجه الموت. . غيابهما - بالنسبة

لي - في الوقت الذي كنت في حاجة إليهما يعني موتهما.

تفقدت الرسائل الخطيّة، وكذا الصوتيّة الواردة على هاتفي، أصدقاء يستفسرون عن سرّ هذا الغياب، قال أحدهم إنّ إحدى المجلّات ستفرد عددًا خاصًا حولي. تأملتُ جوليا التي كانت تناجي المسجّلة الرماديّة بسرّيّة وهدوء، فعلتُ ذلك وأنا أستمع لرسالة صوتيّة من د. بنهاشم الذي لا يملُ من تكرار الرسائل ذاتها.

حين قفلنا راجعين، جمعتُ لجوليا قصفة من «أزير»، هذه النبتة المنتشرة بكثرة على هذا التلّ بأريجها الغريب والجميل في آن، سكنتُ وجداني. . وعلى الرّغم من أنّي تركتُ إغرم صغيرًا، إلّا أنّ هذا العبق ظلّ يصطبغ داخلي ويرقص بجنون ويفيض بي حنيئًا.

المدن، كلّ المدن المغربيّة تستنبت أزير وينجحون في ذلك، لكنّه يبقى نسخة رديئة وأقلّ أريجًا، بل وسرعان ما يبهت لونه ويصبح يابسًا سريع الانكسار، أمّا أزير إغرم فإنّ لونه الأخضر القاتم لا يغيّره اختلاف الفصول، كما أنّ رائحته تهاجم الأنف بشراسة وتبقى وشمًا في الذاكرة.

في الطريق - العودة، انتبهتُ إلى أنّ هذه الطريق قد تكون ملغومة، لكن ذلك كان بعد فوات الأوان. لم أكن أملك - بعد أن توغلنا فيها - طاقة للرجوع، تقدّمتُ في الأزقة الضيّقة الصفراء بتهوّر إلى أن انتصبت الذاكرة وحالت دون تقدّمي، كانت قابعة كهزيمة على عتبة المنزل القديم تتلفّع ثوبًا رماديًا باليًا وحزينًا، وتضع على رأسها غطاء أمازيغيًا أحمر ينسجم إلى حدّ ما مع خصلات شعرها الحمراء كزغب الذرة التي لم يفلح الغطاء في درئها. اقتربتُ منها بشجاعة، لكنّها لم تنتبه لي، كانت كما لو أنّها تنام مفتوحة العينين، أو كما لو

أنّها غارقة في تفكير عميق بعد أن حوّلها العمى إلى ما يشبه الجزيرة المعزولة. اقتربت أكثر، تأملتُ يدها المبتورة، فضجّت داخلي ذكريات ذلك اليوم الذي استحالت فيه كنتّها إلى كومة رماد. همستُ جوليا في أذني:

- لنرحل يا حبيبي ..

إلا أنّ العجوز قد سمعتها، وهاجت بصوت مرتفع أقرب إلى نحيب غراب في يوم ممطر، وهي تدير رأسها صوب كلّ الجهات:

- مَنْ هنا؟ مَنْ..؟

لم أنبس بينت شفة، استدرتُ إلى جوليا، أومأت لها أنّ تسكت، تطلّعت صوب الجهات الأربع بحذر سارق، لم أر أحداً، فأنحيتُ قائلاً، ولأوّل مرّة منذ عهد بعيد باللغة الأمازيغية:

- السلام عليكم.. أنا شخص غريب، جئتُ أبحث عن قريب

لي..

ردّت التحيّة بفتور، وقد تبرّمت ملامحها وأردفت:

- لا أدري، ولن أساعدك في شيء، يمكنك أن تسأل غيري..

- نعم فعلت.. ودلّوني على هذا المنزل. فقدناه في الأسابيع الأولى من ولادته، وقيل لنا الآن أنّه كبر في هذا المنزل. بالله عليكِ دلّيني عليه.

وكان في اضطراب ملامحها وطول إطرافتها دليل على أنّ كلماتي قد صكّت أذنيها، ونفضت الغبار عن أوراق ذاكرتها، قالت:

- نعم، من المرجّح أنّك تتحدّث عن أوداد..

ثم فغرثُ فاهًا وأطرقت تفكّر، غابت لشوان خلقتها زهراً، وكان

يبدو من خلال اضطراب ملامحها أنّ الذكريات ازدحمت بها كثيرًا،  
إلى أن أضافت:

- وَجَدَه زوجي - رحمه الله - مرميًا قرب القرية وملفوفًا في خرق  
بيضاء.

نزلت عليّ عبارة (رحمه الله) واخزة، هكذا إذن قضى من انتشلني  
ذات صباح صيفي من أرض قفار، بعد أن سقطت سهوًا أو خطيئة من  
رحم سيئ إلى حياة أسوأ. كتمتُ كلّ هذه الأوجاع التي تستيقظ دفعة  
واحدة، وواصلت استجوابي للذاكرة الزوجة قائلاً:

- وكيف كان أوداد هذا؟

- كيف كان؟! -

وابتلعها الصمت مرّة أخرى، وكان الانتظار فنًا قاسيًا لم أتقنه  
يومًا. أضافت:

- كان جميلًا، وهذا أمر لا يختلف عليه اثنان، وذكيًا بل قويّ  
الذكاء.. لكنّه إلى جانب كلّ هذا، كان غريب الطباع، يؤثر العزلة.  
كان يقضي النهار بحاله بين الجبل والحقل ولا يعود إلى المنزل إلّا  
ليلاً، وأحيانًا يتغيّب عن المنزل حتى ليلاً، المهمّ أنّ القرية كلّها لم  
تكن ترى فيه سوى لعنة ابتليث بها.

صفعتني كلماتها الأخيرة وعصفت بأشياء كثيرة داخلي.. أيقظت  
ذكريات وعبارات ووجوها خلّطني نسيتها، واسترسلت:

- قبل أن يُؤتى به، كانت القرية تعيش في سلام ورغد من  
العيش، لكنّها انقلبت رأسًا على عقب في تلك السنوات التي عاشها  
هنا، كانت المصائب تعصف بالقرية الواحدة تلو الأخرى.

وكمن به شوق للكلام، جعلتُ تسرد عليّ بتفصيل بلغ حدّ الملل قصصًا كثيرة، لكم تأذوا بسببه.. لمن ابتلع فيضان النهر غنمه فقط، لأنّه شتمه، ولمن مات أو اختفى فقط لأنّه كان يكيل له العداء أو يزدريه إلى أن انتهت إلى العجوز - كتتها - التي صيرتها لعنته إلى جنة متفحمة، قائلة:

- وكان أوداد هو المتسبّب في موتها - كما أكّد شيخ القرية وفتيها - لأنّها كانت تعنّفه كثيرًا، احترقت بالسنة لعنته. ولم تعد القرية إلى ما كانت عليه إلّا بعد رحيله.. واعدرني يا بنيّ، لقد نقلت لك ما كان يدور وقتها في القرية، هذا إن كان أوداد أصلًا هو قريبك الذي تبحث عنه!

شعرتُ بيد جوليا تسحبني من ذراعي، استسلمتُ لها ومضيتُ وتركت العجوز تكمل الحكاية لوحدها، وكان صوتها كلّما ابتعدتُ يندو ويقسو. تألمتُ لكلامها، حتى إنّ العبرة خذلتني على مرأى من جوليا التي لم تتوان عن كفكفة دموعي، واستدراجي إلى أحضانها ثم ضمّي بقوة. كنتُ في تلك اللحظات أشعر إزاء جوليا بالامتنان، لأنّها شهدت انخدالي أكثر من مرّة دون أن يحركها الفضول أو يدفعها إلى طرح أسئلة محرّجة.

بالنسبة لرجل مثلي، ولدت في فضاء فيه الكثيرون ممّن يدقّون في القلب مسامير غليظة بمطارق كلماتهم وأفعالهم، وآخرون لا يفعلون شيئًا سوى سحب تلك المسامير. والحقيقة أنّ الصنفين وجهان لجرح واحد، حتى آلامي جرّاء فعلهما لا تختلف كثيرًا! والعجوز، هذه العجوز قد شهدت الكثير من المسامير وهي تدقّ في القلب، وها هي اليوم بعد ربح كبير من الزمن، تسحب من القلب بعضها وتبقي فيه خنادق واسعة ومفتوحة على نزيف لا ينقطع.

وعانقتُ جوليا على مرأى من بعض العابرين، كنت أحسّ في تلك اللحظات أنّي أشبه ما يكون بشجرة منخورة من داخلها، كنت أستشعر ذلك الفراغ المهول في جوفي. وكما خانني الكثيرون، خانني أنفي، انفجرت الدماء على ثوب جوليا، ملأت يديّ، فمضيت بخطوات متسارعة إلى النهر.

كانت الدماء تسيلُ بغزارة واندفاع دونما توقّف، ودونما توقّف كنت أحتُ الخطو صوب النهر. كانت كلمات جوليا تطاردني وتصلني بعيدة كحلم غامض ومنسيّ، في غمرة النزيف تذكّرت الخصلات الحمراء لشعر العجوز، وعبرت بخاطري أشياء أخرى حمراء، الجبال الكبيرة التي تطوّق إغرم الحمراء، ومذكرة خولة حمراء، ورأس الشيطان الذي يطلق زغاريدَه الآن داخلي أحمر، والمنديل الذي يحاول أن يحاصر رعاقي أحمر.. حتى ذلك الإطار الذي سقط عليه بياض «الخبر العاجل» أحمر (فجّر الإرهاب البيضاء وقتل مصطفى)... أحمر.. أحمر كأن لا لون للخية سوى الأحمر.

ولم يتوقّف النزيفُ، حتى خلّتُ أنّي وضعت قدمًا في حياة أخرى غير حياتي. اهتصرني وجع قاس في رأسي بدّد كلمات جوليا. كان وجعًا يحاول عزلي عن أيّ شيء خارجي ويسحبني نحو أعماقي القصيّة، بالكاد فككتُ طباق عينيّ، عصرتُ المنديل بعد أن أخمدته في ماء النهر.. أحمر.. أحمر، آه حتى تلك الدماء الجلييلة، التي انفجرت من معصمك حين شقّته شفرة انتحارك، حمراء يا خولة حمراء! أعدت المنديل إلى النهر، فبهتَ الأحمر وجعل يتبدّد ويتلاشى، ورويدًا رويدًا بدأت أعود بتثاقل إلى الحياة بعد موت موقّت أو تجريبي.

في الطريق إلى الفندق، قلت لجوليا:

- الموت يدنو مني بحذر مبالغ فيه ..

وتطلّعت إلى أساريرها، فقرأت تواطؤ عبارات مع حزن عميق،  
تحركت شفتاها كما لو أنّها أرادت أن تقول شيئاً، لكنّها تراجعت ..  
شدّت على ذراعي بقوة ...

وبكت بعدها ..

بكت بشدّة!

## (٥)

الحمى تنهشُ لحمي وتتوغل في أعماقي عاطفة حمراء مشوبة  
بسواد مرير، ومثل جريدة ملقاة على طاولة في مقهى ساحلي قديم،  
كنت مُلقى على سرير المرض، والليل خلف النافذة يعوي كذئب  
جريح، وجوليا تملأ الحقنة.

في هذه الليلة، وتاماً كلياً كثيرة سبقتها، لم أكن خائفاً من  
الموت.. فأنا أنهيتُ قصتي معه يوم ارتميت إلى أحضانه في النهر  
طفلاً صغيراً، أدمته الحياة، فأبى أن يأخذني معه. في ذلك اليوم  
الحزين والماطر، تأكدت أن في الموت الكثير من الجبن. ما يخيفني  
من المرض، ليس هاجس الموت، بل هي تلك الأطياف التي تنقضّ  
عليّ وتعذبني على مهل!

على سرير المرض، وعيناوي نصف مغمضتين، لا أبصر من جوليا  
سوى ساقها الطازجتين كجذعي شجرة قادمين إليّ بتشاؤب. أخذتُ  
تشمّر عن ساعدي، أحسستُ بوخزٍ طفيف، ثم بذلك المحلول وهو

ينسكب في أوردتي ..

ولدتُ مهزومًا .. ولدتُ لأجد الحياة، وقد ضربتُ حولي متاريس الخيبة. وجدتُ في مقارعتها بطولَةً، لكنّها كانت بطولةً مجهضة. فبحثتُ بالعلم والمعرفة عن بطولة زائفة وانهزمت، لأنّ كلّ ما فعلته المعرفة، أنّها عمّقت فهمي لمأساتي .. والآن، إذ ألتفتُ إلى شرط حياتي وهو يبرق في سماء المرض ويختفي، تأكّدت أنّني من أولئك الذين قدموا إلى الحياة أمواتًا.

مرّت جوليا بأصابعها على جيبيني الملتهب، ثم وضعتُ خرقة مبلولة عليه، وحركتُ يديّ بحنان، فتطلّعتُ إليها ورأيت الكحل وهو يزغرد في عينيها جميلًا متألّفًا .. اعتلتُ السرير واستلقتُ بقربي، وأخذتُ رأسي وأسندته إلى صدرها، وجعلتُ تداعب بلطف شعري. تمنّيت لحظتها لو أنّها تغني ..

ذات ليلة قاسية من ليالي الجامعة والنضال، وبعد مواجهة دامت ساعاتٍ مع قوَّات الأمن، شرّدتني مطاردة رجال الأمن في الدروب الضيقة لأحد الأحياء المتاخمة للجامعة، كان المطر ينزلُ بغضب ولهفة على جسدي المتعب، فجلستُ القرفصاء تحت إحدى النوافذ بعد أن انتصف الليل أو كاد، فإذا بصوت حنون ودافئ ينطلق من خلف النافذة:

- نيني يا مومو... حتى يطيب عشاننا

ويلا ما طاب عشاننا... يطيب عشا جيرانا

كانت كلماتها دفنًا تسرّب بين جوانحي خلسةً، وبكيتُ في تلك الليلة تحت تلك النافذة المغلقة، كما لم أباك منذ عهد قديم، وحسدتُ في سرّي ذلك الطفل الصغير الذي تفرّش له أمّه صوتها لينام .. بكيت، لأنّني ما نمّت قطّ على صوت عذب كهذا.

لم تغرّ جوليا - كما تمنيت - بل بكث، تطلّعتُ إلى انتحابها،  
وبعد أن كفكفتُ دموعها سألتها:

- ما الذي يبكيك حبيبي؟

لم تجب. تطلّعتُ إلى شحوبي، مرّت على جبيني بأصابعها  
وارتمت عليّ، ضمت أضلعي المتداعية إليها فارتفع نسيجها. في غمرة  
بكائها قالت، أو ربّما تهياً لي أنّني سمعتها تقول:

- سامحني.. سامحني.

وأحسستُ لأوّل مرّة في حياتي أنّ عينيّ تنغلقان رغماً عنيّ،  
فاستسلمتُ لنداء الموت.. أقصد لنداء النوم.

\*\*\*

لم أفكر في الذهاب إلى الطبيب، ليس فقط لأنني أنقرّ من الأمر  
وأعتبر أنّ فيه شيئاً من الهزيمة، بل أيضاً لأنّ شيئاً ما يشدني إلى  
إغرم. أخاف إن أنا غادرتها ألا أعود إليها، المكان، ليست هناك  
أصرة أقوى من هذه التي تجمعني بهذا المكان، رغم أنّه بالغ في  
خيانتني! المكان يُحبّ ويُنسى.

كعادتي، استيقظتُ باكراً، خفّ وجعي قليلاً.. أخذتُ دوشاً  
وثلاث سجائر وقصيدتين للوركا وفصلاً لنيتشه، وكتبْتُ شذرات من  
فصل لكتاب أعدّه عن الإسلام والعلمانية. فعلتُ كلّ هذا وجوليا لا  
تزال غارقة في نوم عميق، لستُ أدري لماذا انقلبتُ إلى «نؤوم ضحى»  
فجأة؟ تذكّرتُ وأنا أتأملها نائمة رقم بنهاشم الذي وجدته في دفترها،  
حاولتُ أن أصرف عن ذهني هذه المسألة، إلّا أنّها لا تنفكّ تعود  
بالحاح بلغ حدّ الإزعاج.

داهمتني رغبة مجنونة في أن أفتش حقيقتها، علّني أجد أشياء ذات صلة برقم بنهاشم الهاتفي، اقتربتُ من الحقيقة بسرّيّة وعيني على جوليا. حملتُ الحقيقة وهربتُ بها إلى الشرفة، فتحتُها بسرّيّة حاسمة، ملابس، قنينة عطر كتلك التي كنت أحضرها عادة لخولة، صُور، كتب، مذكرة، وساعة يد أنيقة، ولا شك أنّها باهظة الثمن. وبحركة عفوية وغير مفهومة كأنّ قوّة ما خفيّة سظرتها، عدتُ إلى الكتب - ربّما لأنّ عيني لم تقع على جوليا وهي تحمل كتابًا في هذه القرية إلّا لمامًا - كان الكتاب الأول رواية بعنوان «أسقف متشابهة»، وزاغت عيني إلى المؤلف، فإذا اسمها يبدو بارزًا كنقش على حجر، جوليا (ك). ولأنّني لم أعد أتذكّر اسم جوليا العائلي بشكل دقيق، فقد فكّرتُ بأنّ الأمر لا يعدو أن يكون مجرد تشابه في الأسماء، كان ذلك قبل أن تقلب يدي الكتاب بسرعة حاسمة، وتواجهني صورة جوليا على ظهر الرواية واضحة وقويّة، كما هي هناك بخصلات شعرها القمحيّة المندفعة وبزرقة عينيها، إنّها هي.. نعم.

وماذا بعد؟

فكّرتُ أن أصرخ بقوّة وتهوّر حتى تنتفض طيور القرية وتنفضها الجبال. فكّرتُ في البكاء. لماذا أخفتُ جوليا هذه الحقيقة عني؟ فكّرتُ أنّ أوقظها وأضعها أمام الأمر الواقع، أمام خيانتها، إلّا أنّني لسبب ما أجهله قرّرتُ أن أتمهّل وأن ألعب لعبتها، إلى أن أصل إلى الأسباب التي دفعتها إلى الكتمان. قرّرتُ أن أواصل هذا الجنون إلى آخره..

هربتُ بعد ذلك إلى إغرم. همّتُ على وجهي والأفكار تتزاحم في رأسي وتتناسل بسرعة، أريد أن أفهم أمرًا واحدًا: من هي جوليا بعد اليوم؟! أريد أن أفهم أمرًا آخر: كم عليّ أن أخسر لكي أزفّ في يوم ما إلى الموت؟!

جوليا! كيف يغيب عني اسمك الروائي؟ ولماذا الرواية؟ وما كان يضيرك لو أنك أخبرتني؟ يا له من منطق سمج أن أضيع في خمائل جسدك، دون أن أعلم أنني على مرأى كاميرات قلمك. وضاعت بي الأسئلة فبسطت على الغار - غار سيدي عيسى، جراحاتي، واتكأت على جداره وحزنت.

ما نفع حياتك يا مراد إن كنت تعيشها من صفرها إلى اليوم على الكذب والنفاق؟ أحياناً، كان منطق الصدمة حين أتوقعها يفرض عليّ أن أتحاشى قدر المستطاع اكتشاف الحقائق. كنتُ أغضّ الطرف، أما أن تأتيك الحقيقة على طبق من صدفة، وأنت لم تشف من حقائق أخرى قديمة، فإنها تنزل على القلب كسيف بارد يزاحم كلّ الجراحات القديمة، فيوجعك كلّ شيء.

وإن يكن.. لا بدّ أن أعترف أنّها حرّة جوليا التي لا تمسّ، ولا بأس إن هي لم تشأ إخباري. على أيّ حال، هي حرّة.. هكذا أتحايل مرّة أخرى على نفسي، لكن عبثاً.. جوليا خانت بصمتها.

في طريق العودة، فاجأني ألم حادّ في رأسي، وجع يشطر وجهي نصفين، ويحتدّ عند أعلى الأنف تماماً بين الحاجبين يظللّ سداد الرؤية.. في طريق العودة، لم أكن أعرف أنّ أولى رسائلهم ستصلني ويتأكد لي بما لا يدع حيزاً للشكّ أنّهم هنا وأنني هدفهم الأوّل. كان اللون الأحمر على أحد صخور الوادي الكبيرة يناديني، اقتربتُ بخطى واثقة، فإذا الحمرة على الصخرة تنقلب حروفاً غليظة وقاسية تبدو حيناً ويبدها الوجع حيناً آخر.. وما إن وقفت على مقربة من الصخرة، حتى انتصبت الحروف الحمراء حاسمة وقويّة: «تُب إلى ربّك وإلا سفكنا دمك!» ارتبكت. العبارة في فمي وانكسرت، ولم أتممها لأنّها رفرفت إلى الذهن حقيقة لا تقبلُ أيّ طعنٍ أو نقاش. دنوتُ من العبارة

وتَحَسَّسْتُ الطلاء، فإذا هو لا يزال لزجًا، كانت لزوجتي الطلاء تقول  
أمرًا واحدًا، إنهم قريبون. رأوني قادمًا فكتبوا إعلانهم هذا وانسحبوا،  
توقعت أن تُسقطني طلبة، كما أسقط سيف الرومي السقّاح سيدي  
عيسى.

وأدرتُ ظهري لأعدائي ومضيتُ، كنت أمشي واثقًا من أنّ الموت  
أمر وارد.. أيُّ موتٍ جافّ هذا الذي يطلبني وأنا في رحم هذه القرية!  
في غمرة هذا الإحساس الموجه بالضياح والفقدان والخيانة، تذكّرتُ  
لوركا، ترى هل سيأتي الموت ليقدّ قميصي من دبر، أم سيغمرنني مثلما  
غمر ذات يوم مصطفى ويحرق القميص كله.

\*\*\*

وكأنّ شيئًا لم يكن، حاولت أن أوارى غيظي وأكتم غصّة الخيبة  
التي يكتظُّ بها جوفي، فأنا - كما قال درويش - لم أعد أخسر غير  
الغبار. كانت مياه الدوش تنزل على الجسد الرخامي وتنكسر عند أدقّ  
تفاصيله سرّية، صوت شرس يجرّني من خاصرتي بحثًا عن ضحيّة.  
حين أغلقتُ باب الحمام بعد أن تجرّدتُ من كلّ ملابسٍ وبعض  
أحزاني، تراءى لي جسدها حلماً مستعصياً أو أملاً زائفاً. كانت نوافذ  
عينيّ المشرّعة عن آخرها تتأمل عريّتها الروائي المدنّر بالحروف  
والكلمات، تمامًا مثلما يفعل قارئ محترف حين يواجه قصيدة عصيّة  
ملقّزة، صاحت:

- صباح الخير، حبيبي..

تناهت إلى مسمعي الكلمة الأخيرة كأنّها سرب حمام تطاير إثر  
طلقة طائشة، في غمرة التناقض الذي استبدّ بي وأنا أواجه جسدها  
العاري، كأنني لأوّل مرّة أفعل، ألحّ عليّ صوت أحد الشيوخ. سمعته

يصيح في إحدى القنوات بلهجة شديدة لا تخلو من نرفزة، وتلك  
اللحية الجرباء على وجهه تعلو وتنحني كمكنسة الغبار، كان يصيح:

- يد المرأة عورة، شعرها عورة، وجهها عورة.. جسد المرأة  
كله عورة!

وتطلعت إلى خصرها العاجي، قائلاً:

- لا شيء فيك عورة.

استفسرت جوليا عما قلت، فلم أجب، بل تقدّمت نحوها. فعلى  
الرغم من الشحوب والمرض كان نداء الجنس يتضخم داخلي، الجنس  
يقاوم المرض والجسد يقاوم نفسه. الجنس هو البديل الحقيقي لكل  
محاولات الحب المجهضة، الجنس يؤسس والحب يقوّض. الحب قوة  
تخريب سامية، أمّا الجنس فهو قوة بناء منحة.

وغمرت جسدها والماء ينسكب بحرارة ونزق، طارحتها الجسد  
بشراسة، كأنني أنتقم منها. كانت تأوهاتنا تصلني كاستعطاف لم أكن  
أملك أمامه إلا التماذي في ضرب أسوارها اللحمية، لست أدري شيئاً  
عن طبيعة هذه القوة التي تنزلت فيّ، لكنني كنت أعلم أنها لو لم  
تستوقفني لغادرتها جثة. كنت متأكّداً إلى أبعد الحدود بأنّ بمقدوري أن  
أقتلها جنساً!!

حين تركتها مشدوهة لا تصدّق فشلها الذريع في المقاومة، كنتُ  
في لحظة بين الحلم والحقيقة تتداخل الأشياء في ناظري وتلبّسني كلُّ  
مخاوفي، في تلك اللحظة بالضبط، كان صوت الشيخ المنفعل يصحو  
ويتلاشى داخلي، ثم لا ينفكّ يضجُّ:

- عورة.. عورة.. عورة...

جوليا.. صرْتُ أخافك، أخاف أن ترسلي قلمك لتعشي بجراحاتي، أخاف أن تكوني حزناً يفيض عن الذكريات. لماذا تخفين عني كونك روائية، وأنا الذي حاولتُ أن أطرّز في أعماقك اسمي؟ وهل في جعبتك غير هذه الكذبة؟ صرْتُ أخاف أن أتقدّم خطوة أخرى في نبش الحقيبة السوداء التي تتكوّم هناك في ذلك الركن الركين.

صبيْتُ كَأَسَا رابعة في جوفي، إذن هي المشاكل تتكالب عليّ. جوليا من جهة وحلفاء الظلام من جهة أخرى، هدّدوا بقتلي بالعبرة نفسها التي وجدتتها مرارًا مكتوبة على سبّورة قاعة المحاضرات. لا شكّ أنّهم يرون فيّ شيطان هذا المكان، لذلك يفكّرون في تصفيتي حتى يرفرف بياضهم الزائف دونما دنس، لكنني باق هنا ولو كان في ذلك موتي، ما عاد الموت يخيفني.

كانت الموسيقى الأمازيغية تجرّني من قلبي صوب طفولتي الشقية، أمّا حين اكتظّت بي الهواجس والظنون إلى درجة لا تُطاق، فقد أسندتُ رأسي على صدر جوليا. كان جبيني، بل وكلُّ جزء من جسدي، يضحّ بكلمات مبهمة:

– كلّ الأشياء تبدو حزينة.

قلتُ لجوليا، فردّت بسرعة كأنّها كانت تتظرني أن أبادر بالكلام:

– أنا أيضًا، أحسّ بالشيء نفسه.

– أفعلاً تحيّنني؟ أحقّاً تفعلين؟

وطوت شفتها السفلى مناورة، وسكتت لهنيهة، ثم اندفعت بجنون:

– أحبك.. أحبك.

كانت الكلمة تصلني كموجة صاخبة تغمرني، لكنها تتجاوزني إلى  
أبعد مني. قلت:

- لم أحاول يوماً أن أؤذك يا جميلتي، ولن أفعل.

وأحنت رأسها وتأملتني، ثم جعلت تحرك عينيها في كل  
الاتجاهات قائلة:

- من يحب لا يؤذي من أحب.

وابتلعنا صمت مريض محفوف بآلاف الكلمات الجارحة، قلت  
معرضاً:

- أتحبين الأدب؟

- من منّا لا يحب الأدب!

- في النهاية، كل شيء يستحيل إلى أدب.

وكأنها كانت تفر من الكلام على الأدب. اكتفت بكلمة «نعم»،  
وشرعت تداعب شعري برقة. في تلك اللحظات، وأنا أتخبط في  
مصيدة صمتها، كنت في حاجة إلى البكاء، البكاء، باعتباره حلاً مؤقتاً  
يخفف عني وطأة هذه الخيبات التي تحاصرني.

\* \* \*

في الهزيع الأخير من الليل، استيقظت على نزيف حاد. عندما  
وقفت أمام المرأة، كان أنفي لا يزال ينز دماً، وكان نباح الكلاب يعلو  
مفاجئاً وحاداً، ثم سرعان ما يستسلم للصمت المطبق على القرية!  
رشقت وجهي بالماء طويلاً، والدم هذا الأحمر الحيوي لا ينفك  
يغادرني. في المرأة - يعد أن استسلمت للنزيف - رأيت خولة وهي  
تردد أول الأمر في وضع شفرة الحلاقة على معصمها، رأيت أصابعها

تخذلها، وتلك الأوردة الخضراء التي تزخرف معصمها تنُّ ويكاد يجنُّ داخلها، رأيت خولة والطفل في أحشائها يبكيان معًا. كان الحزن يثقب قلبها البريء ويطفح ثم يتدفق كطوفان، والشفرة ترسو على سطح المعصم.. رأيتُ جمالها الباذخ وجسدها العاجي المصقول ينبلع من المرأة ثم يختفي دفعة واحدة.

### «أغرك مني أن حبك قاتلي؟»

كتبْتُ خولة، كأنها كانت تنتظر موتها أو تتوقَّعه، لكنها حين تأكدت أن الموت لن يختارها، اختارته هي وغرست الشفرة الظمأى في المعصم الجميل وسحبته بعنف، لتخلَّف في تلك الأوردة الجميلة رنقا لا يُرأب إلا بمعجزة؛ ولأنَّ المعجزات ماتت منذ زمن بعيد، فإنَّ خولة كذلك ماتت حين استسلمت لنداء الموت المخيف، الموت الذي كان يزحف في ثبات ليلتلع الجسدين معًا، وابتلعهما البياض الحليبي ورذاذ البحر، وجرتُها كفَّ مجهولة من معصمها المدمى نحو السديم.

وتوقَّف الزيف، بعد أن وقفت أنا وخولة على عتبات السديم..

انسحبتُ من الحمام إلى المطبخ الصغير، حشئتُ الخطو كي لا أزعج نوم جوليا كما أزعج يقظتها! صبيْتُ كاسًا وأشعلت بعصبية سيجارة وراح تفكيرِي يشقُّ طرقًا مختلفة، والمرض يهرش عظامي. تساءلتُ عن جدوى وجود إنسان مثلي، أنا ابن الخطيئة، تساءلتُ أيضًا، أيُّ سيِّدة هذه التي زجَّت بي في خرق بيضاء، وأسلمتني إلى أرض خلاء ومضت؟! ترى أكانت كأُمِّ كليم الله مكرهةً على الرِّجِّ بي في قفص البعد، أم فعلت ما فعلت درءًا للفضيحة؟! في غمرة أسئلة شائكة انتصبت مفاجآت جوليا بارزة.. تساءلتُ: ترى أتفكّر هذه المخبولة في جعلِي جرحًا روائيًا؟ أتفكّر في إخضاع أوجاعي لعملية

تجميل أدبية تصير حياتي بموجها ملحمة؟! لكن كيف ذلك وجوليا لا  
تكاد تعرف عني شيئا؟  
وعُدْتُ..

أحكُ القشرة الدموية اليابسة على سطح الجرح؟

استفزه لينزف أكثر، فقد ماتت في كل إرادة للبناء، ولم يبق أمامي  
سوى الاستسلام إلى صوت الفجعية يصيح بي أن أخرب كل شيء.  
أزير الحقيقة أحرص نباح الكلاب، قد تصحو جوليا في أية لحظة  
وتضع يدها على جريمتنا معاً.. وقعت يدي على روايتها فتجاوزتها  
بلامبالاة، وكما وضعت خولة الشفرة على معصمها كنت أضع شفرة  
الفجعية على الروح المتعبة، وضعت يدي على مسجلتها الرمادية وعلى  
بعض الشرائط الصوتية، هذه الشرائط قد تقول أشياء مهمة، ربما قد  
تقول كل شيء! لكن لا مجال للسمع. وانزلت يدي إلى أسفل  
الحقبة - الجرح، لست أدري لماذا أحسست أنني قد أسحب أحشائي  
وجراحاتي من أسفل الحقيقة. أول الأمر، ترددت في سحب الملف -  
لطالما كان يحذرني صوت خفي عندما أكون مهذبا بالاحتراق، لكنني  
دائما كنت أتحدى هذا الصوت وأحترق.. طفح الكيل ووصلت إلى  
نقطة اللارجوع، ارتجفت يدي وأنا أسحب الملف المثلث بالأوراق،  
هربت به إلى الحمام بحثا عن إضاءة وخلقت الحقيقة مفتوحة!

أحمر.. أحمر.. حتى الملف كان أحمر، وكانت صورتي تتوسط  
واجهته، وقلبي المسكين كان يخفق بقوة، مثل دف في أحد أعراس  
إغرم. وجثمت على جثتي غصة كئيبة، وأنا أقرأ في الهزيع الأخير من  
الليل على واجهة الملف تماما فوق صورتي: «ملف المريض» كتبت  
العبارة بالفرنسية ويخط مرقون، وبعد النقطتين كتب اسمي بخط اليد.

في تلك اللحظات امتلأ الحَمَام بهمس مجنون.. أسفل الصورة كان اسم بنهاشم الكامل مكتوبًا بخط مرقون ومضغوط، بحلقتُ في المرآة فإذا صورته تبرز مبتسمةً بل وضاحكةً. إنه هو بعينه الغائرتين ولحيته المتواضعة ورأسه المكور الأصلع الذي لا تفارقه القبعة إلا لمامًا.. ابتلعتني إحساسٌ مبهمٌ بالغثيان، كأنَّ كلَّ شيءٍ داخلي شرع بالانهيار والتفتُّ، ولأنَّ الصدمة كانت أكبر من أنَّ يتحمَّلها قلبٌ معطوبٌ، فقد خذلتني قدمي وسقطت على ركبتَيَّ، وتقيأتُ إلى درجة أنني خلتُ أنَّ أحشائي ستندلع في دورة المياه دفعة واحدة، بعد أن سمَّمتني روائح الدسيسة التي كان يفوح بها ذلك الملفت.

وماذا يفعل هذا الملفت في حقيبتك يا جوليا؟

لستُ أدري، كلُّ ما أعرفه الآن هو أنَّها على علم بمأساتي من صفرها إلى اليوم. وماذا بعد؟

قمة الخيانة أن يعانقك خائِنك كلَّ يوم، أو يوهمك بحبِّ كبير وهو في السرّ يزرعُ نصاله في ظهرك، وانسحبتُ من الحَمَام تفقدتُ نوم جوليا، وعدت إلى الملفت أقلبُ أوراقه وأقرأ بعضها، كانت تتحدَّث عني وعن أوداد الذي كنته. هذه الأوراق لا تقولني كما أنا أو كما كنتُ، بل إنها تصوّرني مريضًا بالمخاوف والهواجس، إنها تتحدَّث عن مراد آخر لا يوجد إلَّا في ذهن بنهاشم. وحزٌّ في قلبي ما اكتشفْتُ، وتردَّدتُ في اتخاذ أيِّ قرار، فاكتفيتُ بإعادة كلِّ الأمور إلى نصابها كأنَّي ما قرأتُ شيئًا ولا اكتشفْتُ شيئًا، وقلتُ في خاطري: خسرتُ كلَّ شيء، ربَّما كانت جوليا آخر خساراتي. بعد هذه اللحظة، تقلَّصتُ هوامش الربح والخسارة، إن لم نقل إنها انعدمت، ولم يعد أمامي سوى أن أواصل هذا العبث إلى آخره.

وتمدّدت قرب خائتي التي كانت تغطّ في نوم عميق وهادئ..

بإمكانني الآن أن أقتلها ببرود، مثلما قتلْتُ أوّل أرنب في حياتي! أذكر ذلك جيّدًا، ربّما لأنّه عاودني في الحلم مرّات كثيرة، كان ذلك أيّام صباي بهذه القرية بالضبط، بعد هلاك العجوز احتراقًا، واعتزالي الناس، أو بالأحرى بعد تعرّضي لإبعاد متعمّد من طرف أهل إغرم..

التجأت إلى الجبل، ولا أملك في جيبِي غير عود ثقاب، وكان الجوع قد عضّني فطاردتُ ذلك الأرنب المسكين - الذي بكيت فيما بعد حزنًا عليه - ولأنّ غريزة البقاء، لا أنا، هي التي كانت تطارده، فقد تنزّلت فيّ قوّة لا أدري إلى حدود اللحظة كُنْهها، قوّة جعلتني أمسك به.

ولأنّني لم أكن أملك من وسيلة لذبحه في أعالي الجبل، فقد أطبقتُ على عنقه بأسناني، وعَضَضْتُ بالحاح الجوع الذي كان يعتصر أحشائي حتى انفجرت دماؤه على وجهي وثيابي، فطرحته أرضًا. كان ينتفضُ ويهرب فتخذله أرجله ويتكوّر بنزق، ويرتجفُ، إلى أن استسلم في النهاية للموت، وأنا بالقرب منه، بالقرب من جريمتي الأولى، ذاهل أبصقُ دمه وفروته الرماديّة التي اكتظّ بها فمي. بإمكانني أيتها الجميلة أن أفعل بك ما فعلتُ بالأرنب، لكنّني لن أفعلَ احترامًا لأحزاني الكبيرة، بل وسأواصل معك المسرحيّة لأرى ماذا تدبّرين لي، سأصغي لأوتار قلبي وهي تتمزّق على يدك.

## (٦)

في الصباح، ولأنتني لم أنم سوى سوي ساعات قليلة ومليئة بكوابيس مخيفة، فقد استيقظتُ على ألم حاد يشقّ رأسي، الآلام والأحلام جعلتني ألتفتُ إلى أحداث الهزيع الأخير من الليل، كأنها ذكرى قديمة تبزغ وتتلاشى في سماء ذاكرتي.

ناولتُ حميد مفاتيح سيّارتي، قائلاً:

- أريدُ منك أن تذهب الآن على وجه السرعة إلى المدينة.

- على الرحب والسعة.. لكن ما المطلوب؟

وأخرجتُ من الجيب الأشرطة التي أخذتها من حقيبة جوليا مغتنماً فرصة دخولها إلى الحمام.

- أريد نسخاً لهذه الشرائط، إضافة إلى الجرائد والمجلات الأدبية المتوفرة.

ومددت له المال اللازم لذلك، وهرول صوب السيّارة. نزع عنها

الغطاء التي تسربت فيه طيلة مكوثي هنا. . وعدتُ مسرعًا إلى جوليا، لأحول دونها والحقيبة. بعد ساعات ستكون الشرائط في حوزتي، لا شك أنها ستفصح هذا التواطؤ الخبيث وتقول بصراحة من أنا، بعد ما اكتشفتُ ما اكتشفت. كابدتُ الأمرين من أجل إبعاد جوليا عن الحقيبة، بالكاد أقنعتها أن ترتدي الملابس المبعثرة هنا وهناك، بدل البحث عن ملابس أخرى في الحقيبة، واستعجلت الخروج لئلا أمهلها فرصة العودة إلى أدوات زيتها في الحقيبة، أما حين خرجنا من الفندق فقد تنفست الصعداء. . كنتُ أشدُّ على مذكرة خولة بقوة غير مفهومة، وكانت يدي اليمنى تخاصرُ جوليا، يد على القتيلة وأخرى على القاتلة، وماذا بعد؟ هي الآن تعرف كلَّ شيء وأنا أعرف أنها تعرف كلَّ شيء، ولم يبق بيننا سوى تمثيلية يجب على كلِّ واحد منَّا أن يُتقنها.

استغرقتنا في أحاديث طويلة ومتشعبة. كنتُ أحاول جاهدًا أن أعرج بها إلى ما يمكن أن يعمق جراحاتي. تذكّرنا معًا أول ما قاد المودة بيننا، فاندفعتُ تردّد كلمة واحدة: الصدفة! ترى أية صدفة هذه التي تنتهي بملفي النفسي في حقيبتك؟ لا شك أنها كانت تخطّط لكلِّ شيء، وحتى (حبّها) الذي لا تنفكُ تصرّح به وبروعته وعظّمته! لا شك أنّ هذا الحبّ زائفٌ. ما حَزَّ في قلبي أنّ تمثيلياتها قد نجحت معي، وبالفعل أتقنتُ دور العاشقة، أوهمتني بحبّها المفتعل، ببكائياتها الصاخبة حين يُدركنا الوداع. . أقنعتني دمعائها الشفافة حين تسترسلُ في حديث ذي شجون عن والدها الخائن! آه، لا شك أنّ أحزان جوليا كحبّها زائفة.

وبنهاشم! أيعقلُ أن يخذلني؟ أيعقلُ أن يتاجرَ في ملفي وهو على علم بأنّ الأمر يتعلّق بجريمة قد تقحمه في خندق، له بداية وليس له نهاية أخرى غير السجن؟ أيعقلُ أن يكون الرجل الوحيد الذي ائتمنته

على سرّي من طينة أولئك الذين يبيعون كلّ شيء، كلّ شيء حتى مؤخراتهم لقاء المال؟!

المرض والدسيسة يلوكان أضلعي وسرب من الحمام صفقت أجنحته، فكسرت صمت الغروب المهيّب، هنا فوق هذا التلّ المكتظّ بالحزن والشوق و«أزير»؛ وعلى ضوء ما أبقى الغروب في هذا النهار من دُباله، قرأت ما كتبت خولة بعد مرور عام على ارتباطنا:

«بعد زوال يوم أمس، احتفلنا معًا بمرور عام على حبّنا، كان يومًا من أيّام العمر كما يقال، قال لي:

- أعلم، وأعلمك أيضًا بأنّ ما سنقوم به الآن هو ضرب من الجنون، لكنّها فكرة عنّت لي، فكرة تعطي لهذا اليوم معنى خاصًا.

استفسرت عن هذه الفكرة، فلم يُجب بل فرّ من أمامي، غاب للحظات في المطبخ إلى أن رأيت سحائب البخور والنّد تنطلق في كلّ اتجاه، ظللتُ مشدوهة ومأخوذة بهذا السحر الذي بدأ يستحكمُ بالمكان، ثم عاد مراد يحمل في يده شفرة حلاقة. استغربتُ من الأمر، وزادت تلك النظرات الغريبة التي حدّجني بها من استغرابي، قال:

- أنتِ مستعدة؟

- لم؟

وجلسَ على الأريكة إلى جانبي. كانت عيناه خلف سحائب الدخان تأتليقان بفرح عارم. ناولني الشفرة، ومدّ لي يده اليسرى قائلاً:

- سبقَ وصَرَحتُ أنَّ هذا الأمرُ جُنون، لكنّه جنون جميل،  
وأجملُ اللحظات هي تلك التي نقترفها، ونعلم مسبقاً أنّها  
ستُوشمُ في الذاكرة.. كلّ ما في الأمر، حبييتي، أنّنا سنتذوّق  
قليلاً من دماء بعضنا.. ربّما بهذه الطريقة، سيبقى في داخل  
كلّ منّا شيء صميميّ من الآخر!

تحمّستُ للفكرة، وجرحت بحذر بالغ سبّابة يده حتى نزلت،  
وأخذتها إلى فمي، أمّا وأنا أمصّ دمه والمكان يعبقُ بروائح  
سحرية، فقد أحسستُ كما لو أنّني أدخلُ في غيبوبة أو أعيش  
حلمًا جميلًا، تمنيتُ ألا ينتهي. حين أخذ سبّابتي إلى فمه فقد  
استغرق الأمرُ زمانًا، أحسستُ فيه كما لو أنّ مراد طفل يلتصق  
بثدي أمّه بعد عطش طويل.

وكنا سعيدين بحماقتنا تلك.. رقصنا بعد ذلك بجنون وفرح،  
مستسلمين فيما بعد لصخب الموسيقى وغواية البخورِ ونداءِ  
الجسد.

حين هممنا بالخروج، طلبتُ منه أن يحتفظ بتلك الشفرة، فلم  
يمنع. أخذ يدي وقال:

- تعرفين أنّ هذا الجرح الذي خلّفته الشفرة في سبّابتك سيَلتئمُ  
بسرعة؟

- بالطبع.

وضع الشفرة في يدي، وقال بصوت مضطرب كما لو أنّه  
يخاطب نفسه:

- «وحدها جراحات الروح لا تندمل، بل تواصل نزيفها كلّ  
يوم بغير انقطاع..».

قبل الغروب بلحظات، ونحن عائدان إلى الفندق، حكيتُ لجوليا عن أولئك الذين ثقبوا قلب أوداد (قلبي)، قبل الغروب، كان في الروح متسع للحكاية، وكانت إغرم رحماً يضجُّ بروائح وأصوات مبهمة!

بعد الغروب، وبالضبط بعد أن رتبتُ بإتقان عملية إعادة الشرائط الأصلية إلى الحقيبة وخبأتُ الشرائط المستنسخة، خلعتُ عن جسدي القميص الأسود وأدرتُ ظهري لجوليا، وأنا جالسٌ على طرف السرير ممّا لا شكّ فيه أنّه سبق لها وأن رأت تلك الندوب التي تجثمُ على ظهري، لكنّها المرّة الأولى التي تراها بشكل صريح، ربّما هي الآن تتطلّع إليها بقلق أو استغراب وربّما بشفقة لا فرق! قلت معرّضاً:

– هذه هي الخيانة يا جوليا، لا يهمّ مَنْ خانَكَ ولماذا أو كيف فعل! الزمان كفيلٌ بمحو كلِّ هذا.. أصعبُ ما في الخيانة هو ما يرشّحُ منها ويبقى شاهداً عليها، ولا يقوى لا الزمان ولا النسيان على محوه، وهذه الندوب التي تشقُّ شعاباً في الظهر لن تمّحي يا جميلتي، لن تمّحي. وأعتقد أنّه لو تعلّق الأمر بهذه الندوب لَهان الأمر.. هناك ما هو أكثر إيلاماً. إنّها ندوبُ القلب والروح!

وابتلعنا صمتٌ بارد، شعرتُ فيه أنّ كلماتي قد وقعتُ في نفسها موقّعاً غير هيّئ، وأنّ الرسالة التي كنت أقصدها قد وصلتُ كما ينبغي.. بعد الغروب، أحسستُ أنّ أحشائي متفحّمة، وأنّ الصداً الخفيّ يعلو ملامح وجهي. كانت كلمات جوليا وعناقاتها وقبلها فيما بعد تتناهى إلى جسدي المنكوب باردة. كانت جوليا وقتئذ تترأى لي كسفينة تبتعد عن جزري، تبدو حيناً ويحجبها الضباب أحياناً.

\*\*\*

رأيتُ في ما يرى النائم . . .

إنني كنتُ مصلوبًا على شجرة التين الوارفة التي تتوسَّط مزار سيدي موسى . بين الحياة والموتِ ، كنت مصلوبًا أمامهم ، أقصد من قاموا بصليبي ودقَّ المسامير الغليظة في معصميّ . كانوا منتشرين تحتي بانتظام واضح ، متسربلين في البياض ؛ وكانت لحاهم المتدلّية ترقص حين يبسملون أو يُخوِّقُلون . . واهتصرني في تلك اللحظات وجعُ قاس وأنا أتأمل بمشقةٍ دمائي ، وهي تنزلُ بخفةٍ وتُعائِقُ لحاف الشجرة العجوز ، ثم تنزل بهدوء ، سمعتُ أحدهم يقول :

- لن نحسم حربنا الخارجية مع أعداء الله إلا إذا حسمنا حربنا الداخلية مع بياض الإلحاد في بلاد الإسلام ، ف (أعدّوا لهم ما استطعتم . . ) .

ورويّدًا رويّدًا ، كنتُ أموتُ . سرّت في أطرافي رعدة مرعبة ، وانشالت عليّ في تلك اللحظات صورٌ كثيرة تقترب وتبتعد ، تشرق وتختفي وأطبقتُ في الحلم جفنيّ ، بالكاد استطعتُ فعل ذلك ، لكنني لم أستيقظ ، بل أسلمني حلمٌ إلى حلمٍ ، تناهى إلى مسامعي صوتٌ بنهاشم باهتًا ، كأنه يُهاثفني قائلاً :

- هل هَدَدوك؟

- قليلًا . . رسالتان طرقتا بابي قبل ١٦ مايو ، وعلى سبّورة قاعة المحاضرات في الجامعة التي أدرسُ بها ، كتبوا مرارًا عبارات تهديد ووعيد . .

- ولماذا أنتَ دون غيرك؟

- لأنني أسفّه لحاهم وأعرّيهم بقلمِي .

وطال صمته بعد ذلك، ففتحتُ عينيَّ ببطء شديد، وتطلَّعتُ إليها باستغراب واضح: خولة! كانت ترتدي وزرةً طبَّيَّةً بيضاء، فزعتُ لرؤيتها بقربي وأنا ممددٌ على الأريكة النفسية في عيادة بنهاشم، فأطبقتُ جفنيَّ بقوةٍ ثم فتحتهما على فضاء من الحلكة والحزن، وكان يكفي أن أبهلق في العتمة جيِّداً لأدرك أنني استيقظتُ. مضرَّجاً بالعرق والدموع، كنتُ تحسستُ بيسراي جوليا، لمسْتُ ظهرها الحريري العاري، فاستدرتُ وتمدَّدتُ على جنبي الأيسر، واقتربتُ من جوليا إلى أن التصقَ صدري المبلول ببلاطة ظهرها. احتضنتها بل وشددتها إليَّ بقوة، محاولاً أن أنسى ذلك الجرح الغائر الذي خلَّفَتْهُ تمثيليَّاتها في القلب.. لكن دون جدوى!

توسَّدتُ شعرها القمحيّ. في تلك الليلة قلتُ لها:

- الحبّ لم يضلِّقني جيِّداً يا جميلتي، ولأنني أوصل حياتي انتظاراً لموتٍ عابرٍ يختارني فأكونه، فإني لم أعرف للحبّ من سبيل. ذات صباح، سأصحو ميتاً، لن تسيل دمعة صادقة حزناً عليّ، ولن تتأثّر حياة غيري بغياي. . هكذا يموت الغرباء! أمّا عنك، فإني أخاف عليك من صَحْوَةِ الضمير، أخاف أن يتضحَّمَ إحساسُك بالذنب إذا ما تورّطتَ بشكلٍ أو بآخر في خداعي أو اغتياي بشكلٍ أو بآخر، كما تورّطتُ أنا في اغتيال فراشة في حقليها، فراشة اسمها خولة.

لماذا اخترتِ الدسيمة؟ أنا متأكّد من أنني سأجد جواباً في الشرائط المستنسخة، لكنني أحبّذ أن أسمع من صمّتك، الصمت بريء. لذلك فهو يقول كلّ شيء، فقولِي بصمّتكِ كُلِّي آذان صاغية..

أبّتها الجميلة النائمة، لا شكّ أنّ التقرير الطَّبّي قد فضح كلّ مناوراتي، وفَسَّرَ لك كلّ تلك الحالات الغريبة التي ألَمَّتْ بي وأنت في

حضرتي! الآن، أنت تعرفين كلَّ شيء عني، تعرفين.. وأسفي! أنني وأوداد الذي ابتدعته لأقول لك من خلاله كلَّ شيء، من دون أن تطالني نظراتك المشفقة، وجهان لشخص واحد. إنه الجانب الحيِّ متي، وإنني الشقُّ الميتُ منه... جوليا أنت لم تقدري كون عذابات الأرض والسماء قد حلَّت بي، فاستوقفتني في حقلك الملعوم وأجهضت آخر محاولاتي لتفريخ حبِّ ناضج.

وعلى الرّغم من كلِّ شيء أشتاقُ إليك كثيرًا، لا كما أنت الآن بين يديّ مدانة، بل كما عرفتك من قبل. تمنيتُ لو أنني ما مددتُ إلى أشياءك يديّ، لكنّها لعنتي التي تصوّبي كلَّ مرّة إلى وجع جديد، كم جميلٌ لو أنني لم أذوّق شيئًا من علقم هذه الحقيقة، وبقيتُ طفلًا معلقًا على جدائلك ناسكًا في معراجِ جسديّ العاجي!!

ومددتُ أصابعي إلى نهديها الصليبين، كانا واقفين بكبرياء؛ أما حلمتاها النافرتان فقد كانتا منتصبتيْن كرصاصتين. تُرى هل حدّثك الملفّ عن إغرم كما ينبغي؟

إغرم، يا جميلتي، هي أرض البدايات، هي أمي الوحيدة الجديرة بأن أناديها أمي، وإن تخلّت عني ونسيتني..

جوليا.. أنا متعب أكثر ممّا تظنّين، منذ أن ولدتُ وأحزاني ترفرف عاليًا، جئت إلى الدنيا منذ البدء مطعونًا في القلب مستسلمًا لنزيف موجع لا ينقطع. فما الذي يغريك في رجلٍ خراب مثلي؟ أهو الجسد أم إحساس الشفقة، لكوني كما يُقال: «إكس بن إكس» أم أنّك ترين فيّ مشروع عمل روائي أم كلَّ هذه الأشياء مجتمعة؟

حبيبتي الخائبة! لم أكن يومًا عاشقًا حقيقيًا، كلَّ ما فيّ كان يقودني نحو الفناء. وحده الجسد كان يستبقيني، الجنس هذا الوحش

الذي يرقد داخلي ويحرّكني بحرارة لأفتضّ المدى اللحمي لضحاياي،  
كان يجعلني أنشبتُ بالحياة، فكيف للأقدار بأن تحملني بإرادة الموت  
وتزرع في الجسد إرادة مضادة؟

أما عنك، فقد اكتشفتُ الآن أنني التجأتُ خطأً إلى مملكة  
خصبك، لأنك أسلمتني إلى وجع لا أظنُّ أنني سأبرأ منه، عانقتك  
بصمت وأنا أتمزّق، فإذا بي أستيقتُ الآن، وأجد أن ذراعيّ فارغتان  
إلا من الحزن، فأين رحبٍ؟ هكذا تبخّرتِ أنتِ أيضًا كما تبخّر  
أفراحي القليلة، ولم تبقي لي سوى وجع آخر يضاف إلى القائمة  
الطويلة.

وراودتني على نفسي غفوة جميلة ولذيذة، وأنا أداعب رَغَبَ  
عائتيها، ولا أذكر بعد ذلك سوى ذلك الصغير الغريب الذي صكَّ  
أذنيّ، والذي قيل لي في ما مضى أنّه صوتُ الموت الذي ينادي به  
ضحاياء.. وقلْتُ للصوتِ في سرّي (لييك)! لكنّ الموت لم يأت وظلّ  
الصوتُ يضجُّ في أذنيّ إلى أن ذبْتُ في صخبه، واستسلمتُ للنوم!

\* \* \*

صباحُ الخير يا إغرم..

صباحُ الخمر والسجائرِ الثقيلةِ والضلوعِ العلية..

جوليا تأخذ حَمَامَها الصباحي، في حين كنت أقلبُ أوراق  
المجلّاتِ والجرائد التي استقدّمها حميد بسرعة، كما لو أنني أفتش  
فيها عن شيء يخصّني. كنتُ أتكئ على الأريكة مكدودًا، أكرع زجاجة  
الخمر وأحاول جاهدًا أن ألمّم أفكاري التي كانت تتطاير كدخان  
سجائري في كلّ اتجاه. وكان فيّ من الحزن ما يكفي لقتلي، لولا أنني  
أغرقُ القلب خمرًا. قرأتُ في إحدى الجرائد ما يلي: «تمكّنت

عناصر الأمن الوطني صباح يوم أمس من تفكيك خلية إرهابية مكونة من أحد عشر فردًا، وقد اعترف بعضهم بأنه تلقى تدريبات نظرية وميدانية بالعراق وأفغانستان ودول مجاورة...».

لم أستطع أن أواصل القراءة، لأنّ تلك العبارات المكرورة كانت تجرّحُ أشياء كثيرة داخلي، وتوقظ جراحات أخرى لم ولن يكتمل اندمالها. وعرجتُ على البال صورة مصطفى، لا كما عرفته في السنوات الأخيرة، بل كما تعرّفتُ عليه أيام انغلقتُ في وجهي جميع الأبواب إلّا بابه.. بأيّ ذنبٍ أخذ مصطفى والعشرات ممّن قضوا نحبهم في تلك الليلة السوداء في البيضاء! عندما يضيق هامش الحوار الفكري الحرّ أو يختفي، تفتح آفاق العنف الأشدّ دموية.

وانسحبت جوليا من الحمام، وهي تدير فوطة وردية على جسدها. جوليا أكثر من جميلة، كاملة كخوخ إغرم، شامخة كجبل عيّاش ومناورة كطائرة حربية. جوليا الآن، تعرف عني كلّ شيء، وأنا أعرف أنّها تعرف عني كلّ شيء. أنا في نظرها خربةٌ من الحزن والضيق قد تصلح لمغامرة أدبية، وهي في نظري جزيرة التجأت إليها، فإذا هي حوت نائم استيقظ فجأة وأسكنني بطنه.

- صباح الخير.. حبيبي.

(صباح الحزن والبكاء. أيّ خير يرجوه من استهلّ يومه بالخمير، أيّتها البهية).

- صباحك ورد وعسل.

- كيف حالك؟ لا تقل لي بأنك لا تزال مريضًا.

(مريضٌ ومريضٌ بك أكثر، لا مرض غير مرض الروح حين تكون معطوبة، فإنّ القلب والجسد يكونان مفتوحين على هاوية سحيقة).

- أحسُّ أنني بدأتُ أتماثل للشفاء، وإن لم يبرحني إحساس قاسٍ  
بأنني بدأتُ أشيخ.

وتأملتُ ساقِها الذهبيتين المكتنزتين وهما تتجهان نحو علبة  
الأدوية التي لا تفارق حقيبة جوليا. أخذتُ حقنة وزجاجة دواء،  
واقتربتُ قائلة:

- لا تزال شابًا. وما مرضُك سوى غيمةٍ عابرة! ألا تنظر إلى  
نفسك ونحن في غمرة الجنس كيف تبدو شرسًا وضارياً؟  
وجعلتُ أفكُ زرَّ القميص وأسمّر عن ساعدي، وأنا أراقبها مقبلة  
كنيزك نحوي. استرسلتُ:

- الجنس، يا حبيبي، هو الذي يحدّد عمر الإنسان، وأؤكد لك  
أنك في ريعان شبابك، بل وأقوى. لا أدري كيف أشرح لك الأمر،  
لكن تأكد أنك مختلف عن باقي الرجال، حينما تمارس الجنس  
تستحيل إلى قوّة مزلزلة لذيدة، إلى طوفان جامع.

عندما وخزّنتني الحقنة، كنتُ أتأمل عينيها الزرقاوين، علّني  
أكتشف ما يضممرانه، فإذا بهما يكتظّان دمعا، لكنّها لم تقو على البوح  
بعبرة، بل غالبتُ ذلك بابتسامة جدّ مفتعلة. قلتُ:

- أشتكين من أمر ما؟

واستلّتُ الحقنة من ساعدي بمهارة قاتل يستلُّ مديته من لحم  
الضحية. انتصبْتُ واقفاً، فانتصبْتُ أمامي أطياف ورؤى، بالكاد  
تمالكْتُ نفسي، واستطاع هذا الجسد العليل أن يحملني. وقفتُ أمامها  
في انتظار أن تخذلها العبرة، لكنّها لم تبك بل فرّت إلى عنابي هامسة:

- لا شيء حبيبي، لا شيء.

أحسستُ تلك اللحظات، وهي تشدُّ بأظافرها على القميص بقوة،  
أنَّ أشياء كثيرة توجعها، وأنَّ ضميرها يعاتبها.. ولا أدري لماذا وكيف  
شعرتُ في تلك الأثناء أنَّها تبتعد كلما شدَّت عليَّ بقوة. أغمضتُ عينيَّ  
ورأيتها في فقاعة صابون كبيرة جدًّا تغازلها الرياح. تعلو الفقاعة أكثر  
فأكثر، وفي لحظة مجنونة تنفجر وتختفي، وتختفي جوليا أيضًا، ولا  
يبقى في الصورة سوى ذلك الطفل الشقي الذي كنته، يحرك بحماس  
رغوة الصابون بالجبعة القصبيَّة وينفخ فيها، فإذا هي فقاعات كثيرة  
وجوليات كثيرة، لكنَّها كلَّها كانت سريعة الانفجار، سريعة الزوال.

وفضَّ عناقنا نقرَّ خفيفٌ على الباب، اتَّجهتُ صوبه بخطى  
متثاقلة. فتحتُ الباب، فطالعني وجه حميد الوديع. كان يحمل في يده  
برقيَّة صفراء.

- صباح الخير سي مراد.

- صباح الخير، كيف الحال؟

- الحمد لله.

ثم مدَّ لي البرقيَّة، مردفًا:

- وجدتُ هذه البرقيَّة قرب الباب، وعليها اسمك.. لا شكَّ أنَّها  
تخصُّك.

وكمَن يتلقَّف طردًا ملغومًا، تلقَّفتها.

- شكرًا، حميد.

- لا شكر على واجب.. إلى اللقاء.

- إلى اللقاء.

استغريت من أمر هذه الرسالة، لأنَّها لم تكن تحتوى على أيِّ

عنوان، سواء عنوان المرسل أو المستقبل، ممّا يعني أنّ صاحبها أوصلها بنفسه إلى باب الفندق، كان اسمي وحده مترامياً على ظهر البرقيّة بخطّ رديء، وكأنّه كُتب بانفعال، وبانفعال كنتُ أمزّق الطرف العلويّ للبرقيّة، ثمّ سحبتُ الورقة البيضاء وفتحتها. كانت البسمة أوّل ما واجهني، كُتبتْ بخطّ كوفي غليظ على صدر الورقة، اتّجه بصري بعدها وبشكل عفوي إلى رأس الورقة، فإذا الرعشة تداهمني مثلما داهمتني العبارة: «الجبهة السلفيّة الإسلاميّة...».

## (٧)

لم تقل الرسالة شيئاً جديداً . .

قالت «سنقتلك»، وإن بطريقة أكثر التواء وعجرفة . . حين اقتربت جوليا دسست الرسالة بحركة خفية في جيبى .

– ما الأمر؟ أرى وجهك ممتعاً!

– لا . . لا شيء، إنه التعب والمرض فقط .

وأغلقت الباب بإحكام، وأنا أتخيلهم خلفه بسواطيرهم المضرجة بالحزن والدم . . رأيت عيونهم التي تشتهي الدماء، وخفت للحظات أن يأخذني سيف ماكر غيلة، لا . . لا يجب أن يتسلل الخوف إلى قلبي . فالخوف هزيمة إن لم نقل إنه صورة مصغرة للموت .

والتجأنا إلى السرير، وحاولت أن أنسى ما خطته في القلب من جراح جديدة . أعرف الآن، بعد هذه الرسالة، أن عيونهم تحصى خطواتي ببراعة، وأكاد أجزم أنهم يرددون الآن «الزانية والزاني . .» . أيّ ذنب اقترفته ليتبعني هؤلاء إلى هنا، إلى قبلة حنيني وموطن

أحزاني. جوليا كانت تجلسُ على حافة السرير، وقد انزاحت الفوطة الوردية على فخذي فتوسّدتُ، في حين شرعت هي تداعب شعري بأصابعها القمحيّة الرقيقة، وفي غمرة الرؤى والخيالات التي كانت تطوفُ بي، وربّما بسبب الوضعيّة التي اتخذتها على السرير وأنا أتوسّد فخذ جوليا، انبثقتُ صورة «حياة» التي تعودتُ في ما مضى أن تفرشَ لي فخذي لأتوسّده، اندفعتُ ذكرياتها كأنّها لم تغب ولا تلاشتُ في صخب الحياة، قلت لجوليا باضطراب واضح، وفي لحظة أشبه بالهذيان:

- هل تعرفين حياة؟

وقهقهتُ مجيبة:

- أنا؟ أنا أعرف كلّ شيء، ولا أعرف شيئاً في الوقت نفسه!

نزلتُ عليّ عبارتها قاسية جداً. نعم، الآن أنتِ تعرفين كلّ شيء ما دام بحوزتكِ ما بُحثُ به لبنهاشم. قلت متجاوزاً، ربّما لأنّه كان يسري داخلي حنين مبهم لحياة وذكرياتهما:

- إذن، سأطلعك على فصول من حكايتها، أو بالضبط حكايتي معها.

- تفضّل.

ونزلتُ بشفتيها على رأسي، وقبلتني بوّله موجه:

- حياة هذه، برقتُ صورتها للتوّ في الذاكرة، لأنّها كانت أوّل امرأة أتوسّدُ فخذي تماماً، كما أتوسّدُ فخذك الآن.. كانت متعبة كأوراق الخريف وبريئة كإناث العصافير. تبّاً.. لم أجد الخيط الأوّل للحكاية!

- لنَبْطُ الأمر.. ما الذي كان يجمعكما؟  
وقلتُ باندفاع:

- السرير، هو أوّل ما وَحَدنا، كنتُ في أوج المراهقة حين جرّتي رغباتي إلى وكر بغاء، لم أطرق الباب المفتوح على مصراعيه. لا أنكر يا جميلتي أنّي كنتُ ممتلئًا بتوجّس مشوب بالخوف، اخترقتُ بتهوّر حلّكة المدخل الذي اقتادني إلى البهو المضيء، وأنا أضع يدي على العازل الطَّبِّي الذي ينام كفضيحة في الجيب، إلى أن استوقفتني كلمات سيّدة عجوز:

- يا أنت.. ماذا تريد؟

وأخذتُ نَفْسًا عميقًا من السيجارة الرخيصة التي تموتُ بين أصابعها، أجبتُها بمكر:

- أنتِ أدري بما أريد..

وانفجرتُ ضاحكة، كأنّ عبارتي وقعتُ في نفسها موقعًا حسنًا، فأجابت ساخرة:

- إذن، أنت تريدني أنا؟!

فتطلّعتُ إليها باستغراب ممزوج بالاشمئزاز، فأردفتُ ضاحكة:

- لا تخف أيّها الرجل الصغير، أَلديك مال؟

ناولتها النقود، وأومأت لي بسبّابتها إلى باب موصل قائلة:

- هناك..

وهناك، تعرّفتُ على حياة، بعد أن دخلتُ هاجمتني عتمة المكان، لم تكن في تلك الغرفة من إضاءة سوى تلك الشمعة اليتيمة التي تبكي وتحترق في صمت، وقرب الشمعة على سرير أبيض صغير

كان يتمدد جسد ذهبي، هو جسد حياة. اقتربت بخطي مضطربة من السرير إلى أن جلستُ على طرفه، فالتفتُ إليَّ. . كان واضحًا أنها تكبرني ببضع سنوات، لكن كان في تفاصيل وجهها شيء ما شدني إليها، صاحتُ بتذمر:

- ماذا تنتظر؟ أنتظر أن أخلع عنك سروالك؟ أنتظر أن أفعل؟

ولم أستجب ولم أجبها حتى. . بل جعلتُ أتأملُ وجهها الداوي بهدوء، تنقُضُ عليه من حين لآخر ضحكات العجوز التي تنفجر صاحبة ومجلجلة، ثم تنحصر بسرعة. مدّت أصابعها تفكُّ أزرار السروال فاستوقفتها واضعًا يدي على يدها. تأملتُ وجهها للحظات، كانت جميلة جدًا وحزينة، بل وكان الحزن يلبس وجهها، شعرتُ أنها لا تستحقُّ ذلك المكان، وأحسستُ كذلك أنني مذنب. كان وجهها يقول ذلك، دون أن تفصح عنه. مددتُ يديَّ إلى ملامحها وداعبتها برقة، خبرتها بأنها غير ملزمة بتلبية رغباتي، وأتني لن أطالب بالمال الذي دفعتُ. حاولتُ أن أستدرج حزنها بكلماتي، وشرعتُ هي بخلع ثيابي واستدراجي إلى الجنس. . في قمة اللذة وأنا أنزل على جسدها بعنفوان مبتدئ في الجنس، بكث.

أما وأنا أرتدي ثيابي، فقد قفزتُ إليَّ وعانقتني بحرارة، قائلة:

- أرجوك. . زُرني مرّة أخرى، عد ولن تدفع فلسًا، لستُ أدري لماذا أنت دون غيرك. أحسُّ أنني بحاجة إليك.

ولم أفهم سرَّ تعلُّقها بي ولا سرَّ بكائها إلّا في ما بعد. . حين خرجتُ، شعرتُ بقوة غامضة تعيدني إليها. أكان الحبُّ أم التعاطف؟ لا أعرف. . وضحكتُ - كلُّ ما أعرفه أنني أخدمتُ يدي في الجيب لأجد العازل الذكري، وقد نسيْتُ استعماله.

وضحكت جوليا قائلة:

- وماذا بعد ذلك؟

- لا شيء، جمعتنا الأحزان. كنتُ آخذ من وقتها الليلي ما يسعفُ لأتوسّد فخذها وأستثير أحزانها، إلى أن تبلّل وجهي مدامعها ونذوب فيما تبقى لنا من الوقتِ جنسًا وحنينًا إلى أشياء، يعرفها كلُّ واحد منا على حدة..

- هل أحببتها؟

- نسيًا، العجيب أنني لم أرها إلا من خلال ما تسمح به الشمعة الذابلة، لذلك لم أحفظ من ملامحها سوى حزنها وذبولها.

- وكيف كان فراقكما إذن؟

- لم يحدث بيننا فراق بالمعنى الحقيقي، اختفتُ هي بين عشية وضحاها. بحثتُ عنها طويلاً في شوارع تلك المدينة المزبلة، في أزقتها ومقاهيها وحاناتها، حتى دور البغايا طرقتُ بابها دارًا تلو دار، إلى أن يئستُ وتأكدتُ بأنّ ثقبًا من ثقوب الحياة السوداء قد امتصّها، وبقيتُ ربّما لسنوات قليلة أعيش على أمل أن تجمعني بها صدفة مجنونة!!

- ألا زلتَ تنتظرها؟

- الآن؟.. لا. لكنّها لا زالت تبرزُ من بين شقوق الذاكرة كلّما توسّدتُ فخذ امرأة أو تطلّعتُ إلى شمعة وحيدة. حين كبرتُ قليلاً استنتجتُ أنّ حياة تختلف عن أغلب النساء في بلدي، وأنّهنَّ لا يختلفن كثيرًا عن شمعة حياة، هنَّ أيضًا يمتنّ في صمت وتدرّج حين تكتنّظ بهنّ الأنوثة وتحترق فجأة، وتنسلخ عنهنّ شراة الجسد، ولا

يبقى منهم سوى أنوثة ضامرة يسارعن إلى تكفينها في الجلابيب  
الفضفاضة .

وتطلعتُ إلى جوليا، ومددتُ يدي إلى الفوطة وفككتُ عقدتها،  
فسقطت بسهولة، وواجهني ناهداها المستفزان، أزاحتُ رأسي عن  
فخذها وانتصبتُ واقفة، وعارية إلّا من أسراري وأحزانها . . تمشتُ في  
الغرفة عارية، وهي تضحك وتقلّد عارضات الأزياء، لا شيء يقلق  
صحوها، حتى نظراتي لا تقلقها، وأنا أدقّق في تفاصيل جسدها من  
انشاءات ردفها إلى ثروة نهديها، أخذتُ زجاجة الفودكا وجعلتُ  
تكرعها، لستُ أدري لماذا كدتُ أجنّ وأنا أواجه هذا الجسد الماجن  
الخائن . . نعم، لأنه فعلاً خائني ولم يبع بسرّ صاحبه .

ونهضتُ ورغباتي تفور وتجتاح أوردتي فتملاها دمًا، وأنا أفضُّ  
عني كلّ زرّ، كلّ شيء يمكن أن يلجم جسدي أو يحول دوني ودونها .  
وكالعنقاء انبعثتُ من رماد المرض . . أمّا هي، وقد رأتني مقبلاً، فقد  
وضعت الزجاجة وواجهتني بكلّ ما في جسدها من طيش، ومدّت  
أصابعها إلى أنفي مداعبة، فكسرتني . .

- أحبك يا حصاني .

الآن، أعرف أنها تعرفُ عن خولة الشيء الكثير، هذه المداعبة  
والعبارة التي تردفها ليست مصادفة، وأن ألتقيها في المطار وهي تضعُ  
عطر خولة المفضل ليس مصادفة كذلك . . قبّلتها، حاصرتها بكلّ ما فيّ  
من عطش إلى الجسد، فتراجعتُ خطواتها فتعثّرت بالطاولة، ثم ما  
انفكّتُ أن تمددتُ فوقها، حتى إنّ زجاجة الفودكا سقطت لكنها لم  
تنكسر، انفرجت شفتاها ثم انكمشت مذعورة . . سحبتها إلّا أنها  
التصقت بأرضيّة الغرفة، فتمددتُ فوقها وأنا أتخيّلهم في مكان ما قريب

يردّون: «واقتلوا الزانية والزاني».

والتحمنا، كانت تتأوّه بعمق ووجع، وكان حزني يكتظّ بي، فأجتاحتها وتجتاحني زرقه عينيها. في ذروة الشهوة، في تلك اللحظات التي يصاب فيها الجسد والروح باختلال موقّت، تمثّيتُ لو أنّني أسحق خرومها. في لحظات الاحتراق تلك، قفزتُ خولة من بين ثقوب الذاكرة. كانت عارية، فبدا جسدها بتماسكه واتّساقه حلمًا مستحيلًا..

جوليا تملأ الغرفة بفحيحها المجنون وتأوّهاتها، وتشدّ يديها على ذراعِي، وتتأمّل بعينين نصف مغمضتين وجهي الذي ينزّ عرقًا. كنتُ غائبًا أكابد تلك السعادة الطارئة، تلك اللذة القارصة التي تأسر الجسد إلى أن تقطّرت حمرة غامضة على نهدِها، قطرة تعقبها أخرى، وأنا مشدوه لا أبالي لصوت جوليا وهي تستوقفني، فقد كنتُ أقرب إلى الحلم أو الهلوسة منّي إلى الواقع، ولم أكن أملك من أمري سوى تقفّي هذا الجنون العذب، ليتني أقتلكِ جنسًا.. آه ليتني أفعل!!

كنتُ مأخوذًا بسحر الأحمر الذي يعلو صدرها ويتضجّ شئنا فشيئًا، وبالكاد سمعتها حين صاحت:

- مراد.. أنتَ تنزف.

وكنْتُ أضرب كصاعقة جدرانها اللحميّة، وأتذكّر خولة، خولة...

في كلّ ضربة، كنتُ أسمع اسم خولة يتردّد داخلي..

خولة..

خولة..

إلى أن ذبلتُ جذوة الشهوة. وقتها كانت القطرات الحمراء مثلي

تنسحب من جسدها، قطرة أسفل الصدر وأخرى قرب السرة وثالثة فوق العانة و... .

وسمعتُ نقرًا على الباب كان نقرًا مستفزًا ومخربًا إلى درجة لا تطاق.. .

مرحبًا، مرحبًا.. . جئتم لقتلي! إذن فلتفعلوا يا أعداء الحياة، سأستسلم لموتي دون أدنى مقاومة.. . دقائق أخرى ونحن عاريان على بساط من الشهوة، انسحبْتُ بسرعة إلى الحمام. حافي القلب كنتُ، وكانت التناقضات تتعلني، رشقْتُ وجهي بالماء طويلاً دون أن أبالي بالطرق المتكرر على الباب، وبالكاد كبحتُ لجام التزيف.. .

استيقظ الطرق على الباب مرّة أخرى، ربّما هم بكامل وحشيتهم ينتظرون أن أنزف أكثر، ارتديتُ ملابسِي، بينما انسحبْتُ جوليا إلى الحمام لتنظف (سيفها) جسدها ممّا علق به من دمي.

وأنا أتَهوّر وأضع يدي على قبضة الباب، تخيلتُ أشكال الموت التي قد تكون على موعد معي خلف الباب، رصاصة باردة أو طعنة محرقة أو خطف وصلب لا فرق!! لكنني في اللحظات الأخيرة، وأنا أسحب الباب، قلتُ في سرّي: لن يكون الموت بالبساطة التي تجعلني أتوقّعه.

وانفتح الباب على خفقة قلب قويّة.. .

ماذا تبقى منك يا أوداد؟ خفقات قلب قليلة مثل هذه، وتموت.. . تموت.

\* \* \*

وجدتُ نضال خلف الباب. بعد أن يثسّث من الطرق جالسة على

حقيبتها، ربّما هي مثل جوليا تحاول قرصنة الذاكرة..

- أعرف أنّ وجودي هنا يقلقك، لكن صدّقني ولو لآخر مرّة، لا أجد لحياتي من معنى الآن. كلُّ الأشياء الجميلة تبخّرث إلّا ذكراك، فلا تحرمني منك.. أرجوك، سأرضى منك بالقليل.

- نضال، لقد جئتُ إلى إغرم هاربًا من وجع الذاكرة، جئتُ لأرتاح فإذا الذكريات تتبعني إلى هنا، أرجوك استوعبي قدري. أنا أموّتُ تدريجيًا، وإن لم تحملك الرأفة على ذلك، فقدّري خطورة ما تقومين به.

- دعك منّي، وقل لي ما الذي يؤلمك يا مراد، لطالما كنت غامضًا.

- لا.. لا يهم.. الأهم أنّي أتهشّم شيئًا فشيئًا.

- على أيّ حال..

وتراجعتُ خطوات للوراء، كانت ذابلة العينين، مهيضة الجناح، ثم أردفتُ:

- كما قلتُ، سأرضى بالقليل، ورأيثك تكفي.. لقد حجزتُ لنفسي غرفة في الفندق وسأملكُ فيها أيامًا قليلة، أظنّ أنّ الأمر لن يزعجك في شيء.

واستدارتُ.. حملتُ حقيبتها، ثم بدأتُ تصعد السلالم بتثاقل، ربّما لأنّ الحقيقة كانت ثقيلة، وربّما لأنّها كانت تنتظر أن أستوقفها. كنتُ مأخوذًا بتأمّل ردفها المكتنزين قبل أن تستدير بشكل مفاجئ، وتقول:

- مراد.. أنا آسفة على الإزعاج.

وأغلقت الباب، أحسست أنني كنتُ فظًا معها أكثر مما يجب، هرولتُ صوب بذلة أخرى ارتديتها قبل أن تخرج جوليا من الحمام، ثم أخذتُ مذكرة خولة وهربتُ إلى إغرم. حين كنتُ أنزل سلالم الفندق، فتحتُ المذكرة وشممتُها بعمق، كأنني أقتفي فيها روائح خولة.

أنا آسف، لأنني تركتكِ تتقدمين إلى الموت، فوحدهم العشاق - كما قال درويش - يحسبون المياه مرايا ويتحرون.

خولة! أنا وحيد في مكان ما، كنتُ أعتقد أنني سأستشعر فيه الوحدة، على الرغم من أنني خلّفتُ في الفندق سيّدتين في غاية الجمال، فالوحدة ليستُ دائمًا ذلك الإحساس القارص الذي ينتابنا حين ننعزل عن الآخرين، أو تجبرنا الحياة على ذلك! أنا أتأبطُ مذكرتك التي أغمدتُها فيّ قبل أن ترحلي، المذكرة التي أورثتني حينًا لا ينطفئ إليك.

خولة! يقول أعداء الحياة بأنهم سيقتلونني، فمتى سيفعلون؟ أنا متأكد أنهم هنا في مكان ما يرصدون خطواتي، وربما يشحذون سيوفهم أو يلتمعون مسدّساتهم، ويصيحون بدونكيشوتية: حيّ على الجهاد.

تعبي الآن تضخّم أكثر ممّا ينبغي، وأحزاني لا تُطاق.. وأظنّ أن الوقت قد حان لتعرفي سرّاً طالما كنتُ أضمره أيتها الشهيدة: أنا لقيط، أنا (ولد الحرام). هذه الحقيقة التي لم أجروّ على إخبارك بها هي أمّ مصائبك كلّها، تمنيتُ في تلك الأيام الجميلة، ونحن متوحدان في سرير واحد، أن أقصّ عليك عمّن ثقبوا قلبي بمساميرهم الغليظة، وأخمدُ بعدها وجهي وأحزاني بين نهديك إلى أن أشفى أو أموت! حبيبتي، إليك حيثُ أنتِ...

أنا حزينٌ كليلة ماطرة، هنا في هذه القرية وجدتُ نفسي أوّل ما

أدركتُ أنني آدمي، سمعْتُهم يقولون عني في ليالي الشتاء الماطرة، حين يجمعهم البرد حول الفرن: قد يكون ابن جنّة، لأنّ البلاد لم تعرف من قبل من رمى بفلذة كبده إلى أرض خلاء. الإنسان لا يولد حين يبصقه رحم إلى الحياة، بل يولد حين يقوى على التذكّر، ويموت حين يبالغ في ذلك.

كبرتُ كوعليّ بين أجراف الجبل الحادّة، حرّاً طليقاً، ولهذا السبب أطلقتُ عليّ القرية اسم أوداد، والتي تعني «الوعل» بالعربيّة.. لكنّهم ظلّوا يتوجّسون منّي خيفة، بل وحسبوني لعنة سلّطت عليهم. لذلك أكثروا من تقديم الذبائح لـ «رجال البلاد»، لكن رجال البلاد كانوا يحبّونني فقط، لأنني كنتُ أشعل الشمع ليلاً حول قبورهم، وأشتري بالقطع النقديّة الصفراء التي يخلّفها الزوّار حول قبورهم، أشتري الحلوى وأطرحها حول أضرحتهم علّهم يأكلونها.

رجال البلاد كانوا جميلين في صمتهم المهيّب، وكنتُ أحسُّ أنّهم يحبّونني، لأنني أكسر الصمت المطبق على مزاراتهم بكلماتي وخربشاتي على جنبات قبورهم، وكان منتهى حلمي وقتها أن أقول «أمّي» لامرأة تستحقّها، كنت أجلس الساعات الطوال في الطرق التي يسلكها الوافدون إلى إغرم، وأطيل النظر في أعينهم، لعلّ أحدهم يلتفتُ إلى ملامحي أو يسألني من أنت؟ لكنّهم كانوا يمرّون والصمت اليابس كلعاء الشجر يغلف وجوههم.

هكذا، كنتُ أكبرُ شيئاً فشيئاً، وحلمي البسيط يموتُ يوماً بعد يوم إلى أن اضمحلّ واختفى يوم حاول النهر اغتيالي.

لا شكّ أنّك تبسّاءلين، وما نفعُ هذا الكلام؟ سأجيبك، كلّ ما أردتُ هو أن أحيطك علماً بأنني ولدتُ خاسراً، وما حياتي إلّا

استمرار بشع لهذه الخسارة.. أما أنا، فلن أسألك لماذا انتحرت؟  
فهذا سؤال بليد، كلانا يعلم لماذا انتحرت، لكنني سأسألك لو لم  
تنتحري ما الاسم الذي كنت ستختارينه لطفلنا، الذي ابتلعه الموت في  
بطنك؟ قلني. فانا أسمع كركاتك الساخرة تنبعث من مكان ما. أما  
زلت حين يعضك الحب في سرتك - كما تقولين عادة - تداعبين أنفي  
وتصيحين: أحبك يا حصاني، أحبك.

اخترقت المضيق الذي يشطر الجبل إلى نصفين، مررت بضريح  
سيدي عيسى، وأطلت التأمل في قلعة الرومي التي تهدمت أجزاء كثيرة  
منها، وصحت بلامبالاة:

- ها أنا جئتكم، فافعلوها وخلصوني!

فلم يجبني سوى الصدى الذي تردّد بقوة مجنونة..

- ها أنا أسلمكم جسدي..

وكنّت أنتظر رصاصة لا تخطئ، لكن بلا فائدة، فالموت دائماً  
مخاتل يأتي من حيث لا ندري. وانتهيت إلى «أغبالو ناتامجا»، وتعني  
بالعربية عين «تامجا». لم تتغير هذه العين أيضاً، لا تزال كما عهدتها  
تصب في بركة مائية قريبة، كانت هذه العين مسبح القرية في ما مضى،  
حتى نساء القرية كنّ يغتسلن فيها، ورغم أنّهنّ كنّ يشدّدن الحراسة  
حين يقمن بذلك، إلّا أنّني كنت، ببراءتي وخبرتي العميقة بمسالك  
الجبل، أنسلل إلى حيث لا يرينني، وأراقبهنّ ببراءة مشوبة بكثير من  
الفضول.. أراقب نهودهنّ الممتلئة وأردافهنّ المكتنزة وهنّ يضحكن  
ويتغامزنّ، وفي كثير من الأحيان يتراشقن بالماء. أذكر جيّداً هذه  
الصور، ربّما لأنّها كبرت معي، أذكرها بلذّة موجعة.

تطلّعت إلى السماء. كان قرص الشمس يرقص في كبدها، اقتربت

من البركة، انحنيتُ وأخذتُ القليل من الماء بيدي، كان باردًا جدًّا .  
أما ذاكرتي، فقد كانت تهتزُّ أمام البركة وترتجف . فككْتُ بحمقٍ أضرار  
القميمص وتجرّدتُ من ملابسي، ثم أغرقتُ قدميَّ في الماء، وجعلتُ  
أتقدّم شيئًا فشيئًا، كما فعلتُ قديمًا حين حاولتُ اجتيازَ السيل  
فابتلني . في كلّ خطوة، كنتُ أغرقُ أكثر، حين بلغ الماء مني السرة،  
داهمتني رعشة غريبة وتعالَت أنفاسي، كان إحساسًا مثيرًا يحفل  
باحتمالات موت خرافيٍّ . وحين انتهيتُ إلى قلبِ البركة، أغرقتُ رأسي  
في الماء وأطبقتُ جفنيَّ مستسلمًا لذلك العدد الكبير من الأفكار، التي  
كان يضيئُ بها ذهني . استسلمتُ بعد ذلك للماء، حين طفوتُ وكان  
وجهي غارقًا . طفتُ كذلك على سطح الذاكرة خصلاتُ العجوز،  
كانت حمراء كزغب الذرة، تذكّرتُ وجهها اليابس الذي خرّبه  
التجاعيد، فحاولتُ أن أفرّ من هذه الصورة عندما سحبْتُ رأسي من  
الماء، تطلّعتُ إلى الأعلى، فلم أر سوى الجبل كما ألفتُه شامخًا  
صامتًا .

أغرقتُ رأسي في الماء مرّةً أخرى، أغمضتُ عينيَّ بقوة،  
فداهمتني خيالات أخرى مفزعة، تخيلتهم يتحلّقون كاللقالق حول  
البركة، تخيلتُ زعيمهم يصيح بالجلاد:

– قلْ باسم الله وتوكّل عليه . .

فيهزُّ بندقيّته، يحشوها ثم يصوّبها نحو الظهر . انكمش جسدي،  
تخيّلْتُ الدماء تنفجر من ظهري، وتفجّر تلك الندوب التي خطّتها  
قضبان صفيّة الملتهبة، ثم رأيتُ دمائي وهي تتشرّ كفضيحة في البركة،  
وأنا أطفو جثّة هامدة . استبدّت بي قشعريرة مريّة، كأنّي أعانق جثّة لا  
وجه لها . تذكّرتُ مقولة لسْتُ أدري أين قرأتها: «كدتُ أموتُ حين  
نسيتُ أن أتنفّس» .

سمعتُ خشخشة خارج البركة، أو تهيأً لي ذلك! صوتٌ أقرب إلى وقع حوافر حصان يقترب، هداً الصوت، فعمَّ المكان صمْتُ بارد. المخيف في الصمِّ دائماً هو أنه لا بدّ وأن يسلمك إلى صوت، قد لا يكون مرغوباً فيه. وكدتُ أموتُ، لكنني تذكّرتُ..

تذكّرتُ أن أتَنَفَّسَ، فاندفعتُ من البركة بقوةٍ وصخب... .

أحسستُ، في تلك اللحظة واللحظات التي تلتها، أنني أعيش حلمًا هو نفسه الإحساس الذي داهمني مرارًا في المنام، والذي همس لي في السرّ أنّ الأمر لا يعدو أن يكون مجرد حلم. أوّل الأمر، رأيتُ ساقني حصان، كانا يرقصان بشكل ما، أو كأنهما يراوغان شيئًا ما خفيًا، وتملّكني الذهول أمام تلك القدم العاجية الحافية التي تتدلى، تتبعتها فأسلمتني إلى الثوب الأسود الذي ينسدُّ إلى حدود الركبة، ودون صبر أو انتظار تطلّعتُ إلى وجهها.

وكما لو أنّها تتأمل الوعول في أعالي الجبال، كانت تتطلّع إلى الأعلى وهي تشدّ بكلتا يديها على صهوة الحصان. لهنيئات توقّف الزمن أو كاد. توقّف كلّ شيء.. هنيئات قليلة من الهدوء والصمِّ المطبق، خفتُ أن تكون مجرد هلوسة أو وهم، حتى إنني في تلك اللحظات بدأتُ أشكُّ إن كنتُ مستيقظًا أم لا، لولا أنني تذكّرتُ أنّ أحلامي كأيامي لا تكون سعيدة، وتمنيتُ لو يطول بنا الحال على ما نحن عليه، كانت تهزُّ رأسها صوب رأس الجبل بشموخ، وكان شعرها الأسود الكثيف يتدلى على سواد الفستان، ويتطاير بفعل الرياح الهادئة ولا ينفكُّ يعود إلى الفستان، أمّا جيدها الماسي، فقد كان آية في الجمال وهي تتطلّع إلى الأعلى بأنفها الصغير الدقيق المرتفع قليلاً بكبرياء، كانت عيناها واسعتين كبحيرتين يسّجهما الكحل ويشعّ، يهاجمني بعنف وضراوة، أنا الذي قبل أن تفرّج الحرب طولها

استسلمت، كلُّ ما فيها كان يُجلُّ عن الوصف، وكاد جمالها يفتك بي، أنا المشدوه أمامها لا أقوى لا على الحركة ولا على الكلام.

السواد يحفُّها من كلِّ جانب.. حصان شامخ أسود، وستان أنيق أسود، وكحل مشعُّ أسود، وشعر حريري بالغ في السواد.. وهي تبدو من خلال كلِّ هذا السواد ملكة مهيبة، تضافرت فيها كلُّ أسباب الجمال منقطع النظير. قلتُ - ربّما أستفزّها على الكلام:

- ما أروعك!!

التفتت، لكنّها ظلّت صامتة تتأملني، تتأملُ صدري العاري، حين التقت نظراتنا لأوّل مرّة، أحسستُ أنّها مثل الحياة هزمتني قبل البداية، شدّت بعد هذه النظرة الخاطفة على لجام الحصان، فاستدار بعفوية، صحتُ بها:

- انتظري! أريد أن أحدثك وحسب.

ولم يتوقّف الحصان، ولم تلتفت قطّ. تسارعت خطواته التي كانت تدكُّ صخور الوادي الصمّاء، ازدحمت في رأسي آلاف الأفكار المجنونة، فكّرتُ أن أتبعها عارياً إلى أن أجدها أو أموت دون ذلك، وفي الأخير ضربتُ ماء البركة بقوة، وأنا أصبح بلا أمل:

- انتظري..

إلا أنّها كانت تبتعد إلى أن امتصّها الفجّ. كانت متوحّشة الجمال.. تُرى من تكون؟ هذا السؤال يقتات من أعصابي، يحفر داخلي، في جمالها العاصف شيء ملغز، غامض، ساحر، فاتن وقاس، كأني رأيتهُ، فيما مضى في حلم أو في حياة غير هذه! فكّرتُ، حتى وجود فتاة تمتطي صهوة حصان في مكان كهذا، وبزيّ كذلك

الزّي، يبدو بالغ الغرابة، إذ إنّ تقاليد القرية صارمة فيما يخصّ الإناث، ولا أظنّها تقبلُ مثل هذا الأمر. أضف إلى ذلك، أنّ أغلب سكّان القرية إن لم نقل جلّهم، يكّدون من أجل توفير لقمة عيشهم، وأبعد الظنّ أن يملك أحدهم حصاناً مثل ذلك الحصان الذي كانت تمتطيه.

خرجتُ من البركة بخطوات متثاقلة، وليس في البال سوى هذه التي كسرتُ عزلتي بجمالها. وارتسمتُ أمامي لهنيئات لوحة كاملة، ومضتُ بعد أن خلّفتُ داخلي زلازل لا تهدأ وبراكين لا تخدم. رحلتُ وتركتُ للشوق وللأسئلة القاسية أن تخزّني من كلّ جانب.

في طريق العودة، حزنْتُ لأمرين يخصّانها.. الأمر الأوّل، أنّ عينيّ لم ترتّبوا من جمالها بما يكفي، الأمر الذي يجعلني أعيد تركيب تلك اللحظات في خيالي دون أن أفلح في ذلك. أمّا الأمر الثاني، فهو أنّ هناك احتمالاً قاسياً: ألا أراها مجدّداً، وأبقى زمناً قد يطولُ مسكوناً بها وبهذه الصدفة الغريبة. ولأنّني لا أعرف اسمها من جهة، ولأنّ ملامحها تقول - بما لا يدع حيزاً للشكّ - أنّها أمازيغيّة، فقد فكّرتُ أن أسمّيها باسم إحدى الملكات الأمازيغيّة التي انقرضتْ منذ زمن غابر، أن أسمّيها «نوميديا»، نعم نوميديا. هذه الملكة التي لا أدري أين نسيّتْ مملكتها.. عودي، ففي القلب لك مملكة جديدة. ردّدتُ الاسم في فمي وفرحتُ به، وصرختُ ملء السماء باسمها فيخفق باسمها الصدى. نوميديا ولّع ووجع آخر لن يغادرني إلّا عندما تعود.. «لا بدّ أن تعود».

## (٨)

يتلوى دخان سيجارة ويعلو، كنتُ أراقبه باهتمام بالغ، ويتداخل  
ويغادرني، ثم تجرّه النسائم إلى حيث لا أدري..  
والليل...

هذا المتغطرسُ الجبَّارُ! كيف يجثمُ بكلِّ سواده على صدرٍ إغرم  
دون أن تلعه أو تنتفضُ، في الوقتِ الذي يقاومه آيت مرغاد هناك في  
أعالي الجبال، يزعجون هدوءه بتلك النيران التي يوقدونها حول  
خيمهم.. بقعٌ نارية فوق الجبل هي كلُّ أثرهم في هذه الحياة، التي  
تعاملهم بحياد تام، فلا هي تتدخلُ في رحلة شتائهم وصيفهم، ولا هم  
يطمعون في أكثر من ذلك.

اقتحمتُ جوليا عليّ وحدتي في الشرفة، طوّقتُ ظهري، فاستدرتُ  
قليلاً، وأطلتُ التأمل في وجهها المضرج بالطفولة والدسيسة، قالت:  
- أحبك.

وتشبّثتُ بي كطفلة، وأسندتُ رأسها على ظهري. تذكّرتُ لحظتها

ملكة جبل عيَّاش، تذكَّرتُ حصانها الفولاذي الضخم وغرَّته البيضاء  
الناصعة، وأجبتُ:

- وأنا أيضًا أحبك.

- حبيبي، ما سرُّ تلك النقاط الضوئية هناك في الأفق؟

- إنَّهم غجر الشرق، وتلك نيران تضيء ليلهم وتبعدُ الذئابَّ  
المحوِّمة حول قطعانهم. يعيشون حياتهم رحلة، ويرفضون الانغراس  
كوتد في مكان ما، فَهُمْ يرون أنَّ الأرض كلُّ الأرض ملك الجميع،  
وأنَّهم أحرار في الدنيا. هم مثلنا يفرحون ويحزنون ويتعبون،  
ويمارسون الجنس حين تخزَّهم الرغبة في ذلك، لكنَّ أهمَّ ما يميِّزهم  
هو ذلك الإيمان العميق بأنَّهم يعيشون تحت السماء وفوق الأرض  
أحرارًا، وأنَّ ما دون ذلك وهم باطل.

رستُ يداي على خصر جوليا حين استدرتُ واتَّكأتُ بظهري على  
حائط الشرفة، تأملتُ شعرها الذي يتهادى حين تغازله النسائم الباردة،  
وتطلَّعتُ إلى ملامحها البريئة، فأوجعني تذكُّر خيانتها، وإنَّ كان لي،  
في كونها كاتبة، نوعٌ من السلوى. انحنيتُ وقبلتها بعنفٍ ونزقٍ، ثم  
قلتُ بعد أن فضَّ شيء ما خفيَّ عناقنا:

- مراد، أعودُ وأقول لك مرَّةً أخرى لماذا تتحاشى الحديث عن  
نفسك؟ أنا أكاد أجهلُ من أنت.

هكذا أهرقتُ هذه الكلمات كزيتٍ ساخن على مسمعي، كادتُ  
تخذلني عبرة فاض بها حزني لولا أنَّني تجلَّدتُ، كدتُ أصرخ في  
وجهها الجميل: «وهل هناك أشياء أغفلها التقرير النفسي؟! لكنني  
فضَّلْتُ ألاَّ أتَهوَّر! وحده بنهاشم يعرف مأساتي، وها هو قد فتح  
جرحي لتدخل من بابهِ الواسع جوليا، والحياة وحدها تعرف من

سَيَعْرِفُ بعدها القناطير المقنطرة من الوجد والحزن التي أجراها خلفي،  
قلتُ:

- حسنًا، سيأتي يوم وأخبرك فيه بأشياء حزينة..

ولم تلحّ لمعرفة شيء، وتجاوزت الموضوع حين وضعت كفها  
على جبينها قائلة:

- حرارتك انخفضت، ممّا يعني أنك لست بحاجة إلى دواء  
الليلة..

- نعم، أحسّ أنّ حالتي تتحسن.

وارتعدت فرائصي فجأة، حين سمعت وقع حوافر حصان تكسر  
الصمت الجاثم على المكان. بحلقْتُ طويلاً في العتمة وأنا أتمتم:

- نوميديا... نوميديا.

مرّ الصوت بسرعة وتلاشى، لم أر شيئاً، لكنني أحسستُ بها  
قريبة جداً، بنظرتها الصلبة وجمالها الفتاك. سمعتُ جوليا تقول وهي  
تضغط على ذراعي:

- ماذا قلت؟ نو... مي... دي...!

- لا.. لا شيء.

والتجأت إلى الغرفة مكدوداً، فكّرتُ في الخروج لعلّي أراها،  
لكنني عدلتُ عن الفكرة لأسباب، أهمّها أنّ ليل إغرم غامض  
ومخيف، وأنني وعدتُ نضال حين التقيتها صباحاً في المقهى أن أقدّ  
من ليلي القليل لأجلها..

ناولتني جوليا حبّتين، بعد أن خبرتها بأنّ الألم يكاد يشقّ رأسي،  
قالت إنّهما حبّتان مسكّنتان، تناولتهما وأنا أصبّ الكأس الأولى.

أتذكّر أنّي قلتُ لها، بعد عدد غير قليل من كؤوس الخمر، بأسف:

- سيقتلونني يا حبيبتني، هكذا قالوا..

- متطرفون، ربّما هم أنفسهم قتلة مصطفى..

- ومن مصطفى؟

- مصطفى.. صديق عزيز.

ولا أتذكّرُ ما قلتُ بعد ذلك، لكنني متأكّد من أنّ لهجة جوليا كانت أقرب إلى الاستجواب، ولهذا أعتقد أنّي قلتُ أشياء كثيرة، ربّما هي نفسها تلك التي تنبلج حينًا وتتبدّد أحيانًا في آفاق الذاكرة الأشدّ حلقة!

\*\*\*

استيقظتُ على ألمٍ حادّ يشقُّ رأسي، التفتُّ إلى الساعة المتاخمة للسريّر، كانت تشير إلى السادسة وخمس وأربعين دقيقة. قفزتُ نضال إلى الذاكرة، لقد ابتلعتني دوّامة السكر وحالتُ دون الوفاء بوعد زيارتها البارحة. تدرجْتُ بخطى ثقيلة إلى المرأة، ثم تطلّعتُ إلى وجهي المتعب، غمرته بالماء ثم تطلّعتُ إلى المرأة مرّةً أخرى، تمنيتُ لو أرى نوميديا من خلال المرأة واقفة تتأملني باشتهاء!

ارتديتُ ملابسني، أخذتُ علبة السجائر والولاعة في يد ومذكّرة خولة في اليد الأخرى، ثم خرجتُ إلى الشرفة. صفعني أوّل الأمر رياح باردة، ونفضتُ عنّي ما تبقى فيّ من رغبة في النوم. صباحاتٍ إغرم تبرّد أكثر فأكثر، والصيف بكلّ أوجاعه وتناقضاته بدأ يأفل، لكن ما دام آيت مرغاد في الأعالي فالصيف باق، عندما يرحل الصيف سيرحلون، وسأرحل أنا أيضًا.

إغرم في مثل هذه الأوقات تطرد ليلها، وتوقظ عصافيرها وأناسها وحيواناتها. أشعلتُ سيجارة الصباح الأولى بعصبية، كانت أحزاني تنتفض داخلي كأسراب طيور، تحلّق في سمائي عاليًا، ثم ترميني بحجارة من غربة وتشردم إلى أن تنزف الروح، ويكتظّ بي وبها حنين إلى أشياء لا نعرفها. قرأتُ في مذكرة خولة قولها:

«فاجأني هذا الصباح دوار خفيف في منزل أمي، تقيأت بغزارة وأحسستُ أنّ شيئًا ما يسير على غير ما يرام، استلقيتُ على السرير بعد أن أحسستُ أنّ جسدي لا يسعفني على الوقوف، وفكرتُ في مراد طويلًا، فكرتُ في غيابه الذي طال أكثر ممّا يجب، فحزنتُ».

وقفزتُ على صفحتين، وقرأتُ:

«لم أكن في حاجة إلى زيارة الطبيب لأتأكد أنّي حبلى، لكنني فعلتُ. دبّتُ في أوصالي رعشة غامضة، وأنا أسمع كلمات الطبيب وهي تتناهى إليّ ثقيلة، صحيح أنّي - لسبب ما - فرحتُ أوّل الأمر، لكن سرعان ما انقلبَ هذا الفرح الموقّت والمخاتل إلى هواجس ومخاوف، لا سيّما وأنّ غياب مراد قد طال أكثر من المعتاد».

أغلقتُ المذكرة بانفعال وأسف، وأنا أتمتم سامحيني... سامحيني، ثم وضعتها على الكرسيّ، واتكأتُ على حائط الشرفة كجريح تنام في ظهره عشر رصاصات، ورغم ذلك يتكوّر ويتدرج ولا يفكر إلّا في شيء يسنده، لعلّه بذلك يدفع عنه الموت الذي يبحثُ له عن ضربة قاضية.

أشعلتُ بانفعال سيجارة أخرى، أخذتُ نفسًا عميقًا كأنّي أفكر في

الإجهاز على هذه السيجارة دفعة واحدة، ثم نفثت الدخان، فتلوّى في الفضاء كعفريت ينطلق من فانوسه، تابعتُ خيوطه وهي تعلو وتتداخل وتتزاخم مع بعضها بعضاً إلى أن تتبدّد فجأة وتختفي، تمنّيتُ لو كانت أحزاني كخيوط الدخان هذه، تخرج من فمي وتبدّدها الريح.

وفجأة، هتف صوتُ نضال من مكان ما:

- سيجارة الصباح تحرّر الجسد من تعب النوم..

تطلّعتُ إلى الأعلى، كانت تطلُّ من شرفة غرفتها، أجبْتُ:

- صباح الخير، نضال.

وابتسمتُ. كان شكلها وأنا أطلّع إليها من الأسفل حزيناً بعض الشيء، قالتُ ممازحة:

- «مواعيد عرقوب كانت لك مثلاً..».

- أنا آسف جداً، لستُ أدري كيف غافلني النوم، ربّما لأنني أفرطتُ في الشرب.

- أو أفرطتُ في الجنس!! على أيّ حال، قل لي ألا تزال حبيبتك الشقراء نائمة؟

- جوليا؟ نعم عادة تستيقظ متأخرة.

- إذن لِمَ لا تصعد، سأفتح لك الباب.

- فليكن.

نعم، فليكن لها ما اشتهتُ ما دمْتُ لم أفِ بالوعد، أغلقتُ باب الشرفة بإحكام وسحبْتُ ستائر الغرفة، ربّما سيجعل الأمر جوليا تنام أطول فترة ممكنة. تأملتُ ظهرها العاري، وأخذتني خصلاتها الشقراء المسبلة على شعرها إلى جراحاتي الحديثة، وانسحبتُ.

أما وأنا أصعد سلم الفندق، فقد كنت متأكدًا من أن جلّ ما تريده نضال متّي هو الجنس، لا أدري من أين لهذه الشاعرة المناضلة كلّ هذه الشراهة الجسديّة! فما إن دفعتُ الباب حتى ارتمتُ بجنون على شفتيّ، وذبنا معًا في عناق حارّ وقُبِّل أكثر حرارة. حين تجاوزنا عتبة الباب، دفعته بكعبي فارتطم بقوة ارتعدت لها أضلع نضال، شدّت على عنقي بكلتا يديها وأنا مأخوذٌ بحلاوة غريبة أستشعرها في رأس لسانها. اندفعتُ هائجًا، فتراجعتُ خطواتها إلى الوراء. في غمرة هذا العناق وهذه القبل الملتهبة، كان ماضيها النضالي يصحو داخلي رويدًا رويدًا، تذكّرتُ بأسف جامعة «ظهر المهرّاز» ومواجهتنا الدامية مع النظام والظلام، كم كبرنا وكم ضيعنا في دروب الحياة الأشدّ حلقة وتأزمًا!!

وعلى الرّغم من أنّنا اندفعنا برعونة صوب السرير، إلّا أنّ عناقنا لم يُفَضَّ قطّ. كانت ملابسنا تندفع وتتطايرُ في كلّ اتّجاه إلى أن التحمنا عاريين فوق سريرها، لحظتها أحسستُ أنّي لن أشفى من لوعة الرغبة الجامحة في الجنس إلّا بالموت! الغريب أنّي حتى في تلك اللحظات التي كنتُ أغزو جسدها وأقاوم بنزق ارتفاع ساقها، كنتُ في الوقت ذاته، أحسّ أنّ روحي تنزف بشدّة، وتصحو كلّ أحزاني وتشتبكُ بملامحها التي تفيض باللذّة، وتعانقُ تأوهاتني الداخليّة تأوهاتها الجنسيّة، ويدوب كلّ واحد منّا على حدة في ألمه الخاصّ، حتى ألما في تلك اللحظات لم يكن مشتركًا!! راقبتها وهي تدمدم بكلمات غير واضحة، ثم وهي تتلوّى كقطة، شعرتُ كما لو أنّني إزاء جسد غير جسد نضال التي كنتُ أعرفها، أو بالأحرى كما لو أنّني أضاجع جسدًا بمعزل عن ذاكرته، عن تاريخ صاحبه.. شدّت بكلتا يديها على عنقي ثم سحبني إليها، فطأوعها جسدي الذي أحسسته أبعد ما يكون عني.

في غمرة اللذّة والشهوة التي كان يتقطّر بها المكان، تذكّرتُ ذلك

الجسد الملوكيّ الباذخ، القدم الحافية المنحوتة بإتقان بالغ والساق الناصعة الممتلئة.. تذكّرتُ نوميديا باشتهاء، وانبلجتُ صورتها في الخيال كاملة وطازجة، فصرتُ أعصف بنضال أكثر فأكثر فتتلوّى كأفعى، في لحظة ما شدّت بفخذيها على خصري وكأنها تستوقفني، تأملتُ ملامحها، كانت تتفرّسُ فيّ كذئبة جريحة وانطفأت. وبقيتُ مشتعلًا كنيزك بين سيّدتين، واحدة تعشّشُ في الخيال وتستعصي على الفهم، وأخرى مستنزفة.. في تلك اللحظات التي بدأت تأفلُ فيها الشهوة وتغيب، ويحلُّ محلُّها ندم موجع تحفُّه الأسئلة الصعبة، أحسستُ أنهم يتربّصون بي من مكان قريب، وهم يردّدون «والزاني والزاني...».

\* \* \*

غادرتُ نضال مضرّجًا بالخطيئة، وكان في نسائم إغرم المشحونة بعبق سحري ما يبدّد تعبي الجنسي، فبعد أن أجهزتُ على وجبة فطور كاملة، تدرجّتُ بخطى متثاقلة صوب الحقول، وعجتُ بعدها على الوادي، سلّمتُ في الطريق إلى تامجا على مقام سيدي عيسى وفاءً لشيء ما داخلي، ربّما هي طفولتي، أمّا عندما بلغتُ العين، فقد كان الشرب من زلالها أوّل ما بدر لي، ثم عرجتُ على البركة وجلستُ قربها معللاً نفسي باحتمال أن أرى سيّدة الحصان مرّة أخرى.

وخفتُ، والدقائقُ تستنزف، ألا تكون سوى حلم عائق صحويّ فتشاكلتُ عليّ الأمور، إذ إنّه من غير المعقول أن أجد فتاة على ذلك القدر الكبير من الجمال هنا، بين هذه الجبال المتعبة من وحدتها، حتى شكلها وملابسها وحصانها الشامخ.. كلّ هذه الأشياء لا تقول سوى أمر واحد، إنّها مستحيلة!!

تطلَّعتُ صوبَ الأعالي، وأطلتُ التأمُّلَ في نسرٍ يحومُ حولَ الجبلِ  
 في ثباتٍ لا يفسِّره إلاَّ أحدُ ثلاثةِ أمورٍ: إمَّا أنَّه يقومُ بتمشييطِ منطقته  
 بحثًا عن فريسة، وإمَّا أنَّه مثلي يفتشُ عن أنثاه، وإمَّا أنَّه مثلي يفكرُ في  
 موتٍ شريفٍ! وحدها النسورُ تقدِّرُ شرفَ الحياةِ ولا ترهَّبُ الموتَ،  
 لذلك تختارُ موتها في كثيرٍ من الأحيان قبلَ أن يختارها، ووحدها  
 خولة استفادتُ من النسور. أمَّا عني فقد جُبِنتُ وخانتني الإرادة منذ  
 ذلك اليومِ الشتوي الماطر، الذي وقفتُ فيه على عتباتِ الهاويةِ  
 وانكسرت، وانتصر عليَّ الموتُ، لو فعلتها أيامَ صباي كنتُ أعفيتُ  
 نفسي وغيَّري من تعبِ امتصَّ فيَّ أشياءَ كثيرة، وامتصَّ غيَّري بكثيرٍ من  
 القسوة.

أغمضتُ عينيَّ، واستنشقتُ بعمقِ هواءٍ إغرمَ البارد، الذي يتسرَّبُ  
 بخفَّةٍ إلى الروح. وحدها إغرمَ لا تخون، ووحدها لم تتغيَّر، إغرمَ  
 متكبِّرة كإناثِ الوعولِ وغامضة كنوميديا، لا تبالي بالقادمين إليها ولا  
 بالهاربين منها.. هكذا، تواصلُ لعبتها مع الغرباء، تتورَّطُ في كلِّ شيءٍ  
 وتبقى على الحيادِ في الوقتِ نفسه، رائعة كهديَّة من السماءِ ومستقرَّة  
 ككلمة نابية.. وأغربُ ما فيها أنَّها تجيدُ اصطِيادَ المارقين عن  
 نوااميسها.

صكَّتُ أذنيَّ - وأنا لا أزال مغمضُ العينين - أصواتَ تقترب  
 وتناي، وتركُ للصدى فراغاتٍ يراوغُ فيها ويظللُ مسمعي، إنَّها حوافرُ  
 الحصانِ تدكُّ جنادلَ الوادي وتخرِبطُ فيَّ أشياءَ كثيرة، ولأتني لم أقوَ  
 على مقاومة ذلك الصوتِ ومقاومة الشوقِ كذلك، فتحتُ عينيَّ بلهفةٍ  
 لأجد الحصانَ أمامي، وسيِّدة الحصانِ بطلعتها البهيَّة والمخرَّبة في آن.  
 اقتربَ الحصانُ مِنِّي أكثرَ ممَّا كنتُ أتمنَّى، كانتُ ترتدي هذه  
 المرَّة ثوبًا أبيض، كأنَّها عروسُ فرَّتْ للتو من عرسٍ فُرضَ عليها،

ساقها تظهر من خلال سواد الحصان مملكة من ياسمين، يطوقها خلخال أمازيغيّ أصيل، حافية كانت كما البارحة. لم أنبس ببنت شفة، وأنا أغرق في تفاصيل وجهها مشدوهاً ومستعبداً ومستلباً بها إلى أبعد الحدود! كيف لا والعين لا تشبع من رؤيتها، ولست أدري لماذا ردّدت في سرّي: كأنّها إغرم، كأنّ إغرم تجسّدت فيها ولبست ثوبها البشريّ..

وكانت تلك الثواني القليلة كافية لتهدّم كلّ شيء. أحسست أنّ الزمن تبدّد فجأة، وأنّني غيرُ حقيقيّ أو أنّها كذلك، غير حقيقية، بمعنى أنّني أمامها ألتفتُ إليّ باندهاش كأنّني أكتشف نفسي أو أعيد بناء تاريخي، من زاوية أخرى ووفق نمط مغاير من التفكير. لا هو حلم كامل، ولا هو صحو كامل. هو أمرٌ بين بين! نهضتُ من مكاني ومشيتُ صوب الحصان الذي كان يهزُّ رأسه وينزله، كأنّه يترنّم بإيقاع موسيقيّ لا يسمعه إلّا هو، وكان بين عينيها وعينه شبه واضح، فإضافة إلى الاتساع وطول الأهداب كانت القسوة التي يضمهرها اللون الأسود أهمّ ما يجمعهما. حين وضعتُ يدي على غرّته الحليّة استكان وهدأ، تأملتُ نفسي من خلال عينيه، كنتُ أبدو غريباً كما لو أنّني غيري! داعبته تماماً، كما كانتُ تفعل معي خولة، إلى أن لفحتُ يدي حرارة أنفاسه التي ينفثها منخاراه، شددتُ لجامه قائلاً:

– هل أنتِ حقيقة؟!

تطلّعتُ إليّ بتعالٍ، لكنّها لم تجب. كان جمالها الباذخ يقول ما ينبغي أن يُقال، وما دون ذلك ثروة فارغة. لذلك، وجدّنتي حائراً في اختيار الكلمات التي قد تستدرجها إلى الكلام، لا سيّما وأنّ قلبي لم يكن يسعفني، بل كان يخفق بقوة ويزيد من اضطرابي، لأوّل مرّة منذ زمن بعيد لم يخفق قلبي، ولم ترتعد جوارحي أمام فتاة.. أه! وأيُّ فتاة

كنت أمام رصاصة من ذهب مرصع باللازورد، استطاعت في هنيهات أن تخترق الضلوع وتستقرّ في الصدر تمامًا في الجانب الأيسر. قلتُ:  
- حصان رائع وصاحبه أروع..

فسمتُ باحتشام، ويدتُ أسنانها ناصعة ومنضوضة، لكنّها سرعان ما تراجعَتْ عن تلك البسمة دون أن تجيب ولو بنصف كلمة، وتعتقني من هذا العطش المستبدّ إلى سماع صوتها، هكذا تجلس على ظهر الحصان بفخر وخيلاء وبرود أيضًا. رفعتُ رأسها إلى السماء، كأنّها تستشيرها في أمر ما، فبدا جيدها رائعًا كما لو أنّه منحوتٌ من عاج. كانت قويّة في حضورها، في جمالها الفاتك، ورغم قسوة تلك اللحظات عليّ إلاّ أنّه كان يكفيّني أن تظلّ واقفة أمامي هكذا، بكامل سحرها الأمازيغيّ، وأن أناملها كما يتأملُ فنّانٌ تشكيليّ عظيم لوحة جميلة، تمنّى لو أنّه صاحبها. وعدتُ للكلام مرّةً أخرى:

- هل تعلمين أنّي عدتُ إلى هنا على أمل أن أراك مرّةً أخرى، وأنّني مفتتن بكِ إلى أبعد الحدود، وأنك ما فارقتِ خيالي لحظة، حتى إنّني ظننتُ بعد أن رحلتِ البارحة أنّك حلم عائق صحويّ واضمحَلّ.

عادت البسمة لتعانق ملامحها وإنّ بتحفّظ واضح، وكان كياني يرتعدُ في انتظار كلمتها الأولى، لكنّها تحصّنت بالصمت، الصمتُ في بعض الأحيان موجه، الصمتُ قاس. استرسلتُ باللغة الأمازيغيّة:

- تصوّري! لقد تخيلتُك ملكة أمازيغيّة بزغت من جبال هذه القرية، وسميتُك، تصوّري سميتُك، باسم ملكة أمازيغيّة قديمة.. سميتُك نوميديا، فهل أعجبك التسمية؟

لكنّها لم تجب، فتركتُ لجام الحصان بيأس قائلاً:

- لا أجد مبرّرًا لكلّ هذا الصمت، إنّهُ يعذب.

وجثم على المكان صمّت فادح مرّة أخرى، تضخّم وعظّم وغطى على كلّ الأصوات الهامشيّة الأخرى، في لحظة مباغتة ترجّلت عن صهوة الحصان، راقبت شعرها وهو يهتزّ ويتطاير بفعل الرياح، وقفت أمامي فرعاء كشجرة أرز وواثقة ككليوبترا، ثم مشّت حافية القدمين صوب البركة بثبات بلقيس.. حين تأملتُ ساقها البيضاء وخلخالها الجميل خفتُ عليّ منها، أنا الذي لم تبق مني الحياة فسحة لأتحمل جمالاً قاسياً كجمالها، استدارتُ، تطلّعتُ إلى الحصان بنظرة، ثم أومأت له برأسها فالتحق بها ونزل إلى البركة وجعل يشرب من مائها.

في لحظة حمقاء، عاودني إحساس أنني أحلم، عضضتُ على سبّاتي بقوة، إلى أن تألمتُ، فدنوتُ منها. كانت مستغرقة في تأمل حصانها. غامرْتُ حين مددتُ لها يدي مصافحاً:

– أنا مراد.. عابر سبيل!

ابتسمتُ ومدّت يدها، كانت دافئة، ثم حرّكتُ رأسها بشكل عمودي دون أن تتكلّم. ورغم أنها سلّت يدها من يدي ببراعة، إلّا أنّني ظللتُ أحسّ يدها ودفئها يملآن راحة يدي. بعد أن ارتوى حصانها تطلّعتُ إليّ بنصف نظرة، ثم انحنّت إلى الأرض وكتبت على الحيز الرملي الذي يفصلني عنها:

– (أنا خرساء..).

وما كدتُ أنهي العبارة حتى مسحها بهدوء، واعتلتُ بجسدها الممتشق صهوة الحصان، وأنا أقف مشدوهاً لا أصدّق ما قرأت. حين همّت بالانسحاب، خاطبتها بما يشبه الرجاء:

– هل من الممكن أنّ نلتقي مرّة أخرى؟

وكنّت أعلم أنّها لن تقول شيئاً، كنّت أنتظر مجرد إيماءة بيدها أو

رأسها، تفيد الممانعة أو الموافقة، لكنَّ شيئاً من ذلك لم يحصل، بل  
سحبْتُ لجام الحصان فانطلق بسرعة، وبسرعة أكثر ابتلعهما الفج،  
وخلفْتني وحيداً يملأني الحنين إليها، ويخزني شعور حادّ بالوحدة.  
عندما قفلتُ راجعاً، استيقظتُ في داخلي صور قتلة مصطفى، وخشيتُ  
أن يفتكوا بي قبل أن أميط اللثام عن سرِّ نوميديا وقلتُ، إن لم يكن  
من الموت بدُّ فلأمتُ حبّاً إذا.. أتمنى أن أموت ألف مرّة على يد من  
أحبّ على أن أموت مرّة على يد من يكرهني.

\* \* \*

نوميديا، هذه الجميلة الخرساء، ملاك ترجل من عليائه، ما كنتُ  
أظنُّ قبل الأمس أنَّ السماء على الرّغم من حقدِها عليّ سترسل ملاكاً  
ليأسرني بسحره. عند عودتي، شعرتُ برغبة ملحة في البكاء. عدلتُ  
عن العودة إلى الفندق، واتّجهتُ صوب تلة العرعار. فكرتُ بالاتّصال  
ببنهاشم، لا لشيء، فقط لأمتحن صوته، فالصوتُ الخائن كثيراً ما  
يستحيل إلى سوط، لا سيّما إن هو تمادى في خيانه.

لم يكن الذين ثقبوا قلبي مثل أشرار الرسوم المتحرّكة، بأنوف  
معقوفة كالموز وملابس سوداء، وأظافر ملطّخة بالدماء والوحل، كانوا  
آدميين إلى أبعد الحدود، ولم يكن فيهم شيء يميّزهم عن غيرهم،  
ينامون ويستيقظون، يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق..

مررتُ بالحقول. كان رجال إغرم يحصدون، فتنزّ سواعدهم  
وجباههم عرقاً تلتمع به، وكانت السنابل تنكسر على أيديهم حين تمرُّ  
بها المناجل. الحصاد عرس إغرم السنوي الكبير. حين انتهيتُ إلى تلة  
العرعار، فوجئتُ بجوليا مكوّمة على صخرة يواجهنِي ظهرها، وبخطى  
حيثية اقتربتُ منها دون أن أثير انتباهها، فكرتُ أن أفاجئها وأطبق يديَّ

على عينيها. حين وقعت عيني على المسجلة الرمادية التي تنام قربها إلى جانب هاتفها، تذكّرتُ أشرطة الكاسيت التي استنسختها، وتركتها مخبأة تحت السرير في انتظار أن أجد متسعاً من الوقت لسماعها، أو بالأحرى أن أجد الشجاعة الكافية لسماعها، لأنني على ثقة بأن الشرائط ستقول ما يذبح. آه.. أيُّ حزن وتعب هذا الذي ورطتني فيه أيتها الجميلة.

عندما شددتُ على عينيها بكلتا يديّ، فوجئتُ ببلل يملأ جفنيها. صمتتُ لبرهة، ثم قالت بلهجة شجيّة:

- ومن غيرك يا حبيبي؟

فاستدارتُ إليّ دامعة، قلتُ:

- لِمَ البكاء؟

فانتصبتُ واقفة، وارتمتُ بعد ذلك في حضني كطفلة خائفة وأجهشتُ. لم تقل كلمة واحدة، عجبتُ لهذه الدنيا التي بدأتُ تواجهني بالصمت أكثر فأكثر. ولم أحاول أن أكسر حزنها بطنين أسئلتي بل شددتها إليّ بقوة. في مثل هذه اللحظات، كنتُ أسمع للأحزان هديرًا داخلي، وأرى السماء وهي تتشعّ بالسواد سفناً تتهادى ويبتلعها البحر دفعة واحدة.. في مثل هذه اللحظات، كنتُ أبكي وكانتُ الدموع تنسكبُ داخلي..

فضّئتُ عناقنا بسرعة وانحنّت، ثم أخذتُ مسجلتها والهاتف وانزلتُ إلى القبور، وخلّفتُ ذراعيّ في حالة عناق. جوليا متعبة ومنكسرة أكثر ممّا يجب، فكّرتُ أنّ الأمر لا يعدو أن يكون مجرد صحوة ضمير متأخرة. حين كنتُ أبحثُ في هاتفني عن رقم بنهاشم، تذكّرتُ الصدفة الحمقاء التي استدرجتني إلى اكتشاف ما اكتشفت،

فاجأني أوّل الأمر صوتُ كاتبته . طلبتُ منها مهاتفة د . بنهاشم ،  
انتظرتُ هنيهات ، ثم اندفع صوته بفرح :

- أهلاً سي مراد ، كيف الحال ؟ اشتقنا لك .

- شكراً دكتور . .

- أين أنت الآن ؟

فأجبتّه بمكر وبلهجة أقرب إلى القسوة :

- أظنُّ أنّك أدري بمكاني .

ارتبك قليلاً ، كان ذلك واضحاً :

- لا . . . لا أدري .

- أعتقد أنّك من أشار عليّ بالذهاب على إغرم . .

- أوه . . جيّد . استمتع بوقتك يا صاحبي ، وحاول أن تتقبّل  
ماضيّك وأن تتقبّل ما أنت عليه . . سيفيدك الأمر .

- أريد أن أخبرك بأمر مهمّ ، دكتور .

- خير ! إن شاء الله .

- لقد عاد الظلاميون إلى تهديدي . تصوّر ! لقد أرسلوا لي  
رسالتين مضمونهما أنّهم سيقتلونني .

- لا أعتقد ذلك ، فالأمور ما بعد ١٦ مايو صارت أكثر صرامة .  
لا شك أنّ أحدهم يحاول إثارة مخاوفك لا أقلّ ولا أكثر .

- لا أرجحُ ذلك ، الأمر أعقد ممّا تتصوّر .

وأجاب كما لو أنّه أراد أن يجرّني إلى حديث آخر :

- هل أنت وحدك في تلك القرية ؟

فنزل عليّ سؤاله باردًا، كأنه لا يعلم أنني رفقة جوليا، ورفقة الملفّ الطّبي الذي أسلمه لها:

– آلو... آلو... لا أسمعك. هل تسمعي؟

هكذا، تظاهرتُ بأنني لا أسمع، لأجد مبررًا للانسحاب قبل أن انفجر في وجهه بكلمات لا تسرّه، حاولتُ جاهدًا أن أفتعل ابتسامة لكن دون فائدة. ما جدوى أن يبتسم إنسان محكوم عليه بالحزن المؤبّد؟! لقد كانت أحلام المستقبل كلُّ ما كان يدفعني إلى قبول الحياة، لكنّ الآن، بعد أن استهلكْتُ كلَّ تلك الأحلام، وجدتُ أنني كنتُ أعيشُ خديعة كبرى وأنا أطارد سراب المستقبل، الآن صار عليّ أن أتدرّب على فنّ الرحيل.

حين عادت جوليا منكسرة، بكّت بصخب. وكما انتظرتُ كلمة نوميديا الأولى، كنتُ أنتظر كلمة جوليا الأولى.. لكنّ الرعاف لم يمهلني. جرح النزيف اشتباكنا، فابتعدتُ عنها وضاقَتْ بي الأرض، كان صوتها الشجيّ يتضخّم داخلي:

– سامحني.. سامحني.

## (٩)

كانت الطريق إلى النهر شاقّة ومحفوفة باحتمالٍ بموت فُجائيٍّ،  
حتى إغرم، حين أبصرتني أزحف إلى النهر والمنديل المُدْمَى يحاصر  
أنفي، مدّدت الطريق أمامي لتطيل معاناتي، وتمنح لطائر الموت الذي  
يتربّص بي من علِّ الوقت الكافي ليجد لي نقطة الضعف الأخيرة،  
ويفتك بي. وجوليا كانت تشدُّ على ذراعي كما لو أنّها تخشى أن  
أسقط مغشياً عليّ. آه.. ما كان أبعدك عن جراحاتي أيتها المرهقة  
بألمي، أهى غواية الكتابة؟ أن تغمدي ريشتك في محبرة من دماء  
حقيقيّة، وتكتبي وجعاً تورّطت فيه! أنت التي كذبت عليّ قائلة: الكتابة  
محنة لا حاجة لي بها.

عندما احتدّ النزف، قلتُ لها بلهجة أقرب إلى الهذيان:

- لا أبشع من تعب الوعول!

لم تُجب، بل استوقفتني. أخذت يدي التي امتلأت دماً، ثم  
أقحمت سبّابتي في فمها وجعلت تمصّها بجنون، لا يذكّرني سوى

بخولة.. لا شك أنها قرأت عن الأمر في الملف. غَشَيْنِي لحظتها  
بياض فاضح، لست أدري لماذا ألحَّ عليَّ صورة الحمقاء التي كانت  
تجوب الحي، الذي انتقلتُ إليه بعد إغرم. كانت تتجرد من ملابسها  
وتستحمُّ أمام الملاء، لا نظرات العابرين توجعها، ولا شمس الظهيرة  
تكسر ما يفجره عريها من خطيئة!

أما عندما رأيتُ النهر يبدو وابتعدُ، فقد عبر طيف مصطفى  
أمامي:

- كم كبرنا يا صديقي..

قلتُ، لكنّه لم يجب. كان مثلي ينزف.. كم أنت كبيرٌ في  
صمتك أيها المصقول بنارهم، وكم ظلمتُك حين خبأتُ عنك أوجاعي  
كلّها وتركتك تموتُ لوحداً! تُرى أكان يجدر بنا أن نتأبط  
الكلاشينكوف بدل كُتبنا لنجد للحلم متسعاً في بلاد أضيق منه؟! لا  
يجيب، يحرك رأسه كعادته أعلى وأسفل، ثم بحركة جانبية تُسمع لرقبته  
طققة. أذكر قولك ذات يوم:

- وأنا أحبُّ الله أيضاً، ربّما أكثر من برايرة الزمن الرديء هذا!

حين انتهينا إلى النهر، كان النزيف قد توقّف أو كاد، شعرتُ أنني  
خائر القوى ومتداعي الأركان وأشبّه ما يكون بمنديلي المدمى، أغرقتُ  
وجهي وقميصي في الماء، وبدأتُ أعود وإن بشكل متقطع إلى الحياة.  
أما عندما بلغنا مدخل الفندق، فقد زفرْتُ جوليا بعمق قائلة:

- أخاف عليك يا مجنوني الإفريقي..

- ممّاذا؟

- من كلّ شيء.. من صمتك ومن جنوني..

وضحكْتُ، ربّما لتوهمني أنّها تمزحُ وتناي بنفسها عمّا يمكن أن يبعث في نفسي الشكّ؛ ثم أردفتُ، ربّما لتنسيني كلمة «جنوني» التي سقطتُ سهوًا من فيها:

- الصمتُ عادة ما يدلُّ على صخب داخلي.. على نزيف.

ثم التجأتُ إلى حضني كفراشة خائفة. كانت نبضات قلبها تصلني ضعيفة، وأنا أعبتُ بسنابل شعرها الذهبي، لا أدري لماذا أحسستُ في تلك اللحظة بالضبط أنّي يمكنُ أن أحبّها! على الرّغم من كلّ ما بدر منها، فكّرتُ في مكاشفتها بالحقيقة المُرّة. لكن سرعان ما عدلتُ عن الفكرة حين ألحّحتُ عليّ تلك الشرائط المستنسخة. قلتُ في سرّي، وماذا لو كان في الأمر حقائق أكثر بؤسًا؟ حين بدأ عناقنا يبرد شيئًا فشيئًا، كان رأسها يهتزُّ فوق صدري، كانت تنتحب.. أخذتُ رأسها بين يديّ وتأمّلتُ سماء عينيها الزرقاوين، كانت في تلك اللحظات طفلة أدمتها أشواك سياج يفصلها عمّا تريد.. عيناها كانتا تنضّحان ببريق خاصّ، وأهدابها المبلولة بالدمع كانت إبرًا تخزني في القلب.

صامتين إلى أبعد الحدود، لكنّ وقوفنا بذلك الشكل إضافة إلى اشتباكنا ونظراتنا كانت تقول أشياء كثيرة.. كان هذا قبل أن تكسر الصمت بيننا قائلة:

- سأرحل غدًا.. دائمًا تسحبني المشاكل من أحضانك، على أن أعود يومًا أو يومين قبل رحيلك. فمهما يكن، لا بدّ أن نودّع معًا مملكتك إلى صيف آخر..

لم أجبها بل عانقتها، ربّما لأنني لم أجد في نفسي أبلغ من ذلك. أنا مستعدّ لذلك، قلتُها في سرّي بعد أن ألحّ عليّ بيتُ المتنبي:

بما التعلّل لا أهل ولا وطن ولا نديم ولا كأس ولا سكن

أما حين أزفَّ الليل، فقد تعمَّدْتُ أن أطفئ نور الكهرياء،  
واكتفيتُ بإيقاد شموع شمعدان منسيٍّ، وجلسنا إلى الخمر والسجائر.  
قلتُ لها وهي تعبُّ في الأقراص المدمجة بحثًا عن أغنية تليق بليلة  
وداعنا:

- بدأتُ أشتاق إليك..

- أنا أيضًا.. لِمَ لا نرقص؟

حين دنوتُ منها كان وجهها ذاهلاً وأقرب إلى الشحوب، أو على  
الأقلِّ هكذا صوّرته لي الشموع، أما عندما انكسرت فوق زندي تمامًا  
كما تنكسر السنابل تحت المناجل، كان خوليو كلايس يغني:

- لا تحدّثني قطّ عن الحبّ (ne me parle plus d'amour)

كان الجوُّ مكهربًا بأحاسيس غامضة ومتناقضة وسريّة، تتماوج  
وتتلاطم داخل جدران الغرفة، وتحفرُ في دما خنادق جديدة لأحزان  
مؤجّلة. همستُ:

- لم تسألني عن سرِّ بكائي، أو حتى عن سبب رحيلي.

- لأنّ جانبًا من حبِّنا يقضي ألا نُكثر من السؤال، وأن نحترم  
أحزان وأسرار بعضنا بعضًا.

وكانت أقدامنا تتهدى مع هدوء الأغنية، قالت بعد صمتٍ طويل:

- أخي، يا مراد، رهينة.

- رهينة؟ كيف ذلك؟

- وصلتني في صباح اليوم رسالة نصّية من السفارة الفرنسيّة تطلبُ  
مَنّي الاتّصال بها فور قراءتي للرسالة، وهذا ما فعلتُ.

- وبماذا أخبروك بالضغط؟

- قالوا بأنّ إرهابيي تنظيم القاعدة في بلاد المغرب الإسلامي قد اختطفوا أخي وزميلاً له، كانا يعدّان ملفاً صحفياً حول القاعدة.. وقيل لي أيضاً إنهم أرسلوا شريطاً مصوّراً يظهر فيه معصوب العينين، وينادق القنلة مصوّبة إلى رأسه.

وارتعدت فرائصي للخبر، تذكّرت تهديداتهم لي، وعبرت بالبال حسرة مصطفى التي لن أبرأ منها أبداً الأبدية. قلتُ:

- وما هي مطالبهم؟ المال؟

- لا.. مطالب سياسيّة وعسكريّة بالدرجة الأولى.

- وما موقف الخارجية الفرنسيّة؟

- خرجت بتصريح تندّد فيه بهذا الفعل المشين، لكنّ الوضع لا يزال على ما هو عليه، وأخي..

وانسكبت من عينيها دمعتان، رأيتهما على ضوء الشموع نيزكَيْن توخّدا أسفل ذقنها، استرسلت:

- ما ذنبه، أتدري؟ سأجنُّ إن أُصيب بمكروه.

وشدّذتها إلى صدري بقوة حين أجهشت بالبكاء، وكنتُ مثلها أبكي، لكنّ دموعي كالعادة كانت تنسكبُ زيتاً حارقاً داخلي.. وأنا أشدها أكثر فأكثر إلى صدري، تمنيتُ لو أنّ لي أخاً كجوليا كنتُ ساحبُ الحياة على الرّغم من كلّ دسائسها وخياناتها، ساحبُ الحياة، لا لأنّها تستحقّ ذلك، بل لأنّ هناك من ستدمي عيناه إن أنا أصبتُ بمكروه!

من سيبكيك يا مراد بعد أن يفتك بك آخر الهمجيين؟ من سيعلّو نشيجه حين يأتيه نعيك؟ لا أحد. شربنا بعد ذلك كثيراً، وتحدّثنا أكثر،

لكن لم يعلق بذهني من تلك الأحاديث سوى قولها، وهي تقاوم دون جدوى إغراءات النعاس:

- سامحني، مراد! ربّما لأنّي ظلمتك أكثر ممّا ظلمت الحياة صديقك أوداد..

في الصباح، قلتُ لها ونحن نزيح الغطاء عن سيّارة الجيب خاصّتها:

- عودي إلّي.. أريدك أن تعودتي.

وقبّلتها بعنف على مرأى من نضال وامحند وزمرة من رّواد المقهى، ثم انطلقت سيّارتها تجرّ خلفها ذيلًا غاصبًا من الغبار والحنين.. ذيلًا من الغبار والأنين.

\*\*\*

أقبلتُ نوميديا كأنّها السعادة، فعاودني السؤال، أيعقلُ أنّ هذه الجميلة الخرساء حقيقيّة؟ أخدمتُ سيجارتي في الأرض ودهستها بقدمي، وعيني لا تفارقها. ترجّلتُ بخفّة من حصانها وأقبلتُ تجرّجر ثوبها الأسود، مدّت يدها فصافحتُها، وامتلاّت بفرح عارم أربك قلبي، ثم تأملتُ بسمتها العذبة، قائلاً:

- إذن، أيمنك أن أعتبر هذا التوقيت موعدنا اليومي؟

فتطلّعتُ إلى عينيّ، وانصهرتُ أنا في عوالم تبدو وتتلاشى داخل عينيها الواسعتين، ثم أومات برأسها موافقة. كانت كلّ جوارحي تزغرد فرحًا بحضورها القويّ الذي يغطّي شقًا كبيرًا من أحزاني.

- منذ الوهلة الأولى التي وقعتُ فيها عيناك على ملكوت حسنك، وأنا وقلبي لا نرجو من هذه الحياة البخيلة إلا أن تمنحنا فرصة رؤيتك مرّة أخرى.

تطلَّعتُ إلى أسارير وجهها، كانت طلقة كصباح ربيعي، ثم  
أردفتُ:

- كم أودُّ لو أعرف من أنت أيتها الجميلة!

ومشتُ إلى مساحة رملية، وكتبتُ:

- (ما دمتَ قد سمَّيتني نوميديا، فأنا كذلك.)

- وماذا أيضًا؟

فمسحتُ العبارة بكفِّها، ثم كتبتُ:

- (أنا من هنا، من ضحايا هذا المكان.. ولا أظنُّ أنَّ لي حياة  
خارجه).

أحسستُ في لحظة مسعورة أنَّها تكتبني، مرَّت بكفِّها على  
العبارة، ثم أردفتُ:

- (لستُ أدري لماذا شدَّتني إليك قوَّة خفيّة.)

وبسرعة مسحْتُ العبارة، وأردفتُ:

- (راقبتك خلصة من قبل، ربَّما نظراتك العاشقة لهذا المكان هي  
كلُّ ما شدَّني إليك.)

ومرَّت بظهر يدها على العبارة وهاجمتني:

- (ماذا عنك؟ من أنت أيتها الغريب؟).

ثم اقتحمتني بعينيها الشرستين، كأنَّها تستنطقني. قلتُ:

- بماذا سأجيبُ؟ لستُ أدري من أين تبتدئ الحكاية! لنقل إنني  
مثلك وجدتُ نفسي ها هنا، ولم يكن لي اسم محدَّد وثابت، لكنَّ  
الأغلبية الساحقة من أهل القرية كانوا يسمَّونني أوداد، لأنَّهم فهموا

مبكراً تلك العلاقة الخفية بيني وبين الجبل.. على أيّ حال، كان هذا منذ زمن بعيد، ربّما قبل أن تأتي أنت إلى الوجود.

وابتلعنا الصمت. عادت تتأمل عينيّ، كأنّما حرّصتها عبارتي الأخيرة على محاولة اكتشاف الفارق العمري بيني وبينها!

- عشتُ سنوات في إغرم، كان هذا قبل أن تجرّني يد إلى البعيد، لكنني ظللتُ مسكوناً بها.

واقتربتُ منها - ربّما أكثر ممّا ينبغي - أخذتُ يديها الجميلتين بيدي، لم تبدِ أيّ ممانعة أو تخوّف، بل ظلّت متمترسة خلف صمتها الاضطرابي.

- أتعلمين أمراً؟ لم أكن أعرف أنّ الأقدار - رغم خبثها الدائم معي - قد سَطَرَتْ لي موعداً مع ملكةً أمازيغيّة هاربة من كتب التاريخ. لم أكن أعرف أنّ الحياة، بعد أن مزّقت كلّ أشرعتي وشرّدتي أكثر من أيّ إنسان قبلي، ستجرّ سفني المخرومة والمتعبة إلى مرفئك الجميل! أنا لا أعرف للحبّ معنى محدّداً ربّما عشته في ما مضى وربّما لا، لسْتُ متأكّداً بالضبط. لكن، كلّ ما أنا متأكّد منه في هذه اللحظة، أنّ ما أحسّه وأنا أكابد سحرك أقوى وأعنف من كلّ الأحاسيس التي اختلجت وجداني في ما مضى. لن أجازف، نعم لن أفعل وأدّعي بأنّه الحبّ، لكنّه شيء مزلزل وعنيف، شيء يخزني في العمق ويشعل قلبي فيخفق بحرارة كأنّه يصفّق إعجاباً بك. أحياناً أخاف عليه من ذبحة إن أنا أطلتُ التأمّل في عينيك، وأحياناً أخاف أن تكوني مجرد حلم ساستيقظ منه مجروح الفؤاد، أخاف أن تمتصّك ثقوب الحياة فلا تعودين إليّ، فأجنّ وقتها - أنا الذي لم تبقِ فيّ الحياة فسحة ولو صغيرة للانتظار واستجداء الأمل.

والتمعتُ عيناها ببريق خاصّ، يقول كلّ شيء ولا يقول شيئاً،  
استلّت يديها من بين يديّ، فغشيتني غربة فظيعة، ابتسمتُ بعد ذلك  
وهي تتراجع خطوات إلى الوراء، في كلّ خطوة كانت تشعلني  
بجمالها. حين قفزتُ على ظهر حصانها الأسود ازدحمتُ داخلي  
أحاسيس غامضة، وألحّت عليّ رغبة في البكاء. حرّكتُ يدها مودّعة،  
فقلتُ:

- إلى اللقاء نوميديا . . إلى اللقاء .

وتشرّدتُ خطاي وأنا أراقبُ الحصان وهو ينأى، وما كاد  
الحصان يختفي حتى انفجر أنفي برعاف آخر، لم أكن أملك حياله  
سوى الارتماء بكامل طيشي في البركة. في قَمّة الحضور / الغياب،  
وأنا أرى قطرات الدم تسقط فوق الماء، ثم لا تلبثُ أن تتلاشى  
وتختفي . . راودتني أطياف البرابرة الجدد، أولئك الذين إن دخلوا قرية  
أفسدوها، وابتلعني سواد مخيفٌ وأنا أستشعر دقات قلبي وهي تتناقل  
تدريجياً. في قلب تلك الدوامة التي جرفتني، رأيتُ خولة تنأى وتدنو،  
وكدتُ أموتُ، لولا أنّ كَفّاً دافئة كأنّها كفٌ نوميديا، سحبتني من  
البركة / الموت، وهمستُ بصوتٍ غائم وحزين:

- لا زال في إغرم متّسع لموت أجمل.

\*\*\*

حين بلغتُ بمشقةَ غرفتي، قرّرتُ أن أفتح جرحي الأخير، سحبتُ  
من أسفل السرير الشرائط الصوتيّة السبعة التي استنسختُ عن تلك  
الشرائط التي غادرتُ حقيبة جوليا خلسة. ترى ماذا عساك تقولين يا  
جوليا؟ وهل قرأتِ أوراق بنهاشم؟ وهل هذه الشرائط هي مسوداتك  
الدمويّة لرواية ستتخلّصين بها مني؟

تُرى كيف ترين مراد؟ وماذا سأكون في نظرك غير كومة من الأحزان! لكن أيتها المراهقة في فنّ الكتابة، أعتقد أنك لن تكتبيني بالشكل الذي يليق إلّا إذا استطعت أن تنفذي إلى شراييني، ولن تقدرى على ذلك إلّا إذا اخترت الصراحة.

في غرفة أصبحت فارغة إلّا من ذكراك، أزحت عني أحزاني وملابسي، إذ لا بدّ أن أواجه سهامك التي سترسلها المسجلة، عاريًا أو شبه عارٍ من كلّ شيء. أطفأت الأضواء وأوقدت الشمعدان، وجرعت من كأس الويسكي على الطاولة قليلاً، وقبّلت بشغف مذكرة خولة التي كانت تستلقي إلى جوارى، ثم اخترت بعد ذلك شريط البداية بشكل اعتباطي.

التفت فجأة إلى أنني أزحت نفسي إلى الهامش الفجّ للحياة..

ماذا أقول ونهايات هذا الصيف الموجع تدنو وموسم الرحيل الكبير يُزف؟ لن أقول الشيء الكثير. سأصيح السمع إلى جوليا، حتى وهي تغرس نصالها في أشدّ الأماكن وجعًا! وإن فاضت بي الدموع سأبكي.. فالرجال الحقيقيون هم وحدهم من يجيد فنّ البكاء، ربّما لأنهم ببساطة يكون لأمر يستحقّ ويعرفون متى يفعلون ذلك وكيف!

«في المغرب، وربّما في دول العالم الثالث بأسرها، كلّ شيء قابل للبيع. كثيرون هم من يقصدون المغرب ليشتروا أشعة الشمس وليتمدّدوا فوق شواطئها الفسيحة، بينما تجد البعض يقصد المغرب مقتنيًا سيرة شهرزاد والألف ليلة وليلة، أمّا البعض الآخر - وهذا شأن أخي روبر - فلا يرون في المغرب سوى مغامرة جنسيّة غير محسوبة.. أمّا أنا، فإنّ غواية الكتابة عن هذا الفضاء الغامض الذي كان إلى الأمس مستعمرة

فرنسيّة هي السبب الذي دفعني إلى المجيء إلى هنا . ولأنّني  
جئتُ إلى المغرب بهدف البحث عن مادة روائية، ولأنّ  
منافذي للناس كانت شبه معدومة، ذلك أنّ اللغة لا تسعفهم،  
فإنّني لم أجد أمامي سوى أبواب الأطباء النفسانيين . . . ولأنّني  
سبق وصرّحتُ أنّ كلّ شيء قابل للبيع، فإنّني لم أجد صعوبة  
في شراء ضمير أحدهم .

حين قابلته أوّل الأمر بحجّة أنّني مريضة نفسيّة، تطلّع إليّ  
بنظرة ملعّزة ثم ضحك بمكر، كأنّه يعرف ما أريد، أو على  
الأقلّ، كأنّه تعود أن يستثمر في ملقّات مرضاه . أمّا عندما  
خبرته أنّني بحاجة إلى قصّة، فقد انفجر ضاحكا إلى أن تغيّرت  
ملامحه جملة وتفصيلاً، أزاح القبعة ومرّ بيده على صلعته  
وثرثر بعد ذلك كثيراً، بفرنسيّة فيها الكثير من الرطانة، عن  
الأخلاق والقيم ! لكن ما إن وقّعتُ شيكاً ووضعتّه على  
طاولته، حتى ازدرد ريقه وفرش ملقّات مرضاه وشرع في  
المساومة كأنّما كان يبيع الملابس المستعملة !

حين وقّعتُ يدي على ملفّ مراد، كنتُ مضطّرة إلى توقيع شيك  
آخر نظراً لحساسيّة الملفّ، كما صرّح مضيفاً أنّ هذا المريض، يملك  
من النفوذ والعلاقات، ما يكفي ليدترنا معاً إن حصل أيُّ خطأ، أو  
تسرّبت أيُّ معلومة مهما بدتْ هامشيّة، هكذا قامرتُ بكلّ ما أملك من  
أجل أن أفوز بملفّ مراد الوعل، ليس فقط لأنّه يمثل مثقّف العالم  
الثالث، ولكن لأنّ حكايته كانت أعقد من أن يطبقها عقل بشري . .  
كان مأساة لا تحتاج إلّا إلى كاتبة .

وكنّتُ، بعد أن قرأتُ ملفّه مرّات عديدة وجلستُ الساعات  
الطوال مع بنهاشم مطالبةً بافتعال صدقة حاسمة توصلني، بحثتُ عنه

في الجامعة إلى أن وجدته، وبحجة أنني أنجز بحثًا صحفيًا حول الجنس في العالم العربي، تعرّفتُ عليه. أمّا ما تلا ذلك، فقد كان الكذب سيّده، كذبة تلو أخرى، وكذبة تشتبك بأخرى، ولأنني أمتهن الأدب، فقد وجدتهني أسخّر كلَّ مهاراتي الروائية من أجل ضبط الكذبة، مهما تشعبت أو تعقدت.

مراد، لم يكن يعني لي أوّل الأمر أكثر من مادة أدبيّة.. لكن مع مرور الأيام، وكثرة المواعيد واللقاءات الحميمية الصاخبة، اكتشفتُ أنّ مراد كان عاصفة ضربت لنفسها موعدًا معي، ووجعًا اخترقني، وحبًا سعيّتُ إلى فوّهته بقدميّ، هذا الرجل جنوني النهائي، نارٌ أشعلتها، ولم أقو ولن أقوى على إخمادها قبل أن تأتي على أخضر حياتي ويابسها..».

طُرق خفيّف على الباب أوقف نزيفي الصامت، بالكاد تمالكتُ نفسي حين وقفتُ. كان الحزن والخمر قد أثقلاني، أسكتُ المسجّلة أوّلًا، ثم ارتديتُ ملابسي وفتحتُ الباب، لأجد خلفه نضال تحمل بكلتا يديها «طاجينًا»:

– هل ستركني واقفة هكذا؟

– بالطبع لا، تفضّلي.

استغربتُ من الحلكة المستبدة بالمكان، واتّجهت صوب الشمعدان ووضعتُ الطاجين قربه، قائلة:

– لا شكّ أنّها طقوسك الخاصّة للكتابة.

– بل إنّها طقوسي للألم!!

واختطفتنا أحاديث متشعبة، ونحن نجهز على الطاجين. أمّا بعد أن خلصنا منه فقد قفزنا إلى السرير، نضال تصرّح أنّها مسكونة

بجسدي وتقول إنها أدمنت فحولتي!! في تلك اللحظات، تأكدت أنها عادت لتنسف ماضينا النضالي المشترك، هي التي قاومت النسيان، وظللت ذكرى جميلة عن زمن الرفاق، ووشماً داخلي للمطرقة والمنجل. هي لا تعلم أنها عادت لتحطم بمطرقتها كل إرثنا من الذكريات الجميلة، وتمزق بمنجلها حاضري الذي لم يعد يتسع لهموم إضافية.

حين سألتها، بعد أن خلصنا من الجنس، عن حلّ لما نحن عليه، أغمضت عينيها ثم فتحتهما، أخذت نفساً شرهاً من سيجارتي المحتضرة، ثم عركتها في المنفضة قائلة:

- لا شيء، استسلم لجنون شاعرتك أيها الغاوي!

أما عندما اعترضت بمكر قائلاً:

- وزوجك؟

فقد تداخلت تفاصيل وجهها، أو على الأقل، هكذا صوّرها ضوء الشموع الباهت، وظلّت صامتة ترمقني بنصف نظرة كأنما أصابها الخرس، ولم أنتبه إلى بكائها إلا بعد أن ارتفع شهيقها، فتذكرت حياة التي كانت مثلها تبكي متجرّدة.. وقتها عاودني الاستتاج الذي خلصت إليه منذ وقت مبكر، وهو أن للجسد بكاء خاصاً. كانت كل منطقة في جسدها، حتى تلك الأشد إثارة، تهتز وتجهش وتلهج بكلمات غامضة، لم أكن أملك حيالها سوى الصمت، ومقاومة ذلك الصوت المجنون الذي يتضخم داخلي، ويحرّضني على الهروب عارياً من كل شيء إلى مقام سيدي عيسى..

إلى موتي..

إلى نومديا.

## (١٠)

أيتها الجميلة والشهيدة..

صباح الخير.

خولة.. هنا في شرفة فندق أصبح - للأسف - فندقتي، والسماء هناك بعيدة عن متناول الأيدي، وأنت أيتها الشهيدة أقرب مني إليها وأقرب إليّ منها وأقرب منا معاً لله.

خولة.. هل تغفرين لي عبثي بحزنك وحزني لموتك وموتي المتدرّج بعدك؟ هل تغفرين لي جنوني؟ رحلت ببساطة كخواطر الصباح وكانت مصادفة أن يكون آخر ما سمعته منك قولك: «الحب الكبير حبّ خاسر في البداية والنهاية، الحبّ العظيم لا يؤمن بالنهايات السعيدة». هكذا كنتِ تنزلقين نحو الموت بهدوء المحاربين الشجعان، ولم تكوني قطّ كاذبة حين خطّطتِ يدك ذات صباح هذه الكلمات:

«لا يكون الإنسان عاشقاً حقيقياً إلا إذا هو وضع نصب عينيّه احتمال الموت حبّاً».

كأنك قرأت صحائف الغيب أو كنت أدري بما سيأتي، وللعشاق  
حين يفنون حبًا حكمة لا يدري بها سوى أمثالهم. وكتبت أيضًا:

«حبيبي.. الكلمات أضيق من أن تسع حبي الكبير لك،  
ولأنني لن أقوله - مهما حاولت - كما ينبغي، فسأكتفي  
بالصمت. آه ما أعذبك يا قلب وأعذب من عذبك.. كل ما  
أعرفه لحدود اللحظة، أن شيئًا ما يتفجر بحماقة وطيش من  
سرتي.. تصوّر! ويجرّني نحو المدى البعيد، فأحس أنني أكبر  
من أكبر مجرّة وأبسّط من فراشة وأعقد من أحجية».

حين أقرأك يا خولة، أستشعر بشكل عميق فداحة خسارتي، أنت  
التي لم تخونني العهد وبقيت حتى لحظاتك الأخيرة مؤمنة بحبك وطواك  
الموت على هذه القناعة، عكسي تمامًا، أنا الذي ما آمنت بشيء قط  
سوى «لا جدوائية» الحياة. كتبت في البدايات:

«ما جدوى الحياة إذا نحن لم نستنزف أجمل ما فيها؟ هكذا  
قال أستاذي الوسيم، وأنا مذ عرفته لا أجد للحياة معنى  
بدونه، ببراءة وعفوية اخترق حياتي وأطبق بقبضة فولاذية على  
القلب والذاكرة».

صباح الورد والياسمين.. حبيتي وجهك الطلق الصبوح، وقامتك  
الفرعاء كشجرة أرز معي لا تفارقني، وأحزانك، نعم حتى أحزانك  
الصفراء لا تبرحني. ما زلت أذكر جوابك يوم سألتك ما أقصى أمانيك  
في هذه الحياة، فأجبت بحماس، وألق خفي يتأرجح بين محجري  
عينيك:

- أن أكون معك ونسافر إلى أبعد نقطة في الوجود، ونسكن  
كوخًا بسيطًا في غابة على جزيرة مهملة وننجب أطفالاً،

ستكون الطبيعة شريعتنا الوحيدة!

وعانقتني بعدها بنزقٍ هامسة:

- هي أمنية.. هي أمنية.

كان بمقدوري أن أحققَ كلَّ أمانيك، أن أسحبك مثلاً من يدك إلى إغرم، ونبني لنا منزلاً في قَمّةِ الجبل، لكنني تركتك في مهبّ الموتِ فارغة من كلِّ ما يستحقُّ الغياب وممثلة بحبك الكبير.

خولة.. خاسرين كنّا منذ البداية، ربّما لأنني لم أكن رجلاً بحجم حبك، أو ربّما لأنّ القدر كعادته لم يكتفِ بالتخلّي عَنّا بل أصرَّ على التورط في هزيمتنا. هزمتك بغياي وهزمتني بموتك، فهنيئاً للحبِّ بكلِّ هذه الخيبات!!

لو أنّي عدتُ يومين قبل موعد عودتي، لكان الله قد أصدر أمره بتأجيل موتك إلى أجل غير مسمّى، ولو أنّك انتظرتَ يومين إضافيين قبل الانتحار.. لتغيّرتَ أشياء كثيرة، كأن نختار أن نبقى عاشقين ونترك لابننا أن يحيى كما يشاء، كأنّه ابن وعمل حقيقيّ، لا شيء يكدرُ صفو حياته، حقيقته معي وحليبه الأولي معك.. وما عدا هذا متشابهات.

تصوّري فيما أفكّر حين تكتظُّ بي غصّة الحزن والأسف؟ أكاد أجزم في سرّي أنّ الله لم يخلقك إلّا ليعذبني بك، لأنّه لم يكن حليفي يوماً، ومثلما سلّط عليّ عذابات من أكره، سلّط عليّ فقد من أحبّ..

خولة.. أتغفرين لي أخطائي التي لا تنتهي؟ هل تغفرين لي مواعدتي لأنني أدمتُ كياني، بسلسلة ألغام. إنّها جوليا واسمها هو قَمّة معرفتي بها، طعنة مسمومة في الظهر، ولأنّ الحياة قد أتعبتني بلكماتها التي جعلتني أترنّح وأسقط ثم أنهض، فقد اختارتُ أن تهب جوليا

شرف الضربة القاضية.

خولة.. هل تغفرين لي تورّطي بعشق إضافي لا يتّسع له قلبي  
المتعب؟ عشقتُ طيفاً انبثق من عزلة الفجّ العميق الذي يشطر جبل  
عيّاش نصفين..

سامحيني إن وجدتِ أنني تورّطتُ في حبّها..

سامحيني، لأنني لم أملك من أمري سوى الاستسلام لها..

لا شكّ أنّك ستجيبين «لا يهّم، فالحبُّ شخصيّة ويكفيني أنني  
أحبّك»! أعرف أنّك أكرم منّي عاطفة، وهذا ما يمزّقني أيتها الجميلة  
الغائبة، لا زلتُ أذكر قولك ذات خصام عابر «سأحبّك مهما أسأت  
لي».

خولة.. العبارات تختنق في جوفي، ورأسي، أشعر كما لو أنّه  
إناء حبق يتهمّش فوق صخرة الندم القاسية. أنا في حاجة ملحة لسماع  
صوتك الدافئ يهمس في القلب: «سامحتك». فتعال، ولو بين رمشة  
عين وأخرى، قولها وحرّريني.. وإن لم تستطعي فهي لي موعداً بعد  
أن أستسلم كطريدة للنوم.

اشتقتُ إليك كثيراً..

اشتقتُ لك...

\*\*\*

أعفّنتني نوميديا من محنة انتظارها، جاءت قبل موعدنا، وكان  
الأمر على بساطته مؤشراً إيجابياً أزاح عني القليل من ذلك الغضب  
الداخلي، الذي كنتُ أستشعره وأنا أتلو القليل من رسالة الغفران على  
معراج خولة. حين رأنتي نوميديا مقبلاً ترجّلت عن حصانها الأسود

الضخم، كانت تلبس فستانًا كثير الألوان، فستانًا أنيقًا يُظهر ساقها  
البضتين وجزءًا من صدرها، ألوانًا قاسية.. أحمر، أخضر، رمادي،  
وبني، أشكالاً لزهور تعانق بعضها وتشابك وتستحيل في ذهني صورًا  
لأجنة انتحرت أمهاتهن.. كانت الألوان تتضخم في عيني شيئًا فشيئًا،  
فتشكّل وجه خولة ثم لا تنفكّ تتبدّد لتصبح مجددًا زهورًا متعاقبة:

- كم أنا موجد بألوانك وحزني..

قلتُ، فابتسمتُ، وبدتُ أسنانها الأنيقة منضّدة بشكل رائع لم  
تومئ لي بأية إشارة، وإن كنتُ أقرأ في عينيها استفسارًا، اقتربتُ  
وسلمتُ وأبقتُ يدها في يدي فهزّنتني إثر ذلك رعشة خفية ومجنونة في  
أن، تشابكتُ بعدها أصابعنا بشكل عفويّ وتحركنا، أومأت بحركة من  
رأسها لحصانها، فلحق بنا على الفور.. فتملّكني الذهول أمام هذا  
التفاهم الخفيّ بين جميلة خرساء وبين حصانها، قلتُ:

- هل تعلمين أنني بالقدر الذي أحبّ فيه حضورك السحري أخافه  
أيضًا، بعد كلّ لقاء أحسُّ أنني أغرقُ في يَمِّك الهادئ أكثر، أتورّطُ  
فيك أكثر، ويشهق قلبي المعطوب باسمك أكثر فأكثر، نوُميديا..

وسكّتُ، فلم يبق سوى وقع حوافر الحصان تدكّ الأرض ويُسمع  
له صدى عميق داخلي. تطلّعتُ إليّ بفرح محتشم وابتسامة طليقة  
والرياح تهزُّ شعرها الأسيب الطويل، فيرقص بفرح ويحلّق في السماء،  
ثم يرتدّ إلى وجهها فتزيحه بأصابعها الجميلة، أما أنا، فقد كنتُ  
كحصان متعب، يجرُّ خلفه عربية مليئة بالأحزان الثقيلة والأفراح  
الموؤودة.

- رحلَ الذين أحبّهم، وها أنا أواصل وحدي بطولتي الزائفة.

استفهمتُ بإيماءة من شفيتها، فأجبتها على الفور:

- يحدثُ أن يموت المرء حبًّا وهي كذلك، خولة قتلها حبًّا، لستُ أدري لماذا أقول لك هذه الأشياء، ربّما لأنني في حاجة ماسّة لمن يتقن فنَّ الإصغاء، الإصغاء إلى هذا الوجد الذي يقصُّ كلَّ يوم وريدًا من أورديتي، دون أن يفكر في حسم معركته معي بضربة قاضية.

وفضّشت اشتباك أصابعنا حين انحنتُ إلى حيزِ رملِي، وجعلتُ تخطُّ:

- كلِّي آذان صاغية..

ومرّت بأصابعها على العبارة وواصلنا المسير:

- أنا متورّط في جريمة قتل غير مقصودة..

والفتحتُ إليّ باستغراب، فاسترسلتُ:

- قتلْتُ بغياي طفلاً وطفلة بريئين، فأما عن الطفلة فكان اسمها خولة، كانت عاشقة عظيمة، قامرْتُ بكلِّ ما ملكتُ يداها كي نعيش معًا قصّة حبّ كبير، لكنّ الأقدار خذلتنا معًا، ولم تبقَ لها الأيام مني سوى شفرة حلاقة أهديتها لها ذاتَ يوم سعيد احتفاءً بعامنا الأوّل، وانسجامًا مع طقس الوفاء الذي أقمته - وهذه قصّة أخرى - المهمّ أنّها بعد أن حطّمتُ بغياي كلَّ آمالها، حطّمتُ الشفرة كعقرب على معصمها المزركش بأوردة خضراء جميلة، وجرّتها بعنف وقسوة، وظلّت تنزف حبًّا وشوقًا، كنتُ كلَّ أحلامها، كنتُ - كما يحلو لها أن تصرّح دائمًا - السبب الوحيد الذي يربطها بالحياة، وعندما تغيّبتُ متعمّدًا عنها لم تجد من حلّ سوى الانتحار.

شدّت على أصابعي بقوة، تطلّعتُ إلى ملامحها بحزن، واسترسلتُ:

- أما الطفل الذي قتلْتُ، فقد كان يتقلَّبُ في أحشائها حين ماتَتْ. كان لزامًا أن يموت هو الآخر فأسقطْتُ عصفورين بطلقة غياب طائشة، وانهارتْ حياتي بعدهما ومكثتُ شهرًا في مصحة نفسية، ولا أزال إلى اليوم مريضًا بها وبه.

التمعتُ عيناها ببريق خاصٍّ وهي تسترق النظرات إلى عينيَّ المتعبتين، انحنْتُ مرَّة أخرى وخطَّتْ بسبابتها:

- (لا عليك.. هذه هي الحياة، ولست وحدك من يتحمَّل مسؤولية ما حصل).

ومسحتُ العبارة بسرعة، وأردفتُ:

- (حسبك الآن أنك مع من أسميتها نوميديا، وما عدا ذلك باطل.. باطل).

وتطلَّعتُ إلى عينيَّ بفرح عارم يضمُّد شيئًا فشيئًا كلَّ الجراحات التي انفتحتْ هذا الصباح، قلتُ:

- جميلة هي الكلمات القليلة التي تخطينها وجميل صمتك، وأنا سعيد لأنك معي ها هنا والآن، وإن كنتُ أخاف من عواطفي عليَّ، ولأنني لم أعرف الفرح إلَّا لمامًا، فقد صرتُ أخافه بل وأتحاشاه أحيانًا لكي لا يعرِّي أحزاني فأنفضح، وأنت فرح اقتحمني فجأة على الرغم من أنني أكاد أجهل من أنتِ، أفهمتِ ما أقصد؟

هزَّرتُ كتفيها بلامبالاة، أما عندما أطلتُ التأمل في وجهها الأمازيغي الأصيل، الذي لا أعلم إن كان يجزني قرونًا إلى الوراء، أم يدفعني سنوات إلى الأمام، فقد مسحتُ العبارة السالفة وكتبتُ:

- (لا يهمُّ من أكون، اعتبرني إن شئت طيفًا يبرز من شقوق الجبل ويغيب).

ومرّت على العبارة بجنون، وأردفت:

- (اغتنم صمتي الاضطراري ودعني أكون، لا كما أنا، بل كما تشتهي أن أكون.)

تطلّعت إليّ لبرهة، ثم كتبت:

- (لماذا لا نركب الحصان معاً؟).

واخترقني السؤال، كان فرحاً لا طاقة لي به، خفق قلبي بحرارة  
والنفث إلى كلّ الجهات غير مصدّق ما أقرأ:

- نعم من دواعي السرور، لكن عندي شرط واحد؟

تطلّعت إليّ باستغراب واضح فأجبت بمكر:

- أنا لا أوّمن بمقولة «وراء كلّ رجل عظيم امرأة».

فانفجرت ضاحكة، فبدت أجمل، أكثر ممّا يتحمّل قلبي العليل،  
قفزت إلى ظهر الحصان بخفّة لم أكن أتصوّر إلى الأمس القريب أنّي  
أملكها، هو الحبّ إذن! مددت إليها يدي وجذبتها فارتمت أمامي،  
وواجهني ظهرها والشعر منسدل كشلال عليه. أيّ نار تشتعل الآن بين  
جوانحي! أيّ تعب يولّده هذا الفرح الموقّت! أيّ رغبة هذه التي تنفجر  
داخلي وأنا أشدّ كطفل بكلتا يديّ على خصرها!! ورغم أنّني كنتُ  
مأخوذاً بالعطر الجميل الذي كانت تضعه نوميديا، إلّا أنّني كنتُ أشمّ  
روائحهم كأنّهم يحومون حولي كالذئاب. واستيقظ داخلي خوف بشع  
لا على نفسي، بل على هذه المليكة. خفتُ من أن تدركها رصاصة  
طائشة كانت في الأصل تستهدفني..

استدارت إليّ وجرّكت شاهدة يدها بشكل دائري، كانت تريدني  
أن أتكلّم:

– ماذا عساني أقول يا نوميديا وكلُّ الأحاسيس تتداخل فيّ، ربّما هذه اللحظات على ظهر هذا الحصان الخرافي الرائع، ويدائيّ تَنامان على خصر ملكة أمازيغيّة، تتسلّل من حين لآخر من وجع التاريخ وشرك الجغرافيا لترود موعدي.. قلت، ربّما في مثل هذه اللحظات أشعر بسعادة مخيفة، أخاف على قلبي منك، من جمالك، من صمتك، ومن غموضك وأخاف عليك من سوء حظّي وعلينا معًا، أخاف من القدر الذي يحوم على ضحاياهِ كبنات آوى متحيّناً الفرصة المناسبة للانقضاء.

وحطّ يديها على يديّ وسحبتهما برفق من خصرها إلى أعلى بطنها، وضغطتُ كأنّ شيئاً ما سيحدثُ، ثم سحبْتُ لجام الحصان فانطلق كالسهم، في تلك اللحظات واللحظات التي أعقبها لم أكن متأكّداً بأنني صاح بما يكفي، أو أنّ العالم حولي واقعيّ كما ألفته.. تدخل كلُّ شيء في عينيّ حتّى إنني كدتُ أجزم أنّ الإنسان يمكن أن يستغرق عمراً كاملاً في حلم، وفرحتُ لأنّ هناك أملاً ولو ضعيفاً جدّاً في أن أستيقظَ من حياتي على حياة أخرى.

الحصان يعدو بسرعة رهيبة وشعرُ نوميديا الأسود يتطاير في السماء ويحجبُ عن عينيّ الرؤية، وكنا نهترُ معاً ويلتصقُ ظهرها بصدري أكثر، وتنفجر داخلي حسرة مريرة ورغبة ملحة في بكاءٍ وراثيّ استباقي لهذه اللحظات التي سأفتقدها لا محالة فيما بعد. حين وضعتُ يديّ على يديها وسحبْتُ بهما زمام الحصان، فقد انطلق بسرعة مضاعفة والتصقتُ بي نوميديا أكثر، وشددتُ على ردفها المكتنزين بفخذيّ فاشتعلتُ كنيزك، اشتعلتُ وراودني وَلَه جنسي، ربّما اشتهيتها في تلك اللحظة أكثر ممّا اشتهيتُ أيّة امرأة قبلها.. كان اشتهاً خاصّاً واستثنائياً كذلك!

تركْتُ يدها وشددتُ مرّةً أخرى على بطنها وأسبلتُ جفنيّ  
مستسلماً للريح. أيقنْتُ لحظتها أنّ الأشياء الجميلة التي تأتي بسرعة لا  
بَدَّ وأن تختفي بسرعة نفسها التي جاءت بها.

– كانوا يسمّونني أوداد.

قلتُ لها حين بلغنا مرجاً أخضر شاسعاً وغير بعيد عن القرية..

– وكانوا يظنون أنّني ابن الوعول، وكان بعضهم يزعم أنّي ابن  
جنّة الوادي..

تطلّعتُ إلى عينيّ باستغراب، ثم اتّكأتُ على الحصان بظهرها،  
خفتُ أن يتحرّك فيخذلها وتسقط، إلّا أنّ شيئاً من ذلك لم يحدث،  
فاسترسلتُ:

– على أيّ حال، هذه قصّة حزينّة لا تنتهي، ستسمعينها منّي فيما  
بعد.

قفزتُ إلى الذهن صورة شهرزاد. ترى أمثلها أنا أحاول استدراج  
نوميديا إلى مواعيدي بالحكي؟ لا أظنّ ذلك، فالحياة ليست كريمة إلى  
الدرجة التي تمنحني فيها نوميديا لمُدّة ألف صباح وصباح. دنوت منها  
أكثر فتتهدّت بعمقٍ، أمّا حين وضعتُ يدي بكثير من الحذر على  
خصرها الممتلئ لم تمنع، بل أكثر من ذلك انجذبتُ إليّ قبل أن  
تراجع خطواتها قليلاً وتتكئ مرّةً أخرى على حصانها.

حين التحم جسدانا قليلاً اشتعلتُ في ظهري كلّ الحرائق  
الخامدة، أحسستُ بالرعود تهزّ دواخلي وبسماء متّشحة بالسواد تكاد  
تمطر داخلي فرحاً. كانتُ شفّتها شديداً الحمراء، شهيتين وطائشتين  
تفرّسان في شفّتيّ وتناديانني تعال!!

أدنو.. ويعلمو رأسها ببطء. تأملت شعري الذي يكاد يغطي عيني، ثم مدّت بلطف يدها وشدّت على عنقي، وسحبني برفق إلى شفتيها ولم أكن أملك غير الاستسلام لها.. حتى تلك اللحظة كان كل شيء واضحًا ومفهومًا، وكانت كل حركة منسجمة إلى حدّ مقبول مع الحركة التي سبقتها. وما إن تلامست شفاهنا بشكل طفيف أو كادت تفعل حتى فاجأنا الحصان بصهيل مجلجل. أمّا ما تلا تلك اللحظة كان غريبًا وغامضًا إلى درجة تبعث اليأس، وكان من السرعة بحيث إنني ما أكاد أستعيده حتى يبرق كشبح في البال ويختفي، إذ ما كان الحصان ينهي صهيله حتى انكسر عناقنا وقفزت نوميديا بسرعة وخفة إلى حصانها، ومضى الحصان بها مسرعًا إلى أن اختفت.

هكذا خلّفتني عاريًا منها على رصيف شهوة حارقة، كانت قبله مؤودة سرعان ما تسرّبت إلى تخوم المجهول، بترها بصهيله الحصان بعد أن أشعلت فيّ ما أشعلت.

وكانت طريق العودة طويلة، طويلة.. كأنّ الأرض تتمدّد أو كأنّ إغرم تفرّ غاضبة منّي. في كلّ خطوة أخطوها. كانت أحزاني تعاودني بل وتتضخّم أكثر فأكثر، كأنّ الإنسان كلّما جرع من السعادة شيء القليل أحسّ بفداحة حزنه وعمق الخسارات التي مُني بها. حين يتأمل التعيس أحزانه بمنظار حزنه. ربّما يبتسم لها باعتبارها قدرًا محتومًا، أمّا حين يفعل ذلك بمنظار السعادة - مهما كانت ظرفيّة وسريعة الزوال - فإنّه لا يرى سوى خيياته باعتبارها طلاقات عشوائية أصابته، ولم ولن يحسن التعامل معها.

## (١١)

تقول جوليا في شريط صوتي:

«مراد، هذا الرجل المستحيل أسطورة في زمن تعب من الأساطير. . وكان أجدر بالحياة أن تجعل مراد شخصية من ورق، أما أن يكون من لحم ودم وتُفتَرَف في حقّه كلّ تلك البشاعات، فإنّ ذلك يرفع حياته إلى قدر أعمق من المأساة، ولو أنّ غيره تحمّل ما تحمّله لانخدل عن أوّل داهية. مراد تحمّل فوق ما تتحمّل الروح البشريّة وواصل حياته من هزيمة إلى أخرى صامداً، على الرّغم من أنّه يضمّر بين جوانحه نزيفاً، كأنّ الحياة لم تخلقه إلّا لتجرّب به كلّ الهزائم الممكنة.

«كنتُ أظنُّ أنّني قادرة على شراء كلّ ما أريده من هذا العالم المستعدّ لبيع كلّ شيء، لكنني اكتشفتُ أنّ الإنسان الوحيد الذي لن أقوى على شرائه هو مراد الوعل. صحيح أنّني

اشتريتُ حكايته، لكنَّ الحكاية ليست كلَّ شيء، اشتريتُ  
الوجه الثاني للإنسان.

«أحيانًا، حين يضلّني إليه بشكلٍ سحري على سرير من  
الرغبات الجامحة، أحسُّ أنه أكبر من كلِّ الروايات التي كُتبتُ  
والتي ستُكتبُ. أحسُّ أنني أفتحم غيهاً مريباً وأتني خاسرة لا  
محالة. حين تنزلُ أصابعه المخاتلة إلى أقصى تخوم الوجد،  
أحسُّ أنني أظلمه.

حين يغدقُ عليَّ من فيض جسده وغناهُ المطلق ويتحدّى في  
ذلك الماضي البائس الذي يجرُّه خلفه، أحسُّ أنني في كلِّ  
ثانية أحشاه. فهل قدر الكتابة أن تكون جريمة أقرتها في حقِّ  
من أحبهم فقط كي أعبرَ لهم عن مدى ساديتي وعن حجم  
الكره المزيّف الذي أستشعره تجاههم؟

حين تضيق الحياة بمراد، يشرع في الحكى عن «أوداد»  
باعتباره وجهه الثاني والخفي، يلحُّ دائماً أنه صديق طفولته.  
لكنَّ أوراق بنهاشم تقول إنَّ أوداد هي التسمية التي أُطلقتُ  
على مراد أيام طفولته في القرية، كما أنَّ تلك الأوجاع التي  
يسنّها إلى هذا الصديق المزعوم هي الأوجاع نفسها التي جاء  
الملفّ الطيّب على ذكرها، مراد موجوع أكثر ممّا يتحمّل عقل  
بشري، فكيف ستسعفني الكتابة على نقش وجع كهذا بين دفتيّ  
رواية حزينة جدّاً وجنسيّة نوعاً ما؟!

الجنس إرادة الحياة الفعلية، هكذا يقول مراد. وعندما يمارس  
الجنس عادة ما يفعل ذلك في صمت وخشوع مؤلمين،  
يجتاحني كطوفان ويشعل فيّ كلَّ البراكين الخامدة. مراد

استثناء جنسي بكلّ ما تحمله العبارة من معنى، حتى إنني لم  
أحظّ ولو بربع المتعة التي يفيض بها جسد مراد مع كافّة  
الرجال الذين مارسْتُ معهم الجنس بمن فيهم زوجي...».

لست أدري لماذا مرَّ بي حلم الغروب الأخير...

حين تنزلق الشمس نحو البحر وينطفئ جحيمها، فتصدّر ذلك  
الصوت المجلجل القاسي الذي أدمى أذان كلّ الواقفين على مقربة من  
الشاطئ من غرباء وعشاق ومعتوهين... أسكتُ المسجّلة حين عصفتُ  
بي كلمة «زوجي». تحسّستُ أذنيّ، وتخيّلْتُ قطرات دم لزجة تتقطّـرُ  
منهما، وهزّني دوار موجع وإحساسٌ مخرّب بالغثيان. في غمرة  
سكرات الموت تلك وأنا مأخوذ بما خلّفته فيّ جوليا من جراح قاسية،  
رأيتُ نوميديا في ثوب أبيض تفتح ذراعيها وتركض نحوي، وما إن  
ظننتُ أنّي عانقتها حتى اخترقتني كأمل زائف، وبقيتُ معلقًا من قلبي  
على شجرة يلتفّ حولها برابرة الزمن البائس.

رأيتُ في تلك اللحظة التي يتفتّق فيها الحلم من اليقظة أشياء  
كثيرة...

رأيتُ العابرين على رصيف جراحي واحدًا واحدًا...

رأيتُ من انتهكوا حقّي في حياة بسيطة وعاديّة..

رأيتُ زبانيّة الظلام يشحذون سيوفهم ويصيحون: حيّ على  
الجهاد.

رأيتُ زوجي نضال وجوليا مخدوعين مثلي وبي..

رأيتُ غواية الكتابة تستدرج الخيانة والخائنين إلى النهايات  
التعيّسة..

وبكيّ طويلًا..

ولم أتوقف إلا حين داهمني الزيف.

\*\*\*

وكنْتُ منهكًا حتى آخر وجع فيّ. حين توقّف الرعاف شعرتُ أنّ  
أشياء كثيرة تهشّمت داخلِي. تطلّعتُ إلى المرأة متسائلًا: أنا أنا؟  
ووجدتُ في المرأة أنّ هذا السؤال فارغ من أيّ معنى، فقد اكتشفتُ  
ربّما منذ البدايات الأولى أنّي لستُ سوى مشجب تُعلّقُ عليه أخطاء  
الآخرين..

انسحبتُ إلى الشرفة بعد أن انفتحتُ في جسدي شروخٌ كبيرة  
جعلتُ حتى النسائم المسائيّة، التي تكون عادة عذبة، تخترقني  
وتؤلّمني! أشعلتُ سيجارة وتنفّستُ بعمق مشوب بأنين خافت. في  
مدخل الفندق، اجتمع نفر من القاطنين يلهجون بلغات مختلفة، وحدها  
الفنادق قادرة على لمّ شتات البشريّة وتوحيد ما تفرّقه اللغات والديانات  
والأعراف، ووحدها تقوى على تحمّل واستيعاب أحزان الغرباء  
وأسرارهم.. ومن مفارقات القدر وسخريّاته ألاّ أشتري أنا الغريب  
سوى مرفأٍ آخر لأمثالي!!

- جميل هو غروب ظهر المهرّاز! أتذكر؟

هكذا تدقّ صوتُ نضال، تطلّعتُ إلى الأعلى، فإذا بها تتأمّلني  
من شرفتها، أجبْتُ:

- نعم، لا سيّما إذا كنتُ في الطابق الرابع من كليّة الآداب  
العملاقة.

- آه.. كم أشتاق إلى تلك القلعة!

- وأيّامٍ لنا غرٌّ طوال..

- كانت بالفعل أيتاما لا تُنسى.

- لم تَمَحْ يا نضال صورتها الجميلة من ذاكرتي! هل تذكرين تلك الطريق التي تسلمك إلى الجامعة، حيّ الليدو على يسارك، إضافة إلى الثكنات العسكرية؟ أما على اليمين فيقف الحيّ الجامعي كجبل، إذا تقدّمت أكثر تواجهك على اليمين «ساحة العشرين يناير الطويلة» ووجوه الطلبة، حتى وجوههم رغم أنّ الزمان يبدّلها من سنة إلى أخرى، إلّا أنّها صارت جزءا من المكان.. إذا لم تلتفت وواصلت المسير، فإنّ الطريق ستفضي بك إلى الكليّة العملاقة إلى سحر الآداب.

- كم كبرنا يا مراد، وكم ضاعث منّا السنوات الجميلة وكم ضاعث بعدنا ظهر المهراز! لم تخبرني بعد لماذا هجرتني وهجرت الرفاق دونما سبب؟

(من قال إنني انسحبت دونما سبب، لقد كان في تلك المواجهة الأخيرة التي خضتها سبب كاف، لن أنسى ذلك اليوم الماطر الذي صاح فيه رفيق، كان إلى وقت قريب رفيقي، بكلمات ألهبّت الطلاب وآلمتني أكثر ممّا ينبغي:

- اضربوا أبناء الزنا، ليسوا سوى لقطاء.

وكان يقصد قوّة التدخّل السريع، لكنّه ابتعد عن أخلاقيّات اليسار.. أذكر أنّني انتحبت في تلك المواجهة، وكنتُ إن سألوني عن تلك الدموع، أجد حجّتي في القنابل المسيلة للدموع. منذ تلك اللحظة تأكّدت أنّي لا أصلح أن أكون رفيقا على الأقلّ في النسخة المغربية).

- لماذا طال بك الصمت؟

- لا شيء. انسحبت لأسباب شخصيّة، وعذرا سأنسحب الآن، عندي أشغال سأقضيها.

- ما برنامجك الليلة؟  
واختزلتُ عليها المسافات قائلاً:  
- لنلتقي الليلة... وداعاً.  
- إلى اللقاء.

\*\*\*

هل هو أمر ضروري أن تذكّرني نضال كلّما توخّدتنا في السرير أن  
لها زوجاً وأنّ لزوجها زوجة، وأنّ الحميمية التي تجمعنا ليست سوى  
خيانة مشروعة! قالت بفرح:

- أنا مع من أحبّ وكفى. الخيانة الحقيقية تكون حين ينزل عليّ  
بجسده الثقيل ورأسه المخمور، وما أكاد أقول إنّنا بدأنا حتى أجد  
الرجل قد انتهى، وانقلب على جانبه وخلف زوجته منفرجة الفخذين  
على الفراغ، تتجاذبها شهوات فُدر لها أنّ تظلّ مؤجلة وإحساس بشعّ  
بالمراة والتقرّز..

ورغم أنّها كانت تنام على صدري العاري، إلّا أنّني كنتُ مشغولاً  
عنها بمطاردة طيف نوميديا الذي يملأ بحضوره فضاء الغرفة، يسبح في  
كؤوس الخمر ويندفع كعفريت من سحائب الدخان ويهزّني من أناملتي  
من أهداب عينيّ إلى مجهول ممتع. في ذروة الجنس وأنا أتلخّف جسد  
نضال، كنتُ أمارس مثلها خيانتني المشروعة، أطبق جفنيّ وأعرّي في  
الخيال جسد نوميديا المقدّس، أقصف نضال بكلّ ما فيّ من عنف  
وشهوة وأجرف حيطانها اللحمية. آه لو تسكّت عن هذياناتها لتّم لي  
مرادي وضاجعتُ نوميديا ولو في الخيال! نوميديا خرساء تكتفي بفحيح  
محرض يشعل كلّ شهواتي، نوميديا نبيّة.

وكانت تختفي كلّما اهتزّت مياهي، فأصحو على جسد نضال

المتعب، ثم أعود إليه وتعود نوميديا إليّ لتملأني بحضورها، بفحيحها جنسًا ورغبة.. إلى أن هدّنا الجنس والتعب، فسقطنا صريعين على عتبات النوم - أنا ونضال.

أنا والرفيقة نضال..!!

\*\*\*

المصائب لا تستأذن أبدًا، لا تملك من اللباقة ما يجعلها تفكّر في طرق الباب قبل أن تفتحنا.. عندما انزلتُ صباحًا إلى غرفتي متعبًا وضائعًا، واجهني باب غرفتي مشرّعًا كفضيحة. أول الأمر ظننتُ أنني نسيتَه هكذا أو لم أحكم إغلاقه، لكنني كلّما تقدّمتُ خطوة إلى الأمام، تأكدتُ أكثر أنني على موعد مع فجيعة أخرى. أحسستُ أنّ العالم، كلّ العالم يمشي وفق منطق معكوس، وأنّ أشياء غير طبيعية يعبق بها مدخل الغرفة وجوّها الذي كان مشحونًا باحتمالات قاسية.

شعرتُ أنني غريب جدًا عن فضاء غرفتي وعن هذه الأشياء / أشياءي المقذوف بها في كلّ مكان. مرّت يد الفوضى من هنا فتبعته. ملابس مكوّمة على الأرضيّة كأنّها معروضة للبيع في سوق للألبسة المستعملة، السرير مقلوب، زجاجات الخمر تهشمتُ وملاّت دماؤها المطبخ. وتذكّرتُ فجأة أوراقِي ومذكّرة خولة وشرائط جوليا، ولم أتنفّس الصعداء إلّا حين عثرتُ عليها في مكانها لم تُمسّ، وحزنتُ وأنا أقتفي العاصفة إلى الحمام، وصُدمتُ أيّما صدمة حين وجدتُ أحد كتبي مدقوقًا بمسمار فوق دورة المياه تمامًا، وصدمتُ أكثر حين التفتُ إلى المرأة ووجدتهم قد تركوا لي رسالة بـ الأحمر:

«\_\_\_\_\_ التحذير ما قبل الأخير \_\_\_\_\_»

وكنْتُ في تلك اللحظات، أحترق وأشعر أنّ كلّ أعضائي الداخليّة

تفتّح دفعة واحدة، تَمَنَيْتُ لو يسعفني صوتي لأصرخ بصوت مدوّ يهتّزُ  
له الغربان ورعاة الظلام فوق الجبل. عاد الملتحون مضْمَخين بدماء  
مصطفى، عاد البياض الزائف ليفتح في أضلعي فجوات مزمنة من  
الكرامية.

بين الحروف الحمراء القاسية لهذا التهديد المكتوب على المرأة،  
رأيتُ ظهر المهرّاز أواخر القرن الماضي. رأيتُ الساحة الجامعية التي  
غَطَّتها دماء الطلبة قد استحالت إلى رصيف هامشيّ يكتظّ بلحاهم،  
رأيتُ إنزالاتهم في تلك المرحلة، رأيتُ جرّارين وبقّالين وبائعي خضرة  
وبائعين متجولين غرباء عن الجسم الطلّابي، يمشون كالديكة في  
الساحة الجامعية التي كانت إلى الأمس القريب معقلاً للمجد والنضال،  
يتأبطون سواطيرهم وسلاسلهم. . كم أسأوا إلى الجامعة!

وأنا أمسح العبارة بيد وأرشفها بالماء باليد الأخرى، رأيتُ شلال  
الدم الذي انفجر من عنق أحد الرفاق بعد أن مرَّ به سيف من سيوف  
الجرّارين الجدد، رأيتُ الموت يخبّط بالراح وقوة على بابه، رأيتُ  
شريانه الذي انفتح على الفراغ وأصابه المرتجفة، رأيتني وباقي الرفاق  
متحلّقين حوله يمضغنا الأسى والغضب، رأيتُ سيّارة الإسعاف التي لم  
تأتِ، رأيتُ نضال البعيدة تمام البعد على ما هي عليه الآن دامعة  
العينين شاحبة، رأيتُ سيّارات الشرطة تطاردنا من سفوح وسلان إلى  
فضاءات باب الفتوح، وتنتشلنا واحداً واحداً مخلفين الساحة في يد  
القتلة الحقيقيين، رأيتُ أشياء مؤهّنتني الذاكرة حين أوهمتني أنني  
نسيتها، رأيتهم بلحاهم المسبلة كالقردة يقتحمون حلّكة الطرق السريّة  
في ليل الجامعة، ويفضّون عناق عاشقين وخذتھما الغربة! ثم رأيتُ  
الرفيق الشهيد وقد استسلم للموت في النهاية بعد أن عجزت كلّ  
المناديل عن سدّ الرق الكبير في عنقه.

وأخيرًا، رأيتني في المرأة شاحبًا، أهو الخوف؟ أم هو الحدس  
الباطني الذي باغتنني هذا الصباح بدنوً أجلي؟ وإن يكن ستحسن لي  
الحياة كثيرًا إن هي عجلتُ بنهايتي.

سحبْتُ من كومة الملابس قميصًا وسروالًا، غيّرتُ ملابسني  
بسرعة، وألقيتُ علبة السجائر في جيبني والولاعة وأخذتُ معي مذكرة  
خولة وانصرفت. في مقهى الفندق حيّئتُ حميد وناولته على عجل  
مفاتيح الغرفة ثم أوصيته بالبحث عن سيّدة تلملم شتات الغرفة،  
وهربتُ إلى الحقول وكانت يدي اليسرى ترتجف. ولأنني كنتُ أمسك  
السيجارة بها، فقد أشعرتني الأمر باضطراب فادح. وما دام الإحساس  
بالجوع هو الذي يسبّب لي عادة هذا الارتجاف، فقد أخذتُ من حقول  
إغرم تفاحة وحبّات عنب من دالية دانية. تذكّرتُ مصطفى ومضغني  
حزن جاف، ابتلعتُ الصدفة وخلفّنتني على عتباتها منتظرًا، حين بلغتُ  
الوادي ركضتُ بكلّ ما أبقّت لي الحياة من قوّة، كأنني أستنزف نفسي.  
فككتُ عن الوادي طوق الصمت الذي كان مضروبًا عليه، وصرختُ  
فيهم بعد أن فككتُ كذلك كلّ أزرار القميص:

– افعلوها وخلّصوني. اخرجوا من شرنقة جنكم واقتلونني.

وكانت الأصدااء تعود إليّ طازجة دون أن تصحب معها رصاصة  
ماهرة، فالتجأتُ إلى مقام سيدي عيسى متعبًا. تأملتُ حبّات التين التي  
احمرّ حليبها، ولم أتمالك جسدي وانخذتُ فوق صخور المقام  
وبكيّتُ بشكل جنائزي. أحسستُ أنني هشٌّ أكثر ممّا ينبغي، وبقيتُ  
هناك جاثمًا فوق صخور المقام إلى أن أدركتني نوميديا وحصانها،  
عندما تطلّعتُ إليها بعينيّ الدامعتين، أحسستُ أنّها أمل بعيد المنال،  
وتأكّدتُ أنني حقًا علقتُ في شبّاكها.

## (١٢)

أرخيتُ زمام الحصان حين رأيتُ غير بعيد عنَّا وعلاً صغيراً يراوغ بمهارة غريزية جروف الجبل ويقاوم إغراءات الهاوية. أغرقتُ وجهي في شعرها المخملي المتطاير ثم اتكأتُ برأسي على كتفيها، وكانت مذكّرة خولة تنام بيني وبين ظهر نومديا؛ أمّا الحصان، فقد كان يمشي الهوينى واثقاً من خطاه ودربه.

- لم اختر على أيّ حال حياتي، لذلك لستُ خائفاً من أيّ شيء أو أيّ أحد، لم يبق في يدي سوى أن أتابع هذا الجنون إلى آخره. أتعلمين..؟ أحياناً أصدّق أهل القرية الذين ألحوا على أنني لعنة، ولذلك أخاف عليك من هذه اللعنة، ويكفي أن تصيخي السمع إلى وجعي من صفره إلى هذه اللحظة لتتأكّدي أنّ الذين أحببتهم، تماماً كأولئك الذين كرهوني، ماتوا؛ وأنا اكتفيتُ بمراقبتهم وهم يسقطون كأوراق الخريف. كنتُ أموتُ بموتهم تدريجياً، هكذا يأكلني الموتُ على مهل. إليك مثلاً قصّة سيّدتين كيف لقيتا موتهما، وكيف كنتُ متورّطاً في ذلك بشكل أو بآخر. أعرف أنني لن أقول كلّ شيء وأعرف

أيضًا أنَّ الحياة اللعينة قد سلبتكَ القدرة على الكلام والاستفسار،  
فعدرًا إن كان في كلامي فراغات كثيرة، ولك أن تملأني هذه الفجوات  
بما تريدن . .

وحركت رأسها موافقة، فتابعت:

- العجوز أم امحمد، للرجل الذي عشر عليّ طفلًا في شهره  
الأولى وأسكنني بيته، كانت أكثر من في ذلك البيت معارضة  
لوجودي، وكانت لا تفوت فرصة لتهيني وتحطّ من قدري، كرهها كان  
يكبر معي إلى أن استحالت في أيامها الأخيرة إلى كتلة كره بشعة . .  
أتعرفين كيف ماتت؟

... -

- لقد أصابتها لعنتي كما صرّح شيخ القرية وزبّانته، احترقت بل  
واستحالت إلى كتلة لحم مشوي، واحترقت معها حياة أربعة أشخاص  
كانوا يتعاملون معي بقسوة أو يسكتون على ظلم العجوز لي . صحيح  
أنهم لم يموتوا، لكنّ حياتهم الطبيعية ماتت، كلُّ ما قاموا به أنهم  
تطوّعوا لإخراج العجوز من المطبخ الذي استحال إلى فرن كبير، لكنّ  
لعنتي لم ترأف بهم - كما صرّح فقيه القرية الدجال - إذ التصق جلدها  
المحترق بأياديهم فأورثهم الأمر مرضًا خبيثًا لا يشفى إلّا بالبر! أمّا  
المرأة الثانية فهي صفية وهي قصّة طويلة أفضل ألاّ تسمعيها كاملة، هي  
أيضًا ماتت، لأنها كانت تكرهني وتكره ذكورتني ونجابتي . . لكنّها لم  
تمت إلّا بعد أن خلّفت في روحي وفي جسدي ندوبًا لن تُمحى أبد  
الدهر! صفية هذه كانت أمًا لثلاث بنات ولم يستقدمني زوجها من إغرم  
إلى المدينة إلّا لأسدّ مسدّ الذكر في البيت، وربّما أيضًا لأنّ زوجها  
جاء بي من دون مشورتها، فقد اعتبرني عدوًّا لها لاعتقادها أنّ الزوج  
لم يقدم على مثل هذه الخطوة إلّا بعد أن تأكّد من عجزها عن إنجاب

الذكر، ولأنّ معاناتي معها وبسببها كانت أكبر من الوصف، فإنني أفضل ألا أخوض فيها وأكتفي بالسؤال، من قتل صفية؟ هل لعنتي أم حلمها.

... -

- حين زفّ لها الطبيب بشرى حملها، طارث كسرب غربان في السماء. أمّا حين أكّد لها فيما بعد أنّ ما في أحشائها ذكر، فقد قلّل هذا من سخطها عليّ، لكنّ ذلك كان بعد أن لبستها لعنتي وفاتّ الألوان وانتهى أمرها في صباح شتويّ بارد، استيقظت فيه على صراخ مزلزل هزّ البيت. وفي الظهيرة جاءني نعيها. كلّ ما في الأمر أنّ السيّارة التي كانت تقلّها إلى المستشفى - وكانت لأحد الجيران - قد اصطدمت بشاحنة أزيال، كانت مرابطة صدفة في أحد أزقة المدينة القديمة، قضت نحبها وقضى الطفل في أحشائها ونجا الباقون..

وتوقفتُ عن الحكي بسبب ألم فادح، جرّني من رأسي صوب عوالم تبرق وتضمحلّ في أقسى وأقصى تخوم الذاكرة. تذكّرتُ ما حلّ بي بعدها، وكيف أنّ الحسين، زوجها، قد صدّق ما راج في القرية عن لعنتي، فأسلمني بشكل سافل إلى شوارع المدينة التي تلقّفتني كمن يتلقّف هديّة من السماء. همّت على وجهي، فوق الظهر حقيبة مليئة بالأسى والملابس والكتب، ليلاً كنت أفترش الجرائد وقطع الكرتون وأتوسّد حقيبتني، وألتحق صباحاً بالثانوية. ومن حسن حظّي أنّ تشرّدي هذا كان بعد أن اشتدّ عودي، فكنتُ أعمل في أوقات الفراغ حملاً أو بائع سجاجير أو موزّع جرائد في أحسن الأحوال. على أيّ حال، كان ذلك قبل أن يفاجئني مصطفى في يوم حزين مفترشاً الأرض، ويأويني إلى بيته شهرين قبل الرحيل الكبير إلى القلعة الحمراء، إلى ظهر المهرّاز..

حين انتهينا إلى بركة «تامجا»، توقف الحصان بشكل عفوي. ترجّلتُ عنه، ومددتُ يدي إليها وأنا أنزلها، التحم جسدانا في لحظة رائعة. لكنّها سرعان ما ابتعدتْ تطلّعتُ إلى ملامحها، ناديتها:  
- نوميديا.

تأملتني، وأنا أفكّ أضرار القميص زراً زراً، اقتربتُ منها، فتوجّستُ منّي خيفة. قرأتُ ذلك في أساريرها، لكنّها لم تتراجع ولو نصف خطوة إلى الوراء، حين وقفتُ أمامها كنتُ ممتلئاً بالفجيعة، أدّرتُ لها ظهري قائلاً:  
- أنرين...؟

...

- إنها صفيّة التي حدّثتك عنها.

مدّت يداً إلى ظهري، ومرّت عليه بسبّابتها كأنّها تتّبع ندباً إلى نهايته. في لحظة مجنونة وضعتُ مذكرة خولة والهاتف جانباً، وركضتُ نحو البركة، وأخمدتني فيها كأنني قطعة حديد حمراء تحاول مطرقة الزمان تطويعها، لكن عبثاً. في تلك الثواني القليلة التي سبقت اصطدام جسدي بماء البركة، تأكّدتُ أنّ نهايتي ستكون لا محالة على يد نوميديا، وأنّ قلبي لم يعد يتّسع لأوجاع حبّ جديد. وسرّْتُ في ذهني فكرة كأنّها الحقيقة «جمال نوميديا مرض مزمن وجسدها العاجي فتنة وصمتها... آه صمتها وحي، نوميديا نبيّة».

حين اشتبك جسدي بماء البركة، خفتُ على نوميديا من سيوفهم الصدئة، وتوحّدت الفجيعة داخلي. تخيلتها شفرة حلقة تنزلق في لحظة سهو من جوفي، وتخربّ في طريقها ما أبقت في هزّات القدر العنيفة، في أجزاء الثانية التي أعقبت انسحابي من الماء، وشعري

يتدلّى على عينيّ. رأيتُ - أو تهبّأ لي أنّي رأيتُ - خولة تركض  
بجنونها المحبوب صوبي، أزحتُ بخفّة وفرح شعري عن عينيّ، سمعتُ  
لارتطام جسدها بالماء دويّاً. أمّا عندما انسحبتُ من الماء كما تفعل  
إناث الدلافين ووجدتُ نوميديا، لا خولة، فقد تأكّدتُ أنّ أشياء كثيرة  
في ذهني تسير على غير ما يرام، وأنّ عالمًا من الأطياف يزاحم أمام  
العالم الحقيقي، وخزني وجع مؤلم في رأسي، في جبهتي بشكل  
دقيق، وسرّتُ ذكرى خولة حين سألتني ذات مساء شتويّ حزين:

- كيف ترى أحزانك؟

- كالعنكبوت، تفتح في جسد ضحيّتها فجوة وتحقنه بمادّة تذيب  
صلابة عوالمه الداخليّة، ثم تشرع في امتصاصه إلى أن تتركه جسدًا  
فارغًا من أيّ شيء، وأنا لا شكّ معلقٌ في زيف خيوطها، تؤلمني  
الفجوات التي تتسع داخليّ يومًا بعد يوم.

التفتُ بولّه إلى نوميديا، وفركتُ عينيّ غير مصدّق ما أراه. كانت  
ترمقني بنظرات ملعّزة وصدرها يعلو وينزل انسجامًا مع شهقاتها  
وزفراتها، والماء هذا المجنون العاري وحّد ثوبها الأبيض وجسدها،  
فصار الأبيض شفافًا، وصار الجسد محنة جديدة.. وموجات الماء  
تسافر بيننا مشحونة برغبات مكبوتة وعشق صامت، وحدها نوميديا  
كانت تملك جرأة التركيز في عينيّ أطول قدر ممكن، عيناها الواسعتان  
والجميلتان كانتا مؤتلفتين ببريق سحريّ متميّز، أمّا شعرها فقد تشظّى  
بسبب الماء خصلات خصلات، فبدتْ أكثر إلغازًا وغموضًا ممّا هي  
عليه. أمّا جسدها الصلب المتماسك كشجرة أرز، فقد التصق به  
الثوب، فبدتْ تفاصيله محرّضة أكثر، جيد متماسك وغلّص، نهدان  
ممثلتان بالخصب، مرتفعان ونافران كأنهما منحوتان بدقّة عالية.

نوميديا فتنة، حين أخذتُ أحثُ الخطو نحوها، صار الماء ثقيلاً يقاومني، أما عندما لم يعد يفصل جسدينا سوى القليل القليل، فقد التهب قلبي وصفقَ بالحاح، أخدمتُ يديَّ في الماء فحطّنا كطائرتين منكوبتين على سفوح خصرها، وارتجفتُ داخلي أشياء كثيرة وسرتُ في أطرافي رعشة لذیذة وحارقة، اقتربتُ أكثر حتى انغرسْتُ حلمتها في صدري، شددتُ على خصرها بلطف ودنوتُ، جمال نوميديا يشردني، يبذدني ويسحقني، جمال نوميديا أشرس عذاباتي. وكنتُ في السرّ خائفاً من أيّ مفاجأة سخيّة، كأن يصهل الحصان فتفرّ إليه، دنوتُ أكثر إلى الشفتين العسليتين، فارتختُ أطرافها واستسلمتُ لحرارة الموقف..

لكنّ شيئاً لم يكن، عندما أوشكتُ شفاها على الالتحام انخطفتُ نوميديا!! انزلقتُ من بين يديّ كسمكة وامتنصّها ماء البركة فجأة، بحلقتُ في الماء طويلاً وأنا واقف على حواف الشهوة، طال مكوثها تحت الماء، وكانت كلّ ثانية في غيابها تمرُّ عليّ كأنها الدهر، وكدتُ أجنُّ لولا أنّها انسحبتُ من الماء باندفاع الدلافين، ولا أدري بالضبط إن كنتُ التفتُّ إلى تلك الحمرة الطافية حولي قبل انسحاب نوميديا من الماء أو بعد ذلك، لكنّ الأمر الغريب أنّ ذلك لم يلفت انتباهي كأنّه أمر واردٌ واعتيادي. تأملتُ نوميديا، كانت تكبّل وجهها أسئلة مؤجّلة، وكان يكفي أن تشير بسبّابتها إلى أنفي لأدرك أنّني فريسة لرعاف آخر، جرّني في لحظات سهو بين مخالب اللذة وأنياب الفجيعة إلى التخوم القصيّة للدهشة.

لا بدّ أنّ النزيف قد داهمني في الوقت الذي هممتُ فيه بتقبيلها، وإلاّ لما اكتظت البركة حمرة ولا انفلتت من بين أصابعي إلى قعر البركة، وخلفتني ذابلاً أنزف في صمت. ولم أفعل شيئاً لأوقف النزيف

الذي بدأ يقتات من أعصابي، كنت مأخوذاً بها جنساً إلى أبعد الحدود، رأيتها تغادر البركة وتجرحها خلفها وأنا واقف على صفيحة شهوية حارقة، راقبت انسحابها من البركة مشدوهاً ومنحطفاً، وتابعت تفاصيل جسدها، أقصد تلك التي كان الماء يضمها: ردفان مكتنزان يعلوان وينزلان كأنهما جزء من نواميس العالم، وثوبها المبلل التصق بها فبدت جسداً حقيقياً متكاملاً، كان الثوب الذي انحصر عند أعلى الفخذين يشعلني، فلا يضجُّ في روحي ولا جسدي سوى صوت الشهوة المزلزل، اشتيتها جسداً أضلعه إليّ وأفنى فيه وأبعث فيه حياً، ونسبتُ حقاً أنني أنزف، شعرتُ أنَّ النسيان صحبة نوميديا أمر ممكن، ليس نسيان الرعاف وحسب بل ونسيان جميع خيباتي وآلامي، رأيتُ فيها الشفاء.

أما ما جرى بعد ذلك، فقد كان أشبه بحلم ننسى نصفه. استدارت إليّ بعدما اقتربتُ من حصانها فاشتعلتُ موتاً وحنيناً إليها، وتغلغلْتُ داخلي حقيقة مرّة هي أنَّ نوميديا أبعد من أن تدركها أصابعي، مدّت يدها إليّ وأومأت لي: تعال!

كانت أصابعها وعيناها البهيتين تناديانني بإغراءات واضحة، فحثتُ الخطو صوبها، فصار ماء البركة أثقل بكثير ممّا كان عليه كأنها دمائي أثقلته. قاومتُ باستماتة تمرّده وجبروتها ومضيئ، صحيح أنَّ ألماً حاداً كان يشقّ جبهتي إلّا أنَّ نداء الحياة داخلي، نداء نوميديا استطاع أن يقهر إلى تلك اللحظة نداءات الموت التي أدمتني، لكن بعد ذلك لم أعد أذكر على وجه التحديد ماذا وقع! فالزيف الذي تجاهلته طويلاً لم يتجاهلني، كان يأكل من قواي شيئاً فشيئاً. حين بلغتُ اليابسة أدركتُ فداحته. . أما نوميديا، فكانت تبدو وتختفي حيناً وتنداخل حيناً مع تفاصيل أخرى من حياتي، تطفو على الذاكرة

وتستحيل إلى صور حقيقة أراها رؤية العين، وأنا في كل هذا أقاوم ذلك الخدر الذي بدأ يزحف على أطرافي. أنا أزحف صوب إغراءاتها المتكررة، ودمي ينساب على فمي مالحاً ويشكل نقطاً صغيرة أمام خطواتي المجهدة.. في لحظة انكسار - أذكر ذلك جيداً - مددت يدي إلى نوميديا، لم أكن أريد منها في تلك اللحظة أكثر من أن أحضر بين أحضانها، إن كان لا بدّ من احتضار، لكن دون جدوى! لا هي تقترب قليلاً، ولا أنا أقوى على بلوغها، أحسستُ بفشل يصعد من قدمي ليشلّ كلّ أطراف الجسد المستنزف. كانت أنفاسي تعلو وتخبو مجهدة، وكان قلبي المرقّع كجوارب الفقراء يتمزق في صمت، ويقاوم تصدّعاته التي بدأت تتسع بخفقان بطيء جداً، ولكنه مدوّ يُسمع له صدى عميق وحزين داخلي.

ورأيتهما تبتعد، أو لنقل كنت أراني أبتعد، جثمتُ على عينيّ حلقة قاتمة، فركتهما، فاستحالت الحلقة إلى مساحات بيضاء تصغر شيئاً فشيئاً إلى أن اضمحلت في السواد، وسمعتُ لارتطام جسدي بالأرض وقعاً صاخباً، وغشيني ألم لذيذ. كان نداء الموت يتنزل فيّ فيرفعه عني قليلاً نداء الحياة.

أما نوميديا، فقد أصبحت وجعاً آخر يلتحق بقائمة الأوجاع التي لا شفاء منها، وأنا الآن متعب وضعيف، وإن كنتُ أوارى هذه الحقيقة حتى عن نفسي، أنا قشة في مهبّ العواصف والسيول!

كلّ الذين أحبّهم يرحلون، حين يكون حضورهم بالنسبة لي ضرورة ملحة.. كلّ الذين أحبّهم يكلفونني ما لا أطيق، أما الآخرون فكلّ بطل مسرحيته التي لم يقرأ نصّها! الأسواق تكتظّ بهم والمنازل والفنادق والملاجئ والمرافئ والمحطات.. وأمراء الظلام الجدد يدهنون لحاهم بالزيت، فتشعّ ببريق قاس.. وخولة في مكان قريب

تبكييني، وتبكي طفلنا، وجوليا، هي الأخرى في البعيد تحبكِ قصّتها  
كأنها «تغزل» الصوف أو تنضد ضفائر طفلة شقراء لقيطة! أمّا أنا، من  
أنا؟ أنا الممدّد فوق جنادل الوادي، عاريًا كمجنون ليلى في دقائقه  
الأخيرة..

الآخرون ثقبوا قلبي، حين لم يلتفتوا إلّا شفقة إلى الأسلاك  
الشائكة التي تضيق كلّ يوم على روعي القلقة. أحيانًا أسأل، أيّ ذنب  
جنّيته لأعيش حياة القبيء هذه؟ كان جميلًا لو كنتُ غيمة أو شجرة  
صفاف، تراودني نسائم إغرم وأنا مستسلم لوحدي..

إغرم لا تلتفتُ لغيابي أو حضوري، لا فرق! إغرم كنوميديا  
تعيشني كما تشاء هي، دون أن أظفر بفرصتي لأعيشها.. هكذا شاءت  
نواميسها، تعيش بنا أو دوننا، الأمر سيّان عندها، إنّها في ملكوت  
سحرها وبهائها هي الأصل والمبتدأ، وهي المنتهى. أمّا مراد الوعل،  
فليس سوى عابر سقط سهوًا من مكان ما، ووجد نفسه في أحضانها،  
فتشبّث بها ظلًا منه أنّها أمّه.

إن كان لي حقّ في أن أأسف على شيء، فأسف على أولئك  
الذين أحبّوني ورحلوا دون أن ألفت انتباههم إلى شعاب أوجاعي  
السحيقة؛ وإن كان لا بدّ من اعتذار، فخولة أجدر به، وإن كنتُ أملك  
الحقّ في أن أسامح، فأسامح قلبي.. قلبي الذي أتعبتني ثقوبه  
وتصدّعاته «لقد عذّبت قلبي وأحسن تعذيبه».

## مع مسودّات رواية «مراد الوعل» لجوليا (ك)

قدري ألا أشفى منك يا مراد، تبّاً لكلمة «القدر»، التي نعزو إليها جميع حماقاتنا وخيباتنا! ربّما لنخرج من تجاربنا بالحدّ الأدنى من الشعور بالذنب. في إغرم - هذه القرية الغامضة واللامبالية - تستحيل الذكريات، حتى الجميلة منها، إلى لزوجة سوداء تضيق على القلب والذاكرة.. إغرم! أحسّ أنّها تكرهني في غيابك حدّ المقت، أمّا أنا فلا أقوى إلّا على حبّها تمامًا، كما كنت تفعل ربّما وفاء لذكراك، أو ربّما لأنّ لوثّة عشقها أصابتني مثلما أصابتك.

في كلّ صيف، تغريني هذه القرية بالعودة، فأعود إلى غرفتنا في الفندق، في كلّ صيف تغريني بأن أذبحك مرّة أخرى بقلممي وأنشر دمائك على البياض، في كلّ صيف تستبدّ بي حالة عطش إلى جسدك فأطارد سرايبك حتى أتعب. آه، كم أشتاق إلى عينيك، إلى محيّاك، إلى ذلك الزغب الخفيف الذي يتوسّط صدرك.. كم أحنّ إلى صوتك المجرّوح دائماً!

في كلِّ صيفٍ أموت بك، ربّما لا أموت بشكلٍ كُلّيٍّ، لكن تموتُ  
في كلِّ صيفٍ أشياء كثيرة، تنسلخ منّي أشياء صميّة، وتتضخّم في  
المقابل أورام الذنب داخلي.

«... تمنيتُ لو لم يكن بنهاشم وسيّطًا بيني وبينك، لو حلّت  
الصدفة مكانه، كأن تكونَ على عجلٍ فترتطم بي صدفة في مكان ما،  
فتنحني لتناولني الحقيبة وتدعوني بعدها إلى فنجانٍ قهوة، أو تطلب  
منّي على الأقلّ رقم هاتفي وتبتدئ الحكاية بعدها! لكنني لم أستجدِ  
الصدفة، لأنني لا أوّمن بعبثيّتها. لقد اخترتُك قتيلاً عن سبق الإصرار  
والترصّد، وبحكم أنّ بدايتنا كانت آثمة، فقد كان أمرًا طبيعيًّا أن يكون  
كلّ ما جاء بعدها أكثر إثما..»

لكنني أحببتك كما لم أحبّ رجلاً سواك، لكن بعد فوات  
الأوان. فالحبّ العظيم لا يكتمل أبدًا، لا نلتفتُ إلى عظمته دائمًا إلّا  
بعد فوات الأوان.. وأنا لم أكن مستعدّة للتمسّك أكثر بهذا الحبّ،  
والعالم من حولنا ينهارُ بسببي. وعجلتُ بنهايتك كذلك - وهذه قمّة  
التطرّف والساديّة - ليس فقط لأدفعك للكلام والبوح، بل أكثر من ذلك  
انتقامًا منّي، لأنني لا أستحقّك. والآن، والزمان قد جرى بيننا،  
استشعر مدى أنانيّتي وغبائي حين لم أكتفِ بالتفرّج فيك وأنت تنذبح  
كلّ يوم أمامي، بسبب أولئك الذين لم يتركوا في قلبك ولو حيّزًا  
صغيرًا يسعّفك على الاستمرار. قرّرتُ أن أكون في صفّهم ضدّك، وأن  
أرسل قلمي في ظهرك مديّة، لكنّهم كانوا أشرف منّي على الأقلّ.  
واجهوك وصرّحوا بذلك علنًا، أمّا أنا فقد خُتكت وطعنتك في الظهر،  
صحيحٌ أنّي التفتُ إلى هذه الحقيقة وحاولتُ معالجتها مهما كلّفني  
الأمر - لكن دائمًا بعد فوات الأوان -، أعترفُ يا مراد أنّي قتلتك،  
وأعترف أنّي تعمّدتُ أن أضع كلّ الأدلّة التي تدينني في متناول يدك،

وأواجه بعد ذلك كلّ النتائج المحتملة، تعمّدتُ مثلاً أن أبقى حقيقتي مفتوحة علّك تفتّشها، تعمّدتُ أن أنشر رقم بنهاشم في كلّ أوراقي لعلّك تلتفتُ إليه، كنتُ أرى في الأمر انتحاراً شريفاً، لكنّك كنتُ أشرف منّي حين صفعتك على خدّك الأيمن فأدرتُ لي خدّك الأيسر. كنتُ أتوقّع أن تثورَ عندما تكتشف حقيقتي، لا سيّما من الشرائط الصوتيّة التي اكتشفتُ بعد نهايتك أنّك استنسختها، لكنّك لم تفعل. والأدهى أنّ تصرّفاتك تجاهي بقيتُ على ما هي عليه، هكذا قتلتنِي مرّتين بصمتك وكرمك. . ربّما، لأنّ كلّ ما فيك وقتها كان ينزع نحو الغياب، بعد أن امتلأتُ بأحزانك، لم تعد حرك مع من ثقبوا بقسوة قلبك - بمن فيهم أنا - بل حرك كانت مع الحياة، التي ورطتك منذ البدء في مغامرة خاطئة. فلم تكن تبحث في النهاية سوى عن نهاية شريفة، أمّا ما دون ذلك، فلم يكن يهّمك في شيء. أذكر قولك ذات يوم وأنت واقف بين الحلم والهذيان:

- لا يهمني ما وراء الموت، عشتُ حياة بشعة، ما هو آتٍ مهما كان بشعاً لن يكون أبشع ممّا مضى.

«سامحني مراد، فقد استهدفتك أدبياً حتى قبل أن أراك، وربّما قبل أن أجيء إلى المغرب أصلاً. كانت في البال ضحيّة روائية ما، وكان قدرك أن تكونها. لكن ما وجدته هنا كان مخالفاً تماماً لما تصوّرتُه أو قرأته، كنتُ أتصوّر أنّ روايتي ستكون حول رجل ضخم الجثة، يلبس ثياباً فضفاضةً وينتشي بكوب قهوته الحارّة، ويقتل شاربه من حين لآخر، ويعقفه نحو الأعلى برماً بفحولته. . ومراد لا يمكن أن تسحب عليه هذه الوصفة الجاهزة التي سعتُ إمبرياليتنا الأدبيّة والسياسيّة إلى تكريسها في أذهاننا. كان حضارياً أكثر من أيّ أوروبي، وفحلاً أكثر من أيّ شرقي أو إفريقي، أكثر من ذلك كان مراد سراًباً،

غيمة.. . كلما حاولت ضبط ملامحها تغيرت، كان ألف رجل في رجل واحد.

«مراد.. . رجل لم أفهمه قط. كان فيه من التعقيد ما يجعله جذاباً للنساء بشكل غير معقول، وبعد أن نبشتُ في حفريات علاقاته القديمة، وبعد جلسات مع الكثير من الجميلات اللواتي وقعن في شركه، استنتجتُ أنَّ ما يعطي لشخصيته كلَّ تلك الجاذبية هو غموضه، هذا الغموض الذي يجرد المرأة من كلِّ طاقاتها، يشلُّها تماماً، فلا تنفك تعيد السؤال ذاته: من هذا الرجل؟ دون أن تظفر بإجابة تشفي غليلها.

أخطأتُ إليك السبيل.. . كان على الأمور أن تسير بشكل مختلف تماماً، لكنَّ الحياة، مثل كتابة رواية، تكون حرَّيتنا فيها أول الأمر فجّة، لكنّها مع أول اختيار حقيقي، تضيق شيئاً فشيئاً إلى أن تصبح أضيق من عنق زجاجة! ببساطة، لأننا نستسلم للخيارات التي يملئها علينا الاختيار الأول. ولم اختر مراد أول الأمر بل كان امتداداً لاختيار قبله، وهو استنطاق حاضِر الشرق من خلال استنطاق الرجل الشرقي، كان هذا الموضوع واحداً من ضمن مئات إن لم نقل ألوف المواضيع، التي كانت مطروحة أمامي، لكنني لم اختر سواه، وكان بإمكانني أن أختار أيَّ بلد، لكنني اخترتُ المغرب. وعند قدمي، كان بإمكانني أن أختار أيَّ رجل، لكنني فضلتُ أن يكون معتلاً نفسياً. وعلى طاولة الطبيب كانت مطروحة أمامي عشرات الملفّات، لكنني لم اختر سوى ملفّ مراد. وفي تعاملتي مع هذا الوعل السيئ الحظّ، كان أمامي العديد من السبل، لكنني اخترتُ أن أوهمه بالحب.. . وحده حبُّه الذي تغلغل فيَّ لم يكن اختياراً بقدر ما كان قدراً.

من الاختيار الأول، والذي كانت حرَّيتي فيه فجّة، وعبر سلسلة

من الاختيارات التي استبعدت الكثير الكثير من الاحتمالات، انتهيتُ إلى خيارين لا ثالث لهما، أن أقتلك أو أنسحب. . . ولأتني تورطتُ بما لا يدع حيزًا للتراجع، فقد عقدتُ العزم على الاختيار الأول مهما كلفني الأمر، هكذا كانت الجريمة! كلُّ الجرائم لا تتمُّ إلا بعد انحصار اختيارات المجرم في خيارين أو ثلاثة، لذلك نكون أحرارًا أكثر كلما، كانت فرص الاختيار أمامنا أقلّ.

بعد اختفاء مراد، فهِمْتُ أنَّ الرجل الشرقي فيه شيء من شهريار، لكنّه ليس نسخة مشابهة له، وفهِمْتُ كذلك، ما فهمه العديد قبلي، أنَّ التعميم تعسُّف ينتج عن الاعتداد بالأنا الجمعي، أمّا عن مراد الوعل فلم يكن بعيدًا عن شهريار، لكنّه كان مثقَّفًا من الدرجة الأولى، وأكاد أجزم أنَّ نبوغه المعرفي على حسناته، قد عمَّق فهمه لمأساته الشخصية، هو الذي سعى دائمًا لوضع حواجز بين حياته وكتاباتهِ فقط كي لا يكثر عنه القيل والقال. . .».



# الفصل الثالث

نزيف على حواف الخيبة



«وأذكرُ ما الحبُّ شتَّه من حياتي  
 فأسفُ حينًا . . . وأصرخُ ملء السماء  
 «أيا حبُّ لملم شتائي . .  
 لأوقن أنني، أنا في رفاتي  
 أسيرُ،  
 وأنَّ الجميلاتِ هنَّ القضاء  
 وأنَّ الجميلاتِ حرَّفنَ مجرى حياتي . .»

### مراد الوعل

«ليس العلوّ هو الذي يخيف بل المنحدر  
 لأنَّ فيه يتّجه النظر إلى الأسفل وتمتدّ  
 اليد إلى الأعلى باحثة عمّا تمسك به،

هناك

يصاب القلب بالدوار . . »

**نيتشه**

«يمكن أن يدمّر الإنسان، لكنّه لا يَنْهزم»

**أرنست همنغواي**

على كلّ من يريد المجد أن يتخلّى عن الشرف في الوقت  
المناسب،

ويمارس الفنّ الصعب،

فنّ الرحيل عن الدنيا في الوقت المناسب . .

**نيتشه**

## (١)

«حين ضلعت نوميديا إلى صدري، تيقنت أنني يمكن أن أنسحق بسهولة أمام جمالها، أمّا وأنا أغرق في عينيها الواسعتين وشفاهنا على أهبة توقيع أول قبلة حقيقية، فقد أدركت أنّ حبّها لا محالة قاتلي! وانخطفنا بعد ذلك، إذ ابتلعنا دوامة القبل اللذيذة. كلّما شددت على رديها بقوة، انغrust أظافرها كلبؤة في ظهري، وانفتح فيه أكثر من باب للجنون. انتقلت بأصابعها إلى شعري تداعبه وتشدّ على عنقي في الوقت الذي أغرقت لسانها في فمي، ففاجأني مذاق أزيز ملتبسًا بالنوار. شعرت أنّ ذلك المذاق وحده، كفيل بأن يبعث فيّ من الرغبة ما يكفي لأضاجعها إلى الأبد، دون أن يرتوي عطشي..»

انزلقت شفتاي إلى جيدها المتماسك كجذع شجرة، واشتبكت بي، قاوم الماء يديّ وأنا أسحبهما من سفوح خصرها، أمّا عندما حطّتا على كتفيها فقد انزلقتا وجرتا معهما فستان نوميديا، وأماطت الفستان أكثر عن نهديها المكتنزين الصليبين والشامخين، انحنيت إليهما وجعلتُ أمّصهما بشرو، وأنا أصيخ السمع إلى خفقات قلبها القويّة

وتأوهاتنا السريّة. نوميديا تكرر وتفرّ، تجتاحني كما فعل بي السيل أيام  
الطفولة الشقيّة، تغرقني فيها وتمدّ لي حبل النجاة كلّما لامست قعر  
الهلاك، وأنا مفتتن بها، أشدّ بكلّ حواسي على نهدها وبي حنين  
طفوليّ لذلك. أشدّ على الثوب الأبيض الذي انحسر عن فخذها،  
أسحبه إلى الأعلى بشهوانيّة، فيطاوعني فستانها إلى أن اجتمع كلّ عند  
صرتنا طافيًا، ناسيًا هاششتي أمام هذا الجسد المحنة. وعبرث بي،  
وأنا ملتبس بشهوات غامضة، ذكرياتي وأنا وعل صغير يتلصص على  
نساء القرية وهنّ يتراشقن عاريات بالماء. كنت ممتلئًا - كما الآن -  
بصمت موجه وشهوات مؤجّلة.

نوميديا تلتحم بي عاريين والماء يشطرنا نصفين، فوق الماء،  
عادت شفاها لاللتحام مرّة أخرى، وإن بحرارة ونزق مضاعفين، تحت  
الماء، كنّا متداخلين نسقط ما تبقى من ملابسنا، ولم أكن خائفًا لا  
عليها ولا عليّ من زبانيّة الظلام. أحسست أنّني حرّ طليق من كلّ  
شيء، حتى من أحزاني، واشتبكنا اشتباكًا يقصي كلّ احتمال للتراجع.  
شدّت بأظافرها على ظهري، التصقت بي وانغrust فيها، كان جسدي  
مشتعلًا كبركان نشيط يتطاير رغبة وشبقًا. . أما هي، ففي ذروة لذتها،  
هزّت رأسها عاليًا كأنما تتأمل ملاكًا شاردًا، واشتدّ شهيقها وزفيرها  
معًا. في لحظة مبهمه، شعرت أنّ شيئًا ما قد انكسر بيننا. وما هي إلّا  
هنيهات حتى اندفعت إلى سطح الماء تمامًا، بيننا دماء ورديّة ضاربة  
إلى الحمرة. أدركت بسرعة أنّ عذريّتها سقطت وجثمت على عينيّ.  
تلك الحمرة أراها حيثما أدرت رأسي.

التفتُ إلى عينيها اللتين اكتظّتا دمعًا، فحزنت، واندفعت في  
جوفي حسة مخيفة، وغافلني اندفاع الحمم البركانيّة بين فخذيّ محرقة  
ومتهورّة. وقتها طفا السواد على عينيّ، وبدأت أسمع ضجيجًا أشبه ما

يكون بصافرات البواخر، ولم أذكر بعدها سوى أنّ الماء كان منافقًا وأنّ نوميديا نبيّة». واستيقظت.

بالكاد، فككْتُ طباق عينيّ. فتحتهما على الأعمدة الغليظة لسقف الغرفة. كنت ممدّداً على ظهري في مكان لم أستكنه جغرافيّته، في حين لفحني تاريخه كرياح صيفيّة ثقيلة وساخنة. مسجّى كنت على زربيّة متشابكة الألوان ووسادة خشنة أيقظت داخلي حنينًا إلى طفولتي المنتهكة. ألسْتُ فعلاً أوداد الصغير الذي جرّه النهر من قدميه، وانتهى به الأمر إلى غرفة كهذه؟ ألا يمكن أن يكون الله قد نسيني من يومها مسجّى على هذه الزربيّة، أبخلق في هذه الأعمدة الغليظة التي تهزّ السقف الطيني! وضعيتي الآن لا تختلف في شيء عن وضعيّة أوداد الذي رفضه الموت، كلانا نستيقظ من كبوة ونبخلق في السقف.

وزحفتُ يدي إلى سروالي، ضحكتُ في سرّي عليّ، حين تحسّست بللاً لم يعاودني منذ عهد قديم. آه، كيف يحتلم من هو مثلي؟ وكدت أجزم أنّ جسد نوميديا لعنة ابتليت بها. نوميديا، أيوصلني عطشي إليك إلى حدود الحلم؟ أيّ جنون يفتزع الآن روحي. حين يصيب الروح عطب ما، فإنّ الجسد يرتبك لذلك، وسرعان ما يتداعى، انتصبت واقفًا، لكن سرعان ما أقعدني دوار حادّ. بعد أن زالت السحائب السوداء عن عينيّ، تأملت مذكرة خولة وهي تستلقي مكدودةً إلى جانبي. أين أنا؟ لست أدري!

وكان آخر عهدي بالحياة، أن انسحبت نوميديا من البركة، وتركتني في مفترق الشهوة، بعد أن فاض أنفي. نعم، أذكر تلك الحمرة الفادحة التي جثمت على سطح البركة، وأذكر أيضًا أنّ أصابع نوميديا التي كانت تستدرجني إليها. نعم، وانسحبت من البركة وأنفي لم يتوقّف عن نزيفه مقتنيًا إيماءاتها المغرية، وهي تتعد شيئًا فشيئًا إلى

أن أدركتني الغيبوبة قبل أن أدركها..

لكن، كيف انتهى بي الحال إلى هذا المكان؟ وأين نوميديا؟  
تُرى! أظلت تتأمل غفوتي الاضطرابية أم مضت كعادتها إلى المجهول؟  
أنا أحبها، نعم. هذا الاعتراف الذي سعت كل النساء اللواتي عبرن  
في حياتي إلى انتزاعه، وكنت منافقًا جيدًا حين كنتُ أحرك به لساني  
فقط لأسقطهنَّ في شركي.

الآن فقط، أستشعرُ عمق خسارتهنَّ. أسوأ أمر أن تشقَّ صدرك  
بمشرط الحب، وتنتزع قلبك من مكانه وتسلمه لمن لا تعرفه تمام  
المعرفة. ما حصل لخولة معي، يحصل لي الآن مع هذا الملاك،  
الذي ترجّل فجأة من عليائه وسلبني كل شيء.

واستبدَّ بي وجع مزلزل في رأسي، شعرت إثره كما لو أنّ حبلاً  
داخل رأسي تشدّ فجأة، ثم تتمزق حبلاً تلو الآخر، فأخذتُ مذكرة  
خولة بين يديّ وأنا أنزف ذاكرة.

المكان وحده ينسف ما أبقث في الحياة من جميل يهزني ويسرِّحُ  
بي في تخوم الذاكرة القصية. لكنني لم أبتعد عنك يا إغرم. صحيح أنّ  
حساب الشهور والسنوات قد يخلط أوراق هذه الفكرة، لكنّ الرائحة  
التي يعبقُ بها هذا المكان، وهذه الزرابي، وتلك البندقيّة المعلقة على  
الجدار، إضافة إلى الزخرفات الحديدية على النوافذ قليلة الارتفاع،  
وذلك السقف الذي تهزّه الأعمدة الخشبية والقصب، كلّ هذه الأشياء،  
لا تقول سوى أمر واحد: إنني لم أبتعد كثيرًا، وأنّ كلّ ما كان بعد  
إغرم ليس سوى غفوة خطفتني من سيول الحياة البائسة إلى كابوس  
أبأس.. وها أنذا أستيقظ.

المكان وحده يلجم الزمان، ويعلمه فنّ الحلقة في جاذبية الثقوب

السوداء التي تمتص أعمارنا . المكان مراوغ ومنافق هو الآخر يستوقفنا، فيفرّ الزمان منّا إلى البعيد تمامًا إلى نقطة البياض في نهاية النفق. نفتني أثره، نتبعه إلى آخر النفق ببراءة طفل يمدّ يده إلى جمرة! هناك لا نجد سوى موتنا وقد ملّ لعبة الانتظار. كتبت خولة:

«نعيش معًا أو نموت معًا، هكذا أجبت صديقة نصحتني بإجهاضه، بالطبع لم أكن مقتنعة بأيّ رأي، وقرار الإجهاض لا يمكن أن أبتّ فيه دون إذن مراد! آه، أينك يا حبيبي، لو تعلم فقط أنني حبلى.. وما سوى ذلك لا يهم».

وكسر خشوع القراءة صرير باب انفتح في مكان ما، ثم تلتّه أقدام ووشوشات تدنو من الغرفة، لم أستبن منها سوى صوت حميد القائل:

- أين وجدتموه؟

وقاطعه صوت آخر، قائلاً:

- أول الأمر ظنّناه نائمًا، حين اقتربنا منه وناديناه، لكنّه لم يستجب. حين تأكدنا أنّ مُصابًا ألمّ به، ألبسناه ملابسه وحملناه أنا وأخي الحسين إلى البيت.

- أعتقد أنّ هذا الشخص غريب الأطوار وغامض جدًّا.

- كيف ذلك؟

- رأيته ذات يوم منكفئًا على وجهه في مقام سيدي عيسى، كان يبكي بحرارة.

وانطلق صوت آخر أكثر خشونة:

- أنا أيضًا رأيته يتكلّم وحده في الوادي، ويلهج بعريّة كتلك التي تُدرّس في المدارس.

- لا شك أنّ الرجل يعاني من مشاكل اضطرتّه إلى الاختفاء في القرية.

وأردف آخر:

- ولم لا يكون قد اقترف جريمة في مكان ما، أو اختلس أموالاً وجاء يستثمرها هنا حيث لا تراقبه سلطة؟  
وقال آخر:

- أنا أيضاً رأيته يركض في الوادي ويصرخ ملء جوفه «اقتلونني... افعلوها وخلصوني».

- أمّا أنا، فأجد ملامحه مألوفة كما لو سبق لي أن رأيته. حميد ما اسمه؟

- مراد... اسمه مراد، وأنا بحكم أنّي أقربكم منه، فأعتقد أنّه متعب فقط، لا سيّما بعد أن رحلت (الروميّة) التي كانت بصحبته، لقد أصبح كثير الشرود، يحدث نفسه بكلمات غامضة! تصوّروا أنّه قلب غرفته رأساً على عقب من دون مبرّر.

وسكّ لبرهة، ربّما كان يأخذ نفّساً من سيجارة، واسترسل:

- ربّما هو الإكثار من الشرب هو الذي فعل به ما فعل، إنّ الرجل لا يصحو من سكرٍ إلّا على سكرٍ.  
واقاطعه آخر بانفعال، قائلاً:

- أظنّ أنّه ممسوس، ربّما سكنته جنّة الوادي! ألا ترون أنّه آدمّن الوادي، وأنّه يتكلّم هناك بمفرده كما صرّح بعضكم... أضف إلى ذلك، أنّه صرّع... هناك وأنا أكاد أجزم أنّ جنّة الوادي وراء ما يقع له.

استنتجت من كلماته أنّه فقيه القرية، وكنت مع كلّ كلمة يضيفها

أرسم له ملامح في خيالي.. تصوّرتَه بوجه يابس نحيل ولحية غير مكتملة وجبهة ضئيلة وأنف معقوف، ومزّقني صوت آخر بضربة أشدّ إيلاًماً:

ـ قربتنا تكره الدخلاء و(رجال البلاد) يغضبون ويسلّطون نعمتهم على كلّ من يعيُثُ فيها فساداً.. ألا تذكرون كيف مات (سبعة رجال)؟!

وسرحت بي كلمتاه الأخيرتان إلى الماضي البعيد، هؤلاء الرجال الذين كانوا في زمن بعيد يلعبون القمار كلّ ليلة في مقام سيدي عيسى، ويشربون الخمر على مرأى من الوليّ الصغير النائم في قبره.. أذكر جيّداً القصة التي لا ينفكّ امحمد يعيدها على مسامع أبنائه أيّام الطفولة. كان كلّ مرّة يُعيدها بشكل مخالف للمرّة التي قبلها، وأحياناً يقول أشياء تناقض أشياء أخرى سبق وقالها، لكن بؤرة القصة أنّ هؤلاء الرجال الفاسدين والمفسدين سيعاقبون من طرف قوى غامضة ورهيبة لكنّها خيرة، يصرُّ أهل القرية على تسميتها رجال البلاد. أذكر أنّ امحمد صرّح بأنّ رجال البلاد قد دبّروا لهؤلاء الفاسدين صدفاً، تقود كلّ واحد منهم إلى ميتة مختلفة، ولم يُبقوا إلّا على رجل واحد، لكنّه ظلّ حيّاً ميتاً بعد أن أكلت الغرغرينا ساقه!!

ـ إنّها لعنة رجال البلاد، هي التي ألّمت بهذا الغريب.

أضاف أحدهم، وقاطعه آخر قائلاً:

ـ وقد تكون ضربة جيّنة الوادي..

وخرّبني نقاشهم أكثر ممّا ينبغي، أحسستُ أنّي عقب كلّ كلمة تُقال، أتهاوى في بئر الانخدال السحيق. قالوا أكثر ممّا ينبغي، بل إنّهم قالوا كلّ شيء دفعة واحدة، ولم يتركوا للصمت ولو هامشاً

صغيرًا أسلو به، ومثلما حاكموني صغيرًا بتهمة أنني لعنة، ها هم يحاكموني كبيرًا بتهمة أنني ملعون.

بقايا بقاياي ممّا خلّفته الحياة والفقدان ومحنة جوليا ومرارة حلفاء الظلام.. جاءت هذه الترهات التي أصخّث لها السمع لتعصف به، وتفتح أمامي باب الجنون مشرّعًا عن آخره... ولأنني لم أتمالك نفسي، أو ربّما لأنّ بعض الأشياء يجب أن تقع، وبالصيغة التي تملئها انفعالات الموقف، فقد فتحت الباب وصرخت فيهم لأول مرّة بالأمازيغية:

– لستُ مسكونًا بجنيّة الوادي ولا ملعونًا، كلّ ما في الأمر أنني متعب.. مريض..

وظلّوا مشدوهين، لأنهم لم يكونوا يتوقّعون أن أحاطبهم بلغتهم، لم أبالِ بعلامات الدهشة والاستغراب التي ارتسمت على ملامحهم، بل استسلمتُ ليد طفولتي التي جرّتني صوب الباب.. أحفظ هندسة منازل إغرم، لأنها مثل سكّانها متشابهة.

عندما تنفّست هواء ما بعد الظهيرة، شعرتُ برغبة جامحة في البكاء، همت على وجهي ساعات لا تلوي قدمي على هدف. أنا الهارب من ضوضاء المدينة وزعيق السيّارات إلى ضوضاء العواطف ونزيف الذكريات، فتشّثُ طويلًا عن نوميديا، انتظرت بفارغ الصبر انبلاجها كالحقيقة من الجبل.. لكن دون جدوى.

في لحظة يأس، وأنا بمقام سيدي عيسى، خالجتني رغبة مبهمّة في الأكل من شجيرة التين التي تفتّقت من دماء الشهيد. وقفتُ أمامها طويلًا، قلت ما دام في الأمر لعنة، فلأتقدّم أنا نحوها بدل أن أستسلم لها. حين مددت يدي لأقطف حبّة منها، تذكّرت أهل القرية كلّهم،

ومرّت أمامي وجوههم حتى تلك التي كنت أظنّ أنّ النسيان طواها، كيف كانوا يشدّدون بلهجة لا تخلو من صرامة على ضرورة تجنّب الأكل من حبّات التين هذه، ويلحّون على أنّ أكلها ملعون إلى أبد الأبدن.. هكذا بدأت ترشّح داخلي كلّ تلك المخاوف القديمة...

تذكّرت آدم والتفّاحة اللعنة أيضًا، تخيلته يمدّ يداً مرتعشة كيدي الآن. تعانق يده التفّاحة إذ تعانقه الغواية، فيستسلم لها؛ في حين أفرّ أنا من المقام.. حين انسحبت من الوادي وابتعدت قليلاً عن الجبل، بدت الشمس هناك في المدى البعيد تنزلق شاحبة نحو الطرف القصي من الكون، شددت مذكرة خولة بكلتا ذراعيّ إلى صدري. لست أدري لماذا.. لكنّ الغروب يفزعني!!

خولة.. ها أنت تشاهدين من كوة الباب الذي يفصل الأحياء عن الأموات ما حلّ بي بعدك، أقسم أنّني اشتقت إليك أكثر من أيّ وقت مضى. كيف تتغيّبين عني بعد أن خلّفت في القلب صدعاً فادحاً لن يزيده الدهر إلّا اتساعاً؟! خولة.. إنّني أقاوم ما استطعت إغراءات الهاوية والغد، هذه الدوامة التي تبتلع في طريقها كلّ شيء، صرت أخافه، أخاف مفاجآته التي لا تكون مأساوية إلّا معي..

كنت مخطئاً حين قرّرت العودة إلى إغرم، لأنّ جراحاتي لم تندمل بما يكفي لأقوى وأتمكّن من مقاومة هذا الزيف الداخلي، الذي تسمّيه الذكريات حين تكتظّ بي. كانت طريق العودة إلى الفندق شبه مستحيلة، كأنّ الأرض تتمدّد بيني وبينه وينسحب أبعد فأبعد..

يا شهيدة حبيّ! أجدني في لحظات اليأس المطلق - كهذه اللحظة - أشبه ما يكون بقلعة مبنية من كؤوس زجاجية، مرصوف بعضها فوق بعضها الآخر، فلا تتأخّر الحياة في مدّ يدٍ من لعنة إلى كأس من

كووس القاعدة، فأنهار ويغتالي دوي أنكسار الكووس!

خولة.. سامحيني مرة أخرى لأتني سقطت مرغماً في شرك نوميديا الصامته، في شرك الفضول الذي يعضني في القلب، وفي شرك جسدها المحنة. سامحيني، لأتني أسأت كثيراً إليّ أنا الذي لم أجد أحرص منك عليّ...

خولة، لقد اكتشفت متأخراً آخر الخيانات التي تعرّضت لها: جوليا التي اكتشفت أنها متزوجة وقد تكون أمّاً كذلك. إنها المرأة الوحيدة التي خُنتك معها، وهي متورّطة بشكل أو بآخر في قتلك، في السفر الأخير إلى باريس حين تغيبت عنك وتركتك في مهبط الموت، كنت بصحبتها! عذراً حبيبي على هذا الكلام الجارح، فما كنت لأقوله لولا علمي أنّك الآن حيث يفترض أن تكوني على بينة من كلّ شيء. تصوّري أنّ حبّها الذي طالما ادّعته لم يكن سوى وهم تجرّعته على مضض، لا شيء، فقط لتستفزّني، لتحرضني على الكلام وتعلّب حياتي بعد ذلك في كتاب. تواطأت مع طبيبي النفسي الذي باع ضميره وباعني لقاء ثمن بخس... تبّاً لوطن تعوّد أن يبيع كلّ شيء! جوليا أجهزت عليّ لا لأنها حاولت أن تكتبني بل لأنها خدعتني. عاشت معي ردحاً من الزمن بشخصية غير شخصيتها، عرفت كيف تفتعل حبّاً مزيفاً ربّما ساعدتها على ذلك إمكاناتها الروائية، المهمّ أنها أتقنت دورها ووثقت بها وانزلقت.. تصوّري أنّي كنت أقبلُ كذبة، أضاجع كذبة.. أعانقها حين أنكسر، وأشكو لها القليل من أحزاني، لكنّها، كانت مجرد كذبة انطلت عليّ بسهولة، ولا شك أنّ ما خفي في الشرائط أعظم!! وضحك في سرّي عليّ وعلى سخريات الحياة. فانفرجت شفتاي على ضحكة صغيرة، تطلّعت أمامي فإذا أحدُ الفلاحين يتفرّس في ملامحي باستغراب واضح. من يضحك وحده؟

أعلم، أعلم.. إما أن يكون ممسوسًا أو أحمق...

واصلت طريقي دون أن أعيره أدنى اهتمام، لا شك أن الأمر سيؤكِّد ما ذهب إليه ذلك الجمع، وقد يتندَّر هذا الفلاح بما بدر مني الآن، وينخرط هو الآخر في مضغ سيرتي قائلًا: ورأيتَه يضحك بمفرده أيضًا!!

انقلبَت حياتي رأسًا على عقب بعد أن تحامنتني الخسارات. ماضي لا يكفُّ عن ثوراته، زبانية الظلام يتعقبون خطاي، جوليا تغتالني في صمت ونوميديا أحرقتني بجمالها.. نعم، أيتها الشهيدة أحرقتني جمالها ونثر جسدها الفاتن كلَّ رمادي، ولو أنها قالت لشهوتي نعم لانتفض الرماد، وقال: لبيك، والتحم رمادي كعنفاء وسعيت إليها.

آه خولة! كم أنا هشَّ الروح والجسد، وإن كانت هشاشة الروح قد ولدت معي، فإنَّ هشاشة الجسد أمر طارئ يقلقني.. يومًا تلو الآخر يفيض أنفي بدم أكثر، سقطت اليوم مغشيًا عليَّ بسبب ذلك، لا أدري كم دام الأمر. كلَّ ما أعرفُ أنني استيقظت في منزل أذكى حرائق الذكريات التي نشبت في الروح مذ قدمت إلى هنا.. اليوم أفقتُ من غيبوتي، لكن غدًا أو بعد غد لا أحد يضمن أنني سأستفيق. لا أهاب الموت، لكنني لا أريد منه أن يغافلني ويقدِّ قميصي من دبر، كلُّ ما أرجوه هو أن يواجهني بشجاعة أستحقُّها.

حين دنوت من الفندق، كان الظلام قد بدأ يسحب وشاحه الأسود الثقيل على القرية، كانت نضال في شرفتها، لوحت بكلتا يديها تمامًا كما يفعل الغريب على ظهر سفينة تجرُّ نحو أهله.. نضال مناضلة الأمس وشاعرة اليوم، أحد أوجاع هذا الصيف، سيِّدة ترتمي

في جحيمي بكامل طيشها المكبوت، وتنسّف في لحظة يأس ذاكرتنا  
النضاليّة المشتركة، تطمر كلّ عذابات المعتقلات والمواجهات الدامية  
أواخر القرن المنصرم، وتؤسّس لذاكرة جديدة وجنسيّة إلى أبعد  
الحدود.. نضال تحاول عبثًا الانسحاق في جسدي، ربّما كان الأمر  
انتقامًا منّي ومنها ومن ماضينا جنسًا. تسعى إلى استنزاف أكبر قدر من  
جسدينا لترتوي من ذلك العطش، الذي خلّفته الخسارات المتتالية في  
روحها وجسدها.

الجانّي التعب إلى طاولة في ركن ركين من المقهى، مذ دخلتُ  
وحميد يتفرّس فيّ ولا تحيد عيناه عنيّ. ناديته فقدم إليّ والاستغراب  
يعلو ملامحه. داهمته:

- ما هذه النظرات؟

- لا شيء.. كنتُ أطمئنُّ عليك وحسب.

ابتلعه الصمت قليلًا، ثم أضاف:

- لقد وجدك شابان من شباب القرية مغمّي عليك قرب البركة..

صمت مرّة أخرى، كأنّه يقرأ تفاصيل وجهي أو ينتظر ردًا، ثم  
أردف:

- لم أكن أعرف أنّك تتحدّث الأمازيغيّة بطلاقة؟

قالها بمكر، وبحلّق في عينيّ، بينما لم أجد خيارًا أفضل من أن  
ألوذ بالصمت. دققت النظر في عينيه، كان ينتظر الإجابة بلهفة، لكنني  
لم أرحم فضوله حين أدّرت دقّة الحوار صوب أفق آخر:

- هلاّ أحضرت لي ما آكله! لم أذق شيئًا منذ الصباح.. وحبّذا  
لو أحضرت لي علبة سجائر قبل إعداد الأكل.

هزّ حاجبيه مستغرباً وقمع فضوله في جوفه، وانسحب إلى ما أمرته به. دَخَنْتُ سيجارتين قبل الأكل وأجهزْتُ على ما تَبَقِيَ من العلبه بعد الأكل، وانصرفتُ.. ولكنني قبل ذلك، مررت بحميد أخذت مفاتيح الغرفة وعلبة سجائر أخرى.

دار المفتاح دورته في رحم القفل! ذات يوم، قلت لخولة عند باب منزلي، وأنا أفتح الباب: «الحياة حتى هذه التي نعيشها في رغد التقنيّة، لم تبعد كثيراً عن ذلك الإنسان البدائي العاري، الذي يعيش في أعماق كلّ واحد منّا، أحياناً أرى الحياة كلّها تسير بمنطق الجنس حتى المفتاح والقفل!»، وضحكنا للفكرة ودخلنا المنزل متعانقين، في حين دخلتُ غرفتي الآن وحيداً. كان الظلام يستبدُّ بالمكان، ظلمة موحشة كتلك التي تنتشر في دواخلي. أشعلت نور الكهرباء وشعرت بالمرارة. إذ تذكّرتُ: «ألا خمر اليوم» بحكم أنّ آخر الهمجيين قد كسروا زجاجات الخمر التي كانت تحفّلُ بها الثلاجة.

التفتُ إلى الشرائط المتكوّمة فوق المسجّلة، فاقشعرتُ لذلك بدني. اقتربتُ منها أكثر وأخمدتُ مذكرة خولة في أحد الرفوف، باب الشرفة تراوده الرياح فيصُرُّ بشكل مستفزّ، أو ربّما أنا في حالة نفسيّة تجعل حتى الأصوات التي لا أعيرها اهتماماً في الغالب تجرحني، وتسرّب من حواسي المرهفة إلى شقوق الروح ولتصبح وجعاً إضافياً.

أيُّ حزن موجه هذا الذي تستثيره الوحدة؟!

سقطت عليّ أحزاني غزيرة كمطر إغرم بعد صيف عسير، فانسحبت إلى الشرفة، فتحت علبة السجائر بنزق، تناولت واحدة بعطش وجعلت أدخّن وأطارد بعينيّ سحائب الدخان وأراقبها وهي تتداخل بشكل غريب وتسحبها الرياح إلى البعيد. نظّ طيف نوميديا

بسرعة إلى بالي واخترقني... وا حرّ قلباه، ألا أكفّ عن التفكير بها، ربّما أكون مسكوناً - وإن مجازاً - بها. التفتُّ إلى أصابعي التي كانت تشدّ على السيجارة، كانت ترتعش. الآن فقط، تأكّدت أنّ جسدي شرع في الانسحاب. ترى أتكون الأدوية التي امتنعت عن تناولها سبباً في ما يحدث لي؟ لست أدري!

كلّ ما أعرف الآن أنّني مريض بالخianات، ومريض بحبّك نوميديا ومتعب!!

تذكّرتُ أصابعها التي كانت تغريني وتبتعد، كأنّها سراب يغري محمومًا بالعطش، لكن هذا السراب أنقذني من موت محقّق، فقد نزلت في البركة طويلاً! ولولا انسحابها أولاً ثم إيماءاتها وإغراءاتها المتتالية فيما بعد - والتي كانت تستدرجني إليها - لأغمي عليّ في البركة وانتهيت غرقاً.. نعم، أنقذت حياتي التي صرت في غنى عنها، لكن لماذا رحلت وخلفّنتي طريح الجنادل... كان يفترض أن تلازمي وأن أفتح عينيّ أوّل ما أفتحهما عليها، لماذا تركتني وتركت للصدف أن تقتاد إليّ شابين من إغرم، سيتجشّمان عناء إسعافي؟

دهستُ عقب السيجارة بقدمي وشابكت بقوة أصابعي التي كان بعضها يرتجف، وخفت من أن يخذلني جسدي مرّة أخرى. مررت بيديّ على وجهي. كان شعر ذقني قد كبر قليلاً وأخمدت أصابعي في شعري الذي طال أكثر ممّا ينبغي. لقد تجنّبت مذ دخلت الغرفة المرأة لسبيين: الأوّل، هو ألا أتأمل وجهي وأفزع؛ والثاني، لئلا أتوقّف طويلاً عند ما كتبه الظلام صباحاً «الإنذار ما قبل الأخير!!» فليكن الأخير، فلعبتي مع الحياة لم تستهوني، وأنا الآن أكثر من أيّ وقت مضى في حاجة للخلاص... وسمعت فجأة شيئاً أشبه ما يكون بوقع حوافر حصان على الأرض، التفتُّ بسرعة وبحلقت بلهفة في الظلام

المخيّم أمام الفندق، رأيت - أو تهيأ لي - أنني رأيت طيف الحصان  
وسيّدته، فصرخت بعفوية:

- نوميديا!

سهل الحصان بعد ذلك بقوة مجلجلة، وهذا بعد ذلك كلّ شيء،  
قبل أن تستيقظ حوافر الحصان مرّة أخرى تصكّ هدوء الليل وتخفت  
شيئًا فشيئًا. ومثلما تضع حربًا أوزارها أو يستسلم قتيل بعد عذابات  
طويلة للموت، ابتلع صمت بارد كلّ شيء. انزلقت عيني أسفل  
الشرفة، فإذا حميد يتألمني مشدوهاً بصحبة نفر من أبناء القرية، بادرني  
باستغراب:

- سي مراد، ياك لاباس؟

لكنني كنت بين الحضور والغياب، لست أدري فيم كنت أفكر.  
كنت أحسّ أنّ الزمن بطيء جدًا. أمّا سؤال حميد فقد كان يسافر  
بتثاقل في ذهني، أجبته بصوت مرتجف مهزوز، فيه قدر كبير من  
المرارة والخيبة:

- لا.. لا شيء.

وغادرت الشرفة وأنا مندهش، لا أفهم ممّا حدث شيئًا! لماذا لم  
ينشغلوا بالحصان وسيّدة الحصان؟ وازدحمت.. في رأسي آلاف  
الأفكار، أرغى ذهني وأزبد بها. ارتميْتُ فوق السرير. تبدّدت بعض  
الأسئلة وظلّت أخرى علامات استفهام بارزة. شعرتُ بحاجة ماسّة إلى  
كأس نبيذ أبلّ به جوفي. ارتقيت السلالم صوب نضال، طرقتُ الباب،  
ففتحت بسرعة، كأنّها كانت تنتظرني:

- مساء الخير..

- مساء النور مراد.. تفضّل.

دخلت وأغلقت الباب بعدي، وقالت:

- أين اختفيت هذا اليوم؟ بحثتُ عنك طويلاً دون أن أجذك..

- هي قصة يطول شرحها... أشعر أنّ هذا اليوم قد طال أكثر ممّا ينبغي.

وجلسنا إلى الأريكة. قلت:

- أريد نبيذاً، أنا في حاجة للشرب...

انتصبت واقفة، بينما أخذتُ يدي في الجيب وسحبْتُ الولاعة وعلبة السجائر. عندما سحبْتُ النفس الأول، كانت نضال تضع زجاجة نبيذ وكأسين وشرائح لحم على الطاولة. أمّا حين عرّكت السجّارة في المنفضة وتلوّت كمن به مسّ، كانت نضال تصبّ لي الكأس الرابعة، قلت كأنّي أهذي:

- «لقد أزرى بيّ الدهر بعدها».

لم تقل شيئاً أوّل الأمر، بل ظلّت تتأمّلني بعينين ملؤهما وجع وغيظ خفيّ، ثم هاجمتني بطريقة لا تخلو من مكر أدبيّ، قائلة:

- «ما عاد الله بل نوميديا لا الدهر...».

- من نوميديا؟!

- هي الكلمة التي صرخت بها قبل قليل..

- أنت أيضاً سمعتني؟

- نعم.

وابتلع الغرفة صمت متواطئ مع جراحاتي، صمت صاخب لا يكسره سوى ارتماءات الخمر في كأسينا. ناولتني كأسها قباحة:

- نخب «نوميديا» إذن!

واصطدم كأسانا بخفّة، فقلت:

- نخب الملكة الأمازيغيّة الصامتة، نخب أحزاني التي لا  
تمحي..

واقتربتُ حتى التصق بي ردفها، ثم جذبتُ بظهري إلى صدرها،  
فتطلّعت إلى شفتيّ فقبّلْتُها بنزق.. فاستسلمت لحرارة الموقف إلى أن  
قاطعتها مستفزاً:

- أببدو غريب الأطوار يا نضال، أقصد: ألا تلاحظين أنّ  
سلوكاتي غير سوّية؟ أو، أو أنني...  
- ماذا؟

- لا أعرف.. مجنون أو ممسوس مثلاً!

- أنت مجنون منذ أوّل يوم عرفتك فيه، وهذا أجمل ما فيك.  
- لا.. لا أقصد...

لكنّها أخرستني بقبلة عميقة، وبدأنا ننزلق نحو تخوم اللذة. كانت  
الملابس تتطاير في كلّ اتجاه. أيّ جنون يحرك خصرها، وأيّة رعونة  
تسكن حمرة حلمتيها وتدفّق على نهديها فيستثيران جنوني وأثوري؟

في لحظة مؤلمة، أحسستُ أنّنا متواطئان في جريمة ما، شعرت  
أنّ الجنس لا يعدو أن يكون مجرّد محاولة يائسة للانتقام من القدر، أو  
من أشياء أخرى أشدّ تهاوة. وكلّما ذبنا أكثر تسلّقت نوميديا كدالية  
بمحراب القلب ومعراج الذاكرة.. أنا وحيد من دونك نوميديا، مقعّر  
وفارغ من أيّ معنى..

بدونك نوميديا، أنا وحيد!

## (٢)

لم أنم كما كنت أتمنى، ربّما لأنني لم أبتعد كثيرًا عن صخب  
الأمس. من شرفتيها كنت أراقب إغرم وهي تتعلّق صباحها الجديد  
بثقة.. وهناك بعيدًا، كان أهل القرية ينزلون بخطى واثقة إلى الحقول.  
لكنّ السماء اليوم، ليست كباقى الأيام، متّسحة بحزن فائض، وهذا  
يبيّش بدنوّ موسم الرحيل، ما هي إلّا أيّام معدودة، وينزل «آيت مرغاد»  
من أعالي الجبال صوب الصحراء.. أنا أيضًا سأرحل مثلهم، لم تبق  
إلّا أيّام قلائل وتشرّع الجامعة أبوابها.

السماء كثيبة و«آيت مرغاد» ينتظرون المطر الأوّل ليأذن لهم  
بالرحيل. قبل أن أرحل كسيحًا، لا بدّ لي من باقتي أزيّر، واحدة على  
قبر خولة والثانية على قبر مصطفى..

نزلتُ إلى غرفتي، حلقتُ ذقني وأخذت دوشًا ويكيت تحت سياطه  
الموجعة، بسبب أشياء كثيرة تحفر كالدود خنادق في صدري، ثم  
انزلتُ إلى المقهى.. وجدت حميد منكفئًا على وجهه، لكنّه ما إن

سمع وقع أقدامي حتى دبَّ واقفًا :

- صباح الخير، أستاذ..

- صباح الخير، كيف حالك؟!

- بخير والحمد لله، أعدّ لك فطورك؟

- نعم.

- للإشارة، أنت مدعوٌ هذا المساء لحفل عرس سيقيمه أحد

أقربائي.. بإمكانك أن تصحب معك تلك السيدة.

وتأملني بنظرة خبيثة، كنت أعلم أنه على علم بما بيني وبين

نضال، قلت:

- سنكون على موعد، وستصبحنا أنت..

وابتلعني الذكريات.. حلّقت بي سنوات إلى الوراء إلى أعراس

القرية، أعراس إغرم تمامًا كمآتمها تنفث في القلب حزنًا لذيذًا،

وتجعل المرء على شفير الهاوية.

ما كدت أجهّز على وجبة الفطور، حتى لمحت نضال تنزل بخفة

من درج الفندق.

- صباح الخير، مرادي..

- صباح الخير نضال، تفضّلي.

- هل استيقظت باكراً؟

- نعم.

- ماذا!.. ألن تدعوني؟

- بلى، تفضّلي.. أمامك وجبة قرويّة بامتياز: سمّن. عسل.

زيت وشاي، وخبز للتوّ لفظه الفرن الطينيّ.

وحملتُ إبريق الشاي، كان لا يزال يحافظُ على وهجه وحرارته،  
وصيبتُ لها كأسًا قائلًا:

- تفضّلي.

- شكرًا، ألن تأكل معي؟

- شبعْتُ.

وتابعته وهي تأكل، وشدق الخبز يسافر بين الطاولة وفمها ويدور  
بين فكّيهما، إلى أن باغتتني بسؤال:

- ألن تعود حبيبتُك الشقراء؟

- بلى... لقد وعدت بذلك.

- كلّ الذين يرحلون، عادةً ما يعدون بالعودة.. أتجنّهما؟

- لا أعتقد ذلك، فالحبّ مفهوم ملتبس جدًا. لا أحبّد الخوض  
فيه.

- أحبك يا مراد.

- نسيًا، ربّما أنتِ تعلّقتِ بجسدي أكثر ممّا تعلّقت بي.. أليس  
كذلك؟

وتأخّرت إجابتها إلى أن ابتلعت ما في فمها بشربة شاي، قالت:

- أعتقد أنّه لا توجد حدودٌ صارمة بين العاطفة والجسد. في  
النهاية الجنس بدون عواطف حبّ ناقص وكذلك العاطفة بدون جنس.

- لستُ أدري، لقد تعانقت في عينيّ أشياء كثيرة، ورأيت المرارة  
لدرجة أنّني أصبت بالعمى العاطفي.. وأنا اليوم، أحرّك عصاي

باضطراب، وأتحسّس طريقي بخطى مجهدة بين دروب الحياة  
الملغومة، أنا حزين وتائه..

وتطلّعتُ إلى الساعة المعلّقة على الحائط فقفزت واقفاً، لأنّ  
موعد نوميديا اليومي قد دنا. استأذنتُ نضال وانصرفت.. كانت  
السماء حزينة هذا اليوم. إنّه الرحيل الكبير يعلّق مراثيه على أستار  
السماء. حين ستبكي السماء لأوّل مرّة، سيحمل الرّحلُ في الأعالي  
أحمالهم بيد وأشواقهم بيد أخرى، وسيرحلون.. أيعقل أن تكون  
نوميديا منهم؟!!

نوميديا.. أيتها الخرساء الهادئة المكتظة غموضاً وتاريخاً، كيف  
أمحوك من صحائف ذاكرتي المريضة، وكيف لي أن أسدّ هذا الفراغ  
المهول الذي خلّفته فيّ؟ سلّمت على مقام سيدي عيسى وتأملت  
إغراءات شجرة التين اللعنة باهتمام، هنا أسلم سيدي موسى ابنه  
للسّقاح الرومي، وهناك حيث تفتّقت شجرة التين طارت دماؤه،  
وزعموا أنّها ولدت من دمه، وأن ما يفسّر ذلك هو كون البياض الذي  
ينفجر من رؤوس حبّات التين انقلب في هذه الشجرة حمرةً، ولذلك  
حرّموا أكلها! إغرم تؤمن بالحكاية، ومعجزاتها تعيش وفق منطقها،  
وأهلها يعيشون صخب الحكاية ويدافعون عنها بما ملكوا. مرّت بي  
رياح باردة تشقّ طريقها في الفجّ، اخترقني لكنّها مرّت بسلام، تمنيت  
لو تصلّك حوافر الحصان هذا الصمت المقرّر الذي يطبق على الوادي.

انحنيتُ إلى الصخور المتكوّم بعضها فوق بعض، والتي ترسم  
حدود المكان الذي دُفن فيه رفاتُ الوليّ الصغير، قلبت وفاءً لشيء ما  
تلك المناديل النائمة فوق الصخور، وراء كلّ منديل حكاية أو ربّما  
قصّة حبّ مكبوتة. مثلهم كنتُ أو أكثر، كانت داخلي أسئلة واخزة  
وحنين إلى ما لست أعرف، وهذا ما كان يجرّني إلى هذا المكان.

هممت بأن أتساءل في حضرة الولي إن كان قد مرَّ به يومًا ما رجل أو امرأة يبحثان عن طفل ضالٌّ. خفتُ - وإن كان الأمر بعيد المنال - أن يجيبني، فأخبرُ مغشياً عليّ. بالدرجة التي كان يلحُ فيها عليّ هذا السؤال أيام طفولتي، صار اليوم أشدَّ ما أخشى. أخاف أن يخرج لي من مسالك الحياة الفجّة عجوزان أكلتُ التجاعيد وجهيهما واهتصرهما المرض، فيفتحان لي أذرعهما اليابسة ويناديان بحنان مزيف: تعال. لقد عشت لقيطًا وحيدًا... لم أختَر ذلك على أيِّ حال، لكنني ألفتُه وتقبّلتُ مع مرور الوقت هذه الحقيقة المؤرّة، أنّ الله أثر أنّ يورطني دون غيري في هذه الحماقة الكبرى، وأن يجعلني أدفع ثمن أخطاء لم أقترفها.

مقطوعٌ من شجرة صفصاف، لقيط، وبلغة مهذّبة: متخلّى عنك... إنّه الوجد، حياة كالزبل هذه!! أن تكبر كالكلاب الضالّة تتقاذفك الأيادي والشوارع وتربطك الحياة بذيلها وتركض بك، وتجرجرك في دروب المحن والأحزان... وأنت في كلّ هذا تموت بشكل تدريجي، تحمل جراحاتك بين الناس وتحاول جاهدًا أن تفتعل ابتسامة زائفة وسمجة، فقط لئلا يلتفتوا إلى أنّك تنزف في صمت: ما جدوى حياتك؟! لو كنت شجاعًا لما أجَلتَ موتك يوم وقفتَ طفلًا أمام الهاوية وقاومتَ إغراءاتها المتتالية، ولو كان الموت كريمًا يومها، لهشّم عظامك حين استدرجك السيل إلى الوادي الهائج، إنّها مسألة شجاعة وكرم يا مراد... لكنني لم أكن جبانًا! لكنك لم تكن شجاعًا كذلك.

مرّت ساعة وما حرّكتُ صخورَ الوادي حوافرُ الحصان، والأشواق تتضخّم وأسقط سجينها... حتى الندوب السوداء التي خلّفتها الشموع على جدران الكهف صارت - مثلما كنت أراها أيام صباي -

أشبه ما تكون بقضبان قفص حديدي. وقفزت جوليا إلى معراج الذاكرة. تمنيت لو تعود، لا شيء، فقط لأراقبها وهي تمارس لعبتها الخبيثة بمهارة عالية. تمنيت لو تصحب معها كفناً يليق بحجم حكايتي، وأن تجهز عليّ إذ تسحب النصل الذي أسكنته في ظهري بهدوء مليكة قاسية! أه أيتها الشقراء البهية الكاملة الحضور، كيف لي أن أتطلع إلى نمش صدرك دون أن أتذكر الخندق المفتوح على الموت، هذا الذي فتحت غيلة في ظهري؟! كيف سأضلعك كوسادة إلى صدري، كيف سأشتهيك وأغرق سفني كلّها في عينيك، وأنا متأكد من أنّ هناك خيانة ما تتعقبني، وأنك في لحظات صحوك ترين شبح زوجك نائمًا بيننا؟

لكن، وبغض الطرف عن كلّ الخيانات الأخرى المحتملة، أهنتك جوليا، فقد نجحت نظريًا في مشروعك الروائي الجديد، ما يؤسف حقًا أنني سأكون المتغيّب الوحيد عن قراءتها، على الرغم من أنني الوحيد الجدير بقراءتها والمعنيّ بها.

ومرّ زمن ليس بالهين، وصخور الوادي صمّاء لا تهتزّ لحوافر الحصان، وصبري اهترا وأشواك الانتظار تخزني في كلّ مكان من قلبي المرقّع. تركت المقام، وتوغّلت أكثر في المضيق الجبلي حتى انتهيت إلى البركة، وأطلت التأمل في المكان الذي أغمي عليّ فيه، لم أجد ولو أثرًا بسيطًا للدماء، عجبٌ لذلك ورَجَحْتُ أن يكون الشابان اللذان عثرا عليّ قد قاما بإتلاف أثرها. . تطلّعتُ بخفّة صوب كلّ الجهات، وتمنيت في سرّي لو تلفظها الجبال كما جرت العادة، لكن دون جدوى. .

أطلت الوقوف أمام عين تامجا، ولم تأتِ

أغرقت جسدي رغم برودة الجوّ في البركة، ولم تأتِ

دَخَنْتُ عَارِيًّا، وَلَمْ تَأْتِ  
حَزَنْتُ كَثِيرًا وَصَرَخْتُ مَلءَ جَوْفِي:  
- نو... مي... ديا!

لكن صخورَ الوادي خرساء لا تتحرّك، ولم أسمع لحصانها ذلك  
الهدير الأقرب إلى اصطخاب الأمواج، نوميديا لم تأتِ.

عندما امتلأت يأسًا وقرّرتُ العودة إلى الفندق، كان مؤذّن القرية  
يعلن حلول صلاة العصر بصوتٍ شجيٍّ ومرتبكٍ أقرب إلى النشيج..  
عدت منكسر الهامة مطأطأ الرأس مغلوبًا، ربّما مثلما غلبتُ خولة بغياي  
غلبتني نوميديا بغياها بعد أن أدمنتها. صرخت باسمها مرارًا، لكن بعد  
كلّ مرّة أصرخ كانت الجبال ترجع لي صوتي هُشًا يضمحل شيئًا فشيئًا،  
فلا يبقى منه داخلي سوى أصوات مبهمة، كأنّها وعود بأفراح وموسيقى  
سعيدة. أتذكّر صمتها المهيب وإيماءاتها الساحرة وتقاسيم وجهها  
الطلق، أتذكرها بل وأراها في خيالي، فأوقن أنّي اختزلت المسافة بين  
العقل والجنون، وأنّني سأموت حبًّا وشوقًا لا محالة.

فور دخولي الفندق، طالعني وجه ملتج. تأملتّه وهو يتفرّس في  
وجوه بعض الأجانب بنوع من الاستغراب المشوب بالاستهجان،  
المسكين يبدو مخدّرًا، إذ يعتقد أنّ الدين هو أن يسبل المرء لحيته  
ويلبس البياض ويدّعي الورع والتقوى!! الدين تواضع وحنان في قلب  
المرء قبل لباسه، كرم في التعامل، تسامح وحرّيّة وإغداق في حبّ الله  
بصدق والتفكير فيه أكثر من الانشغال بكره الآخرين عن حبّه.

على عجل، تناولت وجبة الغداء، لم أكل بحماس ولا  
استمتاع.. فعلت ذلك فقط لئلاّ أموت جوعًا، واندفتُ بعد ذلك في  
غرفتي.

كانت شرائط جوليا ترتجف في يدي وأنا أواجه المسجلة الكبيرة،  
هذه الشرائط كفيلة بأن تحرق في طريقها كل شيء، أخدمت بشكل  
عشوائي أحد الشرائط في المسجلة، فإذا صوت جوليا يزف قلقاً إذ  
تقول:

هنا أمام هذه القبور المرصوفة بانتظام مزعج، ينتابني شعور  
مبهم «بلاجدوانية» الحياة. مهما كانت إمكاناتنا أو اتسعت  
خياراتنا وتشعبت، فالجميع محكوم عليه مسبقاً بالموت. بعد  
مائة عام سيموت الجميع، كل من يدب فوق البسيطة  
سينطفئ. أحس أن حريتنا مهما اتسعت، فإننا لا نسير إلا وفق  
خط مرسوم لنا سلفاً...

تركت مراد ليخلو بهاتفه، وابتعدت قدر الإمكان لأخلو  
بمسجلتي وأستنطق هذه القبور الخرساء، فلربما كان أحدها  
لأبيه أو لأمه! لكن أوان طرح مثل هذا التساؤل قد ولّى،  
ومراد استحال إلى خبرة أحزان، وشقوق قلبه بادية لا تقوى  
الحياة مهما ابتسمت له على جبرها.

أحياناً، أحس كما لو أنه يموت بالتدرج أو على مراحل  
متقطعة، كلماته، همساته خمرياته الحزينة، كل شيء يقول  
أمراً واحداً: إن مراد قد وضّب أغراضه وأنه في أتمّ الجاهزية  
للسفر الأخير... لكن أحياناً، وأقصد بالضبط حين يعتصرني  
جنساً، ولا أملك إلا أن أتهاوى أمامه كأوراق الخريف، أكاد  
أجزم أن الخلود هو مصير هذا الرجل المسكون بكلّ هذا  
الشبق. مراد مزيّج غير متجانس من رغبات يتعاقب فيها الموت  
بالحياة، دون أن يلتبس أحدهما بالآخر أو يقضي أحدهما  
على الآخر، يتأملني الآن من بعيد، أيها الرجل الهارب من

بين دفتي رواية! خبرني كيف سأعيدك إليها دون أن أدمي قلبينا معًا؟

أتساءل بغباء: أأحببته فعلاً؟ ربّما خنتُ وجه الساردة حين أوريته خلف قناع العاشقة، لكنني مثلتُ أوّل الأمر دور العاشقة وصرت أوّل من يقتنع به، واكتشفت بسرعة أنني متورّطة في هذا الرجل من أعلى رأسي إلى أخمص قدمي، ربّما لأنّ مراد من الرجال القلائل جدًّا الذين يُعشقون بسهولة، لأنهم يملكون في خزراتهم الحذرة والبريئة، وفي صمتهم المهيّب، ما يغرينا بالتقدّم في حقولهم المغمومة.

من أنا بعدك يا مراد؟! أيّها المحكوم عليك غيابياً بالإعدام، وخزّاً بحقن الموت ورمياً بالكلمات...

سامحني لأنني اقترفتُ في حقك جناية أدبيّة واقعيّة ودمويّة! والآن، وقد تغلغل حبُّك كحدّ السيف في شراييني أجدني ساديّة بامتياز. كيف أستعذبُ هذا الجنون الحافي وأنتعله وأمضي في الغدر والخيانة إلى متنهاهما! وبين خيانتني لزوجي وغدري لمراد، ها أنذا أعيش حالة من القلق الدائم... ولأنّ الكذب ملازم للحالتين معًا (الغدر والخيانة)، فقد صرت أدرج كذباتي - كما يقول برنارد شو - ككرات الثلج، فتكبر أكثر فأكثر... أخاف أن ينفرط عقد الكذب، فأخسر كلّ شيء دفعة واحدة.

لا تنبع الكتابة من المحن التي نكابدها وحسب، بل تندفع فينا حارقة حين نمضي باسمين في طريق الحماقات، ونحن على علم مسبق أنّنا سندفع ثمن ذلك غالباً!

أخرجتُ الشريط من المسجلة واخترت آخر، وارتيمت على الأريكة في انتظار بزوغ صوتها. قالت - ويبدو أنها كانت تبكي:

«ما أبشع أن يتورط الإنسان في ذبح من يحب...»

اليوم، بدأ مراد يتهاوى كثور إسباني تنام على ظهره سيوف كثيرة، شرع المرض في نهش لحمه.. آه أيها الجميل البهي! كيف أفعل بقلبك المنخور ما فعلتُ؟ لماذا يدفع ثمن الكتابة غيرنا دائماً، لماذا هذا النزوع والهروب الأدبيين إلى دفع خيائنا في قلوب الآخرين والإجهاز عليهم بجرّة قلم؟

مخطئٌ من يظنُّ أنَّ الكتابة لعبة حبر وورق! معك، استحال القلم إلى إزميل، والورق إلى لحم بشري، هو لحمك يا مراد، فكم هي دموية لعبة الكتابة!!

وها هو مراد يموت شيئاً فشيئاً، ما هي إلا حقنة مركزة ويستحيل إلى جثة هامدة. أعترف يا حبيبي أنني لم أنجح في استفزازك لكي تتكلّم وتبوح بكلّ شيء، على الرغم من أنني التجأت إلى الطبّ النفسي ووسائله غير الشرعية من حقن تجعل إناء الورد يتشظى، وتشرع في جسد الإنسان وروحه خروماً لا يملك أمامها سوى الانكسار والبوح. تمنيتُ أن يعترف مراد من تلقاء نفسه حين تستبدّ به لحظة ضعف، لكنّه في أشدّ اللحظات مرارة كان يلوذ بالصمت أو يحدّثني عن «أوداد»... كان يوّد أن يسمعني الحكاية بمنطق مخالف تماماً، أو ربّما كان يوّد أن يخلق مسافة - ولو وهمية - بينه وبين ماضيه.

لكنّ شيئاً ما قدرياً كان يجعلني ذاهلة أمام صمتك وكلامك،

لا أقوى على كبح ذلك الصوت الذي ينتفض داخلي ويدفعني  
إلى البحث بلامبالاة عن طريقة تجعلني أنكأ جراحاتك.

- هذه الحقن ستستثير أحزان مراد، وستعيده إلى حالة أسوأ من  
تلك التي كان عليها بعد وفاة خولة، لكن، لكي تجدي تفسيراً أو  
بالأحرى مبرراً لحقنه، خذي هذه الحبوب، ضعها في قرح قهوته أو  
كأس عصيره، حين سيسري مفعولها سيدب المرض في جسده، مرض  
عضويّ طفيف، حمى وشعور بالصداع. وقتها ستضعين هذه الحقن في  
علبة أدوية مهدئة وستتعللين بمرضه لحقنه، هذه الحقن ستلهب مرضه  
النفسي، سينهار وسيقول أكثر ممّا تريدن سماعه...

هكذا قال طبيببه النفسي في بلد لا يفكر إلا في البيع والشراء!  
عندما وضعت يدي في المقبض النحاسي البارد للباب، أردف بنوع من  
الاستفزاز:

- جشعك الروائي يا جوليا قد يخرس مراد، قد يخرسه للأبد.  
لكنك - وتأكدي من ذلك - خيراً ستفعلين. على أيّ حال، حياته  
أقصر من قصيرة، وأكاد أجزم أنّ حياته بدون أدوية أقرب إلى  
الاستحالة غداً أو بعد غد سيُجنّ أو سينتحر...

وانزلقتُ من محجريّ دمعتان حارقتان، أحسستُ أنّ كلامه  
يقتلني، أنّ رشاش الكلمات الجارحة أخطأ مراد وأصابني.. وعاودتني  
ذكرياتنا البسيطة والجميلة، تذكّرتُ في غمرة الوجد النفسي ويدي تشدُّ  
بقوّة على مقبض الباب، تلك الدمعة التي انحدرت من عينه وهو ينحني  
بتعب إلى تلك الطفلة بائعة الورد على حافة نهر السين، كان في عينيه  
الكثير من الحنان والعياء. في بادئ الأمر تحاشى النظر إلى عينيّ  
بشكل مباشر، لكنّه ضمّنني فيما بعد، وانتحبّ طويلاً دون أن ينبس

بحرف واحد. كان هذا الموقف على بساطته كفيلاً بأن يحرضني على كتابة آلاف مؤلفة من الروايات، فلماذا هذا الجشع الأدبي يقتادني من أهداي إلى الثقوب السوداء التي تملأ ذاكرة مراد الوعل؟!

ليس الأدب وحده من شجّعني على غدرك يا مراد، ربّما هي لعنة البشرية التي لم تبتلّ بها أنتَ وحدك: الفضول. آه، كم أشدتّ بصمتي المتعمّد واحترامي لصمتك وذكرياتك في اللحظات التي يفتحك فيها الحزن، ولم تتبّه إلى أنني كنت أحفر سرّاً، خنادق وجع في ظهرك!

آية قاتلة أنا؟ كيف أعانقه بكلّ ما فيّ من حبّ وجنس، وأنا أدسّ في صدره، صرّته، دخان سجائره، كؤوس خمره.. في الهواء الذي يستنشقه وفي الماء الذي يشربه، في النار الضارية التي تلتهم ضلوعه، أدسّ في كلّ هذا، وغيره خيانة وسماً زعاقاً، وأصرخ بعدها: سامحني. أيّ تناقض هذا أيّ عبث، وآية لوثة هذه التي تقبّع داخلي... سامحني مراد سامح...".

### (٣)

عنيف هو الليل، ليلُ إغرم يورث خوفًا مبهمًا يتسلَّق بثقة  
الشرابين القريبة من القلب. كان القنديل يتراقص برمًا في يد حميد  
ورفيقه الغريبين.

عنيفة أيا منا السود، تسيلُ منّا بغزارة دون أن تنقطع في  
اللحظات التي نتمنى فيها أن تغادرنا بصفة نهائية. . كانت أصوات  
الفرح تأتي غريبة وباردة كرياح الشمال من مكان ما قريب، وحميد  
لا ينفكُّ يُعيد عبارات الترحاب ذاتها. تمنيتُ في طريقنا إلى  
العرس لو يعرج علينا طيف نوميديا وحصانها، علَّها تبعث في  
الروح فرحًا فجائيًا، يسعفُ على مواصلة هذا اليوم بأقلّ قدر ممكن  
من الشعور بالخيبة والضياع.

مذ أخرستُ المسجلة ودمعتان حائرتان تقفان في عيني، لا  
هما تعودان أدراجهما فتطمران ما تبقى في الذاكرة من أفراح عابرة  
وموقّنة، ولا هما تنزلقان على خديّ فيكون فيهما قليل من

السلوى، ربّما يصهران هذه الغصّة الواقعة كفضيحة في جوفي!

توقّف حميد فجأة. تطلّعتُ إلى حيث انكسر ضوء القنديل،  
فرايتُ في مفترق العتمة والإضاءة ثور القبيلة، فحرّك بسخط  
ذكرياتي الراسبة، شدّت نضال على ذراعي خائفة، والتفت إلينا  
حميد قائلاً:

- حذار إنّه ثور القرية! فلتقدّم ببطء وحرص.

أعادني الثور إلى ذكريات قديمة. في إغرم ثورٌ وحيد يساهم  
كلّ منزل بقدر من المال من أجل شرائه، يطلق بعدها في القرية  
يرعى في أيّ حقل شاء، وتستفيد القرية أجمعها من فحولته. حشّنا  
الخطو ببطء شديد، بينما كان الثور ثابتاً وشامخاً تتقدّ عيناه  
اللامعتين بغضب غير مبرّر كأنّما يتأهب للهجوم، لكن مثل هذا لم  
يحدث، إذ انخطف بسرعة وابتلعه الظلام، وبقيت صورته - خاصّة  
عيناه الغاضبتان، ماثلة أمامي لا سيّما إذا أطلت التأمل في  
الظلام. قالت نضال عن الثور ممازحة:

- فكرة بروليتاريي إغرم، على الرّغم من أنّها اشتراكيّة صرفة  
إلا أنّها تنطوي على خطر.

- الخطر وارد في كلّ وقت ومن كلّ شيء، أمّا النفع فهو  
الأصل. وللإشارة، فهذا الثور لا يهاجم أبناء القرية، لأنّه يكبر  
معهم ويعرفهم واحداً واحداً.

- إذن، نحن في مهبّ الخطر.

- ربّما، لكنّه على الأقلّ خطر معلن.

- ماذا تقصد؟!

- لا شيء.

كان الفرح يدنو إلى آذاننا شيئًا فشيئًا، كان ذلك يشعلُ فتيلَ الحرائق في دمي ويرجعني صوب طفولة، نسيتهَا معلقة بين جدران هذه القرية. ولولا زجاجة الفودكا التي كرغْتُ نصفها قبل الانسحاب من الفندق، لاعتصر الماضي قلبي بصورة مضاعفة، هاجمتني نضال:

- لماذا دون سائر بقاع المغرب إغرم؟

لم أجب، ربّما لأنني لم أقوَ على ذلك. ربْتُ على شعرها وتأمَلْتُ تحت الإضاءة الخافتة والمضطربة للقنديل ملامحها. رأيت حلقة الليل تمرُّ وتفرّ في ملامحها، وعجبت لسخریات القدر: نضال التي تشدّ ذراعي الآن هي زوجة غيري بعدما وُحِدنا وفرّقنا النضال؟!!

انتهينا إلى قلبِ إغرم النابض بالفرح، حيث ضربتُ خيمةً واسعة وعالية والناس مأخوذون بالفرح، كلُّ يرتدي أفضل ما عنده، كأتني ما كبرتُ ولا غادرتُ إغرم.. ما زلتُ أراني ذلك الطفل الواقف على هامش العرس بثياب رثةً مستسلمًا للموسيقى وهي تلهب أحزانه وأسلته.. كانت نضال تلهجُ بكلمات لا تكاد تصلني، إلى أن أخرستها الزغاريد المدوّية وصكّت أذنيّ، كان فيها شيءٌ ما جنائزي أشعرنِي بالكآبة.

القرية كلّها متحلّقة حول حصان العروسين، العروس تجلس أمام عريسها متّشحةً بألوان عديدة ومسدلةً منديلًا أبيض على

ملاحمها، كان لا يظهر من جسدها سوى القدم المزركشة بوشم  
والمطوّقة بخلخال، تأملته بعد أن اخترقنا أنا ونضال الحشود.  
كنت أريدُ تحيّات البعض بامتنان، وأرقبُ بحذر نظرات الآخرين  
المتوجّسة أو ربّما المستهجنة، وكدت أصرخ: هل نسيتم أوداد؟  
لكنّ الغصّة، تلك الغصّة التي خلّفتها جوليا استوقفتني.

وشوقٌ كبيرٌ إلى نوميديا أربكني.. وأربكني الفرح أكثر! آه  
كيف أواجهه حافي القلب؟ لماذا أكون أنا النشاز الوحيد في جوّ  
تغمره البهجة؟ لأنّ الله حمّلني أكثر ممّا تطيق هشاشتي، أم لأنّ  
عباده جرجروا قلبي في الطرق الشائكة الملتوية.. أم هما معًا  
تحالفا ليجعلاً منّي وجعًا بلامح بشرية أنيقة؟!

يعلو صوت الفرح أكثر فأكثر، لزمننا أنا ونضال مقعدين داخل  
الخيمة على مقربة من العروسين؛ وكنت حزينًا جدًّا، ربّما لأوّل  
مرّة منذ انتحار خولة، أرى الحزن يحمل بيدين يابستين رشاشًا،  
ويتوغّدنني بسفك دمي.

موسيقى...

كانت مجرّد موسيقى، تنبعث من كلّ مكان وتطبّق على القلب  
بقبضة من فولاذ. شجيّ هو العود الأمازيغي الأصيل وصخب  
الدفوف كان يصهر السعادة في الحزن. أمّا الصوت الذي انبعث  
من مكان ما مباغتًا، فقد آلمني كثيرًا. الموسيقى تقتل فيّ أشياء  
كثيرة دون أن تجهز عليّ، الموسيقى هذا الخليط الموجع من  
الحنين والخوف وانتظار ما لا يأتي. رأسي يدقّ كأجراس الكنائس  
وحشود الناس تتحرّك في كلّ اتجاه وتتناهى إليّ صورهم ثقيلة...

لا شيء، لا شيء غير الموسيقى، سمعتُ هذا الألم قبل اليوم  
وأحفظ هذا اللحن جيّدًا، أغمضتُ عينيّ فانبُلجتُ الذكريات ومرّت  
بي صورٌ وأحداث وأشخاص، لكن كلّ شيء مرَّ بسرعة.

الموسيقى.. شأنها شأن كلّ شيء في إغرم لم يغيّر الزمن  
ملامحها، لا زالت حين تندفع تجرح في طريقها كلّ شيء، في ما  
مضى كانت تُبكيّني، أذكر هذا الفصل الأسود من طفولتي الشقيّة،  
وأذكر وقتها أنّي حين كان الحزن يفتحني أركض إلى أبعد نقطة  
في هذه القرية المجنونة، لكنّ الصوت.. صوت الأهازيج لا ينفكُّ  
يطاردني ويجلدني، فأخّر متكوّمًا في مكان ما، مضرّجًا بدموعي  
إلى أن يفاجئني الصباح! هكذا، كانت تحفّي بي أعراس إغرم.

حين فتحت عينيّ فتحتهما على كثير...

رأيت نضال تعلّق ليلها بعيدًا على إيقاعات الرقصة  
الأمازيغيّة.. بعيدًا كان هناك صفٌّ من النساء يواجه آخر من  
الرجال، وحركات تنسجم مع إيقاع الموسيقى وتشدّني إلى  
ماضي.. هم لا يعلمون أنّي أتمزّق في صمت، لا يدركون أنّ  
الدماء قد تتدفّق من فمي حمراء طازجة، يتخلّون عني مثلما فعلوا  
قديمًا ويتركونني - ربّما دون أن يدركوا ذلك - كسيحًا جريحًا  
ممزّق الجناحين. لا يعلمون أنّي أعيشُ نزيهًا حادًا والذكريات.

أهازيج ورقصّ على موسيقى جنائزيّة، ومراسيم زواج على  
أنغام موت مقبل، وحنين ثقيلٌ وشائكٌ لتلك الأوهام والأمنيات  
التي كنت أدسّها في صدري! كم أضعت نفسي وكم أفلست كلّ  
الأمنيات. أضاعوني وأضاعطني المدينة، حين اقتادني الحسين

إليها، لم يكن يعلم أنها بالنسبة لطفل يحمل كل تلك الأوجاع مقصلة.. وأتني هشًّا جدًّا وملعون أيضًا. أمّا عندما استسلمت أنا ليده، فلم أكن أرى في الأمر سوى محاولة لتجاوز الواقع المرّ. أخضعت نفسي في المدينة لتحاليل النسيان، فإذا النتائج كلّها سلبية، وها هي الموسيقى تسبّب لي تضحّمًا في أورام الذاكرة.

بالكاد، أسعفتني قدماي على الوقوف، كنت موجوعًا كثيرًا بالموسيقى، ومضطربًا بسبب النظرات التي لا تنفك تضرب طوقًا عليّ، وأثرتُ التقدّم للأمام. لكلّ حربٍ خطتها يا مراد، لكنّ الحرب - حربَ العواطف هذه، ليست حربي يا أناي! لكنك الآن وسطها، لا.. أنا مدفوع إليها، ومن دفعك إليها؟! الله.. أو ربّما نقيضه.

كنتُ وسط هذا الفرح المشاع نشازًا، حتى البسمة المفتعلة على وجهي كانت نشازًا. لكن ومثلما يلوح لثائه في الصحراء قليل من الخضرة في مكان بعيد، أو مثلما تتعرّى السماء من غيومها وتلوح الشمس بعد أيّام طوال من المطر المتواصل، رأيتها ترقص. عاودني للحظات ارتجاف أصابعي، لكن ذلك لم يمنعني من التقدّم، شعرها الليلكي هو نفسه وقواؤها الممتشق نفسه. كانت هي، لم أتردّد في الاقتراب، بل طرثُ إليها بخفّة فراشة.. أمّا وأنا أقف خلفها وأضع يدي على كتفها هامسًا:

- نوميديا.

فقد أدركت أنّني. أخطّ حماقة أخرى، بسرعة صادمة استدارت نحوي تلك الفتاة، لم تكن نوميديا، ولم تكن هذه الفتاة وحدها

من استدار وتأملني بذهول مشوب بالاستهجان، كلّ الحاضرين فعلوا ذلك. أمّا الموسيقى التي لم يستوقفها الموقف، فقد أكملت حرائقها في دمي.. حين تأملتُ الفتاة مرّة أخرى شعرت بالانخدال.. هكذا خانني نظري أو ربّما قدرتي.. لا فرق. في لحظة ما ثقيلة، حطّت يد نضال على كفتي، كانت يدها أثقل من كلّ شيء حتى من نظراتهم. أمّا ما وقع بعد ذلك، فقد كان نهاية محتملة لحياتي، لكنّها لسبب ما أرجئت. نهاية غير نهائية وقفزة في حضن الجنون! في البدء انسحبت بخطى متسارعة إلى الكوة المظلمة التي لفظتُنا أول الأمر من الحقول إلى ساحة الفرح، لكنّ الأمر سرعان ما انقلب إلى هرولة ثم جري.. كنت أهربُ من كلّ شيء، من نظراتهم وحزني، من قدرتي الذي لا ينفكّ يلحق بي، ومن تلك الحرائق التي اندلعت في دمي عقبَ ذلك الموقف.. لكنّ الموسيقى ظلّت تعيدني إلى كلّ شيء، وظلّ حزنها السريّ يملأ الشباب السحيقة التي حفرتها الحياة على سطح روحي المتعبة.

وانتهيتُ إلى ظلام دامس بين القرية والفندق. صحيح أنّ أشجار إغرم لا تستنبُ لها ليلاً قوائِم أو أرجل، ولا تظهر بملامح بشرية مثلما يحدث في الرسوم الكرتونية، لكنّها تبدو مكفهرة وغاضبة جدّاً. أبحرْتُ في حقول إغرم، كان خريف المياه يتناهى إلى أذنيّ قوياً ومصحوباً بأصوات حيوانات، وحشرات لا تظهر إلّا ليلاً، أضف إلى كلّ هذا صوت الموسيقى الأمازيغية التي أثبتُ إلّا أن تلتصق بأذنيّ، ولا تبرحهما إلّا إذا هي أردتني قتيلاً.

وصرخت: نو... مي... ديا.

لكن دون جدوى، فاكتظّ بي الشوق إليها، وفاضت بي مرارة ما سمعت اليوم من جوليا، وحزنتُ كذلك لما وقع الليلة في العرس، وعبرْتُ بخيالي أطياف وصور وأوجاع وأنا وسط كلّ هذه الفوضى مستسلم للموسيقى، وهي تنهش لحمي وتجرجرنني من أذنيّ صوب طفولتي القصيّة. كبرتُ كثيرًا، لكن أوداد هذا الطفل الصغير لا يزال يعشّشُ داخلي، وها هو ينتفض على إيقاعات هذه التراتيل الحزينة ويجدني قد هرمت وأدمنتني الحياة والجماليات، ولم يبق فيّ ولو حيّزٌ طفيفٌ لمشروع فرح عابر أو حتى بسمّة مفبركة.

كبرتُ يا أوداد وخلفْتُكَ ترعى الأيائل ها هنا، وتقاوم برد الشتاء بحثًا عن طريقك للمدرسة. آه، كم أفلست بعدك وكم انتظرتني أمام الهاوية، وكم ضعنا أنا وأنت عندما أزّت الرحيل، أتعبتني طفولتك الشقيّة وأتعبك انتظاري وأتعبتنا الحياة معًا.

يؤذيك هذا الغناء القادم من هناك، يزيد هشاشتك! أعلم ذلك. هربت معي كما كنت تفعل وحدك قديمًا، لأنّ المبهمات كثرت عليك، وما دام الرقص محنة لم تتعلّمها وربّما لن تفعل، فاهرب إذا ما استطعت أكثر، وإذا ما استطعت تحاشي كلام القرية وصمت نوميديا..

أعادتني الحماقات إليك يا إغرم لتكملي ما بدأت منذ ما ينيف على العقدين، وها موسيقاك الآن تبحث فيّ عن نقطة الضعف الأخيرة لترديني قتيلاً! لو تظهر نوميديا، واتعبي! لتمسح بعض هذا الوجع. سأرتمي عند ركبتها وسأبقى مسجّى بحبّها هناك، داعم العينين، ولن أتركها تغيب عني ولو ثانية إضافية.

سأصرخُ ملء جوفي: أَحَبُّكِ وسأحكي لها - إن استطعت - عن هذا الجنون الذي دسَّته جوليا في دمي، سأحكي لها - إن ظلَّ في الحكاية ما يؤنس - عن طفولتي الشقيّة ها هنا، وعن شيخوختي التي فاجأتني قبل أوانها. سأقول لها إنني أتمنّى أن يقتلني حبّها ألف مرّة، على أن يقتلني الجنون أو المرض أو حلفاء الظلام مرّة واحدة ونهائيّة.

تقدّمتُ دون هدف بين الأشجار وتوغّلتُ أكثر في الحقول إلى أن استوقفتني صوت مزعج، أوّل الأمر كان أقرب إلى أصوات سيوف تُشحذ، لكنّه سرعان ما انقلب إلى خشخشة عنيفة، كنت - إن صدق ظني - وسط حقل ذرة، ولأنّ الظلام كان دامسًا فقد كان الصوت يقتربُ ويدنو كما لو أنّه يأتي من كلّ الجهات، صوت يحيطني ويملأني رهبة ويدكّ الأرض بقوة مزلزلة، وفي لحظة مخبولة انخطفْتُ من مكاني، وأحسست أنّ شيئًا حادًا كمدية قد انغرس في جنبي الأيسر. لكن، لماذا ارتفعتُ عن الأرض وطاولت رؤوس الأشجار؟!

لم أعلم أنّ ثور القبيلة هاجمني إلّا بعد أن استقرّ جسدي على الأرض ودنا من وجهي، جعلت أنفاسه الساخنة تلمح وجهي إلى أن انسحب فجأة وخلفني والألم يهتصرني ويمزّق جنبي. آه ما هذا الموت الذي يبطئ كلّما اقترب منّي! لماذا يتراجع ويطعني في الظهر ويتركني في مهبط النزيف، وطعنة واحدة في القلب تكفي لحسم الأمور لصالحه.

ثم طفح الأحمر، وبدأ يتقهقرُ الأسود المستبدّ بالمكان، ويزحف على عينيّ الأحمر وحده أحمر أحمر.. وألحْتُ عليّ عينا

الثور حين صادفناه في طريقنا إلى العرس، كانتا تشعان بغضب غير مبرر. وتذكرتُ، وأنا جريح، مصطفى! تذكرت حديثاً شجياً دار بيننا قبيل وفاته:

- مصطفى، أنتم جيل الهزائم الحقيقيّة! فلماذا كابرتم ولم تخبرونا حتى غدونا امتداداً لها؟

- لأنّ حربنا لم تكن يوماً حربكم!

- كيف؟

وجعل يصرخ:

- جاء الظلام... جاء الظلام.

وانطلقت الموسيقى بحماس أشدّ، وسمعت خشخشة بعيدة، لم أكن أقوى على الوقوف.. كنت أتمزّق وربما أنزف بقوة، جلّ ما أذكر أنّني انطفأت بسرعة...

## (٤)

«عُمر الشقي باقي» أو هكذا يزعمون...

وأنا أكثر من شقيّ، استيقظتُ في غرفتي ممدّداً على ظهري عاري الصدر، تطوّق ضمّادة كبيرة بطني وظهري، ولم أستبن موضع الجرح إلّا عندما حاولتُ الحركة، شعرت بوخز حادّ كأنّما هناك شيء يتمزّق فيّ. تحامتنِي الحياة والذكريات، وكدت أزفُّ للموت وأنتهي، لولا أنّ عمر الشقيّ باق. قلت لنضال إنّ ثور القبيلة لا يهاجم الغرباء، والبارحة انتبهتُ إلى أنّني - رغم ما كان - غريبٌ، وأنّ روائح إغرم سقطتُ عنّي كلّها. دخلتُ نضال بصحبة حميد إلى الغرفة، وبادرت:

- صباح الخير مراد، كيف الحال؟

وقال حميد:

- صباح الخير، أستاذ.

- صباح الخير.. كما ترون أنا بخير، بخير..

اقتربت نضال، جلست على حافة السرير، بينما ظلّ حميد واقفاً يتأملني بدهشة:

- لا شك أنّ بنيتك قويّة وإلاّ لما استطعت أن تصمد أمام قرني الثور الهائج، على أيّ حال، ما كان عليك أن تنسحب من دوني، أنت تعرف أنّ المسالك صعبة وأنّ ليل إغرم أصعب.

- أعرف، أعرف، لكنني شربت كثيرًا..

- ما الذي أصابك أستاذ، بدأت تتغيّر مؤخرًا، انفعالاتك وأفعالك أحيانًا مدعاة للاستغراب، وأهل القرية بدأوا يحركون ألسنتهم بكلمات قد لا تسرك...

- وماذا يقولون؟

- لعلّك سمعت شيئًا ممّا يقولون في ذلك اليوم، من المستحسن أن تتحاشى طريق الوادي، وأن تتجنّب المضيق الجبلي، فلتلك الأمكنة تاريخ من الجنون ولا أريدك أن تكون أحد ضحاياه.

- كيف ذلك؟

- يقولون إنّ الجنّ كانوا يعمّرون ذلك المكان قبل بناء القرية، وأنّ من يكثر الجلوس هناك عادة ما تصيبهم لعنتهم.

وضحكت ساخرًا، قائلاً:

- لعنتهم أم لعنتها كفى ترّهات.. أرجوك!

وتطلّعت إلى نضال التي كانت تتابع حديثنا بحماس، دون أن تنخرط فيه، إلى أن قال حميد، وكأنّه يضع حدًّا للنقاش:

- أحتاج شيئًا.. أستاذ؟

- نعم، أحضر لي وجبة الفطور إلى الغرفة.

- حاضر.

- وعلبة سجائر أيضًا.

- حاضر.

وانصرف.. راقبت نضال وهي تراقب خطواته إلى أن غاب، وارتمت بعدها على صدري العاري تقبله بنهم. قائلة:

- إذن، غافلك ثور القبيلة..

- ربّما غافلني قدري البائس مرّة أخرى.

- ثور القبيلة! يا للأقدار العجيبة، أليست مفارقة عجيبة أن يهاجمك نموذجك المتميّز للفكر الاشتراكي، أن يخونك؟؟

- كما خاننا الرفاق من قبل، وتسَلّقوا بشرعيّة النضال الزائف معراج الدولة! دعينا من هذا الكلام الثقيل الذي يثقل القلب، فما كان كان، ومن خان خان..

- والاشتراكيّة يا مراد؟

- أخطأنا الفهم ربّما أو ربّما، كانت مجرّد حلم جميل كان علينا أن نكتشف مبكرًا أنّه مجرّد حلم، لا يصمد أمام هول الواقع بكلّ تناقضاته. كان حرّياً بنا أن نستفيد من أخطاء من سبقونا، وأن

نعلم أننا في وطن لا يحب الأحلام كثيراً.. أتعرفين من المفلس  
فيما يا نضال؟؟

- من؟

- من يكرّر الخطّة نفسها، التفكير نفسه، وينتظر نتائج  
مختلفة.

- وما العمل؟

- العبث يا نضال، العبث! في مجتمع لم يستفّق من سباته  
الذي عمّر طويلاً لن تنفع لا الاشتراكية ولا غيرها. جاء الظلام يا  
نضال، جاء الظلام.. ليبارك هذا السبات ويحرس أحلام  
الحالمين، يصيحون فيهم: لكم جنّات النعيم، لكم أباريق خمر..  
فناموا هادئين. وناموا وتركوا حياتهم تهرب منهم، ونسوا أنّ العالم  
يتقدّم بسرعة في الوقت الذي هم فيه يتأكلون ويموتون بشكل  
متقطع، في انتظار الحور العين والرفاه الأخروي والبنين، كلام  
عذب وزائف في واقع بشع!!

وكسر حميد خلوتنا حين دخل ووضع صحن الفطور جانباً،  
وناولني علبة السجائر والقدّاحة وغاب. كابدت الأمرين أوّل الأمر  
لكي أنهض، لكن ما إن انتصبتُ واقفاً حتى أحسستُ بخفّة طارئة،  
ولولا الوخز الذي أستشعره بين الحين والآخر، لأنكرتُ أنّي  
تعرّضت لهجوم (ثوري). تذكّرت جواب مصطفى الساخر حين  
سألته أيام مراهمتي عن الثورة، فأجابني بأنّها مؤنّث (ثور)!!.  
راقبتُ نضال خطواتي باهتمام واضح، ثم أشعلتُ سيجارة  
وناولتنيها بكرم، سألتها:

- والشعر يا نضال؟

- الشعر من أمر شيطاني ..

- وَلِمَ لا تكون شيطانة؟؟! لماذا تعيش شاعرة برهافة حسّك امتدادًا للمذكّر؟ التفتي إلى جسدك أولاً.

- هل اعتبرها نصيحة نقدية؟

وضحكنا معًا، صحيح أنّ ضحكتي كانت مفتعلة تشير الشفقة، لكنني فعلت ذلك مجارة لنضال، التجأت إلى الأريكة وأكلت بنهم وأنا أتابع خطواتها وهي تذرّع الغرفة جيئة وذهابًا. عندما اقتربت من المسجّلة ومن الشرائط ارتعدت فرائصي، ما هي إلّا كبسة على الرّزّ وينزف صوت جوليا فضيحة. سألت نضال:

- لماذا كلّ هذه الشرائط؟

- إنّها مسودّات صوتيّة خاصّة بالدراسة التي أنتوي تقديمها عمّا قريب.

- جميل .. هل لي أن أستمع لأحدها قليلًا؟

- لا أحبّ ذلك، أفضل أن تقرأي العمل مكتوبًا.

كنت أحاول أن أكظم الغيظ الذي ولّده فضولها، ثم أردفتُ لكي أنأى عن هذا الموضوع:

- لما لا تشاركني الفطور؟

- شكرًا، لقد تناولته باكرًا.

- وما الذي تقصدينه بكلمة «باكرًا»؟

- الثامنة .

- الثامنة؟ وكم الساعة الآن؟

واستيقظت داخلي نوميديا كعاصفة هوجاء، تذكّرت موعدنا .  
لا بدّ أنّها تنتظر . هذا أوّل ما فكّرت فيه، حين قالت نضال بعد  
أن تطلّعت إلى ساعة يدها:

- إنّها العاشرة والنصف، حبيبي .

وقفزتُ من مكاني بخفّة والتجأْتُ إلى أوّل قميص وقعْتُ يدي  
عليه دون أن ألمس الجرح ولا الضمادة، أخذت معي علبة  
السجائر والولاعة، أخدمتهما في جيب بنطالي المغبرّ، وأخرجتُ  
مذكّرة خولة وهاتفني المحمول من الرفّ. قالت نضال مستغربة:

- ما كلّ هذه العجلة!! تمهّل . فالجرح لا يزال حديث  
العهد.

(جراحي لا تندمل يا نضال.. جراحي ما إن تلتئم حتى  
تنبعث مرّة أخرى بنزف أشدّ ضراوة).

- سأحاول .

- إلى أين؟

- سؤال صعب، أفضّل ألاّ أجيب .

- إذن، سأنتظرك في غرفتي، زرني فور عودتك.. اتّفقنا؟

- اتّفقنا .

حين وصلت إلى النهر الصغير، اقتفيتُ مياهه صعودًا إلى أن

انتهيتُ إلى حيث تفجّرت، إلى عين «تامجا». في الطريق، رأيتُ زمرة من شباب القرية كانوا يتأملونني بفضول، لم أعزهم أدنى اهتمام بل تابعتُ طريقي وتوغّلت أكثر، مررت أسفل قلعة الرومي، هذا الإمبريالي الأول قاتل سيدي عيسى، توقّفت قليلاً عند مقام الشهيد، وعرجتُ على البال كلمات حميد بشأن التاريخ الملعون لهذا المكان، ووقفت مأخوذاً بإغراءات حبة تين قد أكملت نضجها!

نوميديا.. يريدونني أن أهجّر هذا المكان الذي أهدانيك أيتها المليكة، أتذكرك، آه.. أتذكر شعرك الأسود المهيّب وعينيك الواسعتين كمهاة وقوامك المعجزة الذي لا تسعفني الكلمات على استحضاره، نوميديا تلبس هذا المكان كأنما ما خلّقت إلّا له...

مريض بك أنا ومتعب، فأين أنت؟ فلا طاقة لي على الصبر والانتظار.

(اسأل قلبك يا مراد، قلبك دليلك).

قلبي اهترأ لا بصر له ولا بصيرة منذ ابتلعه دوامة نوميديا، وهو مصاب بتلفٍ في كلّ شرايينه، وذرعتُ المكان جيئةً وذهاباً والسماء غاضبة تتشعّ بالسواد، وقلبي فاض شوقاً وعشقاً ونوميديا غائبة.

أحنُّ إليك، أحنُّ إلى صمتك المعبر، في هذا الزمن المريض بكثرة الكلام، من نعم الله أن أُبتلى بحبٍّ خرساء جميلة، وصرختُ لامبالاً:

- نوميديا.

فارتدَّ الصدى وصحب معه صخرة متوسطة الحجم من أعلى  
الجبَل، تطلَّعتُ إلى الأعلى، فإذا هو وعلٌّ صغير يراوغ الجروف  
الحادَّة، ويتسلَّق الجبل بمهارة عالية.. لا شكَّ أنَّ صوتي أفزعه،  
فأسقط تلك الصخرة. آه.. صوتي نفسه الذي لم يحرك في نوميديا  
ساکناً... في الانتظار قرأت خولة:

«أغرَّكَ مِنِّي أَنْ حَبَّكَ قَانَلِي...»

قلتها وأعدتها في غيابك أيها الوسيم: أيَّ حبِّ هذا الذي  
يأتي على أخضر حياتي ويابسها، الحياة يا حبيبي تغيَّر  
ملابسها، تغدو بنضارة وإشراق وجهك وأنت متغيَّب عني،  
سألت عنك اليوم في الجامعة، فاهتزَّ قلبي حين أخبروني  
أنَّك استفدتَ من عطلة سنةٍ كاملة من أجل استكمال  
الخبرة، وإنَّ إحدى العواصم الأوروبيَّة قد ابتلعتك.. أيعقل  
أن تعصفَ بك رياح الشمال دون أن تترك لي ولو أثرًا بسيطًا  
يدلُّ عليك؟ لماذا تركتني مربوطة إلى هاتفك الأخرس؟!..

«حبيبي سلام عليك حيث أنت...»

سلام على حبِّنا وجنوننا وطيشِ أحلامنا... يقتلني صمت  
هاتفي ألا يحنُّ قلبك إلى صوتي...

شهران مرًّا منذ أن أشرعت باب الرحيل..

شهرانٍ أو أكثر وابنك يتقلَّب في أحشائي وأنت لا تعرف  
عنه شيئًا.. أريده بصلابتك لا، بهشاشتي، وببوحِي، لا  
بغموضك وتكتِّمك. بعد زوال اليوم قصدت الجامعة بحثًا  
عنك. بكيت شوقًا إليك طويلاً، وبعد أن كفكفت دمعاتي

تسلّلت إلى الباب الخلفي للجامعة، ومنه إلى مرآب السيارات. هناك حيث توجد شجرة التوت العالية، لا شكّ أنّها كانت شاهدة على جنوننا! لقد نضج توتها، فأين قامتك الفرعاء لتدني أغصانها إلى متناول يدي؟ أين ضحكاتنا ونحن نزدرد التوت بنهم؟ أين جنوننا؟ بالكاد طالت يدي غصنًا، أكلت منه لا لأجلي ولا حتى لأجلنا. كلّ ما في الأمر أنّني أردت أن أذيق هذا الملاك الصغير الذي يتقلّب في أحشائي منها، ربّما لكي نتورّط ثلاثتنا في فضيلة أو خطيئة شجرة التوت هذه...».

وانزلقت من عيني دمة حارقة سقطت نيزكًا فوق المذكرة، تمامًا فوق كلمة (خطيئة)، كأنّما تؤكد أنّ شجرة التوت أيضًا لم تكن سوى خطيئة اقترفناها معًا أو ثلاثتنا - كما ذكرت - لا فرق. أقدارنا يا خولة كانت أعنف من أقدار الآخرين... كم أتمنّى لو كنت غيري، أقصد على الأقلّ لو لم أكن محملاً بكلّ هذه العقد، لجعلتُ منك أسعد نساء الدنيا.. لكنّ حياتك البريئة قد دفعتك صوب رجل معطوب القلب والذاكرة. واصلت القراءة في موضع آخر:

«الدنيا إلى بغات تجي كاتجي باسبيبة، ويلا بغات تمشي كاتقطع السلاسل...»

وأنا بدأت أسمع صليل السلاسل وهي تتقطع...

أراقب جسدي وهو يتنكّر لي يومًا بعد يوم، بطني بدأ ينتفخ كلّ يوم أكثر، لا شكّ أنّ أمّي ستلاحظ ذلك، ستجنّ إن علمت، أقسم أنّها ستفعل.. أمّا أبي، أوّاه.. لا شكّ أنّه سيقتلني.

إلهي... أيُّ مَأْزِق هذا الذي تَوَرَّطْتُ فيه. أَلَحَّتْ عَلَيَّ بعض الصديقات بإجهاضه، لكنني لم أقوَ على ذلك دون مشورته. في النهاية هو ابنه أيضًا، وهو مثلي مطالب بالبت في أمر الجنين! لكنَّ السؤال: متى يظهر؟ متى...؟

«اليوم ذكرى تفجيرات البيضاء، لكنك لم تعد... صباحًا اقتنيت باقة نرجس ووضعتها على قبر صديقك المنسي والمهمَل، صحيح أنني ما صادفته قط، لكنني أحببته من خلال أحاديثك عنه، وإن كان أغلبها غامضًا. نظَّفتُ قبره كما كنَّا نفعل أنا وأنت مرارًا. في العادة من السهل أن تميَّز قبور الغرباء، فكما استبدَّت بهم الفوضى أحياء لم تفارقهم الفوضى أمواتًا... كم انتظرْتُك عند قبر صديقك لكنك لم تأتِ».

«اليوم تركت المنزل مخافة أن يفضح أمري...»

التجأت إلى إحدى صديقاتي، طالبة جامعيَّة قاطنة لوحدها قرب الجامعة، اليوم فقط اكتشفت أنَّك أنااني يا مراد! كيف تهجرني كلَّ هذا الوقت بسبب خلاف بسيط، أم أنَّك كنت تبحث عن ذريعة ولو وهميَّة لتخلِّي عني؟

لماذا خلَّفتني معلَّقة من قلبي بحبل هاتفك وابنك؟

لماذا لم تمنحني، ولو نصف فرصة، لأخبركَ بأنَّ هذا الطفل الوديع الذي يتَّخذ من أحشائي سريرًا هو ابنك... «أنت تقتلني بغيابك يا مراد...»

في هذا الحَيِّ الكئيب الذي لن يمحي أبدًا من الذاكرة،

أستنزف ذبالة الأمل علّك ترأف وترفع هاتفك . . . آه لو  
تحسّ بالمرارة التي أستشعرها حين تطاردني نظراتهنّ  
وتتفحصني من أعلى رأسي حتى أخمض قدمي . كلّ يوم  
تراقبني نساء الحيّ بنظراتهنّ الشزراء الباردة، حين يجتمعن  
قرب أبوابهنّ أو حين يتلصصن عليّ من نوافذهنّ، البارحة  
أوجعتني إحداهنّ حين قالت لصديقتها معرّضة:

- لي كاشطح ما كاخييش وجهو .

وردّت صديقتها بوضوح وقح وقاس:

- إيديروها قد راسهوم أو يهربو .

أنا يا مراد أتمزّق كلّ يوم أكثر، وأنت لا تنفك تواصل  
ذبحك لي بمديّة غيابك الصدئة . تعبت، تعبت . . ولم تُبق  
منّي هذه المحنة ولو قليلاً يسعفني على الاستمرار . . .  
ارحم عذاباتي مراد! ارحمني يرحم والديك» .

«هو الموت يا مراد، أراه هناك لا هو بالبعيد فأهمله ولا هو  
بالقريب فأتوقّعه، أراه وأشتهيه، في غيابك أشتهي الموت .  
موجعةً أيّامي بعد أن نسيتني في هذه البلاد، تمامًا مثلما  
تنسى معطفك على الكنبه أو فوق المشجب . رحلت دون أن  
تلتفت ورائك . أثبتّ أنّك ما أحببتني قطّ ولا حاولت! لم  
أكن أدري بأنّ قلبك قاسٍ هكذا، أمّا عنّي أنا التي أحببتك  
مثلما لم تحبّ امرأة رجلاً، فأهنتك لأنك نجحت في  
تضليلي عاطفيّاً، ووضعت خطواتي في الطريق الصحيح  
طريق الجنون، حتى الموت صرت أحسّه يدنو ويقترب

كثعبان واثق من أنّ صيده السهل».

أوجعتني كلماتك.. خولة! أوجعتني كثيرًا، في لحظة مخبولة وأنا أقرأكِ شعرتُ أنّ يديّ تنزّان بدم هو دمك وأنّي ملطّخ الوجه والשיاب بدمك، وأنّ فمي مكتظّ بدمك. ببساطة أحسستُ أنّي سفّاح بشع، كيف خرّبت قلبًا لم يرتكب في هذه الدنيا الضيقة من جرم سوى أنّه أحبّني بجنون، دون أن يقحم نفسه في حسابات الربح والخسارة. نكأْتُ بمذكّرتك جراحات انتحارك فيّ، فاستحالت إلى قروح ينخرها الدود والقيح. أقسم بدمائك أيتها القديسة البريئة أنّي أموت بك كلّ يوم مرّات، وأنّني لا أشتهي بعدك إلا موتًا شريفًا...

تبًّا للسنة البيضاء التي اقتلعتها من الجامعة من أجل استكمال الخبرة، أو بالأحرى من أجل قتلك! آه.. كيف اخترتُ الرحيل أو الهروب من حبّك بعد أنّ تأكّدتُ أنّي أدمنته، وصرتُ أتورّط فيه كلّ يوم أكثر. آية أنانيّة استبدّت بي ودفعتني إلى هجركِ شهورًا بحالها، اخترتُ البعيد لئلاّ يأسرني سحر القريب بشكل كلّّي، فأنا كنت ولا أزال أنام على أشواك أسئلة مؤلمة، وفي كلّ هذا لم أكن أملك من الشجاعة ما يكفي لأواجهك بحقيقتي.. فلا أنا أتزوجك - لأنّني لا أصلح للزواج - ولا ضميري يأبى أن أتركك معلّقة في خيوطي العنكبوتيّة الزائفة، فيمرُّ قطار زواجك بسرعة، ويخلفك وأخلفك أيضًا وحيدة وفارغة إلّا من حبّك الكبير، ومريضة بلسان مجتمع لا يرحم. رحلتُ أيتها القديسة لكي أدرك على غيابي، وأفرش الطريق وأعبدّها لحديث النهايات، ولستُ أنفي أنّي رحلت أيضًا لكي لا أحبّك أكثر، فتقتلني هشاشتي. ففي الأخير، أنا لقيط

مصاب بعقد لا حصر لها، وكنت مطالبًا بتذكر هذه الحقيقة باستمرار.

وبكيت طويلًا دون أن تأتي نوميديا لتناولني منديلها أو تمرّ بأصابعها على دمعاتي، ساعات طوال وهذه الجبال ساكنة، كأنها لم تكن شاهدة على وعدّها بوصلي كلّ صباح. هذا المكان أخرس مثلها، لم لا يصيح مثلي: نوميديا.. فتهتّر لصخبه عوالمها، هذا المكان خطيئتي وفضيحتي أسلمني لها على طبق من وجع، وها أنا أنزف شوقًا وحبًّا...

حين لملمت أضلعي وهممت بالانسحاب، سقطت مذكرة خولة من يدي وفرت منها قصاصة ورق صغيرة، كانت صدفة لعينة أن انتبهت إليها وطاردتها فيما بعد حين استدرجتها الريح، هذه الصدفة القاتلة ومثلها تنفلت من كلّ إرادة أو اختيار ذاتين، كأنما مصدرها إرادة مضادة! حين وضعت عليها قدمي ارتجفت، أما عندما تناولت قصاصة الورق بيديّ فقد قفزت الدماء إلى رأسي.. رأيت فيها وجه مصطفى المشوّه نصفه، رأيتهم كما حدث في المنام وقد صلبوني إلى شجرة.. قالوا بعد بسملة كُتبت بخطّ باذخ مختلف عن متن الرسالة، كأنما هم على وعي تامّ بأنّ الدين الحقيقي مختلف تمامًا عمّا يدافعون عنه، قالوا:

«قد دنا أجلك (كلّ نفس ذائقة الموت)، وقد عثت في الأرض فسادًا وخنت الأمانة، فأضحى هدر دمك صونا للإسلام وأعراض المسلمين، حذرناك، ثم حذرناك، فلا أنت انتهيت ولا ارتدعت؛ واليوم عقدنا أن نجاهد في سبيل الله بقتلك، (إنّا لله وإنا إليه راجعون)».

مادت بي الأرض قليلاً، لكنني بقيت واقفاً على قدمي.  
أحسست بالقرف والغثيان، وتحدثت إلى نفسي بصوت مرتفع:  
- إن كان موتي ضرورياً، فلماذا يؤجل باستمرار، افعلوها  
وخلصوني! أنا أحوج من أيّ وقت مضى للخلاص...  
الخلاص... الخلاص.

وصرخت في وجه السماء، وأنا أركض دونما معنى:  
- الخلاص.

فارتدّ الصدى:

- الخلاص... الخلاص...

## (٥)

الخلاص... ألحّت عليّ الكلمة طويلاً، كانت الجبال تردّها  
فيتردّد صداها داخلي، ويتناسلُ تمامًا كما تتناسل الدوائر بعد  
سقوط حجارة في مستنقع! الصدى لا يهدأ ولا يتوقّف،  
الخلاص.. الخلاص، وضعتُ يديّ على أذنيّ.. الخلاص...  
الخلاص! أصبح كفى.. كفى. لكنّ الصوت لا ينفكّ يخذلني  
تمامًا كما فعلت الحياة وفعل الخلاص، ما هي إلّا طلقة طائشة  
وينتهي الأمر...

السماء تستجمع دموعها، السماء حزينة حدّ الفجيعة. فمتى  
ستبكي من أجلي وأجلِ خولة؟ متى ستنزف مطرها الافتتاحي لتُنزل  
(آيت مرغاد) من أعاليهم هناك، سأسألهم عنّي حين ينزلون..  
سأسألهم عن طريق إلى الخلاص!!

في الطريق إلى الفجّ، نزلتُ جراحاتي بحدّة. أمّا الخلاص  
الذي كنت أرجوه فقد كان يقَدّم رجلاً ويؤخّر أخرى. أحسّ بذلك

وأستشعر ضعفه وجبنهم.. لم أدر كيف انتهى بي الأمر فوق جنادل سيدي عيسى، بكيت كثيراً وأنا أنفقُ المذكرة النائمة كجثة جانبي، أمّا قصاصة الظلام فلست أدري أين أضعتها! حزني تضخم أكثر ممّا ينبغي، وأنا مريضُ الروح، روعي تنزف وتنسحب ببطء مني، حملتها أو ربّما حملتني وإياها الحياة فوق ما نطبق.

شجرة التين تلوح لي حباتها بإغراء مبالغ فيه من شقوق هذا الكهف المقام. التين فضيحتي وهذه الشجرة لعنة! قالت لي الحكاية في ليالي إغرم الشتوية الحزينة والملينة بالغموض والخوف: التين تين المقام، دم الشهيد، وأكله ملعون إلى يوم يبعثون...

أمّا الآن، بعد أن يئستُ من الدنيا بما فيها ومن فيها، فالتين شهوتي الفاجرة، وأنا ملعون مذ ولدتُ، فهل هناك لعنة أشدّ من هذه التي اصطادتني منذ البدايات؟! ليس بعد كلّ هذه الخيبات التي استهدفتني شيء أسوأ. منتهى اللعنة أن تشتهيك ميتاً، والموت هو ما أشتهي الآن.

هل هناك لعنة أكبر، من أن يولد المرء حافي القلب، لا صدر يدقّ أيامه ولا كفّ تعيد له الغطاء إذا انزاح عن جسده في ليالي الشتاء القارسة؟ هل هناك لعنة أكبر من أن أقتاد أكثر شخصين أحببتهما، خولة ومصطفى، كطفلين يتعلّمان المشي إلى موت بارد؟

هل هناك أفظع، من أن تُنتهك طفولة طفل كنته، فقط لأنّه لقيط؟ هل كان عدلاً أن ترسّم صفيّة على ظهري خرائط كرهها

المكبوت، كأني أنا من اخترتُ منزلها أو اخترتُ أن أكون لقيطاً؟ هل كان عدلاً أن تخونني جوليا وتغتالني فقط لمجرد استنطاق حكاية قد لا تعني للكثيرين شيئاً؟ هل كان عدلاً، أن يُهدَرَ دمي لأنني قلتُ أشياء يجبُ أن تقالَ، أو لأنني أعري هذا المجتمع المريض؟ آه.. هل هناك لعنةٌ أكبر من أن تسقط عني - بعد عشق كبير - روائحُ إغرم ويغمدُ ثورها في ظهري آخر خياناتها، بعد أن أغمدت أغانيها أوجاعها في صدري.

وأشتهي التين، أشتهي هذه اللعنة التافهة...

كانت الطريقُ إلى شجرة التين التي تحتلُ الزاويةَ العميقة من هذا الكهف محفوفة بمخاطر سرّية وموتٍ محتمل، لكنني كنت متأكّداً أنّ هذه الحرقّة التي تمزّق جوفي لن تخمد إلّا بحبّة تين ملعونة. الآن، أدركت أنّ قدري لم يجرّني إلى إغرم إلّا من أجل استكمال اللعنة.. فتبّاً للأقدار، لهذا الجنون الذي يتأبطني ويمضي بي إلى حيث لا أدري..

سدى حياتي ضاعث، كان حريّاً بي أنّ أدرك ذلك منذ اليوم الذي وضعت فيه قدميّ على أبواب الهاوية، حياتي راحت سدى، وخلف وشاح الموت الرمادي فرح محتمل.. ألمني قليلاً الجرح الذي خلّفه الثور في جنبي، وآلمني كثيراً أن تنساني إغرم كما نسيّنتني الحياة.

عندما كنت أوداد، الطفل الشقيّ الهشّ والمحروم، كنت مسكوناً بهذا المكان أطيّر إليه حين يفدحني الحزن أو تخربني الأسئلة الثقيلة، أطيّرُ إليه مروجاً بأشواك الآخرين، وأبكي على

أحجار المقام حتى ينضبَ معين الدمع، كانت طفولتي منتهكة جدًّا وكانت شجرة التين هذه فتيّة لا تبكي طفولتي، لكنني كنت أحسّها تحزن، ولم أفكر وأنا وعل صغير أن أكل من خصبها الدامي اللعين. لست أدري هل لأنّ قصّة هذه الشجرة وتاريخها كانا يكفّناني أم ببساطة لأنّ ثمارها لم تكن في متناول يدي، بحكم قصر قامتي وقتها!! لكن ما أنا متأكد منه تمامًا، أنّي كنت أخاف منها وأحسّ برهبة حين أقربها، كنت أشعر أنّ أيّ خطوة متهوِّرة في هذا المجال قد تفقدني رأسمالي الثمين وقتها: المستقبل. أمّا الآن، فأقول بعد أن وطئت بقلبي على أشواك المستقبل الدامية، ليتني ما كبرتُ ولا عرفتُ ما كان يخبئه لي من أحزان قاتلة، وليت هذه الشجرة ظلّت بعيدة عن متناول يدي.

الآن، يخرجُ قلبي من شرنقته جريحًا ويغادرني، أراه يتسلّق أغصان الشجرة الناتئة من الجبل كضلع آدم... الجبل آدم وحواء، هذه الفتنة واللعنة الناتئة، أرى قلبي يبتعدُ عني ويخلّفني خبرةً من الحزن والحنين.

وكانت حبة التين قد استوت وأكملت نُضجها حين تفقدتها بأصابعي، دبّ خوفٌ سرّيّ داخلي، لكنّه لم يُثنني قطّ عمّا عقدت عليه عزمي، لا قوّة الآن تقهر صليل الخطيئة في دمي، سحبت حبة التين بشدّة قد تغضب (رجال البلاد) لا محالة!! هكذا انفصلتُ واستقرّت في راحة يدي. كان رأس حبة التين ينزفُ حمرة متوهجة غريبة لا شكّ أنّها تضمّرُ شيئًا من دم الشهيد، إن لم نقل إنّها دماء الشهيد. ولكي أضع حدًّا للتردد، أو ربّما لكي لا أفسح مجالاً أكبر للخوف داخلي، حسمتُ الأمر بسرعة إذ أخدمتها لعنة

في فمي وفي دمي.. كانت حلاوتها فظيعة، لم أدق في حياتي الذّ  
ولا أطيب منها، كانت تعبق بأريج أسطوري ملتبس بحكاية سيدي  
عيسى والعواطف التي تثيرها. أما وهي تتمزق بين فكّي، فقد  
توقّف الزمن أو على الأقلّ تباطأ بشدّة وخبرني بأنّ الحياة لعبة  
سخيفة، لم أتقنها ولم يتبقّ في العمر متّسع لأفعل ذلك، كانت  
حبّة التين هذه فرصة للانتشاء بالخطيئة.. شكرًا لنشوة الخطيئة التي  
أنزلتنا إلى الأرض، في الخطيئة نشوة لا يخطئها سوى مكفوفي  
القلوب...

تفاحة آدم أرتّه سوأته، فماذا عساها تريني حبّة التين هذه؟ لا  
شيء. على أيّ حال، لن أصل إلى حالة من الانكسار أشدّ من  
هذه التي أنا عليها الآن، إذن، فلأنتشي بخيباتي وحلاوتها،  
وشكرًا للخطيئة معلّمة البشريّة.. لكن، أين لعنتك أيتها الشجرة  
المقدّسة؟ أين؟

أنا لم أنزل إلى أسفل ولم أصعد إلى أعلى، لكنني أحسّ  
بخلل طفيف في مجرى الزمن ونواميس الحياة، قلبي يخفق بقوة  
والحلاوة أحسّها تغلي في دمي، أطبقتُ جفنيّ فرأيت نوميديا  
متلفعة في فستان أشدّ حلّة من حلّة الحصان، كانت كما عهدتها  
في قمة بهائها. سألتها:

- كيف تتغيّبين عنيّ كلّ هذا الوقت، بعد أن أدمتُك؟

لم تجب، ولو بتلميح أو إيماءة. جرت بقسوة زمام الحصان،  
فاندفع كسيل جارف صكّ هديره مسمعي. فتحتُ عينيّ ولم أرَ لا  
سيّدة الحصان ولا الحصان، كنت شريدًا بين غفوة طارئة وصحو

خجول، لذلك لم أكن متأكدًا إن كان ما رأيت حقيقة أو هلوسة،  
لكن ما أنا متأكد منه هو الصوت الذي سمعته أوّل ما فتحت  
عينيّ، لكنّه أخذ يتلاشى إلى أن طواه صمت بهيم.  
وهزّني تعب قديم...

لم يبرح جسدي منذ طفولتي الشقيّة ها هنا، لكنّما الآن  
توجعني الثغرة التي شقّها ثور القبيلة في جنبي، أستشعر بللاً أسفل  
الضمادة التي اشتبكت بالجرح، لا شك أنّي أنزف، ربّما! لكن  
أقلّ ممّا نزفت خولة حين مرّت بالشفرة على معصمها وانطفأت  
بهدوء ملوكيّ رفيع. آه خولة! بائسة أقدارنا وأشقياء بها نحن،  
طفلة كنت غارقة في أحلام ورديّة، فلم أعرف كيف السبيل إلى  
إيقاظك، فتركتك تستيقظين لوحداك، تستيقظين على انتحار! أذكر  
ذات ليلة قولك ونحن متوحّدان في السرير:

- أعرف أنّ الحياة لم تكن في صفّي يومًا، على أيّ حال،  
أنا لا أسألها منّة. كلّ ما أرجوه، أن تنصفني في حبّك، أن  
تمنحني مراد ومقدار رشفة من العمر، ولتأخذ بعد ذلك ما تشاء.

فهمستُ في أذنها أشجّعها على التماذي في ذلك الحلم،  
الذي لن تصحو منه إلّا على الموت:

- أنا لك يا مجنونتي إلى الأبد..

- صراحة، أخاف على حبّي من تلك اللوثة التي طالما  
تعقّبتني وأجهضت أفراحي في مراحلها الجنيّة.. اللوثة نفسها التي  
باعدت والديّ...

وصمتُ هنيهة، وتطلّعتُ إلى السقف، كأنّما تسترجع ذكرى

شاردة أو تستجمع القوة اللازمة للبوح، واسترسلت:

- لا زلت أذكر الشقوق الحزينة التي خلفها داخلها أيام طفولتي، أراها كأنني ما ابتعدت عني وأنا طفلة أراقبهما وهما يتشاجران، فيهتزّ المنزل كلّ وتهشم الأواني. لم أكن أَلُمُّ بأسباب خلافاتهما. جلُّ ما كنت أفعله وقتها، أنني أجلس القرفصاء في ركن ركين من المنزل وأنتحب في صمت ووجع، إلى أن يلتفتا إليّ كما يلتفت الفقير إلى ورقة نقدية ضائعة، فيتجاذباني وأنا بينهما كخرقة بالية، كلّ يدعي حبّها وشرعية امتلاكها.

أذكرُ أنني كفكفت دموعًا حارقة انزلقت من محجريها، وشدتُها إليّ بقوة، فانتحبتُ أكثر فأكثر، وعندما هدأت التفتت إليّ قائلة:

- لماذا لا تحكي؟ لماذا تصرُّ على إبقاء ماضيك جانبًا، مع أنني أحسُّ أنّ عينيك تختزنان حزنًا كبيرًا، تحدّث حبيبي.. الحديث أحيانًا كثيرة يذيب الأحزان، يعريها ويجعلها قابلة للمراجعة، الحكّي فرصتنا الاستثنائية للاستمرار بأقلّ قدر من المأساوية.

واقبستُ عن قصد كلمات أغنية خليجية:

- «ليه ساكت، وداخلك زحمة حكي...»

لكنني رغم محاولتها ومحاولاتها فيما بعد، لم أنسِ بنت شفة. كان وجعي أعظم من أن تُخمدّه الكلمات، أو على الأقلّ هكذا فكّرت وقتها. خولتي، يا جميلتي الشهيدة، يا ليتني ما خبّأت عنك حقيقتي... وارىت عنك حكايتي لتسرقها مني ببرودة

جوليا، فتبًا لأقدارنا العمياء!

خولة، أعرفُ أنك لم تبتعدي كثيرًا، أحيانًا أحسُّ أنك أقرب مِنِّي إليَّ، أشعر أنَّ عوالم الموتى مجاورة للأحياء، وقد نصحو ذات يوم على حقيقة حمقاء هي أنَّ خلف هذا الوشاح الرخو، الذي يصطلحون عليه الموت، حياة أخرى...

خولة، أيتها الشجرة الباسقة كيف أسقطكِ الموت، لا بدَّ أنه بكى كثيرًا، وظلَّ يشدُّ على ركبتيك كطفل شقيٍّ معتذرًا قبل أن يعود إلى لعبته التي يتقنها جيّدًا. عمّا قريب، إن صدقت تهديدات الظلام، سأكون ضيفك وستكونين دليلتي في عوالم الغيب، ستقتلني هذه المستحاثات التي تستيقظ من قرن لآخر باسم الله والسُّنة، والله براء منهم.. ستجتاحني لوئتهم السامة وستشّح حياتي في لحظاتها الأخيرة بظلام دامس، يفضي إلى بؤرة ضوء بحجم كوة الباب، إنها الموت نهاية النفق.

خولة، أقسم بدمائك أنني حزين متعب النبض ومستنزف جدًّا في إغرم، هذه المراهقة المرهقة التي تكرر أيامها بانتظام، أو على الأقلّ توهمنا بذلك! يأتي الغرباء ويرحلون وهي هي، تتأملهم ببسمة مأكرة تورّطهم في عشقها وتخلّي عنهم، أمّا أنا، وبحكم سوابقي العشقيّة لها، فقد أعادتني لتغتالني على مهل، أو على أقلّ تقدير، لتكون مسرحًا لاغتيالِي. سلّطت عليّ حبًّا أثقل من أن يحمله قلب القريب، قلب الغريب هشّ، وإغرم كجوليا ساديّة في السرّ عاشقة في العلن...

خولة، ليتني منحتك حكايتي وأخمدت لهيبَ الأسئلة التي

كانت تحرقك بين فينة وأخرى، خبأتُ سرِّي عنك لتسرقه مِنِّي كاتبة فرنسيّة، اسمها - وهذا جلُّ ما أعرف - «جوليا». سرِّي لم يعد سرّاً. سيُكتب وجعي على ورق فرنسي وبحروف فرنسيّة. هكذا نحن منذ زمن طويل، لا نُجيد الكتابة عن أنفسنا، فنخضعُ لتحديدات الآخرين، والآخرون، لا يكتبوننا كما نحن بل كما يروننا، هؤلاء هم محتتنا التي امتحتنا بها الحياة.

وجوليا واحدة منهم، وإن كانت لا تشبههم في كلّ شيء. جوليا مبدعة، والمبدعون هكذا دائماً نرجسيّون وساديّون إلى أبعد الحدود، يجتاحون باسم الفنّ كلّ شيء، الفنّ كان دائماً العكّاز التي يستندون عليها. إنّه شرعيّتهم الوحيدة التي تبرّر للبعض منهم جرائم وحشيّة، ولا غرو في ذلك يا شهيدتي.. أليست جوليا من بلد الشاعرة «مدام يسارابو» التي قتلت زوجها، أليست من بلد الشاعر «فرونسوا فيون» الذي حوكم بجريمة قتل؟ أليست من بلد «لوي ألّتوسير» الذي قتل زوجته هيلين؟!

جوليا، أرادتُ حكايتي، فعبثت بجراحاتي قديمها وحديثها، الأفظع أنّها راوغتني باسم الحبّ فقط لتستنطقني ولم تكتفِ بمرويات بنهاشم وتقاريره. جاءت معي لتصيخ السمع إلى أوصالي وهي تتمزّق، جاءت معي مدجّجة بعنادها اللغوي والأدبي، ولأنّني كنت عصياً على البوح، فقد استقدمت معها إبر الموت لتعذبني حدّ الاعتراف.. باختصار يا حبيبتي الغائبة، جاءت لتغتالني وتشهد انهياراتي الأخيرة؛ فأنا كما صرّح بنهاشم الوغد ميت ميت، وأن أموت بحدّ قلم، أفضل من أن ينهشني المرض أو تمرّ على عنقي مدية ظلاميّة صدئة، هكذا جاءت معي جوليا، لا شيء، فقط

لتفرغني من أسراري وتوعز لطيشها الأدبي مهام قتلي والسير في  
جنازتي... .

التفتُ إلى وجه يابس كان يبخلقُ فيّ، وأنا أحكي لخولة  
بصوت يكاد يكون مسموعًا، ضرب يداً بيد وابتعد، كنتُ أسمعه  
يتمتم:

- لا حول ولا قوة إلا بالله.. .

ارتجفتُ يدي التي كانت تشدّ على مذكرة خولة، تطلّعتُ إلى  
هذا الكهف المزار كأنما أراه للمرة الأولى، تأملتُ الجنادل  
المتراكم بعضها فوق بعض، والتي ينام تحتها شهيد إغرم. تأملتُ  
المناديل البالية التي تنام هنا وهناك فوق الجنادل.. . هناك فوقها،  
تعلّق نساء إغرم ورجالها خيبتهم وآمالهم. سألت نفسي: هل كان  
عدلاً أن يموت سيدي عيسى؟؟ لا بدّ أنّ السفاح الرومي كان ذا  
قلب كقلب جوليا، لا يلتفتُ لشيء سوى لأسطورته الشخصية  
ومشاريعه الإمبريالية!!

مغدور أنا بك يا جوليا...

لكنني لن أنتقم، بإمكانني أن أغرقك أنت وبنهاشم في دوامة  
قضائية بمكالمة هاتفية واحدة، لكنني لن أفعل، لأنني أكثر من أيّ  
شخصٍ على وجه البسيطة أتوق للخلاص. أحسّ بالجنون ينغلّ  
دمي ويأكلُ منّي، أحسّ بالوجع يفيض عن جسدي ويطبق على  
الروح.. . لا شكّ أنّ الحِقْنَ قد فعلت فعلها. إنّها تخربني. كلّ  
شيءٍ داخلي أحسّه يتهدّم، كانت صفة أرحم منك، على الأقلّ  
أوجعت جسدي أو بالضبط ظاهر جسدي، أمّا أنت وما زرعت في

دمي، فقد تغلغل كحدّ سيف داخلي.. وعلى الرّغم من كلّ هذا لن أنتقم.. نعم، لن أفعل. بطولتي الأخيرة تقتضي أن أستسلم لهذه التراجيديا والفضيلة، قمة الفضيلة أن تمنح قاتلك غفراناً قاتلاً. الغفران في كثير من الأحيان مرآة يرى الظالم فيها كلّ بشاعاته.. لم أسع يوماً للانتقام من أحد، لا الجدّة التي أدمت طفولتي، ولا صفيّة التي انتهكتها إذ أحرقت ظهري، لا الأقدار التي أحرقت خولة، ولا تجار الظلام الذين نحروا صديقي الوحيد.. كلّ هذا، لأنني أدركت منذ وقت مبكر أنني خسرت كلّ شيء، وأنّ الخسارات المتتالية التي مُنيت بها لم تكن سوى امتداد لخسارتي الأولى، خسارتي لذلك الحنان الأولي والضروري، خسارتي لوالديّ.

اشتدّ ارتعاش أصابعي وامتدّ ليشمل يديّ وذراعيّ. تأملت شجرة التين التي لم يتغيّر فيها شيء بعد أن أكلتُ من خصبها اللعين، أحسست بملوحة تجتاح فمي، أحسست بالقيء ثم الغثيان.. أمّا حين انحنيت وبصقت، فقد تأكّد أنّ الملوحة التي استشعرتها كانت دماء، انتصبت واقفاً فمادت بي الأرض، كدت للحظات أن أسقط لولا أنّني ظللت متماسكاً، انحنيت قليلاً فسال أنفي دمّاً، كانت بقع الدم تتناسل في أرض المقام بسرعة، وجسدي (الذي لم أشتك يوماً منه) يرتعشُ بحدّة، حتى جنبي الذي شقّه الثور أحسّه ينزّ دمّاً، كأنما صار يتقطّع الحبل الوحيد الذي يربطني بالحياة: الجسد. طرحت مذكرة خولة أرضاً. آه، لست وليّاً صالحاً لأنزفها هنا، ولا أتوقّع أن تتفجّر من دمائي شجرة تين أو زيتون. لست سوى مراد، أو هكذا أرادوني أن أكون،

لست سوى أوداد الوعل، أو هكذا أرادتني الحياة أن أكون.

ومضيتُ صوب النهر الصغير الذي ينحدر من عين تامجا ويمرُّ غير بعيد من هذا المقام... لكأنما الأرض كانت كما لو أنها تتمدد، وابتعد النهر أكثر فأكثر، لكنَّ الحقيقة أنَّ قدميَّ المجهدين هما اللتان كانتا لا تقويان على حملي، إضافة إلى أنني كنت مشدوهاً أمام النقط الدموية التي تسيل من أنفي ولا تزداد إلا اندفاعاً وغزارة، وتتضخَّم أكثر في عينيَّ، أحمر... أحمر، تذكرتُ أنني خلَّفت مذكرة خولة الحمراء في المقام.. خفتُ عليها كثيراً، أو بالضبط خفت ألا أراها مرةً أخرى، استدرتُ وعدت لأصحبها معي (خولة، لا يزال فيَّ جوع لصوتك إن ظلَّ في العمر ما يسعف) لكن طريق العودة إليها كانت صعبة بل أقرب إلى الاستحالة، كنت أحسُّ قدميَّ ثقيلتين لا تطاوعانني، كأنما كنت أمشي على رمال متحركة تبتلعهما رويداً رويداً. في لحظة مخبولة برق وجه نوميديا، لكنَّ حمرةً ما أطفأته، أحمر... أحمر! وأنا أترنُّح ككبش مذبوح، وتداخلت أمامي صور قديمة بأخرى جديدة وباغتني عطرُ جوليا، هو نفسه عطر خولة المفضل، أشمّه كما لو أنَّ إحداهما هنا في مكان ما قريب. ونزفتُ.. نزفت طويلاً، ودون أن أبلغ مذكرة خولة هويت كشجرة أرز قطعت من أسفلها، ارتطمت بجنادل الوادي....

وغبتُ.

## (٦)

أحفظُ هذا المكانَ جيّدًا... منذ الوهلة التي فتحتُ فيها عينيّ اندفعتُ فيه بخشونة وصرت جزءًا منه، لم يتطلّب الأمر سوى هنيهات. بعض الأمكنة تحتفظ بنا على الرّغم من أنّنا هجرناها، وفور عودتنا إليها تشعل ذاكرتنا وتسقط عنّا كلّ ما علق بنا من أوجاع الحياة. أحفظ هذا المكان مثلما أحفظ أحزاني.. مقام سيدي موسى الذي يتوسّط إغرم، لكن لماذا تشدّني كلّ هذه الحبال إلى هذه الشجرة العملاقة؟ والعجوز التي تتوسّط هذا المقام، هي الأخرى، أحفظها جيّدًا. كيف لا، وهي مشار استغرابٍ كلّ من زار إغرم!

عاري الصدر، حافيّ القدمين كنت.. ملتنصّقًا بشجرة التين الوارفة والضحمة، ولم أكن مضطّرًا أن أنسحب من ذاتي وألج باب المقام وأراني مربوطًا بالحبال إلى الشجرة، لأتذكّر جيران طفولتي من حمقى وممسوسين كانوا يُربطون إلى شجرة التين هذه،

أتذكّرهم كما لو أنّني ما غادرت طفولتي في إغرم، ولا خَطَّتْ  
أيدي الزمان في جسدي وفي روحي ندوبًا لن يَمْحوها سوى  
الموت.

فيما مضى، كنت أقتحِم على المربوطين إلى الشجرة خلوتهم.  
كنت مجنونًا. أذكر أنّني كنت أيام الطفولة أمرّ على القطع النقدية  
الصفراء التي ينشرها الزوّار حول ضريح الوليّ الأب، أشتري بها  
الحلوى، أكل قليلًا منها، ولا أنسى أن أذيق المرأة أو الرجل المربوط  
إلى شجرة التين.. أمّا ما تبقى، فأتركه على قبر الوليّ على أمل أن  
ينفض عنه غبار القبر ويأكلها.

لكن، ما الذي تفعله يا مراد هنا، هل تنتظر قدوم لقيط مثلك  
ليستبدل النقود بالحلوى ويذيقك منها، ويبكي بقربك حين توجعه  
الأسئلة مثلما كنت تفعل؟! تعيسان أنا والطفل الذي كنته، تعيسان نحن  
ومنسيان. غبتُ قليلًا لأستيقظ وأجدني منسيًا ها هنا ومربوطًا إلى  
شجرة مثقلة بتاريخ من الجنون. لست أدري كيف جئتُ إلى هنا، ولا  
من جاء بي.. وتذكّرت مذكرة خولة وحزنتُ، أيعقل أنّها ضاعت؟  
وحاولت مرارًا التملّص من هذه الحبال، لكن دون جدوى...

أنا لست مجنونًا ولا ممسوسًا لأربط هنا. نعم، لست كذلك  
فاخلوا سبيلي، اتركوني يا من حملتموني من مقام الابن إلى مقام  
أبيه، أنا لقيط لا أفقه شيئًا في ذلك الحبّ الغامض والمكابر،  
الذي يربط الابن بأبيه، ولا أعرف إن كانت تضحية الأب بابنه  
تضحية فعلية أم مجرد «مانيفيستا» سياسية؟! التاريخ في بلدي كثيرًا  
ما تكتبه العواطف، فاتركوني، لأنّي حزين، حزينٌ كسماءِ هذا  
اليوم. وصرخت:

- اتركوني...

فكسرت الصمت الموحش، الذي كانت تغرق فيه القرية بعد أن غادرها أناسها وبهائمهم إلى الحقول. كان صوتي مدوّياً أشبه ما يكون بطلقة نارٍ في غابة معزولة، وما هي إلا دقائق معدودة حتى سمعتُ خشخشة تدنو.. دُفع باب المقام، فاستفزني صريه (من العادة أنّ باب المقام لا يُغلق، بل يظلُّ مفتوحاً في وجه الغرباء والمجانين والمخدولين.. صباح مساء. أصحّتُ السمع إلى وقع أقدام تخرق الممرّ الضيق الذي يفضي إلى البهو الكبير، حيث الشجرة الكبيرة التي شُددتُ بالحبال إليها.. دنا الصوت أكثر فأكثر، وإذا بوجه عابس يابس قد جفّ منه الدم يطالعني. كان ذا أنف حادّ يجعله أشبه ما يكون بنقّار الخشب، لا سيّما مع تلك العينين الغائرتين واللحية الموزّعة بغير انتظام على وجهه، كلّ هذه الصفات إضافة إلى الجلباب الفضفاض الذي يوارى جسده النحيل وقامته المعقوفة، وتلك البصمة السوداء على جبهته الضيقة.. كلّ هذا يجعلني أجزم أنّه فقيه القرية، أغلبُ فقهاء المغرب متشابهون إلى حدٍّ يبعث الاستياء، كأنّهم مرّوا بالقالب نفسه. قال بعربيّة فيها الكثير من الرطانة:

- السلام عليكم ورحمة الله..

فأجبت تحيته بصوت مجهد:

- وعليكم..

- على سلامتك أسي مراد. كدت أجزم أنّك لن تستيقظ من حالة الصرع التي انتابتك البارحة.

وصكّك أذنيّ كلمة «البارحة». لم أسمع الكلمة وحسب. بل رأيتها أشبه ما يكون بسلسلة أبوابٍ تنغلقُ دفعة واحدة بقوةٍ وانفعال. قلت:

- ماذا؟ أتقصد أنني غبتُ من الوعي منذ يوم أمس، وأنتي.. وتلعثمْتُ قليلاً.. تراحمتُ الكلمات في فمي، كما لو أنّها تريد أن تنسحب كلّها دفعة واحدة. أردفتُ:

- أتقصد أنني قضيت الليل كلّه مربوطاً إلى هذه الشجرة؟

فندتُ شفتاه عن ابتسامة مأكرة جعلت دماء أوردتي تفورُ، فصرختُ فيه بكلّ ما أبتت في حوادث الدهر من عنفوان:

- أعتقد أنّك طيب لتفعل بي ما فعلت؟

- ولكن أسي مراد أنت ممسوس، أنت مسكون بجنيّة الوادي، وقد قضيت الليل طوله محاولاً إخراجها من جسدك..

- كفى ترّهات.. أرجوك! وفكّ وثاقي والآن.

- لا يمكن سيّدي على الأقلّ هذا اليوم، سيضيع كلّ شيء إن أنا فككت وثاقتك، أنت مريض بها وأنا هنا لأخلّصك منها، ولن تفهم قيمة ما أفعل إلّا فيما بعد، وستشكرني..

لم أكن أنتبه للكثير من كلامه، كنت أراقب الزغبَ المنشور على وجهه وهو يعلو وينزل، وأتأمل خديّهِ المقعّرين اللذين يفضحان فكّيه الحيوانيّين... حاولتُ جاهداً ضبط أعصابي، لا أريد لجسدي أن يخذلني مرّة أخرى ويستسلم لكتلة الخراء الآدمي النحيل هذا.. انتهت إليه حين قال:

- لقد عشقْتُكَ جَنِّيَّة الوادي «سَيِّدة الحصان»، وأرادت أن تمتلكك للأبد.. بالمناسبة أخبرني: هل تتقن الحديث باللغة الأمازيغية؟

باغتني سؤاله، فأجبت مراوغةً:

- لا!

فانطلقت أساريه بفرح فُجائيٍّ، وصاح كأنه حَقَّقَ نصرًا أو فتحًا مبینًا:

- الله أكبر.. الله أكبر! لقد حَدَّثْتنا البارحة بالأمازيغية، كانت تتحدَّث من خلالك وأسمت نفسها «سَيِّدة الحصان». قلْ لي أكنت تراها في الوادي؟!

- بل قلْ لي أنت أين قميصي؟ وأين المذكرة الحمراء الحمراء التي كانت معي؟ ودعني من شطحات خيالك التي تفرغ بها جيوب الفقراء الأُميين.

- أرجوك، لا تسب.. أنا لن آخذ من جيبك درهمًا واحدًا، أمّا عن أغراضك، فقد أخذتها الشقراء التي تكون معك، وقد وَعَدْتُ أن تزورك هذا الصباح.

وصفّعني خبر رجوعها، هكذا عادت جوليا لتكمل ما بدأته عليّ كطريقة القاتل المحترف. عادت لتسحب سيفها الصديء الذي نسيته متعمّدة بين أوردتي، وترقّب انهياراتي الأخيرة بعدستها الروائية.. وتفرّغ بعد ذلك للكتابة، فالرواية أحيانًا تستدعي القليل من الدماء، جثة ممدّدة فوق بياض الورق قد تمنح المبنى رونقًا مضاعفًا، وتحقّق المعنى بجرعات مركّزة من التشويق.. وكنت

غائبًا عن الفقيه تمامًا، لم أنتبه له إلا عندما جعل يضرب يداً بيد  
ويتمتم منسحبًا من المقام مردّدًا:

- لا حول ولا قوّة إلا بالله..

وكانت حركاته إضافة إلى الطريقة التي حوّلَ بها كفيلة بأن  
تستفزّ ذاكرتي المتوقّدة، وتجعلني أتذكّر أنّه هو من كان يتأمّلني،  
وأنا أناجي خولة في مقام الابن. نعم، إنّهُ هو بوجهه اليابس  
كالخطب، آخر وجه أراه قبل أن يُغمى عليّ وأوّل وجه أراه بعد  
استفاقتي، لكنّه لم يكن يلبس جلبابًا هناك، لماذا؟ ولماذا يأتيني  
خبير مقدّم جوليا على لسانه هو، ولماذا كانت رائحة عطرها آخر  
رائحة أشمّها قبل أن يغمى عليّ؟! ربّما يكون في الأمر مؤامرة  
ما.. كلّ شيء متوقّع.

حين أغلّق باب المقام، خلوتُ إلى طفولتي... رأيتني ألعب  
هنا وأتكلّى هناك على الحائط حين يخزّني الحزنُ أو تقسو عليّ  
الوحدة، وفي كثير من الأحيان كنت أستمع إلى المربوطين إلى هذه  
الشجرة وهم يقولون كلّ شيء دفعة واحدة. والآن، ها أنذا مثلهم  
مربوط إلى الشجرة نفسها التي استقبلت أجيالاً من المجانين  
والمخدولين!!

كم أنا الآن في حاجة إلى سيجارة ورشفة من زجاجة  
خمر... لا.. لا، بل أحتاج الآن أكثر إلى الأكل، أنا جائع.  
نعم أنا كذلك. في النهاية جوع البطن قاس، وإن جعْتُ صرت في  
حاجة إلى شدق خبز. أسدّ به رمقي، وإذا أردت أن أحقّق ذلك لا  
بدّ أن أعمل، الأمر الذي سيجعلني عرضةً للاستغلال الذي لا بدّ

أن يمارسه مالكُ وسائل الإنتاج.. إنني بروليتاري في حاجة إلى ثورة من أجل التحرُّر من ربة الملاك.... أوَاه، أنا أهذي! إنها أنشودة الرفاق، لكنني لست في الساحة الجامعية. أنا الآن مربوط إلى شجرة تينٍ وارقة تظلُّ مقام سيدي موسى قلب إغرم، وأنا هنا والآن، لأنني كما زعم الفقيه مسكونٌ بسيدة الحصان التي تعشقني وتريدني لها.. أنا أيضًا أحبُّها وأريدها لي..

نوميديا.. أين أنتِ؟

لماذا لا تظهرين لتبتي لنقار الخشب بؤس ما يزعم؟ خذيني إليك وإن كنتِ فعلاً بين جدران صدري - وصدق زعمه - فظلي هناك وزوريني كلَّ ليلة مرّة، دعيني أصلي على خصرِكَ وأغفو كطفل على ركبتيك وأكفكفُ بثوبِكَ أدمعي كلما أجهشتُ بالبكاء، ظلي في القلب لا تبرحيه.. لا شيء في هذه الحياة؛ هذه المذلة البشرية الكبرى، يستحق أن تقع عليه عينك الخرافيتان! نوميديا.. لك في القلب تاريخ وجغرافيا، فنامي هادئة، أنا أحبُّك حدَّ الجنون، أنا لك فأين أنتِ الآن؟ حدِّثيني بصمتك بإيماءاتك، فدونك العالم أشبه بغابة محروقة، ودونك يتدحرج القلب نحو هاوية سحيقة.

نو..... مي..... ديا!

لا طيف منك يزورني، ولا أنا أبرأ بتعاويز نقار الخشب من حبِّك الذي اندفع بقوة تيارٍ جارف، ولم يترك لي ولو فرصة ضئيلة لاستجمع أنفاسي، أو أتأمل أوراقِي وهي تتطاير في السماء. حسمتُ الأمر مبكراً بضربة عاطفية قاضية، ورحلت بعد أن

أدمنتك، لكنك لم تترك لي ولو مندليك ذكرى... جئت عاصفة  
ورحلت صامته.

الدنيا فعلاً يا خولة: «إلى بغات تجي كاتجي بسببية ولا بغات  
تمشي كاتقطع السلاسل»، وها هي نوميديا تسحب زمام حصانها،  
فتقطع السلاسل.. هكذا رحلت سيّدة الحصان، فسامخني يا قلبي  
المرقع، أتعبتك وأنا على يقين تام أن لا طاقة لنا أنا وأنت على  
حبّ ثقيلٍ وقاسٍ كنوميديا.

وأنا مشدودٌ إلى شجرة التين الكبيرة في هذا الصبح الحزين،  
والسماء ملبّدةٌ بغيوم تستفزّ مدامعها، مرّ بي شريط حياتي من صفره  
إلى هذه اللحظة، وضحكت في خلدي ساخرًا من حياة لم  
تهزمني، رغم أنها خرّبت فيّ كلّ شيء. في البداية، كان أوداد  
وكانت صباحاتٍ إغرم ومساءتها تكرر نفسها، لا.. البداية كانت  
حين انقطع حبل سرّي في مكان ما وسالت دماء وأوجاع. في  
البدء كان المخاض. تقول الحكاية التي عدّتها إغرم إنّ الله قبل  
أن يخلق آدم، أو بالضبط عندما كان بصدد ذلك، أمر كبير ملائكته  
أن يأتيه بحفنة من تراب الأرض، هذا القليل من التراب، هو  
الذي سيشكّل جسد آدم.. وتتوقّف الحكاية. كلّ شيء يتوقّف  
ريشما يشعل امحمد سيجارته التي كان يعدّها بيديه وهو يحكي،  
يعدّل جلسته، يتسم لصغاره الذين اندسوا تحت سلهامه، ويترسل  
قائلاً:

– ثم استلّ الله حواء من ضلع آدم لتؤنسه في جنّته، لكنّ  
سعادتهما بذلك الحبّ والنعيم الأبديين لم تدم طويلاً – على الأقلّ  
كما اشتهاها الربّ – لا سيّما بعد الرهان الذي دخله إبليس،

والذي كان يقتضي إغواءهما وكانت شجرة التفاح محور هذا الرهان، وإذا كان الله قد أصدر أمراً حاسماً بتجنّب تلك الشجرة، فإنّ هدف إبليس هو جعلهما يأكلان منها. وقد أنقن التخطيط لذلك، فكانت البداية أن وسوس في خلد حواء أنّ آدم مفتتنٌ بامرأة تفوقها جمالاً، وكدليل على ذلك أحضر مرآة وقال لها بأنّه سيُريها صورة غريمتها. وبالفعل تطلّعت إلى المرأة وظنّت أنّ وجهها الذي كانت ترى انعكاسه في المرآة هو وجه غريمتها، فاستشاطت غضباً وألّحت على إبليس أن يدلّها على طريقة تزيحُ به هذه المرأة الوهم، فأكد لها أن ذلك رهين بأكلهما معاً من شجرة التفاح المحظورة، وبهذا ترك لحواء إكمال اللعبة على طريقتهما هي، التي جعلت من أكل آدم لتفاح تلك الشجرة برهاناً على حبه لها... وقد نجحت في ذلك.

ثم تطلّع امحمد إلى أبنائه الذين أسقطهم النوم تبعاً، وخفّت أن يدفعه الأمر إلى التوقّف عن السرد، إلّا أنّه أحمَد يده في جيبه وأخرج تبغّه وقصاصة ورق، وانشغل بتحضير سيجارة أخرى مسترسلاً في الحكّي. كنت أحسّه يفعل ذلك بمنطق الحاجة إلى الكلام، أو ربّما ريثما يشفي غليله من تبغّه أكثر منه استجابة لحضوري الباهت في المشهد.

- وحسبْتُ حواء الأمر بسرعة، وهما واقفان أمام الشجرة اللعنة، وأكلت التفاحة لتستقرّ بسرعة في بطنها. هذه التفاحة التي ستفجر كلّ شهر دمًا!! أمّا آدم وبحكم التردّد الذي كان يقات من أعصابه، فقد أكلها، لكن خوفه جعلها تستقرّ في حنجرتّه لا تنزل، وهذا الأمر الذي يفسّر ضخامة حنجرة الرجل والدّورة الشهريّة

للمرأة. وقد يقول قائل: كيف يتلع الإنسان تفاحة كاملة؟ والحقيقة أن الله خلقهما ضخام البنية. المهم أن الله وبعد تجرؤ آدم وحواء على أكل المحظور قرّر نفيهما من فردوسه، ولم يخرجهما من الجنة سوى بحذائين، وقد قذف الله بهما كل في ناحية من الأرض، فأصبحا مطالبين بالبحث عن بعضهما بعضاً..

يتوقّف امحمد عن الحكي، يضع سيجارته في فمه ويبحث عن علة الكبريت، يستلّها من بين أصابع ابنه النائم، ثم يواصل وهو يتطلّع إلى السقف وينفث دخانه:

- كانت حواء تخلع عن رجليها الحذاء السماوي الأنيق، وتذرّع الأرض ليل نهار بحثاً عن آدم، بينما كان الأخير يُبقي الحذاء ويبحث نهاراً وبنام ليلاً. حين التقيا كان لا يفصل بينهما سوى نهر كبير تجشّم آدم مشقّة عبوره، الأمر الذي جعل جلّ الرجال فيما بعد معنيين بالإقبال على النساء وطلب أيديهنّ للزواج! أمّا عندما سألهما إن كانت قد بحثت عنه أم لا، فقد أجابت بالنفي، وقدمت له حذاءها الذي كان لا يزال محافظاً على بهائه دليلاً على أنّها لم تبرح مكانها.

لكن، أمّن هنا تبتدئ الحكاية؟ لست أدري. كلّ ما في الأمر أن أوداد وجد نفسه مسيّجاً بإغرم وحكاياتها التي لا تنتهي، شبّ كالوعول وحين سحبت يد للمدرسة، تلقّف هديّة السماء ومضى، تدحرج من منفاه الأوّل إلى منافٍ أخرى يجرّ أوجاعه، ويأمل أن يفضي المستقبل إلى ما من شأنه أن يطفئ حرائق الماضي، تشرّد أوداد، تكوّر وتدحرج ككرة ثلجيّة. كان يكبر على غفلة منه.. ولأنّه كبر قبل الأوان، كان لزاماً أن يشيخ قبل الأوان كذلك.

انتهى إلى الشراء ورغد العيش، لكنَّ الطفل المجروح لم يبرح دواخله. كان دائماً يبكي ويبكيه.. تورَّط بشكل أو بآخر في اغتيال من أبغضوه ومن أحبَّوه على حدِّ سواء؛ كان على رأس جرائمه أن دفع حبيبته إلى الانتحار، لكنَّه في كلِّ ذلك، وفي ذلك الطريق الشائك، كان يموت بشكل تدريجي، وكان الموت دائماً يضرب له موعداً ويتخلَّف عنه.

كرة الثلج أضحت عظيمة جداً في الصيف الأخير... عظيمة تتدحرج دون أن يوقفها أحدٌ، وكانت إغرم حائطاً متماسكاً لا يزيده تقدُّم الزمن إلّا قوّة.. أمر طبيعي إذن أن تصطدم كرة الثلج بالحائط وأن تتفتَّت!

السماء ملبَّدة بغيوم ثقيلة ومكفهرّة، كانت أشبه ما يكون بسهوب قاحلة، والرياح كانت تنزلق باردة من صدري العاري إلى جرح الغربة الذي خطَّه ثور القبيلة في جنبي. عيناى تدوران في محجريهما بطريقة غريبة وأنا أصبح السمع إلى زقزقة العصافير. هل بدأتُ أصدِّق أنني جننتُ؟ تابعت الأصوات حتى تلاشت وحاولت طويلاً التملُّص من الحبال، لكنني لم أفلح. أمّا السماء فلا زالت تفتعل هدوءاً مزيفاً. هي قطرة البداية لا غير، ويندفع المطر أهوج، وينزلُ عن صهوة الجبل آيت مرغاد.

خطى تدنو وتقلق هدوء المقام، يدفع الباب فيصِرُّ، كأني رأيتُ هذه الأشياء وسمعتُ هذه الأصوات في زمن غابر، وأنا في مثل هذه الوضعية. تدنو الخطى، فأركّز عيني على الزقاق الصغير الذي سيفضي بالزائرين إلى حيث أتواجد، واستبدَّ بي قلق مخرب، كدت أصرخ لولا أنني رأيت وجهيهما الحائرين، وضُحكت بمرارة

في سرّي على الصدف الخائنة التي جمعت بين شاعرة وكاتبة، لا يربطهما سوى أمرين: أنا والأدب. إنهما نضال وجوليا.

جسدي شتات أمامهما، هما اللتان كانتا تتأملانه بذهول، قفزت جوليا إلى شفتيّ بسرعة والتصقت بي، لا أدري لماذا عاودتني حلاوة حبة التين في تلك اللحظة المجنونة، تطلّعت إلى نضال التي كانت تبخلق في جوليا بنظرات شزراء غيورة.. وهي تعانق بجسدها الفتنة هذا الرجل المشدود إلى شجرة التين الكبيرة، والذي لا يقوى على أن يبادلها العناق. داهمتني غربة القتل وهو يستسلم لعناقات قاتلته وقُبِّلها الملتهبة، وتسرّبت إلى أنفي بسرعة رائحة العطر، وأيقظت فيّ اللحظات التي سبقت إغماءتي. لست أدري لماذا أحسست أنها نفسها رائحة الدسيّة!

وعانقثني طويلاً.. آه، كيف يعانق القاتل جسداً لا يقوى على عناقها؟ كيف تعانق جسداً وشجرة تجهل تاريخها، تطلّعت بعد ذلك العناق البارد، والذي كان من طرف واحد، إلى عينيّ فغصصت بالخيبة. كانت جوليا هي نفسها التي أعرف، لكن بسمتها الهشة عجزت عن إخفاء الحزن الثاوي خلف عينيها، وما هي إلا ثوان قليلة حتى شقّت دمة طريقها في الوجه الجميل واستقرّت قرب شفتيها، كانت تعتذر. تأملت وجهها. يبدو أنها بكّت كثيراً، أزرق عينيها يلتهب، كأنما خلف زجاج عينيها تنفجر ذكريات وتستحيل أخرى إلى رماد. تطلّعت إل نضال الواقعة بثبات كوتد قربنا، كانت عيناها كسماء إغرم هذا اليوم أو أقرب إلى زجاج حافلة في يوم ممطر، غائم وكثيب. حين عادت جوليا إلى تقبيلي، تسرّبت إلى فمي ملوحة دمعها والتبسّت بحلاوة التين، فهذّني عياء غامض

وشعرتُ بقوأيَ تخورُ دفعةً واحدة. قالت بفرنسيّة متعبة:

- حبيبي.. لو تدري كم اشتقت إليك!

كان صوتها يقول بأنّ جرحها ينزُّ في صمت، ويسيل دمًا متخثرًا لزجًا، وأنّ كلمة «اشتقت» لا تفعل شيئًا سوى أنّها تنكأ هذا الجرح. قلت بصوت مختنق:

- أرجوكما.. فكمًا وثاقي.

فتركتُ نضال ما في يدها، وقفزتُ خلف الشجرة تفكُّ الحبال. كنت أحسُّها ترتخي شيئًا فشيئًا وتسقطُ، وكان جسدي يرتعش، كنت محمومًا. حين هويتُ بتعب إلى الأرض، احتكَّ جسدي باللحاء الخشن لشجرة التين، فشعرتُ بوخز عنيف في الندوب التي تفتّنت صفيّة في خطّها على ظهري، وبوخز أعنف في الجرح الذي شقّه ثور القبيلة في جنيي..

خذلتنا الحياة، أنا وأنت، يا جسدي المريض..

ولدت بروح تحتضرُ وجسد يشتعل كنيزك. كان هذا الأخير سببًا كفيلاً يدفعني إلى مقاومة سيل الهزائم، وطالما كان في الروح أشياء كثيرة تنزع نحو الموت والفناء، وكان فيه أشياء جميلة تنزع للحياة.. والآن، وأنا أرى جسدي يهوي بطلقة حبر أسكتتها جوليا في دمائه، لا يسعني إلّا أن أقول لها هنيئًا لنا بكلّ الخيبات. انحنّت جوليا وتأمّلتني بعينيها القاسيتين وأنا مغلوبٌ على أمري.. كانت تلتقطُ بعدستها الإبداعية أدقّ التفاصيل لتصهرها فيما بعد على ورق هادئ.

هنيئًا لك أيتها الشقراء البهية، لقد نجحت في اسئدراج بطلك

إلى نهاية مأساوية، بذريعة استنطاقه لا غير. لكنك في الأخير، لن  
تكتبيه بقدر ما ستكتبين بشاعاك.. ستكتبين هزيمتك على هزائمه.  
هذا كل ما في الأمر.

## (٧)

بالكاد استطعتُ الوقوفَ على قدميَّ، بعد أن أجهزتُ على ما جاءَتْ به نضال من أكل. تدرجْتُ إلى ضريح سيدي موسى، تطلعتُ إليهما وهما تحرساني بأعينهما وصمت مقررٌ يباعدُ بيننا. أمّا حين دخلتُ إلى غرفةِ الوليِّ الصالح، فقد تدفّقت في الروح طفولتي كزيت محروق، بالكاد أقوى على المشي، بالكاد أستطيع التنفّس.. هي نظرة لا غير من نوميديا. ويتوقّف هذا الانسكاب اللانهائي للتعب. في اللحظة التي جلست فيها على طرف القبر وجعلت أتابع بهوس الخطوط السوداء التي خلفتها الشموع على حيطان هذه الغرفة، تناهى إلى مسمعي نشيج جوليا كأنه حزن تأخّر عن مواعده. اقتحمتُ عليَّ نضال خُلوتني بقبر الوليِّ، ربّما لتركّ لجوليا فرصة البكاء دون رقابة، كنت أحسّ بالخيبة تكتظُّ بها، لم تتكلّم مذ دخلتُ إلّا بكلمات قصيرة ومرتبكة، تأملت وجهي طويلاً دون أن تكسر الصمت بيننا.. لا شك أنّني شاحب الوجه وأنّني

في حالة مزرية، وإلا لما اغرورقت عيناها وهي تقترب وتضع يدها على جيني قائلة:

- مراد، أنت متعب وفي حاجة إلى الطبيب..

(طبيب؟! أية سخرية غير مقصودة هذه؟ أنا في حاجة إلى الموت أكثر من أي وقت مضى.. أنا في حاجة إلى الحسم) اقتربت أكثر، حين لم أقوَ على إجابتها ولا على التركيز أكثر في عينيها، أحنيت رأسي وجعلتُ أتأمل هذا الحصر الأصفر الذي هرم هو الآخر، لكنّها مدّت أصابعها الممتلئة إلى ذقني ورفعت بلطف رأسي، وأردفت:

- لنرحل إلى أقرب مدينة وأقرب طبيب. لا يمكن أن أراك تندرج هكذا نحو هوة المرض دون أن أحرّك ساكنًا..

ووضعت يدها على كتفي وأنا أصرخ السمع إلى وسوسات وهي تناجي مسجّلتها، تذكّرتُ الشرائط المستنسخة التي خلّفتها في غرفتي. صحيح أن المفتاح معي، لكن لستُ أدري إن كان هناك مفتاحٌ ثانٍ عند حميد أم لا. لا يهمّ.. ما كان كان وبعد خيبتني الكبرى في جوليا، كم أتمنّى لو أنني لم أتطفّل على دفترها الخاص، ولا انتبهتُ إلى رقم بنهاشم. على الأقلّ ما كنت لأفتح نوافذ حياتي على حزن إضافي ثقيل! قلت لنضال بعد أن تنهّدت:

- أنتِ أيضًا تظنّين أنني مريض؟

فانزلتُ أصابعها وانحنت، وأخذت يديّ بيديها. أحسستُ في تلك اللحظة أنّ خلف كلّ ما يحصلُ لي حسابات بالغة الدقّة، تأملتُ عينيها وقلت متضامًا:

- نعم، إن شئت، أنا مريض..

وأخذت وجهي المحموم بكلتا يديها ودنت منه بوجهها،  
وتطلعت إلى الباب قبل أن توقع على شفتيَّ قبلةً سريعة، قائلة:

- ستشفى.. أنت أقوى من المرض.

قلت، وقد بدأت همسات جوليا تزعجني:

- نضال، أريد شعراً، هلاً أسمعيني آخر ما كتبت؟

اضطربت ملامحها قليلاً وزمت شفتيها كأنها تتلذذ بالقبلة،  
وأطرقت تفكيراً تاركَةً للصمت ولوشوشات جوليا فرصة للتسلل إلى  
أعماقي المتعبة.. قالت، بعد حالة الشرود التي امتصتها، والتعب  
الذي انعكس على ملامحها الغائمة:

- هوأنا طواه المغيب

في بلادٍ لم تعرف الحب، لا من بعيدٍ

ولا من قريبٍ

قدري أن أعيش ككل النساء

أن أعيش ازدواجيةً من لهيب

في يدي خاتم زوجي

وفي القلب ذكرى حبيب

وكانت كلماتها تنصهر في كآبة. نضال تلخص محتتها شعراً،  
تعبر عن التناقض الصارخ والبشع الذي ترزح تحت وطأته الكثير  
من النساء، بين رجل يجدن أنفسهن مرغماً على العيش معه

وآخر يعيشُ في القلب، وينتفض كلّ ليلة في أجساد أزواجهنّ  
كلّما أغمضن أعينهنّ وأمعنّ في الذكرى... وما كادتُ تنهي  
قصيدتها، ودون أن تترك لي مجالاً للتعليق، قالت بصوت  
متهدّج:

- مراد، سأرحل.

- متى؟

- اليوم، أقصد بعد الزوال.. لا شك أنّ زوجي منزعجٌ من  
غيابي الطويل وغير المبرّر!

- هذا أفضل، لأنّي أعتقد أنّ وجودك معي يهدّد حياتك.

ورمقتني بنظرات متوجّسة، دون أن تنبّس ببنت شفة، وأردفتُ  
موضّحاً:

- الظلام يتعقّبني، وقد هدّد بقتلي وأهدر دمي.

تأمّلتنى بوجومٍ واستغراب قائلة:

- لا شك أنّك تمازحني.

- البتّة، تلقّيتُ رسائلَ منهم كلّها تهديدٌ ووعيدٌ، لا شك أنّهم  
لم ينسوا زمن الرفاق، كما أنّ كتاباتي إن كنتِ متابعه لها تسير في  
خطّ إيديولوجي مناقض لهم تماماً، وأحداث ١٦ مايو ليست  
بالبعيدة. هناك حيث قُتل مصطفى في حفلة شواء اللحم البشري،  
كنت على موعد معه ومع موتي. كنت أنا من حدّد المكان  
والزمان، لكنني ألغيت الموعد في آخر لحظة وفاءً لها، من بعد ما  
استدرجتُ صديقي إلى موت محقّق..

قاطعتني متأسفةً، وقالت بفضول:

- وفاء لها؟ من هي؟

- وجعٌ لا يُمحي وحكاية حزينة دعك منها.. المهم أن حياتي الآن في كفّ العفاريت الجدد.

- ومن مصطفى؟

- وجع آخر لا يُمحي. مناضل سبعينيّ أشعل في دربي أعواد ثقاب الفكر الحرّ، وأطفأه الظلام..

وباعتني ماضيّ فجأة حين أقبلت المرأة التي كبرت في بيتها، وهي تتحسّس طريقها صوب قبر الولي. أومأت لنضال بحركة منّي ألا تنبس بكلمة، فتنبّه الضريرة إلى وجودنا. خطوات مجهدة وظهر مقوّس وجسد ضامر ومنكمشٌ هذا كلّ ما تبقي منها. كانت تتحسّس الجدار باليد التي تبقت لها. أما الأخرى فكانت مبتورة. ارتمت مكدودة فوق حصير الدوم الممدّد على جنبات القبر منذ زمن غابر، كانت تلهج بكلمات أمازيغيّة غير مفهومة، ضاق بي مزار الولي وضاعت بي الدنيا فسحبْتُ نضال من يدها وانصرفنا.

واجهنا وجه قاتلتي مكفهراً شاحباً. كانت مستسلمة لهذياناتها ولمسجلتها. لكنها كبست على زرّ الإيقاف فور أن رأتنا، وهرولت إليّ بفرح عارم يسبقها، عانقتني بقوة وأخذت رأسي بيديها، وتأمّلتني كأنما كانت تكتشفني للوهلة الأولى، حَزَّ في قلبي أن تُكمل لعبتها في مثل هذه الظروف العصيبة، حتى إنني فكّرت وهي تقفز إلى حُضني أن أواجهها بصفعة قويّة توقظ في رأسها ضوضاء لا تنتهي، لكنني عدلت عن الفكرة وقرّرت أن أكون أشرف منها،

فما كان كان ومديتها المسمومة قد جرث في أوردتي.. ومضينا  
ثلاثتنا إلى الفندق.

انتابني إحساس بالقرف والغثيان حين لمحتُ قرب الفندق  
رجلاً يتسربلُ في بياض زائف وبلحية كثة مسبلة، كان يتطلع إليَّ  
بملامح ناقمة، أو على الأرجح هكذا كنت أراها. كنتُ أعزل،  
وكان بإمكانه - إن كان من جماعتهم - أن يسحب رشاشاً من  
تحت جلبابه الفضفاض ويفرغَ عشر رصاصاتٍ في صدري ويفرَّ  
بعدها إلى الجبل..

لكنَّ شيئاً من هذا لم يحدث، فقط لأنَّ الموت لا يأتي  
بالطريقة التي نتوقعها. مضت نضال إلى عُرفتها لتوضِّب أغراض  
الرحيل، وقفزت جوليا إلى سيَّارة الجيب خاصتها وعادت محمَّلةً  
بالهدايا وبأشياء أخرى، فكما صرَّحت الليلة ليلتها الأخيرة في  
إغرم وفي المغرب، لستُ أدري لماذا قالت (إنَّها ليلتنا الأخيرة).  
كلُّ ما فهمتُ من كلماتها أنَّها ستعدُّ حفلة وداع. عندما اقتربتُ من  
الفندق استدارت إليَّ قائلة:

- تلك المذكرة الحمراء وقميصك في سيَّارتي، لم أجد متسعاً  
من الوقت لأصعد إلى الغرفة، فتركتهما في السيَّارة..

استوقفتها وأخذتُ ما في يدها من أكياس، والتمستُ منها أن  
تعود إلى السيَّارة لاستقدام أغراضي، ووجدتُ في ذلك فرصة  
لأخفي الشرائط المستنسخة..

وجدتُ صعوبةً في إخماد المفتاح في كوة القفل، كانت يدي  
ترتجف فعلاً، أحسست لحظتها أنَّ جسدي يتأكل من الداخل شيئاً

فشيئًا. لملمت الشرائط ووضعتها أسفل حقيبتني، وما كدتُ أغلق  
الحقيبة حتى ناولتني المذكرة، فأخمدتها هي الأخرى في الحقيبة..  
خلعتُ عني القميص حين داهمتني رغبة ملحة في الاستحمام،  
بينما كانت جوليا تبخلُ في الضمادة المتسخة قائلة:  
- علمت من نضال ما حلَّ بك.

كنت أكابد الأمرين من أجل امتصاص غيظي وأنا أواجه  
قاتلتي، وكانت قوتي على امتصاص هذا الغضب، أو على الأقل  
تحمله، مصدر لذة خفية. حين خلعتُ الضمادة وجدها مدماةً عن  
آخرها. طويتها بانفعال، بينما قالت جوليا:  
- استحمّ أولاً، وبعدها سأضع لك ضمادة أخرى.

في ما مضى، كنت ربّما لا زلت إلى حدود أيام قليلة أحسُّ  
أنّ موعدي مع الموت لا يزال بعيدًا، لكن هذا الإحساس بدأ  
يتقهقر ويتخلّى عني، بدأتُ أستسيغ الموت كحقيقة ممكنة الوقوع  
في أيّ وقت وحين.

تحت الدوش والمياه تهوي بإغداق، عاتبني جسدي طويلاً.  
آه، أرهقنا أنا وأنت الحياة! تمنيت تحت الدوش لو أنّ السماء  
تمنحني فرصة أخرى لأعيش كالآخرين دون عاهات روحية  
مستديمة، تمنيت لو أنّي أخذ حياتي بأصابعي وأقذفها تمامًا مثلما  
يقذفُ طفل سنّه الحليبيّة إلى السماء، وأتمنى كما يفعل الطفل  
الصغير حين يطلب من ربّه أن يستبدله سنّه بخير منها، أن يستبدلني  
حياة الزبل هذه بخير منها..

ماء دافئ هادئ يهوي على رأسي يسدل شعري على عينيّ،

والذكریات تنسابُ بمرونة وبرود. امحمد - كما تقول الرواية التي حرصوا على تذكيري بها - وجدني في ذلك السهب القاحل الذي تشقه طريق هامشيّة لم تكن يومًا طريقه، وأخذني كهّم إضافيٍّ إلى عائلته، وقطّر في فمي حليب بقرة لا شك أنّ ثور القبيلة من خصّبها، إن لم نقل إنه والدها أيضًا!! وقذفوا بي بعدها إلى الحقول أدبُ كنملة وترقص رוחي كغزال، وأبكي بحرارة حين تناوُسني حقيقتي، كنت نشاز العائلة والقبيلة معًا... وتستمرّ الحكاية.

حين تلقّعتُ الفوطة لم أضع الضمّادة، استقبلتني جوليا بكأس برتقال، وكان حرّياً بي ألا أطيل التساؤل عن محتويات هذا العصير، لأنّ طريقي المريضة كلّها لا تؤدّي في النهاية إلّا إلى موت واحد، انصرفت بعد ذلك للحلاقة، فالليلة ليلتنا الأخيرة والأناقة مطلب أساسي في ليلة وداع القاتل لقتيله.

جوليا تعدّ ليل غرفتنا بهدوء قاتل محترف، أمّا أنا، وبعد أن أجهزْتُ على تلك اللحية، التي انتفضت في لحظة سهو وإهمال على وجهي، بقيتُ للحظات أتأمل وجهي في المرأة. كان شاحباً بعض الشيء. قرأتُ فيه عذاباتي كلّها وانسحبت.

سمعت طرّقاً خفيفاً على الباب. لكنّه كان ثقيلًا بين جدران جمجمتي، وسيجارتي الأولى تفضح عياء الروح إذ ترتجف بين أصابعي. الروح إذ تتعب تشرع في تخريب جسدها، لا شيء فقط لتنبّه صاحبها إلى أنّه على شفير الهاوية. فتحت الباب، وإذا هي نضال تقف إلى جانب حقيقتها:

- إذن، أزمعتِ الرحيل يا رفيقة! وقرّرتِ أن تخلّفي وراءك  
مراد كومة من أحزان.

وكنت مأخوذاً بالسيجارة التي تركتها معلقة بين شفتيّ. كانت  
ترقص ككبش مذبوح، قالت ومسحةً من الحزن تكبّل ملامحها:

- متعبة أنا بهذا الرحيل، متعبة أكثر ممّا تتصوّر.. الرحيل  
يُزفّ دائماً ليطوي أيتاماً سنجد فيما بعد أنّها كلّ ما نملك، وأنّها  
كانت الأروع.. الرحيل اغتيال متقطّع.

وسقط رماد السيجارة، قلت:

- سأرتدي ملابسني وأوصلك إلى السيّارة، هلا انتظرني  
قليلاً!

- أنتظركَ عمراً كاملاً إن شئت.

في تلك الأثناء، كانت جوليا منهمكة في تنظيف الغرفة،  
قبّلتها على شفتيها بعنف مفاجئ، وسحبت من الرف قميصاً أسود،  
وأعدت السيجارة إلى شفتيّ قائلاً:

- سأنزل يا صغيرتي إلى إغرم، أتناول الغداء سوياً؟

- لا.. شكراً. أفضل أن أبقى، لديّ الكثير لأفعله.

- إذن، سأتناول الغداء بمفردي، وأعود.

- حسناً..

وسقط رماد السيجارة مرّة أخرى، لكن هذه المرّة على  
السجاد الممدّد قرب السرير. انحنيت لأنظف المكان، لكنّ الوخر

القاسي الذي استشعرته في موضع الجرح حال دون ذلك، فغادرت الغرفة بالكاد يحملني جسدي العليل، صرت أخاف عليّ من جسدي الذي شرع ينطفئ من حين لآخر. أخاف أن يتخلّى عني دون سابق إشعار، لا أخاف من الموت لكن أتمنى ألا يغافلني. حين عدتُ إلى نضال، وجدتها تكفكفُ بمنديلها عبرات طالما أضمرتها. كان يدثرها شجن عميق، حين سألتها:

- ولم البكاء جميلتي؟

كانت سيجارتي قد فرّت من بين أصابعي المرتجفة، دهستُها بقدمي، وانزلقنا معاً إلى خارج الفندق. حين وضعنا الحقيبة في السيارة بعد أن أزعجنا عنها الغطاء، غالبتُ إحساساً مبهمًا بالفقدان والتشظي. وأمام تمادي نضال في البكاء، لم أجد أمامي سوى سحب سيجارة واتخاذ الولاعة ذريعة لأفرّ من انتحابها، الذي كان يخترقني ببرود ويتناسل داخلي أوجاعاً. وجدتُ حميد يغالب النوم بصعوبة، انتصبَ واقفاً حين رأيته، وبادرني قائلاً ما يقوله المغاربة عادة عند عودة أحدهم من المستشفى، أو نجاته من موت أخطأ حساباته:

- على اسلامتك آسي مراد.

- الله يسلّمك، هل لي بولاعة؟

ونظّ بخفّة وعاد بها، حين أشعلتُ السيجارة ونفّر دخانها مبتعداً، قال لي بعد مقدّمة ممّلة:

- بعد إذنك أستاذ، أريد أن أسألك على ألا تحسب سؤالي ضرباً من الفضول، هل أنت أمازيغي؟ أقصد هل تتحدّث الأمازيغية بطلاقة؟

وأخذت نَفْسًا آخر عميقًا من سيجارتي، خطر لي أن أكاشفه  
بالحقيقة، لكنّ رغبة ما مبهمة داخلي ألحّت عليّ أن أشحذ رواية  
الفقيه وجنيّة الجبل، فأجبت:

- إطلاقًا.

فبدت على ملامحه علامات الاستغراب، وقال وقد شرعتُ  
في الانسحاب إيدانًا مَتِي أنّ نقاشنا انتهى:

- البارحة...

وقاطعته بحدّة، لكي أتخلّص من وجع جديد ضقت به ذرعًا:

- أعرف، أعرف...

وأنا أقترّب من نضال، كان صوته لا يزال يتناهى إلى أذنيّ.  
كان يردّد عبارة واحدة، جرث العادة أن يقاوم بها المغاربة  
والأمازيغ بوجه خاصّ خوفهم من الجنّ أو الظلام أو أيّ شيء  
يعجزون عن تفسيره:

- التسليم... التسليم!

هزّت رأسها، حين دنوت منها.. كانت حزينة جدًا وكنت  
أندفأ بحزنها وشوقها المعلن، قلت:

- كانت رسائلك الشعرية التي طاردتني بها رائعة وعميقة.

- شكرًا، لكنّ الظاهر أنّني سأكتب دائمًا رسائل دون ردّ.

- عليك بالانتظار...

- انتظار ردّ؟

لم أجب. أدركتُ أنّ الكلمات لن تتحمّل كلّ هذه الهشاشة التي تدبُّ في روحينا معاً، كنّا نبكي معاً، نبكي بكاء معكوساً تسيل دموعه في دواخلنا. رفيق ورفيقة انزاحا قليلاً أو كثيراً عن الساحة والنضال. كانت السيارة تفضّح ارتجاف يدي، تركتها بين شفتيّ ومددت ذراعِيّ إلى نضال التي لم تتردّد قطّ، بل ارتمت بين ذراعِيّ وشدّت على جسدي بقوة، كأنما كانت تسعى إلى الالتحام بي، أحسست أنّي أنطفئ في عناقها رويداً رويداً. أخذتُ نفساً أخيراً من السيارة وقذفت بالعقب بعيداً، وجسد نضال لا يزال يحاصرني. في لحظة خاطفة، افتضّ اشتباكنا. استلّت من ضعفها ما أبقت لها الحياة من قوّة حين استلّت من شفتيّ قبلة سريعة واندفت في سيّارتها بسرعة، ودون عبارة وداع مضت وخلّفتني أنا والغبار ذاهلين. «كأنك كنتِ معي» هكذا يقول الغريب في سرّه للغريبة، بعد أن وحدتهما كي تفرقهما الصدفة.

ودون أن أنسى بأنني نزلت طويلاً وأنني بحاجة لما أسدّ به جوعي، تناولت الغداء واستسلمت لغروب إغرم. بعد ذلك، كانت القرية متجرّدة تستسلم لسريرها الليليّ الحالك، وكانت نوميديا تطبق على تفكيرتي بقبضة من فولاذ. أوّاه، ليت طيفها يبرق ويخفي. هي نظرة لا غير، تخدم ما تناسل في أضلعي من شوق، وكنت حزيناّ كما لم أكن يوماً... حزن قاس يعبق بسعادة سرّية موجعة تطبق على القلب كلّما فكّرتُ في نوميديا.

نوميديا، أيّة أرض انشقت وابتلعتك؟

أيّ قدرٍ أعمى إهدانك أيّاماً بل سويعات، وأخذك منّي عنوة بعدما أدمنتك. كأنّ الحياة أرادت أن تذيبني بك قليلاً من السعادة

لأفهم جيّدًا مدى جسامه خساراتي..

لم تكن الحياة عادلة معي. كنت سأغفر لها كلّ الكدمات  
القدريّة التي تسبّبت لي بها، لو أنّها أعطتني نوميديا، لكنّها  
وضعتها في طريقي فقط لتفضح هشاشتي، لتعريّني بعدما أسقطت  
كلّ من حولي وقتلتني بهم تدريجيًّا. جاء دوري لأسقط أنا الآخر،  
كما يسقط وعلّ هرم، أعرف أنّ سقوطي - مهما كانت الجهة التي  
تبنته - لن يحدث ضجّة ما، عاش اللقيط مات اللقيط! لن أزعج  
هذا أو أستجدي دموع ذاك. لن تتأثر إغرم ولا الحياة بغيابي.  
وأبعد الظنّ أنّني لن أتجاوز خبرًا يطرحه أحد معارفي على جلسائه  
ثم ينصرفون إلى شأن آخر، وفي أحسن الأحوال ستكافئني القناة  
الرسميّة بثوانٍ قليلة تعرض خلالها صورتي وبعض كتبي، مع  
كلمات سخيّفة يلهجّ بها مقدّم النشرة، كأنّ يقول على سبيل  
المثال: «انتقل إلى عفو ربّه الكاتب المغربيّ فلان بن فرتلان»..  
وانتهى.

الذين يرهبون الموت عادة لا يخافون الموت، بقدر ما  
يرهبون ما وراءه، أمّا أنا، وقد مارستُ عليّ الحياة شتّى أنواع  
التنكيل والعذاب، لم يعد يهتمّني سؤال «ماذا وراء الموت؟» لأنّني  
ببساطة لا أتوقّع أنّ هناك أقسى من هذا الجحيم الذي أذاقتني إيّاه  
الحياة.

الشمس في الأفق بقعة دم تسيل ببطء شديد، كأنّها لا تنوي  
الغياب، أو ربّما لا تنوي أن تُشرق مرّة أخرى، ولأنّ جسدي  
وأوجاعه تجرّني نحو انهيار شامل، فقد اخترتُ للعودة أقصر  
الطرق، مثقل الخطوات أمشي لئلاّ أنكسر، أبخلق في كلّ شيء

وأرصد كلّ الحركات من حولي، لعلّي أرى نوميديا، هي نظرة لا  
غير تودّعني بها، لكن...  
دون جدوى!

## (٨)

جوليا رتبت ليل غرفتنا بعناية وحرصٍ قاتلٍ يُصرُّ على أن تكون جريمته كاملة. وجرح الضحية ينزُّ في صمت، إذ يتأمل أوراق ورود بمختلف الألوان، تملأ أرضية الغرفة وتنام على السرير. كل شيء في مكانه الخاص، على الطاولة شمعدان كبير ذو قرونٍ وعلية كبيرة يضيء على الغرفة سحرًا خاصًا، إضافة إلى الشموع الصغيرة التي تستلقي على صحنون صغيرة، لا أدري كيف ألصقتها جوليا برؤوس السرير الأربعة، فكانت ترسم حدوده بشكل خرافي، وإضافة إلى الشمعدان الذي ينتصب وسط الطاولة، هناك زجاجتنا نبيذ باهظنا الثمن تحاصرانه، وإضافة إلى النظام المتناهي الدقة والسحر الخاص الذي حرصت عليه جوليا، كانت الغرفة تعبقُ بروائح البخور التي لا أدري من أين حصلت عليه، لكنها كانت تسرح بي في وديان الذاكرة العميقة وتزرع فيَّ خوفًا مبهمًا. كان صوت لارا فابيان ينطلق من مكان ما، فيربك إدارتي لجسدي:

كان صوتها قاسيًا جدًا، ربّما لأنّني أيضًا مريض. لذلك كانت تجدّ كلماتها صدّى عميقًا داخلي، أمّا جوليا التي التمعت عيناها الليلة بوميض حادّ واتّشح وجهها بحزن طفيف، فقد كانت تذهب وتجيء بين طاولة العشاء والمطبخ في فستان أسود لا يبعث أمامي إلّا أطياف نوميديا. أمّا أنا، الذي كنت سيّد ليلها، فكنت أجلس على الأريكة المقابلة للطاولة وأباغتها بنظراتي كلّما انحنت لتضع طبقًا على الطاولة. كانت في أوج زينتها، وكان الكحل الذي يلفّ عينيها الجميلتين يضيء عليهما لمسة شرقية رائعة وإن كانت زائفة.

جسد جوليا شهوتي هذه الليلة، لكن كلّ شيء في جسدي يناقض هذا الاشتها. رأسي يؤلمني ويدي ترتجف والحمى شرعت في قضم جسدي، ولارا تورّطني أكثر في هذا المرض إذ يُشرع صوتها العذب في الروح أوجاعًا وينكأ أخرى. في ليلتنا الأخيرة، كان حزني قد تقيح ورائحة العفن تملأ جوفي رغم سحاب البخور التي تتحرّك في الغرفة، جسدي يتداعى وأنا أعزل أراقب انهياره كمتفرّج على مسرحيّة يبكي شفقة على أحد أبطالها دون أن يملك شرعيّة تغيير شيء في حبكتها..

لم أتألم كثيرًا حين أقبلت جوليا تحمل في يدها حقنة أخيرة. لم أبْدِ أيّ اعتراض، لا يقوى الميت على شيء أمام غسّاله، وروحي تعبت، روحي في حاجة للخلاص، وقد يكون في حقنتها خلاصي. اغرورقت عيناها وهي تتألمني، وأنا أطوي ببلاهة مفتعلة يد القميص وأكشف عن ساعدي بطواعية. كنت أعرف أنّ موقفًا مثل هذا يمكن أن يحفر داخلها خنادق أسف وندم عميقة.

عينها الزرقاوان الجميلتان تلمعان على ضوء الشموع بوميض خاصّ وأنا أناديها سرّاً، تعالي واقتليني. لن أثور ولن أنتفض، فقلبي مدّني وأحوج ما يكون للخلاص.

ولم تبك، كما توقّعت، لكنّها كادت تفعل. في كلّ خطوة تدنوها منّي، كانت آلاف الأفكار والذكريات تكثر وتفرّ وتزاحم في رأسي، دون أن تترك لي فرصة تأمل وجه قاتلتي، هي حقنة أخيرة إذن. لست أدري أيّ تركيبة طبّيّة تنام داخلها، ولا أريد أن أعرف. أقصى ما أتمناه أن تمهلني - إن هي قرّرت حسم أمري - دقائق، لأشكرها.

جوليا تقاوم ارتباكها بكلمات أشدّ ارتباكاً، كانت تصل إلى أدنّى مقطّعة وكان نصفها يضيع في الطريق إليّ، تحدّثت عن مزايا الحقنة وفعاليتها ضدّ الحمى والتعب... آه جوليا أنت في غنى عن حجة تذرّعين بها لقتلي فقط. افعليها وخلصيني، فلتفعلي لتكتمل الرواية، روايتك التي أدّرت تفاصيلها بيدك وكنّت بطلتها وإلهتها الخفيّة..

جوليا تنحني، فينفرج فخذها الشهيّ عن فتحة الفستان الأسود، فتغلي شهوتي داخلي، مرّت بالقطن على ساعدي.. كنت أتفرّس في ملامحها وأراقب كيف يتحوّل الإنسان بين لحظة وأخرى إلى قاتل. كنت أراني وأنا أذبّح خولة بهجرها. اشتدّت تفاصيل وجهها حين أغرقت الحقنة في ساعدي، لكنّ أساريها سرعان ما انطلقت وهي تسحب بساديّة الحقنة من لحمي.. بحميّة مددّت يدي إلى الفخذ العاري، فاضطربت ملامحها، فخذ ناعم أملس كجلد الدلافين، لكنّها سرعان ما احتوت يدي بيدها قائلة:

- إنها الواحدة بعد منتصف الليل، الليل لا يزال ملكنا  
والأكل والنبذ - لئلا تنسى - لا يزالان فوق الطاولة..

- حسناً، لنأكل أولاً..

وانتصبت واقفة كزرافة، قذفت بالحقنة في سلّة النفايات.  
غسلت يدها وأقبلت.. كانت جوليا هذه الليلة، ولسرّ أجهله،  
أجمل من أيّ وقت مضى. جلست أمامي مباشرة وهي في أوج  
زينتها، ولارا تغني:

- Je T'AIME -

جوليا، أخذت السكّين بيدٍ والشوكة باليد الأخرى، وكانت  
تضع من حين لآخر قطعة لحم في صحنى وتصبّ لي النبيذ. أمّا  
أنا، فكنت لسببٍ ما أكلّ على طريقتها المتأنقة بعد أن اختفت  
رعشة أصابعي ودبّ في جسدي قليل من النشاط. حين كانت  
الأغنية تأفل، احتقن وجه قاتلتي، أو هكذا رأيته على ضوء  
الشموع، لكنني تأكدتُ من ذلك عندما وضعت الشوكة والسكّين  
على الطاولة بنرفزة واضحة. كانت الشموع الراقصة تغازل ذهب  
شعرها الجميل. أمّا عيناها فقد اكتظّتا بالحزن والدموع. فكّرت أن  
أسألها عن أخيها - إن كان لها أخ أصلاً - أففرّج عنه تنظيم  
القاعدة أم أنّه لا يزال رهينة في قبضتهم؟ لكنني عدلت عن السؤال  
في اللحظة الأخيرة، وفضّلت أن أطيل تأملي في أزرق عينيها وهو  
يكتظّ دمعاً. قالت:

- مراد، لا بدّ أن أخبرك بأشياء كثيرة...

- حقائق؟

- نعم .

- تعينيني؟

- نعم .

- إذن، لا حاجة لي بها، الليلة ليلتنا ويجب أن نترك كلّ كلام جدّي جانبًا.

كنت هادئًا كما لم أكن يومًا، أتَلذَّذُ لرؤيتها والحزن يفيض بعينها، قالت:

- يجب أن أخبرك...

لكنني قاطعتها ببرود ولا مبالاة، وأنا أفرقع أصابعي بتوتر مفتعل:

- جوليا... قلت الليلة يجب أن نترك أحزاننا جانبًا، وأن نعيشها كما لو أنها آخر ليلة في حياتنا معًا. أتحيّيني؟

باغتها سؤالي وارتجّ في اللحظة ذاتها باب الشرفة إثر ريح قويّة.. أمّا الشموع، فلم تعد ترقص، صارت تبكي بحرارة وعربدة وتنحني بتذرّع من حين لآخر. حدّجت جوليا بنظرة أقرب إلى الغضب، وقلت:

- أتحيّيني كما قلتِ وكرّرتِ؟

وأزحمت عينيّ عن الشمعدان وركّزت في عينيّ جوليا. كانت تبكي. آه.. تبكي وهي تسامر عشيقها وقتيلها. امتلأت الغرفة على روعتها بالحزن، كلّ شيء يبكي إلّاي. الشموع تبكي والورود على الأرض وفوق السرير تبكي، والسقف يبكي، والنبذ في الكؤوس

دموع، وأوراق الحزن الذابلة تنهمر علينا، وانكسر الصمت بيننا،  
إذ قالت:

- لقد قتلوه يا مراد...

رفعت حاجبيّ مستغرباً، وحرّكتُ رأسي مستفهماً،  
فاسترسلت:

- أخي.. لقد فتّك به الهمجيّون الجدد!

أخذت سيجارة، حرّكتها بأصابعي وأنا أتسلّى بلحظات  
انخزال جوليا وضعفها، أشعلتُ السيجارة من الشمعدان. كان  
دخانها غريباً وكذلك مذاقها. في الوقت الذي كنت منشغلاً بتحليل  
مذاق السيجارة، كانت أوتار جوليا تتمزّق، أو على الأقلّ هكذا  
يبدو الأمر.. تنهّدت بعمق واستجمعتُ أنفاسها كأنّها تنفضُ عنها  
حزنها، أو تحاول.. استرسلت:

- ترمّلتُ بعده يا حبيبي.

ولم أذهب بعيداً في فهمي لكلمة «ترمّلت»، كأن أفترض مثلاً  
أنّ القتل يمكن أن يكون زوجها لا أخاها... لا يهمّ! نعم،  
أردفت:

- كلّ ما يهمني هنا والآن هو أنت.. صدّقني، ربّما لم أكن  
صادقة معك بما يكفي، أعترف بذلك، لكن أتمنّى أن تصدّق  
حقيقة واحدة هي أنّي أحببتك، وأنني أحبّك كما لم أحبّ رجلاً  
آخر في حياتي.. كنت أوّل الأمر إغراء لا يقاوم، صرت تحدّياً،  
واستحلّمت بعد ذلك إلى محنة لن أشفى منها إلّا بالموت.. حاولت  
أن أكتشفك أيّها الإفريقي المجنون، الشهيّ المشتهى، لكنني لم

أكتشف في نهاية المطاف سوى ركن خفيّ من جنوني..

وكانت الغرفة تبكي، والموسيقى والشموع كذلك، وكنت أنا ودخان سيجارتي نحلق في سماء سوداء نتبدّد في ثناياها شيئاً فشيئاً، دون أن نرسو على برّ آمن. في النهاية، لا نأخذ حقائبنا مهما كانت صغيرة وحتى ملابسنا، نمضي نحو فوهة المجهول حفاة عراة.. الليلة ليلة وداعنا، لست أدري أيّ واقع ينتظرني بعدها، لكنني أعتقد أنه لن يكون أسوأ ممّا عاشه أوداد، «ليس بالإمكان أسوأ ممّا كان»، أهرقت النبيذ في كأسينا ممّا وصحت بها:

- نخب الغائبتين، خولة ونوميديا، نخب زواج المتعة بين الشرق والغرب!

- نخب ليلتنا الأخيرة، نخب روايتنا يا حبيبي..

بالطبع، لم أسألها ما الرواية؟ ببساطة لأنها لم تسألني عن الغائبتين. كلُّ ممّا يسرّب في نخبه بعض أوجاعه ويتجاهل، أو بالأحرى يغضّ الطرف عن نخب الآخر، عن وجعه. قالت:

- أنا أشيّع أخي على طريقة «غريب» ألبير كامو، أليس كذلك؟

- نعم، لحدود اللحظة ليس كذلك.

حين اشتعلت الخمرة في رأسي قليلاً، أخدمت عقب السيجارة في المنفضة قائلاً:

- أتعرفين كيف مات أوداد؟

وتطلّعتُ إليّ باستغراب واستفسرتُ:

- وهل مات فعلاً؟

أجبتُ باقتضاب:

- مات، نعم.. مات حزناً وحبّاً.

لم تقل شيئاً. ظلّتُ تحاصرني بأزرق عينيها، واسترسلتُ:

- هناك من يموت حبّاً وحزناً يا صغيرتي. أمر طبيعي. المهمّ أنّه هلك. في النهايات، هناك أشخاص محظوظون بالفطرة وآخرون تعيسو الحظّ. إنّها قسمة ضيزى! أعلم، لكنّها حتميّة كذلك. كان انتصاراً لأوداد أن ظفّرَ بحياة كتلك التي عاشها، فالمقطوعون مثله من شجرة عرعار لا يستحيلون إلّا إلى لصوصٍ أو قِطّاعٍ طرقيّ أو شحاذين.. أوداد يا صغيرتي، بقدر ما هدّبه العلم عذّبه كذلك. المعرفة لم تكن بالنسبة له إيجابية كليّاً، لقد أضاعت بعض فصول حياته الأشدّ بشاعة. كان يكاشفني في عزّ تبعه بمثلٍ مغربيّ لا يفهمه إلّا هو.. يقول: «ما في الهمّ غير اللي كايفهم».

وكنت أراقب كلماتي وهي تفتّرُ هشاشتها.. كان الجوّ بيننا مشحوناً بتوتّر وقلق باديين، لا تخفّف من وطأتها إيديث بياف، إذ تنتحب ويسيل صوتها، وكذلك دموعها من ثقوب المسجّلة:

- ne me quittez pas.

في الطريق إلى قمّة الحزن، سبقتني جوليا الليلة بخطوة واحدة. لذلك انزلتُ من عينيها دمعة وجرت معها الكحل، وكان الشمع والشمعدان وكلّ ما في الغرفة يبكي.. أمّا أنا، فقد

أشعرتني دموعها التي أحسست أنها لأول مرة حقيقية، قلتُ  
أشعرتني براحة داخلية وغازلتني نسائم فرح عابر. أهرقتُ ما تبقى  
من الكأس في فمي دفعة واحدة، وكنتُ أسيلُ ذكرياتٍ. قلتُ في  
سرّي وأنا أتفرّسُ في الخريطة السوداء التي ارتسمتُ على وجهها  
جرّاء الكحل، لا بدّ أن أتمرّدَ على سلطة روايتها، وإن لم أقوَ  
على ذلك لا بدّ أن أدميَ معي كاتبها. أشعلتُ سيجارة أخرى من  
الشمعدان في حين انسحبت جوليا لتغسل وجهها.

آه.. كم ضعنا أنا وأنتَ يا أوداد، يا أنايَ الثاني ويا وجهي  
الخفيّ، كم تحمّلتني وتحملتُ أحلامي حين كنتُ أنا وأنتَ صبيّين  
في صبيّ واحد. كنتُ أحلمُ بالبعيد وكنتُ تحلم بصدر حنون يأوي  
طفولتك الشقيّة، وكبرنا كلٌّ على حدة، وأفلست أحلامي وعادت  
سفني من البعيد منكسة الأعلام! الآن وأنا عرضةٌ للموت بعد أن  
اخترقني قلم جوليا أكثر ممّا اخترقتني حُفْنُهَا، تأكّدتُ أنّي لن  
أكون غيرك مهما حاولتَ، تمامًا كما كنتُ متأكّدين أنا وأنتَ أنّنا لن  
نكونَ كغيرنا. كان يعوزُنا الكثير.. ولعلّ ثلاث أرباع هذا الكثير  
هو غياب الحبيب والحليب الأولان..

حين عركتُ السيجارة التي اكتفيت بنصفها في المنفضة،  
زمجرَت الرياح خارجًا كذبٍ مسعور، وعادت جوليا تسأل:

- قل لي مراد، وبصراحة، هل سبق وأحسست أنّ حياتك  
مهتّدة؟

أجبتُ باقتضاب:

- دائمًا.

- ومن يتهدّدك يا عزيزي؟

- أشياء كثيرة.. من بينها قَتْلُ أخيك.

وفغرت فاها وهي تبخلق في غير مصدّقة:

- أتقصد القاعدة؟

- لا.. أقصد الظلام أينما كان. كلّ فكر يضيّق عن نفسه ولا

يجد سوى العنف مخرجًا لمآزقه الكثيرة.

- هل هدّدوك؟

- كثيرًا.. في آخر مرّة قالوا إنّ الأمر مسألة وقت لا غير.

وتساءلت في سرّي، بعد كلّ خيانات جوليا، ألا يمكن أن تكون وراء الرسائل التي كانت تصلني منهم، ألا يمكن أن تكون وراء التخريب الذي طال غرفتي ولا يكون الأمر أكثر من وسيلة أخرى لإضعافي؟! لكنني استبعدتُ أمام دموعها الفكرة، وأنا لا أعرف إن كانت تلك الدموع حزنًا عليّ أم عليها، بعد أن ظهر لها منافس جديد غيرها يطلبُ رأسي.. قلت لها، وأنا أغبّ جرعات مركّزة من التعريض:

- كلّ هذا لا يهمّ.. أن أموت بمديّة عدوّ أعرفه أمر طبيعي! أشدُّ ما أخافه أن أموت على يد من أحبُّهم، وربّما بطلقة طائشة منهم، مثلما حدث للكاتب الأميركي «ويليم بوروز» الذي كان يلعبُ مع زوجته لعبة موت حقيقيّة، ربّما من فرط حبّه كان يضع قدحًا على رأسها ويصوّب مسدّسه نحوه، وكان دائمًا يصيب القدرح. لكنّه، وربّما بعثرة قدريّة عنيفة، أخطأه يومًا وأصابها في مقتل.

وتوقفت عن الكلام حين تدققت أحزاني كنهرٍ غاضبٍ داخلي .  
كنت أفرُّ من عينيها لئلا تخذلني دمعة ملئت مقامها . شابتُ  
أصابعي حول رقبتني واتكأتُ على الأريكة بكامل جسدي وتطلعتُ  
إلى الأعلى . أحسستُ بوجع داخلي قويّ كأني ابتلعت شفرة كتلك  
التي ابتلعت خولة، كأنها تجهز على أعضائي الداخلية ولا تترك في  
طريقها شيئاً سليماً . . أقسم أنّ ثمة روائياً خلف جوليا يصيخ  
السمع إلى حبال قلبي وهي تتقطع حبلاً حبلاً، أقسم أنّ هناك  
دسائس قدرية خبيثة تُحاك ضدي في الخفاء .

قفزت جوليا من مكانها وارتمت كطفلة على صدري،  
والتصقت بي . كانت تغمرني بجسدها وسحرها وغنجها، فتلهبُ  
جراحاتي، همستُ في أذنها:

- لا بدّ أن نرقص .

فقفزت من مكانها ودلفتُ إلى المسجلة، وقلبتُ طويلاً  
الأقراص المدمجة بحثاً عن أغاني تذيب الصقيع الذي يغلف قلبينا  
معاً . قلتُ في سرّي، هي ليلتنا الأخيرة معاً ولا بدّ للقتيل وقاتله  
أن يتركا حبّهما أو حقدتهما المتبادل جانباً، ويُفسحا حيّزاً ولو  
بسيطاً لسلام موقت ولحماقات أخيرة . .

باب الشرفة يئنّ إذ تهاجمه الرياح، لا شك أنّ الرُّحَلَ في  
أعالي الجبال يوضّبون أغراضهم ويرسمون خططاً للعودة . . لست  
أدري لماذا سرح في وجداني حنين موجه لنوميديا، وأنا أفكر في  
رحيل آيت مرغاد إلى البعيد . خفت أن تكون غجرية مثلهم، رغم  
أنها اختفت، إلّا أنّ قلبي يحتفظ بأمل عودتها . آه، من حبّ هذه

الأمازيغية، اندفع كله داخلي بعد أن أهملتُ تلقيح قلبي ضدَّ أيِّ  
عشق طارئ.

استدارت جوليا بعدما انتقت الموسيقى، فوجدتني خلفها  
تمامًا. فجفلتُ أوّل الأمر، لكن سرعان ما اندفنتُ بين ذراعيّ.  
كانت الموسيقى هادئةً وكنا أهدأ - أو على الأقلّ ظاهر حالنا كان  
كذلك - وضعت رأسها على صدري وجعلنا نرقص، كنا نتمايل  
ذات اليمين وذات الشمال في تناغم مع إيقاعات الموسيقى،  
ونصيحُ السمع لدقات قلبين متعيّين. لا أعرفُ عن جوليا الشيء  
الكثير بعدما اكتشفت ما اكتشفت، لكنني متأكّد أنها متعبة بي وأنها  
الآن أكثر هشاشة من وريقة تين يابسة!

ورقصنا طويلاً على أنغام حزينة وأخرى مفرحة، ولعبنا بطيش  
وجنون، وأغرقنا قلبينا معاً في الخمر وشربتها من فمي وشربت من  
فيها ودخناً سيجارة واحدة معاً وراقبنا نيران آيت مرغاد والريح  
تذروها وتجرّ ليل إغرم، فلا ينفكّ يجثم على صدرها، وعدنا بعد  
ذلك للرقص والجنون، وكنا في كلّ ذلك نسقط ملابسنا شيئاً  
فشيئاً. ندنو ونبتعد من السرير بعد أن ذهب الخمر بعقليتنا،  
وأربكت إدارتنا لجسدينا. كان جسدها استثنائياً في كلّ شيء هذه  
الليلة، شهياً أكثر من أيّ وقت ولّى...

وأنا أحملها بين ذراعيّ عاريةً وأدور بها كدُمية، ونحن غارقان  
في موجة ضحك هستيرية، استوقفنتي، فوضعتها فوق السرير كأنّي  
أعيد بطة إلى حوضها. رمقتني بعينين امتزج فيهما الخوف  
والتوجّس بأشياء أخرى غامضة، قالت:

- حبيبي، أيمكن أن تسامحني على أشياء لن أقولها لك؟

وكانت أصوات الرياح تصطخبُ خلف باب الشرفة، وتترامى إلى أذنيّ أشبه ما يكون بمواء قطط في حالة عراك! أجبتهَا، وأنا أمرُّ بأصابعي على حلمتيها الطائشتين:

- أنا متأكد تمامًا أنك لم تذنب في حقِّي، وإن كنتِ تقصدين أخطاءكِ الصغرى، فأنا أغفرها لك جميعها..

فقاطعتني قائلة:

- وإن... أنا في حاجة إلى غفران كلِّي.

وكان السخط ممزوجًا بالألم يرشحان داخلي شيئًا فشيئًا على سطح قلبي ويغلفانه.. جوليا تنزلق نحو الحقيقة بخطى حذرة، وتحاول أن تبتزّ مني ولو مجرد كلمات غفران بسيطة، تفرُّ إليها حين يتضخّم إحساسها بالذنب. قلت وأنا أحسّ أنّ كلماتي قد تعذبها بشكل أو بآخر:

- إذن، أنا وكُلُّ غفراني لضميركِ. إن هو سامحك فاعلمي أنني كذلك.

أيُّ شرٍّ اقترفته في حقِّكِ أيتها الشقراء البهية لكي تنتقمي مني هكذا؟ أم أنّ الله خلقني فقط ليختبر بي أقصى درجات الانكسار، التي يمكن أن يصل إليها الإنسان - هذا المخلوق الهشّ المحتفى به دائمًا؟

وكنت أتربّص بجسدها الأنيق كقرصان مغربيّ يغازل شواطئ الشمال ويبحث عن طريقة. كانت يداي تحلّقان على امتداد

جسدها وتفتحان في كل ثانية أرضاً جديدة، ولغتي كانت مثل  
روحي قد انكسرت إلى شظايا لا يمكن أن ترمم مهما حاولت،  
قالت جوليا شأنها شأن الأخريات:

- مراد.. أتعرف، أتدري؟.. لقد أدمنتك، لقد أدمنت  
جسدك، والآن وأنا على عتبات الرحيل، أكاد أجزم أنني سأتعذب  
بسببك كثيراً، وأنتي بعدك لن أجد أي رجل يفهم جسدي ويسوسه  
كما تفعل أنت!

لم أرد، كنت مأخوذاً بسلسلة براكين تضرب أعماقي المتعبة،  
وبحالة من التباس العواطف وخلل في الحواس. كنت أحس أنني  
غريب عن محيطي وعني إلى درجة أن ما أعرفه، أو بالأحرى ما  
كنت أعرفه عنهما، لا يعدو أن يكون مجرد حلم وأستيقظ منه.  
الليل يوجعني، والشموع بعد أن تقلصت لا تذكرني سوى بحياة  
وحياتي التي استنزفتها بالبكاء والحنين إلى قدر آخر.

جوليا ممددة فوق السرير، جسدها القمحي لا يذكرني سوى  
بممثلات الأفلام الفاضحة، بجمالهن وأناقتهن الباذخة وهن  
ممددات فوق الأسرة، كنّ - ولا زلن - بطلات أحلام مجتمعات  
العالم الثالث قاطبة مع الاكتساح الفظيع والشامل لثقافة الصورة.  
جوليا الآن جسد تمنّيته فيما مضى. إنها ولأول مرة تُشعل فتيل  
ذكريات حرجة، كنت أظن أنها خبت وانطفأت في زحمة  
الذكريات البشعة. والشموع... نعم الشموع وحوار جسدينا، أنا  
وجوليا، يذكرني بـ (حياة) القديسة - العاهرة التي علّمتني كيف  
أروّض جسد المرأة مقابل أن أصغي إلى قلبها، وهو يتمزق  
ويتبدّد في العتمة رويداً رويداً إلى أن تبددت معه كخيوط دخان

وخلّفتني في شوقٍ اضطراريّ إليها.

في الليلة الأخيرة، كان جسدها شهياً - أو هكذا صوّره لي  
النبيذ والحزن - إلى درجة أنّ مجرد تأمّله يحقّق شهوةً من نوع ما.  
عندما انتبهتُ إلى أنّ موجة من الصمت ابتلعتنا معاً أخذتُ يدي  
واحتضنتُها بشهوانيّة. كان العالم يتمايل كأنّ الثور قد ملّ هذه  
الأشكال السخيفة التي تنام تارة فوق قرنه الأيمن وتارة فوق قرنه  
الأيسر. علّتُ شهقاتها وزفرائها حين انحدرتُ أصابعي لتكتشف  
تخوم الوجع اللذيذ في جسدها وتوجّعها، وقرأت الغبطة في  
أساريرها وأنا أدنو من شفّتيها المتوقّدتين، لكنّ الذكريات عكّرتُ  
صفو اللحظة، إذ انبلجت، ولا أدري لماذا، صورة الحسين وهو  
يرمي ثيابه خارج منزله بعد هلاكِ صفيّة زوجته.، وابتلعنا  
السريّر. حين تمدّدت فوقها شعرت كما لو أنّي ممدّد فوق صفيح  
ملتهب يلسع. حاصرتها أكثر، فتسارعت أنفاسها وأغرقت أصابعها  
في شعري وسحبّني إليها وغبّنا في قبلة عميقة.

وأنا أقبلّها، عاودتني حلاوة حبّة التين - اللعنة، كنت  
أستشعرها كما لو أنّها دم يملأ فمي، وكانت الحلاوة تحتدّ كلّما  
التحمت شفاهنا أكثر، كنت فعلاً أتخيّل فمي دامياً أشبه ما يكون  
بأفواه مصّاصي الدماء، وخفت وأنا أمرُّ بشفّتيّ على سفوح نهد  
نوميديا أن تتدفّق من فمي دماء الشهيد، فأخّر مغشياً عليّ، واثالت  
عليّ هواجس وخيالات بائسة، وفي كلّ هذا كنت أحارب جسد  
نوميديا المستحيل من خلال جسد جوليا الزائف...

في المواجهة الأخيرة لجسديين، الأوّل لسليلة طروادة وحفيدة  
إمبرياليّ ما، والثاني لإفريقي ضالّ لم يعثر له على موطنٍ قدم في

حياة (مع وقف التنفيذ)، معلقة في انتظار الموت. في هذه المواجهة الأخيرة، كانت جوليا تحتمي بتاريخها الذي يشع في شقرة شعرها وإمبرياليّتها المتوارية خلف وشاح العاطفة والمفضوحة في عينيّ المستعمر والمستعمر على حدّ سواء.. في حين لم أكن أحتمي بشيء. كنت عاريًا أمامها أحتفي برعونة جسدي وغلّيان دمي. أعلم أنني مهما تعرّيتُ أمامها، فلن أكون سوى مراد الذي تريدني هي أن أكونه...

تعاظمت حلاوة اللعنة في فمي إلى حدّ أشعّرتني بالدوار، دوار البحر، وكان يسمع لارتطام جسدينا اصطخاب بحري. في أوج اللذة انتبهت إلى جسدي بذهول. كان في قمة غليانه متورّم العضلات.. في تلك اللحظة بالضبط، أحسست أنّ جسدي يحاول أن يفرغ نفسه من أيّ طاقةٍ كامنة في انتظار الرحيل الكبير، في الوقت نفسه كان وجهه نوميديا وتأوّهاتها الأقرب إلى التوجّع يعكسان عذابات نفسية وجسدية حادة.

في لحظة عصبية، أحسست أنني لن أرتوي مطلقًا، وأنّ نهمي الجنسي لا يزيد إلّا تضخّمًا في الوقت الذي انطفأت جوليا وتلاشت، وأمست أشبه بوسادة مهترئة؛ وظلّت نوميديا تقاوم نهمي بنهم مضاعف وجمالها يطاردني ويعصف بي...

وكان ارتعاش جسد جوليا إشعارًا صادمًا بأفول شهوتها، صادمًا لأنّ عطشي إلى الجسد لم يزد إلّا احتدامًا، تأملتُ - وأنا أعصف جدرانها اللحمية - وجهها الذي كان يتصبّب عرقًا، كان متشّجًا يلهجّ بآلاف التعابير الغامضة.. شعرت أنّ الاستمرار في الزحف فوق جمرها الذي صار يستحيل إلى رماد، قد يؤذيها.

قلتُ - ربّما لأوّل مرّة - بشكل ساديّ: عليّ أن أواصل اجتياحي الجنسي، وإن كان هناك من ثمن يجب أن تدفعه، فليكن جسديًا!

وكنت لأوّل مرّة أمارس الجنس بلذّة يجانسها حزن عميق..

لأوّل مرّة، أودي جسدي إلى ما لست أعرف من جنون..

لأوّل مرّة، يتقاسمني جسدان على سرير واحد، جسدان مستبدّان ساديّان..

لأوّل مرّة، أحسّ أنّ قلبي غريبٌ عني ينبضُ بصخبٍ احتجاجًا على حروب غير محسوبة ورطته فيها..

لأوّل مرّة، تنأى جوليا عن جسدها وتقتصد عليه كأنّها ستعيش أبدًا..

لأوّل مرّة، أستنزف جسدي كأنّي سأموت غدًا..

ولم أفاجا، وأنا أجرف جوليا إلى غياهب شهوتي، أن أراها دامعة.. لكنّ الفجیعة انفجرت في جوفي لحظتها وأخرستني. أخذتها وأنا منغرس في جسدها في عناق حزين، وبكت بحرارة وتعب. بكت فافتنصتني أوهام وأطياف بشعة. وفي قلب انكساري ووجهي يغرق في مخمل شعرها، تهيأ لي أنني أعانق خولة، كدت أبكي وأنا أهمس: سامحيني... سامحيني، أما حين، فككت طباق عيني والتفتُ بذهول إلى شقرة شعرها وهي تلمع على ضوء الشموع، فقد جعلت أفضّ اشتباكنا وأناى أكثر فأكثر عنها عاريًا إلّا من أحزاني..

وتذكّرتُ خولة التي قالت لي ذات فجر إنّ الفجر لا يذكّرها

سوى بمرثية فيكتور هيجو لابنته «غداً فجراً».

واستبدَّ بي شعورٌ فظيعٌ بالقرفِ والغثيانِ، وأنا أغالبُ حلاوةَ  
حبَّةِ التينِ في فمي وعقدةَ الذنبِ التي استيقظتُ في دمي. خولة،  
ضميري لم يصفح لي تورطِي الفاضحَ في قتلِكَ، فهل يعني الأمرُ  
أنَّكَ لم تصفحي أيضًا؟

وكنْتُ أبحثُ في عيني جوليا عن جواب، لكنَّهما كانتا تخفيان  
وراءَ بريقهما الصارخِ أجوبةَ لأسئلةٍ أخرى لم تطرحُ.. خولة أين  
أنت؟ هل من الضروري أن أقفني خطي هيجو لأجدكِ؟ لأظفر منك  
بكلمة من اثنتين «نعم» أم «لا».. كلاهما يعنيان الخلاص.

وأنا أضع ثياباً على جسدي، افترسني دوارٌ صاعق، شعرتُ  
أنَّ أشياء كثيرة داخلِي تتمزَّق وأنَّ الأمر ليس سوى بداية لانحيار  
شامل، احتدَّت لذَّةُ التينِ في فمي وتناقلتُ دقات قلبي وصارت  
أشبهَ بخطوات عجزوز. لمَّا انتهيتُ إلى المرأة، فاجأني سعال حادّ،  
بصقت دماً أو بصقت حمرة حبَّةِ التين.. لست أدري سوى أنَّ  
أوردتي الداخليَّة تتمزَّق وأنَّ سيدي عيسى ربَّما ينزف من  
خلالي...

## (٩)

وأنا أواجه بكائيات جوليا على استكراه، استبدّ بي إحساسٌ بأنني مخدوع حدّ الفجیعة! كنتُ أتمايل كشجرة صفصافٍ تواجه العاصفة. شعرتُ أنّ مسام جلدي، وأنني أمام هذا الانهيار الفجائي قابلٌ للانفجار في أية لحظة. هكذا تنتهي ليلتنا الأخيرة بأكبر قدر من الخسارة والبكاء.

وأنا أبتعدُ عنها، عن جوليا، عن الروح الشرسة والجسد الميت وأتراجع نحو الباب.. لم أكن أرى سوى خولة وهي تضع الشفرة على معصمها المزخرف بأوردة صغيرة خضراء، وتُسلم نفسها إلى نزيف قاسٍ.. أتراجعُ صوب الباب بعد أن انكسرت داخلي أشياء صميمية، تمتمت جوليا بصوت متهدّج:

- إلى أين؟

لم أكن أملك جوابًا محدّدًا، والأدهى أنني لم أكن أقوى على الكلام. كنت أنزف بحدة وأهوي شيئًا فشيئًا، وكان رأسي يضجّ بآلاف

الشخوص والأماكن والأشياء التي تطفو على سطح الذاكرة، وتضمحل بسرعة دون أن تترك لي فرصة استيقافها والغوص في هوامشها. تناهى إلى أذنيّ حادًا كمواء قطة:

- إلى أين يا مراد؟

وكان الليل قد انكسر قليلاً خارج الفندق، والنهار الجديد يزحف رمادياً حزيناً! أما تعبي المستبدّ، فقد كان يجرّني نحو الأسفل تماماً، نحو سقوط مفاجئ. قلت وقصيدة فيكتور هيجو تجثم فوق الذاكرة، هي وعاشقتها، قلت لجوليا والدمع يرقص بين محجريّ ويقتنص ذروة الضعف ليتحرّر:

- سأمضي باحثاً عن حولة.

«وسحبَ مراد الوعل الباب بعد خروجه بقوة.. أحمد يده في جيبه وهو يغالب عبرات اكتظّت بها عيناه. كانت يده ترتجف وهو يقلب المفاتيح بحثاً عن مفتاح الغرفة.. قرّر أن يغلق باب الغرفة بالمفتاح لئلاّ تتبعه جوليا إلى حيث يمضي من جنون. أدار المفتاح في كوة القفل دورتين وسالت من عينيه دمعتان، وشدّ بقوة على الباب في الوقت الذي كانت جوليا تخبط الباب نفسه بقوة وإلحاح.. حين تعبّت، حطّت رأسها على الباب تماماً، كما فعل هو في الجهة الأخرى. لم يكن الباب الخشبيّ وحده ما يفصل عناقهما الأخير، كانت هناك خطايا، هواجس، خيانات، وأشياء أخرى.. بكى كثيراً، بكى كما لم يبك يوماً، بينما كانت معذبته تحرك قبضة الباب حتى كادت تقتلعها، فاض قلبه واستحال إلى بحار وأنهار لا شواطئ لها، وانكمشت الحياة في عينيه وتقلّصت حتى أصبحت أضيق من عين إبرة.

وهو ينزل سلالم الفندق، أحسّ أنّه ربّما لن تتأتّى له فرصة

صعودها مرة أخرى. داهمه شعور مبهم بغرابة الأشياء من حوله، كأنه يكتشفها للوهلة الأولى أو يراها لآخر مرة. كان هذا المنطق المغاير يفرض نفسه عليه بالحاح، لا يملك أمامه إلا الاستسلام للفوضى والعبث، بعدما تشبّث به الخيبة مثلما يتشبّث طفل صغير بثوب أمه. من صفر حياته إلى اليوم، لم تترك طلاقات الموت في روحه وجسده مكاناً إلا وأصابته فيه، لكنّه ظلّ - إلى حدود الأيّام القليلة الماضية - شامخاً متماسكاً لا يأمل إلا في الاستمرار بأقلّ قدر من الخسارة..

لكنّما الآن...

فقط الآن، تأكّد بما لا يدع مجالاً للشكّ أنّه لن يشفى من جراحاته. في ليلتهما الأخيرة تأكّد أنّ جراحه استحالّت إلى أورام سرطانية، لا هي تقتله وتريقه ولا هي تدعّو شأنه، تنهشه باستمرار وتوجّل ضربتها القاضية دائماً.. الآن صار مطالباً ببطولة زائفة بعد ممارسته للفنّ الصعب - كما أسماه نيتشه - فنّ الرحيل عن الدنيا في الوقت المناسب ورّدّد:

«Demain dès l'aube a l'heure où blanchit la compagne

Je partirai. Vois tu? je sais que tu m'attends.

J'irai par la forêt, j'irai par la montagne,

Je ne demeure pas loin de toi plus longtemps».

- لم أعد أقوى على المكوث بعيداً عنك وقتاً أطول يا خولة،

- لكنّ الطريق إليها صعبة ومحفوفة بالخطر والموت..

- وإن يكن.. تعوّدت عليهما.

جوّ مكهرب خارج الغرفة لا ينذر إلا بالشؤم.. ماء سوداء تزمجر وزخّات مطر تبعث في روحه الطفولة طازجة لم تفسدها يد الزمان،

ولم تسعفه يداه المرتجفتان على سدّ أزرار القميص، فظلّ صدره عاريًا في مواجهة الحزن والمطر..

في الوقت الذي خطى مراد الوعل خطواته الأولى خارج الفندق، باغتته أوجاع جديدة وأخرى خالها انطفأت في سديم الحياة، ما أسعدك يا سيزيف - قال في سرّه - على الأقلّ لصخرتك حجم ووزن مميّزان، كنت تعرف جميع أبعادها، ولربّما ألّفت ثقلها وتعبها، أمّا أنا فصخرتي لامرئية وتتضخّم كلّما تدرجّت نحو الهاوية..

الذكريات تكبر وتتناسل بسرعة، إذ يستفزّها مطر إغرم الأوّل، وتسرّب روائح الأرض الظمأى إلى خياشيمه، فيكبرُ فيه أوداد إلى درجة تحجبُ عنه نداءاتِ جوليا المتكرّرة من الشرفة، وهو في كلّ هذا يصيخ السمع إلى أوصاله وهي تتمرّق بشكل نهائي وحاسم. كان جنونًا منه أن يلتفت إلى نداءاتها المتتالية وتوسّلاتها إليه بالرجوع، وكان جنونًا منها أن تنسحب إلى الشرفة عارية مثلما خلفها فوق السرير. التفت إلى طريق لم تكن يومًا طريقه، واثقًا من أنّ الموت والحياة ما هما إلّا وجهان لحزنٍ واحد. وهرولاً هربًا من صوتها، وكانت صيححتها الأخيرة:

## JE T'AIME -

هي آخر ما تناهى إلى أذنيه، أيّ حبّ هذا؟! لا شكّ أنّه حبّ على طريقة «ديك الجنّ» الذي من فرط حبّه أحرق حبيبته، ومن رمادها صنع قدحًا ظلّ يشرب فيه الخمر ويعانقه كلّما اشتدّ به الحزن والحنين.. جوليا، بطريقة أو بأخرى، مثل ديك الجنّ، لكنّها تريد أن تجعل من رماده رواية تكتبها لوحدها، وربّما تقرأها لوحدها!! أهذا هو الحبّ؟ سأل. ثم أجاب: تبّا له إذن، وتبّا لك أنتِ التي لم تعشقي

يومًا سوى نفسك! أمّا أنا، فلا أعدو أن أكون بالنسبة لك أكثر من مشروع رواية ناجحة تحاورين بها الشرق وتحرّشين به، وربما تختبرين مدى آدميته.

انتابه قلق صاخب، وهو يلتفت إلى الطبيعة وتقلّبها بعين طفولته، وصدره عار أمام طيش المطر الذي لا يزيد إلا حدّة... وأصوات الرعود تزمجر بعجرفة وغبطة اليوم الأوّل، والمطر، حين يحلّ بإغرم بعد صيف طويل، لا يكون كباقي أمطار السنة. وحين يهلّ، فليست الأرض وحدها من تتأثر به، بل أهل إغرم وحتى حيواناتها كذلك.. يتتاب الجميع ذلك الشوق الممزوج بلذّة وحزن مبهمين، لذلك يكونون أقلّ سخطًا وإن كانوا أقرب إلى العزلة والانطواء... أوداد لم يكن مثلهم، كان يجهش بالبكاء ويلسه الحنين إلى ما ليس يعرف كلّما أقبل المطر الأوّل، ورأى آيت مرغاد يتدحرجون صوب بلاد أخرى أبعد... تحت هذا المطر الدافئ، وفي مواجهة ذكرياته كاملة ودفعة واحدة من اليوم الذي امتلك فيه وعيًا، بأنّه ليس أفضل حالاً من حطب التدفئة، وأنّه مقطوع من شجرة، إلى اليوم الذي اكتشف فيه أنّ جوليا تدسّ في دمه ما يستثير جنونه ويعجّل موته...

خولة، في طريق البحث عنك، كان أوداد الوعل الصغير الذي نسيته ها هنا يكبر فجأة داخلي، يلتحم بي دون أن يمهلي فرصة ترتيب فوضاي الداخليّة، باغتني براءته وشقاؤه الأزليين.. إذا فسدت طفولة الإنسان، فلن تكون حياته بعد ذلك سوى امتداد أكثر مأساويّة لفساد البداية..

في الطريق إليك يا خولة.. التجأت إلى شجرة صفصاف عالية تتعرّى من أوراقها، وتستسلم للرياح في حزنٍ، أقلّ ما يُقال عنه إنّه بارد، ولم أكن أفضل حالاً منها، أنا الذي كنت أعتقد أيّام صباي أنّ

للشجر مثل البشر إحساسًا بالحزن والخيبة وضيق الأفق...

قديمًا، كنت أملك من الأمل ما يكفي ليشيني عن هذا الجنون..  
قديمًا، كنت مؤمنًا حقيقياً بالمستقبل، قلتُ كلُّما كانت البدايات دامية  
قلتُ احتمالات النهايات المأساوية. قلتُ، لا يمكن للسماء أن تعاقبني  
صغيرًا وكبيرًا... قلتُ كلامًا كثيرًا كهذا، وأنا وغل صغير يقف على  
حافة الانتحار، قامرْتُ بالخلاص إيمانًا بالمستقبل.. جرَّبته فيما بعد  
وخبرته عن كذب.. ربِّما حقَّقت أشياء ماديَّة زائفة، ولكنني أدميتُ في  
الطريق إلى هنا أحبائي وأعدائي على حدِّ سواء.

سأستقبلُ موتي ها هنا بشجاعة خذلتني أيام أوداد، مخطئ من  
يظنُّ أننا نموت حين تُزهق أرواحنا! لا. نحن نموت بالحياة وفي  
الحياة لكن بشكل تدريجي ومتقطع. تقتلنا عذاباتنا وأحزاننا شيئًا  
فشيئًا، ويأتي الموت بمعناه الشائع ليتوجَّ كلُّ هذا بضربة قاضية، ومهما  
كانت قاسية فإنَّها لن تقتلنا أكثر ممَّا قتلنا حياتنا الحزينة.

شهيق وزفير متواصلان وقلب يرقص على إيقاعات إفريقية  
مجنونة، والمطر والضباب الكثيف لا يزيدان الطريق إلى القمة إلَّا  
وحشة.. ضباب يشعرني بمرارة كأنني تائه في صحراء مترامية  
الأطراف.. فجأة - نعم كان الأمر مفاجئًا وصادمًا - باغتتني نوميديا  
وحصانها، لكن سرعان ما ابتلعهما الضباب، استوقفتني الدهشة،  
فركُتُ عينيَّ غير مصدِّق ما رأيت، وصرختُ: نوميديا... فارتدَّ إليَّ  
الصوت هُنا مجروحًا! الصدى ليس مرآة الصوت وحسب بل مرآة  
الروح كذلك!! وصرختُ باسمها مرَّة أخرى، فارتدَّ الصدى وأردفه  
سهيل الحصان قويًّا وصاخبًا، كأنَّه يصهل داخلي. هرولت صوب  
الصوت، بحلقت في الضباب طويلاً، لكن دون جدوى.

نوميديا... آه نوميديا.. أيُّ سماءٍ، أيُّ قدر كفيفين أرسلاك الآن إليَّ؟ أيُّ وجع قذف بك في طريقي؟ خذيني إليك أيتها البهية القاسية الجمال، أو دعيني أواجه مصيري بشجاعة. وصرخت: نوميديا! فلم تجبني غير الرعود وصهيل الحصان.

أحببتُك أيتها الخرساء الجميلة حتى احترقتُ، وأحسنيت أنت استغلال هشاشتي العاطفية.. هذا كلُّ ما في الأمر. لكنني تورطتُ في هذا الحب الجارف إلى درجة تجعلني الآن أشدَّ تمسُّكًا بالخلاص، الذي أنشده على عتبات الهاوية، أدركتُ الآن أن لا حاجة لي بحبِّ أكبر من واقعي وحقيقتي..

نوميديا.. هبيني نظرة ولو أخيرة لأحفظ أدقَّ تفاصيل وجهك.. هبيني شيئًا من جلال صمتك لأواجه موتي بخشوع، دعي وجهك يكون آخر وجه أراه، علَّه ينسيني خطايا الوجه الذي قبله..

ضباب كثيف جدًّا، وأنا لم أعد أعلم إن كنت لا أزال وفيًّا لطريق طفولتي أم أنَّ نوميديا جرَّت خطايَ إلى طريق آخر. لا زلت أقاوم تعب الركض وأستهلكُ ما أبقت منِّي الليلة الأخيرة من جسد. سقطتُ على وجهي في إحدى شعاب الجبل وأنا مأخوذٌ بسيِّدة الحصان، ووجدت صعوبة في لملمة جسدي الذي تشظَّى كثيرًا. وانفجر دويُّ الرعود الغاضبة واندلع المطر بتوحُّشٍ وحرارة، بالكاد استطعت الوقوف. وحزنت كثيرًا وأنا أجهشُ باسمها.. نوميديا! واصلت المسير غير مبالي بأوصالي التي كانت تقطع آخر الأسباب التي تربطها بالحياة، نوميديا أننتِ جنَّة الوادي كما زعم الفقيه! هل أصدقاء طفولتي الذين رُبطتُ مثلهم إلى شجرة التين العجوز قد أصيبوا بكِ مثلما أصبتُ؟ كم أتمنّى أن يكون الأمر غير ذلك... كم أشتهيكِ لحماً ودمًا وحبًّا!!

نوميديا.. ألم تلتقي في فجاج الجبل الخلفيّة بجميلة اسمها خولة؟ سأبحث عنها، سأفعل ذلك.. لقد أسرفتُ في البحث عنها في عالم الأحياء، وآن الألوان لأعثر عليها في عوالم الأموات. نعم، ما دام الحياة أو الموت هما كلّ اختياراتنا. نوميديا، تعالي فقد فاض بي الكلام وآن لصمتك أن يصغي لحكاية حزينة، عنوانها العريض «خولة». تعالي!

وانفجر هزيم الرعد صاحبًا مدويًا.. تأملت السماء المشحونة بالأسى والغضب، وأنا أقتفي آثار أوداد وخطواته بعد أن مرّفته الخيبة ككسرة خبز، ولم يجدُ أمامه سوى هذه الطريق الطويلة. يتّبع وجعه الذي قاده - مثلما يفعل بي الآن - إلى مشارف الهاوية السحيقة. المطرُ يهطل بقوة وإصرار كلما تقدّمتُ خطوة أخرى نحو الأعلى، هضاب فوقها هضاب ومنحدرات حادة قصيرة تستتبع مرتفعات، أجدُ مشقة كبيرة في صعودها. كانت الطريق نحو القمة محفوفة باحتمال موت فعليّ، لكنني كنت منشغلًا عنها بهذه الرائحة، رائحة الأرض وهي تتسرّب إلى أنفي، ومأخوذًا كنت بالمطر الذي يغسل جسدي من كلّ زلاته وأخطائه.

كنت أبتعدُ أو كانتُ إغرم تبتعد، لا فرق. إني أراها غارقة في نومها وهدوئها، لا شيء يوجع الهناء الذي طالما تفيّأت بظله مذ أرادها أهلوها ألا تكون شيئًا آخر غير إغرم، وأن تحفظ نسلها من الغرباء أمثالي.. «الذين إذا دخلوا قرية أفسدوها...» وتمنيتُ والوجع يفطر قلبي لو أنّ إغرم تتكلّم، لو تفصح عن جملة واحدة ولتصمت بعدها للأبد، تمنيتُ لو أنّها تخبرني عن نوميديا شيئًا، عن هذه الملكية الأمازيغيّة الهاربة من كتب تاريخ لم يكتب لها أن تُكتب!! تمنيتُ أن تقول لي أين هي هذه الجميلة التي انسابت دفعة واحدة في القلب ولم

تترك لي خيارًا آخر سوى أن أحبّها وأن أجنّ بسببها.

وانفجرت الرعود مرّة أخرى بقوة مجلجلة، كان صوتها قاسيًا  
عَصَفَ بقلبي الهشّ، فجعلتُ أركض وأصرخ ملء جوفي:

- نو... مي... د... د... يا

فيعود إليّ الصوت واهنًا، نوميديا.. أيّها الوجد الذي كسر الروح  
والقلب معًا، كيف ابتلّني الحياة بك فلم أدرك أنك وهم، وأدمنتك  
كأنك ستعيشين لي دائمًا؟ أفلست إذ أفرغتُ أمامك ما في جيوب  
القلب من حبّ، وتركنتي بعدها فارغًا إلّا من خيالي وأشواقي المعلنة!  
نوميديا.. كنتِ أملًا زائفًا تمسّكتُ به علّه يقيني الخيالات المتواصلة،  
لكنّك تخليّت دون أن تستأذني عني لأعشق بعدك الانتظار وأرشف  
علقمه على مضض دون أن أظفر منك بنظرة!

المطر سيّد هذا الصباح الغريب! كلّ الأشياء من حولي تبدّل،  
أتطلّع إليها كما لو أنني أكتشفها للوهلة الأولى أو أودّعها.. حين  
أدركتُ إحدى شجيرات العرعار المتناثرة هنا وهناك بغير انتظام،  
فاجأتُ سرب حمام برّي فانسحب كلّ منها دفعة واحدة ورفرف دونما  
معنى وفي كلّ الجهات، استوقفتني الدهشة للحظات، لكنّني عدتُ إلى  
الجزري نحو القمة.. كان المطر قد بلّلني تمامًا، ومع كلّ خطوة كان  
شعري الأسيب الطويل يعلو لتتضح لي الطريق ثم يسبلُ على عينيّ. في  
الطريق الشاقّة إلى القمة، امتلأتُ بالطفولة والحنين إلى كلّ شيء،  
لكنّما الآن كلّ شيء ينهار ويتلاشى كدخان سيجارة. منذ حوالي الثلاثة  
عقود شقّ هذه الطريق - التي لا يشقّها عادة سوى آيت مرغاد - أوداد،  
أو أنا الطفل، بعد أن هزمته الحياة مثلما هزمتني، وبلّله المطر مثلما  
بلّلني، لكنّه كان أقلّ تعبًا منّي وأكثر إيمانًا بالمستقبل، أمّا الآن، فقد

شاخ أوداد الوعل داخلي، هرفنا معاً، أو كلُّ على حدة، المهم أننا لم نبتعد عن القدر المسطر لنا سلفاً: الهزيمة.

المطر، هذا السيّد الضيف، يخبط جسدي بالراح كأنه يستوقفني لكي لا أصل إلى حدود السماء التي لا تُمسّ، وكنت كلما تطابقت خطاي مع خطى الوعل الصغير الذي مرّ ذات يوم من هنا، اخترقني الذكريات محرقة، وأتت على كلّ أعضائي اليابسة.. خطاي التي تدرع الآن هذه المرتفعات لم تتعب، لكنني تعبْتُ. عندما بدأ الضباب ينشع، أو على الأقلّ ينحسر وينسحب إلى الأعلى، بدا الجبلُ أشبه ما يكون بعروس ترفع بكلتا يديها ثوب زفافها الأبيض، وبدت إغرم ومنازلها الطينية المسيجة بالحقول جنة سقطت سهواً من السماء، لحظتها، أدركت أنني لم أكن يوماً من هناك، وإني - وإن كبرتُ فيها - لم أكن جزءاً منها، كنت دخيلاً أو هكذا أرادني. أحياناً لا نسكن المكان إلّا بالقدر الذي يختاره هو، لا نسكنه إلّا ذا تقبلنا وتبنّانا، وإغرم لا تقبل غير أهلها ولا تتسع إلّا لهم. حتى الرجل الذي بنى الفندق وجعل النهر فاصلاً بينه وبينها، كان على ثقة أنّ إغرم لا تقبل الغرباء وسرعان ما تلفظهم، كان متأكّداً أنّ لها حدوداً يصعب اجتيازها دون خسائر.

المطر نكأ جراحاتي وأدمايني، وتغلغل برده القاسي إلى أعماق عظامي، لكنني واصلتُ المسير. اخترقتُ الضباب الذي يسربل الأعالي مرّة أخرى، فنهشتني وحدة قاتلة وعُصّني ألم حادّ في رأسي أثقل خطواتي. ترتحتُ ذات اليمين وذات الشمال إلى أن سقطتُ مكدوداً على ركبتيّ. كلّ ما كنت أرجوه لحظتها إلّا يعاودني الرعاف فأسقط مغشياً عليّ... لي طريق ولي هدف وخولة في انتظاري، لملمت جسدي ومضيت، صهل الحصان، أحسستُ بوقع حوافره قريبة جداً،

بحلقتُ طويلاً في الضباب، تغلغلْتُ كوجع في أمواجه الشاسعة اللامتناهية. انتبهت إلى العزلة الحادة التي أقبع داخلها، التفتُ إلى أُنّني وحيد ققبر منسّي، فاعرورقتُ عيناَي بدمع ساخن انساب بعفوية، وأزاح في طريقه البرودة التي كانت تغلّف ملامحي ..

في البداية، كان هناك مغفلان أرعنان أنجباني خطأ، نعم. ربّما هذه الرواية الأكثر ترجيحاً وفي النهاية - نهاية دورهما المشترك الجبان - أسلمانني إلى البداية، بداية حكايتي. في البداية، كنتُ قطعة خشب صغيرة مقطوعة من شجرة وملفوفة في بياض، كنت غارقاً غرق يوسف في جبّ الآفاق المجهولة. وما بين ألمي لهذا الوجع الأولي وبين انتظاري لسيّارة تمدّ لي حبل النجاة، كنت أصيخ السمع لضوضاء حياتي التي كانت تتقدّم نحوي بثقة. لو أنّني متُّ يومها جوعاً أو عطشاً قبل أن تدركني يدا امحمد الخشتين لاستحلتُ - كما يقولون - إلى ملاك صغير، لكنّ الأقدارَ بعثمتها المستبدة كانت تسطّر لي خلسة مشاريع حياة متناقضة وبائسة ..

بغثة... وكما يحدث لغريق تصعدُ جثته ببطء إلى سطح بحر هادئ، رأيت في سديم الضباب أطيايف أشخاص ودوابّ تبدو حيناً ويطمسها الضباب حيناً آخر. توقّفت، كفكفتُ دمعاتي التي امتزجت بالمطر. فكّرتُ، ربّما هم رُسل الظلام، وها أنذا اقتربت من جحرهم أو معسكرات تخريبهم، توعدوني وها قد جثتهم وسهّلْتُ عليهم المهمة، حيث يستطيعون طمس كلّ الأدلة التي قد تورّطهم. ها أنا عاري الصدر أمامكم وإن كان ضرورياً أن يقدّ ساطور أو مديّة لحمي، فليقدّه من قبل، لأنّني أريد ميتة شجاعة تليق بصبري على حياتي الفاشلة منذ بدايتها ..

عندما اقتربوا أكثر، دون أن يفصح الضباب عن ملامحهم، فكّرت

ووضعت تصوّرات بائسة لموتي المحتمل. ما هي إلّا رصاصة في الرأس أو طعنة في العنق تمامًا في الشريان الأكل، حتى تنفجر الدماء صاخبة وأنتهي. لكن شيئًا من ذلك لم يحدث. سرعان ما تبددت جميع مخاوفي وأيقنتُ أنّ شطحات الخيال تصوّر للإنسان ما يريده أو ما يرهبه، لا ما هو حقيقي. لم يكن ذلك الموكب القادم من علي موكب الظلام، بل قافلة الرّحل العائدة إلى صحرائها. تفحصتُ طويلًا وجوههم عندما كان الظلام يلفظهم واحدًا واحدًا، هم أنفسهم الغجر الذين يضيئون ليل الجبل، تحلّقوا حولي، تأملت أكثر وجوه الرجال الخشنة اليابسة، وبحث كثيرًا عن عيني نوميديا في عيون نسائهم اللواتي كنّ يتلفعن في أثواب كثيرة الألوان، وغبتُ وأنا أتتبع بدقة تفاصيل أوشامهنّ أو أصيخ السمع إلى أجراس حليهنّ حين يتحرّكن! سألت بالأمازيغيّة والكلمات ترتجف في فمي من البرد والكآبة:

- ألم تلتقوا في طريقكم بفتاة حسناء تمتطي صهوة حصان أسود؟

لكن، لم يجبني أحدٌ. استجديتُ عيونهم أن تفصح عن كلمة، لكنّها كانت فارغة إلّا من براءة مُلغِزة. شعرت أنّي فعلاً بدأت أفقد صوابي، راقبتهم طويلًا وهم ينفضون من حولي ويتخلّى عني الواحد تلو الآخر ملتحقين بالقافلة.. هكذا مرّوا بي دون أن يتركوا لي أملًا ولو كاذبًا. حين ابتلعهم الضباب بصفة نهائية، وقتها فقط صهل الحصان من مكان قريب جدًّا.. جُنّ جنوني وأنا أصبح ملء السماء:

- نو.....مي.....ديا

وكان صوتي يعود إليّ هذه المرّة أشبه ما يكون بقهقهات هازئة، والألم يهتصرني ويمشي في أضلعي كنصل حادّ، لم أكن أملك أمامه

سوى ذبالة من الصبر ومواصلة هذه الرحلة إلى منتهاها. . . إلى  
منتهاى.

في الطريق إلى القمة، التي لا تفضي إلا إلى هاوية سحيقة،  
سقطت مرارًا ورأيت أوداد يمرُّ أمامي ويسبقني، رأيت تعبهُ وأوجاعه  
يتضحّمان فيَّ الآن، أنا الذي لم أكن سوى امتدادٍ أكثر تراجيديّة له.  
في طريقي إلى الموت، رأيت شريط حياتي يمرُّ أمام ناظريّ، ولا يترك  
لي ولو فرصة أخذ أنفاسي. . رأيتني أتحوّل من قطعة خشب ملفوفة في  
بياض إلى وعل ذي قرون عالية متشابكة، جرّته يد باردة إلى المدينة  
بعد أن غيّرت اسمه قليلاً، فتحوّل من أوداد إلى مراد، وبعد أن أحرّقه  
كلّ شيء استحال إلى جمرة حزن دائمة الاحتراق.

وكما يحدثُ لذاكرة المخدولين، كانت ذاكرتي تسرع في عرض  
بعض الذكريات إلى أن تصل إلى أشياء أكبر منها، فتتوقّف وتغوص  
فيها وتستجلب أبسط التفاصيل وأنفثها أحياناً. . . هكذا فعلتُ عندما  
استوقفتها خولة، راقبت انبلاجها الحزين من خروم الذاكرة. تتبّعُ  
تفاصيلَ بسمتها الرقيقة وأدقَّ حيّثيات خزرتها حين يستبدّ بها الشجو.  
تذكّرت استسلامها البريء للحبِّ وبهاء طلّتها وضوضاءها الجميل حين  
يوحّدنا السرير، هذا وحده كان كفيلاً بأن يفجّر الأسى داخلي ويقف  
غصّة في جوفي ويشعرني بانقباض داخليّ مريب، لم تكن نوبة البكاء  
التي عاودتني سوى نتيجة له.

عندما اقتربت كثيراً من الهاوية، انتبهتُ إلى النقط الدموية التي  
كنت أخلفُها ورائي. آه. . هو رعا فآخر، رعا فآخر، نزفٌ يشقّ  
طريقه نحو الأسفل ويجرّني معه. نزعت القميص ووضعتُه على أنفي  
وبقيت عاريًا بوجه البرد والمطر والذكريات. .

وأخيرًا..

بلغت القمة التي ما بعدها سوى هاوية سحيقة، ووقفت مأخوذًا بقلعة الرومي من فوق. كانت، هذه القلعة التي لا يدري أحد كيف ألصقت بالجبل. يبدو منظرها بشعًا من فوق، على الرغم من أن منظرها من تحت جميلٌ إلى درجة تستثيرُ الرهبة والخوف في قلب رائيها. ترى فيما تختلف جوليا عن بانيها، الذي كان يصيدُ الأدميين ببندقيته من حصنه الحصين هذا.. لا شيء، فقط ليثري مرويَّاتهم الكبرى عن الشرق، جوليا أيضًا - وإن اختلفت الأساليب انسجامًا مع روح العصر - صادني باسم استكناه الشرق، لست أدري عدد طرائدها قبلي.. كلّ هذا لتثري حكايتهم الكبرى عن الشرق.

طرحت القميص جانبًا وتركتُ لدمي حرّية أن يفرّ مني ويسيل دون انقطاع. ما كان كان ولم يعدْ أمامي سوى حسم معركتي مع الموت قبل أن يحسم النزيف معركته معي. تذكّرتُ نزيف خولة وأوجاعها بسببي، وفي قمة العياء الذي تفشّى بين أوصالي، تأكّدت أنّ جسدي سيخذلني عند باب الهاوية، وأنني سأميلُ شيئًا فشيئًا إلى الأمام وأقطعُ المسافة بين القمة والسفح في أجزاء من الثانية! شعرتُ ربّما لأول مرّة أنّني أبتعدُ عن ضوضاء حياتي، وأستسلمُ للنزيفِ بهدوء وشجاعة..

ولأنّ الحواسّ، ربّما عندما تشرع في الانهيار، تبدأ في إصدارِ ضجيجها الخاصّ - لست أدري إن كان ما سمعته بغتة صوتًا حقيقيًا أم بهيأً لي فقط! كان صوتًا أنثويًا رقيقًا لا يذكرني سوى بخولة، يناديني: مراد، أو أوداد، لكنني لم ألتفت حتى

عندما داهمني ذلك الدفء السحري في ظهري، وألهب الندوب التي خَطَّتها صَفِيَّة، كنت مفتوناً بأشعة الشمس وهي تتمدّد بلا مبالاة وتجرف، أو بالأحرى أراها تجرف في طريقها إليّ كلّ شيء، كانت هي الأخرى أملاً زائفاً، لكنّه لذيذ. تطلّعتُ إلى الأسفل، إلى الهاوية، وأنا أتَّبِعُ صوتها القاسي الرقّة. كانت تنادينني فيتردّد الصدى داخلي. تمايلتُ دون أن أفقد توازني، كان دمي لا يزال يتدفّق بغزارة من أنفي وتستوقفه قليلاً شفتاي، يتسرّب إلى فمي فيوقظ داخلي حلاوة حبة التين. وأنا أقف في القمة ونصف قدميّ في الفراغ، كنت أنامل قطرات الدم وهي تهوي وتختفي بسرعة.. كانت تُضعفني بشكل أسرع.

تلاشت أحزاني شيئاً فشيئاً وأنا مستسلم لنداءات خولة. كنت أحسّ بارتخاء لذيق أجمل من ذلك الذي ينتابني عادة عندما أكون بحاجة ملحة للنوم، تطلّعتُ إلى الأعلى. كان قوس قزح يرقص فرحاً وتتبعُ بغبطة وغلاً في الجهة المقابلة للجبل، كان يصعد الجبل بسرعة ومهارة متقنين، كما لو كان خائفاً من شيء أو هارباً. تعانقت ألوان قوس قزح في عينيّ، كان كلّ شيء يتأكل فيّ ويتبدّد.

وفي تلك اللحظة بالضبط، التي أطبقتُ جفنيّ متأكداً أنّي لن أفتحهما إلّا ميتاً... في تلك اللحظة بالضبط، التي كنت فيها أقرب للموت منه للحياة سمعت - أو تهيأ لي أنّي سمعت - طلقة نارية لم أعرف، إن كانت قد استقرّت في جسدي أم في جسد الوعل.. جلّ ما كنت أعرفه لحظتها، أنّي لن أستيقظ من غفوتي إلّا وجسدي ممدّد فوق جنادل الوادي.

## مع مسودات رواية «مراد الوعل» لجوليا (ك)

«مراد كان رجلاً معداً للموت سلفاً، أو على الأقل هكذا فكّرْتُ  
أوّل ما قرأتُ ملفّه. . كان ضباباً كثيفاً ومظلاً، لا تجد اللغة مدخلاً  
لافتضاضه أو فهمه، لكنّه كان رجلاً حقيقياً، كلُّ ذنبه أنّه اختار الحياة.  
لكن ما نفعها الحياة إذا كانت أسباب الموت قد اختارته! كان مراد -  
أو أوداد - أشبه بقرص أسبرين فوّار في كوب ماء، تحامته الحياة  
وأكلتُ منه (وأكلتُ منه أيضاً) وكان هو في كلّ هذا يضمحلّ ويتلاشى  
إلى أن اختفى فجأة.

- هل كان عدلاً أن ينتهي بهذا الشكل السريع؟

سألْتُ طبيبه النفسي الحقيق، فأجاب:

- وهل مات فعلاً؟

كان كلّ همّه أن يضع اللحد على قبر مراد، ويتخلّص من ملفّه،  
أو على الأقلّ ليبراً من هواجس أيّ متابعة قانونيّة محتملة، أجبْتُ:

- مراد لم يمت ولن... ذلك الوعل لا يموث، يضع دائماً

خوافره على شفير الهاوية، لكنّه يقاوم إغراءاتها بنزق، لنقل ولو مجازًا  
إنّ مراد تبخّر، اكتنّظ به الموت فانفجر واستحال إلى كلمات وجمل لن  
يقوى أيّ كان على تأليفها دون خيانتة . . .»

«ولا أنفي كذلك أنّي تورّطت في أشياء أخرى بغرض التضخيم  
من مخاوفه وإضعافه، وتحسيسه كذلك بالخطر الدائم الذي قد يداهمه  
في أية لحظة. فبعد أن قرأت في ملفّ طبيه النفسي أنّ صديقه الوحيد  
قد قضى نحبه في تفجير إرهابي، ووجدت أنّه كان يساريًا سابقًا، وأنّ  
كتاباتهِ فيما بعد كانت تتحرّشُ بالإسلام السياسي علاوة عن أنّه تلقى  
بأشكال غير مباشرة تهديدات إرهابيّة، لا تصلُ حدّ القتل، فقد آثرتُ  
أن أحرّض عليه شبح الإرهاب، لعلّ الأمر يكشف لي عن جوانب غير  
معروفة في شخصيّته، وربّما تمنحني مخاوفه الخيط الرفيع الذي أنفذُ  
منه إلى أشياء أخرى. الآن أعترف يا حبيبي بالآتي: أنا التي رسمتُ  
حروف التهديد على صخور الوادي بالطلاء الأحمر، وأنا من قذفتُ  
ببرقيّة التهديد من الشرفة إلى باب الفندق بعد أن وضعتُ عليها  
اسمك، فأوصلها إليك حميد، وأنا كذلك من وضعتُ في مذكرة  
حبيبتك قصاصة ورق تحوي تهديدًا، وأنا من استأجرتُ مجرمًا وطلبتُ  
منه - بعد أن أعطيته مفاتيح غرفتنا - أن يتحيّن فرصة غيابك عن الفندق  
ويقلبها رأسًا على عقب ويشنق أحد كتبك بمسمار فوق دورة المياه  
ويخطّ على المرأة بخطّ أحمر تهديدًا آخر. أنا التي من فرط ما أحببتك  
اشتيتك بين قدميّ ضعيفًا، وأنت الذي من فرط ما جرّحتك الحياة لم  
تترك لي مكانًا لأجرحك فيه، فكنتُ أخطّ جرحًا على جراح أكبر منه،  
ولم تكن تلتفتُ لي. . . لقد جئتُ بي إلى إغرم لا إرضاء لنفسك بل  
إرضاء لي، ولا لأونسك في منفاك الأوّل بل لأنس بك، لم تكن  
تدري وأنت تغدق عليّ من فيضك أنّني أذبحك من حيث لا تدري،

ولم أكن أدري وأنا أسندك على أسنة شائكة، أنني أذبح بك من حيث لا أدري..»

«كان من المفترض أن يهرب أو يثور، أو على أقل تقدير أن يُطلع السلطات على تلك التهديدات التي تلقاها منهم، لكنّ مراد ظلّ خلف سياج الصمت، وإن كنتُ أقرأ في عينيه خوفًا غير معلن، لكنّ تلك الرسائل التي تكبّدتُ الأمرين من أجل الحصول عليها لم تغيّر فيه شيئًا، كأنما كان يتوقعها، كأنما كان يعتقد أنّ الأمر سيصل بهم حدّ إهدار دمه، لذلك كان يستقبل الرسالة تلو الأخرى ببرود كأنّ الأمر لا يتعلّق بجريمة قتل عن سبق التهديد والترصّد، ظلّ متماسكًا لا يصرّح ببنت شفة فيما يتعلّق بالموضوع، ربّما من كثرة ما تمنّى الموت لم يعد يبالي بأيّ ثوب سيأتيه به. فيه من الشجاعة واليأس ما يكفي لمواجهة أعداءه بصدر عار، ما دام يرى فيهم خلاصًا له. هزمني، لأنّه دون أن يدري إذ قزّم دوري في الحكاية وحرمني من لذة تقمّص دور شهريار كاملاً».

«مارستُ معك كلّ الخيانات الممكنة، وكان الأمر على جنونه مؤثّرًا هامًا على أنّ الكتابة أفقدتني صوابي. هكذا خنتك أيّها الوعل وخنتُ بك، لستُ أدري أيّهما أشدّ وطأة أن أخون زوجي مع حبيبي أم أخون حبيبي مع زوجي؟! عندما تتداخل حياتنا بمشاريع الكتابة عادة ما نصاب بعمى الوفاء، بل وتلتبس الأمور أكثر ممّا ينبغي وتشتدّ أزماننا الداخليّة دون أن يلوح في الأفق خيط أمل ولو كان زائفًا».

في تلك الليلة، التي لا أزال أذكر أدقّ تفاصيلها وأستعيدها المرة تلو الأخرى، كنتُ أفيق على أشواك الانتظار، انتظار انهيار مراد. لكنّه خلافًا لما كان متوقّعًا لم يسقط بل انتفض جسده ولم ينصدع. حين اكتشفتُ فيما بعد أنّه اكتشف الحقيقة تأكّدتُ أنّه هزم موته في تلك

الليلة برغبته العارمة في استنزاف الحياة، وأنه بادر موته بانتحار نفسي استباقي».

«في الليلة الأخيرة، كنتُ أحتفي بجريمتي على طريقتي الخاصة. بعد أن أعددتُ مراد على نار هادئة، قلتُ: ما هي إلا ضربة أخيرة ويروح.. ما هي إلا حقنة وتنصهر عوالمه الباطنية ويتبدد ويتلاشى في سديم من الهلوسات، التي ستجعل أسرارهِ العميقة تتدفق، لكنَّ شيئاً من ذلك لم يكن. كان الأمر مخالفاً لمنطق الطبِّ النفسي، فتأكدتُ ليلتها أنني انهزمتُ، وأنتي كأني مقامر مفلس قد فقدتُ كلَّ شيء، أضعتُ مراد إلى الأبد وفشلتُ في رهاني الروائي الكبير، وأنتي لا أملك الآن سوى إعادة كتابة هزيمتي على يد رجل شرقي..»

أحببتُ مراد ولذلك قتلتُهُ... لا، لم يكن الأمر بهذا الشكل! كان أعقد بكثير..

من هو مراد؟ وماذا يعني بالنسبة لي؟

في البداية، وكلّ البدايات عادة تكون عن حسن نية، كاتبة شابة كنتها، ولكنني قبلها كنتُ طفلة، وكجميع أطفال أوروبا كانت تشحذ ذهني تلك الحكايات الكثيرة التي تصرُّ على كون الغرب سرَّة الكون، وأنه لا يوجد خارجها سوى وحوش بشرية تعيش على الأكل والظلم والجنس. جئتُ إلى هذه البلاد بمنطق أنني سأجد القليل ممَّا زرعته في تلك المرويات.. ظننتُ مثلاً أنني سأجد شهريار يفتersh الحرير والنساء، ولا يستيقظ إلا على جثةٍ إحداهنَّ، لكنني وجدته مخلوعاً عن عرشه ومخدولاً.. خلعتك عن عرشك إحداهنَّ حين أنجكتك ورمتك وخذلتك بعدها الحياة يا مراد، يا شهرياري. أما عني، فقد تقمَّصتُ دور شهرزاد مقلوباً. فبدل أن أحكي شرعتُ في استنطاق حكايتك،

وبدل أن أكون أنا المهدّدة بالقتل دائماً كنت أنت المهدّد . . لكنك يا حبيبي لم تتنازل عن فحولة شهريار، مثلما لم أننازل عن أدبيّة شهرزاد . . كلّ منّا كان يتحرّش بهذه الحكاية الباذخة على وجه يناقضها .

في الوجد الأوّل بعد الألف أو على الأقلّ بعده بقليل، سأكتبك بعيداً عن شهرزاد، لن أقول عنك أشياء كثيرة. سأترك للقراء فراغات جمّة لكي لا يفهموا عنك أكثر من كونك شبّاحاً أو ظلّلاً. أحبّك في كلّ الفجوات الكبيرة التي سأزرعها في الحكاية، وكى يبقى لحياتك وغيابك معنى، لا بدّ أن تستحيل من رجل حقيقي إلى كلمات، ومن كلمات إلى فراغات فجّة!

لكن كيف ذلك؟

لا حرف فيك يطاوعني. كلّ كلمة، كلّ عبارة أحسّها أصغر منك بكثير، أشعر أنّها لا تستحقّك، وكلّما هممتُ بكتابتك، أحسستُ أنّي أكتبُ عن رجل آخر، فأمزّق الورقة وأنصرف إلى شأن آخر. أحبّك، وها أنت تنتصر عليّ مرّة أخرى بعد سنوات، تنتصر بلا مبالاة وبلا غرور تماماً كما تفعل حين تحقّق فتحاً جسديّاً على السرير. تواضعك وصمتك الذي يضمّر ضجّة ليس بمقدور أيّ كان تحمّلها هزمانني . . .».

«الحبّ كلمة عادة ما تطرح إشكالات على قدر كبير من التعقيد، حين نكون بصدد تحديدها أو وصفها. الحبّ حالة ملتبسة جدّاً، ما الذي يجذبنا نحو شخص بعينه؟ أيّ قوّة عنيفة تدفعنا ببلاهة بريئة صوبه؟ عادة - وكان الأمر قبل أن ألتقي مراد طبعاً - كنتُ أعتقد جازمة أنّ ما يوحد شخصين ويسمّونه الحبّ لا يعدو أن يكون مجرد

كذبة متفق عليها تتحوّل مع زمن من الألفة إلى وهم جميل يستلذه العاشقان، فتصير الأشياء بينهما بحكم هذا الأمر مجرد افتعال احتفاليّ يصطنعه اعتياد كلّ طرف على حضور الطرف الآخر. أمّا ما كان بيني وبين مراد، فلم يكن في هذا من شيء، ولم أعشقه بحكم الألفة بل بحكم الغرابة. . لذلك يحقّ لي بعد أن جرت سنوات بينا، وبعد أن عرفتُ بعده الكثير من الرجال، قلتُ. يحقّ لي أن أتوجه حبًّا حقيقيًّا، لكنّه غير كامل وإلاّ كان أسطورة، كان حبًّا من طرفي وحسب ولم يكن الأمر يضيرني في شيء، لأنّ الحبّ - كما صرّحتُ حبيبته في مذكرتها - مسألة شخصيّة وليست بالضرورة تشاركيّة ولعلّ الأمر بالنسبة لي كان على قدر كبير من الإثارة والغرابة أيضًا. الغريب أنّي لم أعشقه بمنطق الشفقة رغم أنّ أسبابها كلّها كانت مجتمعة فيه، لم أشفق على حاله قطّ - ولعلّ خوفه من ذلك هو الذي دفعه إلى التشرنق على نفسه. . حياته بالقدر الذي كانت فيه حزينه، كانت عظيمة وعبئًا ثقيلاً على الدنيا، عشقته لأنّني مذ عرفته أحسستُ أنّه رجل فارٌّ من بين دقّتي كتاب، كانت تصرّفاته وطباعه وانفعالاته وكأنّها تحاكي عبارات رواية ما، كلّ ما فيه كان يحرض على اقتراف جريمة كتابة، لذلك كنتُ معه دائمة الدهشة، مع كلّ حركة، كلّ خزرة، كلّ رعشة سيجارة تحتضر بين أصابعه كانت الكلمات تنزل عليّ دافئة. وكانت تكتبُ داخلي فصول رواية بحالها بمجرد التأمل في عينيه الصافيتين والمتعبتين.

أقول أحبّك يا مراد؟ نعم، ولا زلت. فالحبّ مسألة شخصيّة، لا فرق فيها بين وجودك أو عدمه. .

أقول أحبّك يا ملاكي الشارد؟ بعد ماذا؟ بعد أن عبّرتُ لك عن هذا الحبّ بطريقة ساديّة، أم بعد أن اقتدتك إلى أشدّ مسالك الحياة وحشة. . وأضعنك؟!



تكتب جوليا، العشيقة الفرنسيّة، حكاية مراد، المغربيّ، اللقيط والملعون من قبل أهل القرية التي وجدوه فيها فتبذّ وأسيء إليه بالإهانة والضرب، فلجأ مراد إلى العشق كمحاولة للانتقام من القدر: عشق خولة التي تحمل منه، عشق «نضال» زميلته في الدراسة والعمل النضاليّ، عشق جوليا المُستعمِرة، وعشقه الأخير لنوميديا، الأمازيغيّة الخرساء...

رواية ثريّة بالحكايات التي تنفتح على واقع تاريخيّ وسياسيّ — دينيّ في المغرب.

طارق بكار، كاتب مغربيّ وأستاذ أدب عربيّ.

دار الآداب

هاتف: ٠١ / ٨٦١٦٣٣

٠١ / ٧٩٥١٣٥

ص ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت

تصميم الغلاف رسم الجندري

ISBN: 978-9953-89-481-2



9 789953 894812